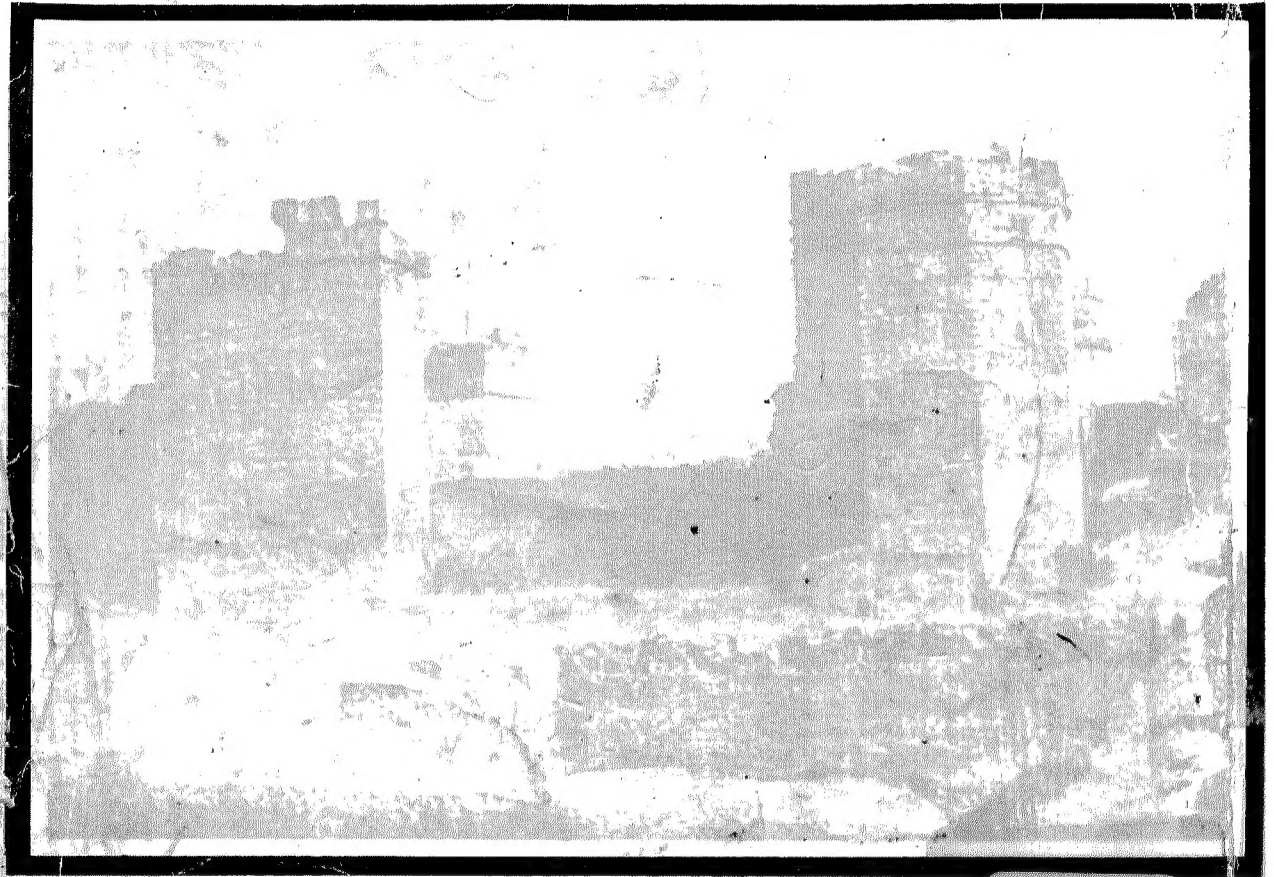


في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس



الناشر
مؤسسة شباب الجامعة
للطباعة والنشر والتوزيع
ت: ٣٩٤٧٢٢ الإسكندرية

منزلة
تاريخ الإسلام
الإسكندرية

0021278



١٩٨٥

تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس

تأليف
الدكتور السيد عبد العزيز سالم
أستاذ التاريخ الإسلامي والمضيق الإسلامي
كلية الآداب، جامعة الإسكندرية

١٩٨٥

المنشور
مؤسسة نسيان للطباعة
للطباعة والنشر والتوزيع
ت ٣٩٤٧٢ إسكندرية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

تتعلق موضوعات هذا الكتاب بجوانب متفرقة من حضارة الاسلام في الأندلس ، وكانت قد صدرت منذ ما يقرب من خمس وعشرين سنة مضت في دائرة معارف الشعب التي كانت تصدرها جريدة الشعب ، تحت مادة « أندلس » ، وذلك في محاولة أولية من القائمين بدار الشعب لجمع كل ما يتعلق بتاريخ وحضارة الأندلس تمهيدا لتنظيم مادتها فيما بعد وفقا لما هو متبع في دوائر المعارف الشعبية ، وقد راعت آنذاك البساطة التامة في صياغة موضوعات هذه المادة لكي تؤدي الهدف منها، فيستوعبها القارئ العادي أو المثقف .

واستمر صدور مواد دائرة معارف الشعب فترة تقرب من أربع سنوات ثم توقفت فجأة ، ولم يقدر لها أن تستمر على الرغم من الانتباه الشديد على اقتناء الأعداد الصادرة منها ، والحق لقد حققت الأعداد الأولى الصادرة من دائرة معارف الشعب ، لاسيما ما يتصل بمادة الأندلس التي صدرت في أعداد ٦١ ، ٦٤ ، ٦٧ ، نجاحاً تجاوز كل تقدير، بحيث لم تمض سنوات حتى نفذت الأعداد الكبيرة التي صدرت منها .

وقد لاحظت أن عدداً كبيراً من طلاب الجامعات المصرية والباحثين في مجال الدراسات الأندلسية وجمهور المثقفين كانوا يقبلون بشغف على هذه الموضوعات بل أن بعض الباحثين كانوا يعتمدون عليها في بحوثهم، الى حد أن بعض الزملاء طلبوا مني ضرورة جمعها في كتاب واحد تيسيراً للرجوع اليها والافادة منها ، بل ان نفراً من المبعوثين العرب في اسبانيا كانوا يستخدمون ما صدر من هذه الدائرة في مجال حضارة الأندلس عند زيارتهم لحن الأندلس للتعرف على ماضيها الزاهر المجيد وآثارها الباقية من العصر الاسلامي .

كان ذلك هو في الحقيقة الدافع الرئيسي من وراء اعادة نشر هذه المقالات في هذا الكتاب . وقد مهدت موضوعات الكتاب بدراسة تاريخية

مقتضبة للغاية عن تاريخ الأندلس ولكنها تكفى للقارئ العادى المثقف أن يطلع على مجريات هذا التاريخ وأبرز وقائعه ، ثم خصصت القسم الأولى لدراسة أشهر مدن الأندلس وأكثرها ارتباطا بالتاريخ الاسلامى ، وقد بلغ عدد هذه المدن ١٥ مدينة ، وراعى أن يلم القارئ المامة كافية بتاريخ كل مدينة والدور السياسى والحضارى الذى لعبته طوال عهدها الاسلامى وأهم الآثار الباقية من هذا العهد بالاضافة الى عرض سريع لنطاقها العمرانى وأهم معالمها وزودت المادة العلمية بخرائط وصور ورسوم توضيحية ، ثم انتقلت الى عرض واف للفنون الاسلامية بالأندلس ، وبدأت بالحديث عن فنون الغناء والموسيقى وعن العمارة الدينية على مدى التاريخ الاسلامى . والعمارة المدنية من قصور وحمامات وفنادق وقيساريات ودور صناعة للسفن وجسور للمياه وقنابر ، ثم انتقلت الى دراسة العمارة الحربية من أسوار وقلاع وقصاب ، واختتمت موضوعات العمارة فى الأندلس بذكر التأثيرات المعمارية فى الفن الاسلامى والفن المسيحى باسبانيا وفرنسا وانتقلت بعد ذلك الى الحديث عن الفنون والصناعات فى الأندلس ، وأتبعها بدراسة الحياة العلمية والأدبية وتأثير الثقافة الأندلسية فى اسبانيا وأوروبا ، وأخيرا تناولت بالدراسة النظم السياسية فى الأندلس ، واختتمت الكتاب بتراجم لبعض الشخصيات التاريخية الهامة فى تاريخ الأندلس .

وبعد ، فأرجو أن أكون قد حققت الهدف من اعادة طبع هذه المادة الأندلسية فى هذا الكتاب ويسرت على القارئ مهمة الاطلاع على تراثنا العظيم فى أرض الأندلس .

والله الموفق

دكتور السيد عبد العزيز سالم

الاسكندرية فى ٩ يونيو ١٩٨٤ م

٩ رمضان ١٤٠٤ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

الأندلس

الأندلس اسم أطلقه المسلمون على شبه جزيرة أيبيريا (إبارية) (١) تعرييا لكلمة « فنداليشيا » التي كانت تطلق على الاقليم الروماني ، المعروف باقليم « باطقة » (Baetica) ، الذي احتلته قبائل الفندال الجرمانية ما يقرب من عشرين عاما ، ويسميهـم الحميري بالأندليش •

وكان نصارى اسبانيا الشمالية يطلقون على هذا الاقليم اسم اشبانية أو شبانية ، نسبة الى مدينة اشبيلية التي كانت تعرف في العصر الروماني باسم « اشباليش » (Hispalis) وكان العرب يطلقون أول الأمر اسم الأندلس على هذا الاقليم الجنوبي بالذات ، ثم أطلقوه عامة على شبه الجزيرة كلها • وعندما بدأت رقعة الاسلام في اسبانيا تتقلص تدريجا ، أخذ هذا الاسم يطلق على الأراضي التي بقيت في أيدي المسلمين حتى اقتصرت تسمية الأندلس على مملكة غرناطة ، آخر معقل للإسلام في شبه الجزيرة •

وقد ذكر أحمد بن محمد الرازي مؤرخ الأندلس أن الأندلس شكلها مثلث يعتمد على ثلاثة أركان : الأول عند قادس ، والثاني بشرقي الأندلس ما بين مدينة أربونه (Narbonne) وبرديل (Bordeaux) ، والثالث ما بين الشمال والغرب من إقليم جليقية (Galicia)

(١) هكذا وردت في كتاب «الروض المعطار» لعبد المنعم الخيري

الأندلس

ويذكر أبو بكر بن عبد الحكم ، المعروف بابن النظام ، أن الأندلس عند علماء أهله أندلسان : فالأندلس الشرقي ما صبت أوديته الى البحر الرومي (١) ، وذلك ما بين مرسية الى سرقسطة . والأندلس الغربي ما صبت أوديته الى البحر الكبير المعروف بالبحر المحيط (٢) .

ويضيف بعض المؤرخين الى هذا التقسيم قسما ثالثا ، هو وسط الأندلس ، وكان يضم من المدن العظمى مدن قرطبة وطليطلة وجيان وغرناطة والمرية ومالقة . أما شرق الأندلس ففيه من المدن الكبرى مرسية وبلنسية ودانية والسهلة وسرقسطة . أما غرب الأندلس فيشتمل على اشبيلية وماردة وأشبونة وشلب .

وفصل بين شمال الأندلس وبلاد الفرنجة (١) سلسلة جبال البرتات، المعروفة اليوم بجبال البرانس ، وكانت تسمى بالجبل الحاجز أو باب الأندلس . وفي أقصى الشمال الغربي تمتد سلسلة جبال كنتبريان . ويرفتج في وسط الأندلس وشمالها هضبة كانت تسمى لدى المسلمين بجبل الشارات ، تحريفا لكلمة « سيرا » (Sierra) ، أى سلسلة جبلية باللغة الأسبانية ، وينبع منها نهر دويرة ، ونهر تاجة الذى تقع عليه مدن طليطلة وشنترين وأشبونة ويصب هذا النهر في المحيط الأطلسي . وينبع نهر الوادى الكبير ونهر مرسية من جبل شقورة (Segura) ويصب نهر الوادى الكبير في المحيط ، ونهر مرسية في البحر المتوسط .

وفصل الجنوب والجنوب الشرقى عن وسط الأندلس وشماله

-
- (١) كان يسمى أيضا ببحر الشام ، وهو البحر الابيض المتوسط .
 (٢) هو المحيط الأطلسي ، وكان يعرف أيضا لدى العرب ببحر الظلمات والاقيانوس .
 (٣) هى بلاد فرنسا ، وكانت تعرف كذلك بالارض الكبيرة .

الأندلس

سلسلة جبال نفادا (Sierra Nevada) وكانت تعرف في العصر الإسلامي بجبال الثلج أو جبل شلير ، لأن الثلج لا يفارق قممها صيفا ولا شتاء . ويطل هذا الجبل على مدينة غرناطة ، وتسمى جبال قرطبة بسيرا مورينا (Sierra Morena) وينبع من جبال الثلج نهرا حدرة (Darro) وشيل للذان تقع عليهما غرناطة .

وتاريخ الأندلس قديم للغاية ، وأصل السكان القدامى مزيج من الكلت والأيبيريين . وقد أسس الفينيقيون في القرن العاشر قبل الميلاد ، واليونانيون في القرن الخامس قبل الميلاد — وعلى سواحل الأندلس — عدة مستعمرات . وأطلق اليونانيون على هذه السواحل اسم أيبيريا ، ثم أطلق هذا الاسم على شبه الجزيرة كلها .

ومنذ القرن الخامس ق.م ، خضعت الأندلس للقرطاجنيين ، وأزدهرت مدينة قرطاجنة الجديدة في عهدهم ، واتخذوها حاضرة لهم . وهكذا تلتقت الأندلس ، منذ سنة ٥٣٥ ق.م حتى ٢٠٥ ق.م ، تأثيرين هامين : أحدهما أوربي وهو التأثير الكلتي واليوناني ، والآخر أسيوي أفريقي أو سامي ، وهو تأثير القرطاجنيين . ثم تحول هذا التأثير الى تأثير لاتيني أوربي عند مجيء الرومان عام ٢٠٥ قبل الميلاد .

وفي عام ٢١٨ ق.م رسا القائد الروماني استيبيون في ميناء أمبورياس ، وأخذت جيوشه تكتسح الاقليم المجاور لهذا الميناء ما بين البرانس ونهر ابرة ، وأرسلت رومة الى اسبانيا سنة ٢١٠ ق.م قوات كبيرة للقضاء على نفوذ القرطاجنيين . وبعد عام ٢٠٩ ق.م عاما حاسما في تاريخ اسبانيا القديم ، اذ تحركت قوات استيبيون من طركونة ، يعاونها أسطول بحري اتجه الى قرطاجنة ، وسقطت العاصمة القرطاجنية أمام الحصار البري والبحري الذي فرضه الرومان ، وتبعثها سائر المدن

الأندلس

الأندلسية ، وسقطت قادس أخيرا عام ٢٠٦ ق م • وأسس الرومان مدينة طالقة (Italica) وهو اسم مشتق من كلمة ايطاليا اشارة بالموطن الأصلي للرومان •

أصبحت الأندلس اقليما رومانيا ، نشروا فيه الحضارة الرومانية والقانون الرومانى • وهكذا سادت نظم الرومان ، وخضع الاسبان لسلطانهم بادىء ذى بدء ، ثم ساروا على نهج نظمهم ، وأقبلوا عليها اقبالا شديدا ، وانتهى بهم الأمر الى تعلمها ، واصطبغت اسبانيا من الوجهة الاجتماعية بالصبغة الرومانية • • الا أن اندماج اسبانيا فى الجبم الرومانى لم يتم الا بفضل المسيحية على نحو لم يكن فى الحساب •

ثم ضعفت الدولة الرومانية ، واجتاحتها قبائل جرمانية فى موجات متتالية ، حتى استقر بها القوط الغربيون (Visigoths) واطمحت الأندلس فى السنوات الأولى من القرن الثامن الميلادى ، اذ أن ملوكها القوط استنفدوا كل موارد البلاد • أما الشعب فقد كان يحيا حياة الفقر الشنيع ، على نقىض ما كان يتمتع به النبلاء •

ومع أن الملكية القوطية كانت تجمع بين الوحدة السياسية والدينية ، فقد ظهر المجتمع الاسبانى اذ ذاك مفككا ، وانقسم الى طبقتين تفصل بينهما هوة سحيقة : الأولى تؤلفها الأرستقراطية القوطية ، وهى الطبقة الحاكمة المتمتعة بجميع الامتيازات الاجتماعية • والثانية قوامها العناصر الشعبية التى تأصلت فيها الصبغة الرومانية • وكانت هذه الطبقة الأخيرة محرومة من الحقوق التى كانت تتمتع بها الطبقة الأولى •

وساد العنصر الجرمانى من حيث نظامه السياسى فحسب ، فى حين تفوق العنصر الرومانى من حيث نظامه الفكرى والفنى • وما لبث القوط أن نسوا لغتهم أمام قوة اللاتينية ، ونبذوا المذهب الآرى ، ومثلوا صاغرين أمام المحافل الكنسية لقاء القوة المعنوية التى كانت تعوزهم •

ولم تجد محاولات الملك غيطشة اليائسة في نشر السلام والرخاء لاصلاح المجتمع الأسباني ، وأنما أصبح تفكك البلاد أمرا محتوما لابد من وقوعه أمام انعدام القيادة السياسية وانهايار البناء الاجتماعي •

وانتهى الأمر بوثوب أحد قواد الجيش ، ويعرف بلذريق (رودريجو) على العرش وتودده لمجلس البلاط الذي أفتى بخلع الملك الشرعى غيطشة وتولية لذريق أمر الملك • وأدى ذلك الى اثاره نفوس النبلاء الذين أخذوا يترقبون الفرصة المواتية للقضاء على لذريق المعتصب • وقدر العرب في الجانب الآخر من الزقاق أن يفتحوا الأندلس ، ويقضوا على دولة القوط الغربيين •

الفتح الاسلامى للأندلس

عندما تقدمت جيوش العرب لغزو المغرب لم تقف أمامها قوى مناوئة ، ولم تلق جيوش المسلمين مقاومة عنيفة ، ولم تقا تل العدو في معارك حاسمة • واستطاعت أن تستولى ، دون كبير عناء ، على معظم مدن المغرب رغم طول المدة التى استغرقها الفتح •

وكان الفتح العربى للمغرب فتحا عسكريا ومعنويا فى آن واحد • وكان من نتائجه انتقال أمة البربر الى الاسلام ، واخلاصها له ، وتحمسها للجهاد فى صفوف العرب ، فأصبحت لهم قوة صادقة اعتمدوا عليها فى فتحهم للأندلس •

وما لبث المغرب ، بعد أن تم فتحه على يدى موسى بن نصير ٨٦ — ٩٢ هـ (٧٠٥ — ٧١١ م) ، أن أصبح جسرا عبره المسلمون فى عام ٩١ هـ (٧١٠ م) ، تحت أمرة القائد البربرى طارق بن زياد ، الى شواطئ اسبانيا الجنوبية ، والنقت جيوشهم فى وادى لكة بجيوش لذريق آخر

الأندلس

ملوك القوط ، وانتصر المسلمون انتصارا حاسما ، وارتفعت راياتهم في أنحاء شبه الجزيرة ، وسقطت أمامهم مدن الأندلس تباعا الواحدة تلو الأخرى . ويذكر المؤرخون أن المند ورملة وأرطباش ، أبناء الملك القوطي المخلوع ، انضموا هم وأتباعهم الى جيوش طارق بن زياد في موقعة وادي لنة في رمضان عام ٩٢ هـ (يوليو ٧١١ م) ، مما أحدث الهزيمة في صفوف جيش لذريق .

وانتهى تقدم طارق الى استرقة . ثم جاز موسى الى الأندلس عام ٩٣ هـ في عسكر ضخم من وجوه العرب وعرفاء البربر ، ومضى يفتتح بدوره مدن الغرب ، ويقضى على كل أثر للمقاومة مضى الى الجزيرة الخضراء ، ومنها الى شذونة فاشبيلية فلقنت فماردة ، حتى أدرك طارقا في استرقة ، والتقى به في بلدة طلبيرة . وتعاون القائدان المسلمان على فتح شمال شبه الجزيرة ، فافتتحا سرقسطة وبرشلونة وأربونة ، وغنما غنائم كبيرة ، وانتهى بهما الأمر حتى جبال البرتات وسواحل جليقية — مثل حصن لك — المطلة على البحر المحيط ، وأشرفا منها على الأرض الكبيرة .

وخطر لموسى — وهو يشرف على فرنسا — أن يمضى في فتوحه شرقا مقتحما بلاد أفرنجة حتى يصل الى دار الخلافة بدمشق برا . ونمى الخبر الى الوليد بن عبد الملك ، فاشتد قلقه على المسلمين من خوضهم الحروب ، ورأى أن ما هم به موسى تغرير بالمسلمين ، فبعث الى موسى وطارق يستقدمهما اليه ، فقفلا عائدين الى المشرق بعد أن استخلف موسى على ولاية الأندلس ابنه عبد العزيز ، واختار له اشبيلية قاعدة للكمة .

الأندلس في عصر الولاة

٩٥ - ١٣٨ هـ (٧١٤ - ٧٥٥ م)

تولى الأندلس ، بعد عودة موسى الى دمشق ، ابنه عبد العزيز : فضبط سلطانها ، وسد ثغورها ، وافتتح في ولايته بعض المدن التي لم يتم فتحها في عهد أبيه . وكان متسامحا في الدين ، فشحج مصاهرة الاسبان بتزوجه أم عاصم زوجة لذريق . ويعد عبد العزيز بن موسى من خيرة ولاة المسلمين ، ألا أن مدة حكمه لم تطل ، اذ وثب به الجند وقتلوه سنة ٩٨ هـ (٧١٦ م) ، بايعاز من الخليفة سليمان بن عبد الملك تنكيلا بموسى ابن نصير . وتعاقب على ولاية الأندلس بعد عبد العزيز سبعة عشر واليا من قبل صاحب افريقية ، وذلك في ستة وأربعين عاما ، أولهم أيوب بن حبيب اللخمي الذي نقل حاضرة الأندلس من اشبيلية الى قرطبة

ويدلنا هذا العدد الكبير من الولاة ، في هذا الأمد القليل ، على أن البلاد أصبحت مسرحا للفتن والاضطرابات التي يذكي نيرانها انبعاث العصبية القبلية التي حملها الفاتحون معهم الى الأندلس . والواقع أن هذا العهد كان عهد انتقال من الحكم القوطي البائد الى الحكم الأموي المستقر .

وعلى الرغم من الصراع القبلي الذي انبعث بين الولاة ، فقد عمد بعض هؤلاء الى غزو فرنسا ، ومنهم السمع بن مالك الخولاني ١٠٠ - ١٠٢ هـ (٧١٨ - ٧٢٠ م) ، واستشهد غازيا بأرض الفرنجة سنة ١٠٢ هـ بعد أن هزمه دوق أكيثانيا في طولوشه (تولوز) . ثم تولى الأندلس بعده غنيسة بن سحيم الكلبى سنة ١٠٣ هـ (٧٢١ م) ، وغزا الفرنجة ، وتوغل في بلادهم ، وفتح اقليم بروفانس ، واستمر في تقدمه حتى فتح مدينة ليون بفرنسا . . . الا أن الفرنجة قطعوا عليه خط الرجعة ، وهزموه

هزيمة نكراء استشهد فيها عنبسة سنة ١٠٧ هـ (٧٢٥ م) •

وتتابع الولاة في الأندلس من قبل أمراء أفريقية ، حتى تولى عبد الرحمن بن عبد الله الخافقي ، الأندلس سنة ١١٣ هـ (٧٣١ م) ، وغزا الفرنجة ، وكانت له معهم وقائع انتصر فيها عليهم في أربونة وبرديل عند مصب نهر الجارون ... فاستنجد دوق أكيثانيا بأمير القصر في الدولة الميروفنجية - ويسمى « شارل مارتل » - فلبى نداءه ليتغاونوا على وقف تقدم العرب داخل الأراضي الفرنسية ، وهزما المسلمين هزيمة شنيعة سنة ١١٤ هـ (٧٣٢ م) في منطقة تقع بين مدينتي تور (Tour) وبواتييه (Poitiers) ، وعرفت الموقعة ببلاط الشهداء لكثرة من استشهد فيها من المسلمين • وقد فتت هذه الهزيمة في عضد المسلمين ، وأوقفتهم عند البرتات التي أصبحت ، منذ ذلك الحين ، حدا لم يتجاوزوه بعد ذلك •

قيام الدولة الاموية في الأندلس

١٢٨ - ٤٢٠ هـ (٧٥٥ - ١٠٢٩ م)

سقطت الخلافة الأموية في دمشق عام ١٣٢ هـ (٧٤٩ م) ، وقضى العباسيون على دولة بني أمية ، وأخذوا يتتبعون بني مروان بالقتل • واستطاع أحد هؤلاء الأمراء ، واسمه عبد الرحمن بن معاوية بن هشام ، أن يفلت من أيديهم وينجو بنفسه من فتك العباسيين • ونجح في اجتياز مصر ، ملتصقا بالنجاة في الأطراف الغربية للدولة الإسلامية ، حتى وصل الى أفريقية ، وعبر منها سنة ١٣٨ هـ (٧٥٥ م) الى المنكب (Almunecar) ودخل الأندلس ... فسمى بالداخل ، لأنه أول من دخلها من بني مروان • واستطاع بفضل المعينه وذكائه أن يقتحم وحده هذه البلاد في وقت نشبت فيه الاحن بين العصبيتين اليمنية والمضرية • فأصفت اليمنية على أمره وآزرته ، وبايعه كثير من جند الأندلس ، وتوافت اليه جنود الأمصار

واجتمعت له المضربة ، وتضخم عدد أنصاره • واستمال قلوب الرعية بحسن سياسته ، حتى انقاد له كل أبى ، وأطاعه كل عصى • واستطاع أن يهزم والى الأندلس اذ ذاك ، يوسف بن عبد الرحمن الفهرى ، فى واقعة المصاراة بقرطبة سنة ١٣٨ هـ ، ويكون فى الأندلس اماراة جعل قاعدتها قرطبة ، وأثل بها الملك العظيم لبنى مروان ، وجدد ما طمس لهم بالمشرق من معالم الخلافة ، وما انقرض من آثارها : فشيد الدور ، وأقام القصور ، وبنى المسجد الجامع بقرطبة ، وأدار حولها سورا من « الطابية » (أى التراب) مازالت أجزاء منه قائمة الى وقتنا هذا •

استطاع عبد الرحمن الداخل أن يقوم بكل هذه الأعمال الجليلة ، رغم المعارضة القوية التى أثارها ضده خصومة فى كل مكان ، وعلى الأخص أبو جعفر المنصور الذى حاول أن يجعل الأندلس ولاية عباسية • وقدم العلاء بن مغيث ، والى افريقية من قبل المنصور العباسى ، الى الأندلس سنة ١٤٦ هـ (٧٦٣ م) على رأس جيش كثيف • ولكن عبد الرحمن استطاع أن يسحق هذا الجيش ، ويهزم العلاء هزيمة نكراء • فارتاع المنصور لذلك وقال : « ما هذا الا شيطان ، الحمد لله الذى جعل بيننا وبينه البحر » • وشهد بقوته وبعد مرقى همته ، ومضاء عزيمته حين قال : « ان ذلك لهو الفتى كل الفتى لا يكذب مادحه ا » •

ثم تولى بعد عبد الرحمن الداخل عدة أمراء كان لهم الفضل فى توطيد أركان الدولة الأموية بالأندلس سياسيا وحضريا • وأهم هؤلاء الأمراء عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل ٢٠٦ — ٢٣٨ هـ (٨٢١ — ٨٥٢ م) الذى نجح فى تبادل العلاقات الودية مع امبراطور بيزنطة تيوفلس ، فى نفس الوقت الذى أخذ يعمل فيه على نقل الأندلس من مرحلة الركود والجمود الى مرحلة الرقى والاستقرار : فاهتم بالبناء والتشييد ، وأقام المساجد فى جميع أنحاء الأندلس • وعرفت الأندلس فى عهده ، لأول مرة ، فنا جديدا هو فن الموسيقى

والغناء • ذلك أنه استقدم الحسن ابن نافع المعروف بزرياب ، وكان موسيقيا مطربا ومجددا اجتماعيا ، كما برزت في عهده شخصية علمية جديرة بالذكر هي شخصية عباس بن فرناس ، الكيميائي الفلكي ، الذي اشتهر بتجاربه العلمية في الكيمياء ومحاولته الطيران •

ويتميز عصره بانشاء دور الصناعة في موانئ الأندلس : بلقنة والمرية وشلب واشبيلية والجزيرة الخضراء وأشبونة • وقد اهتم عبد الرحمن بدعم الأسطول الأندلسي بعد ما عاينه من غارات النورمانديين على اشبيلية وأشبونة وغيرهما من سواحل الأندلس وتدميرهم لهذه المدن

وكان الأمويون يخطبون لأنفسهم بالامارة • حتى اذا ما تولى عبد الرحمن بن محمد - المعروف بالناصر لدين الله - ٣٠٠ - ٣٥٠ هـ (٩١٢ - ٩٦٢ م) ، واستقامت له الأندلس ، وأظل البلاد عهد من الاستقرار السياسي ، تلقب باللقاب الخلافة سنة ٣١٦ هـ (٩٢٨ م) حين لمس مبلغ الضعف الذي تردت فيه الدولة العباسية •

والناصر هذا هو الذروة العليا في ملوك بنى أمية : اشتهرت أيامه ، وبعد صيته ، وانتشرت بالعدوة (١) طاعته ، وعلت على منابر الأندلس كلمته • وتوحدت البلاد بعد انقسامها ، وقضى على الثوار والمتمردين ، واستنزلهم بعد أن استفحل خطرهم في عهد المنذر بن محمد : ومنهم بنو حفصون في ببشتر ، وبنو حجاج في اشبيلية • وهكذا تمهد ملك الناصر ، وعظم أمره ، فهادنته ملوك أوربا ، وهادته طمعا في خطب وده وسلمه ، وقدمت عليه رسل الملوك من الغرب والشرق • وبلغت الأندلس في ظله ذروة التقدم والرقى : فارتفع فيها مستوى الحياة ، ونمت ثروات البلاد • وأصبحت قرطبة مهد الحياة الرفيعة ، ومصدر الحضارة السامية ، وموطن الفلاسفة والشعراء ، ومركز الفنون والآداب ، وشهدت عصرا من الرخاء والثراء لم تشهده حاضرة من قبل •

(١) راكمش •

وكان الناصر مولعا بالبناء محبا له ، فرأى أن يبني له قصرا يليق بجلال الخلافة وبهائها • فبنى مدينة الزهراء سنة ٣٢٥ هـ (٩٣٦ م) ، على بعد خمسة أميال تقريبا غربى قرطبة ، على سفح جبل العروس ، وشيد فيها القصور الرائعة ، وكسا جدرانها بلوحات الرخام المذهبة والفسيفساء (الموزايكو) ، وسقفها بقراميد الذهب ••• مما يدلنا على ما وصل اليه الذوق الفنى فى قرطبة الخلافة •

وخلف الحكم المستنصر أباه على الخلافة بقرطبة ٣٥٠ — ٣٦٦ هـ (٩٦٢ — ٩٧٦ م) ، فى الوقت الذى بلغ فيه الازدهار السياسى والاقتصادى فى الأندلس ذروته • وفى عهده بلغت الحضارة الاسلامية أوجها ، ووصلت قرطبة الى قمة المجد والبهاء ، وأخذت تتنافس بغداد والقسطنطينية •

وكان المستنصر محبا للعلوم ، جامعاً للكتب فى أنواعها • وكان يستجلب المصنفات من شتى الأقاليم ، باذلا فيها ما أمكن من الأموال حتى ضاقت عنها خزائنه • كما كان جامعاً للتحف المتخلفة من الفنون الكلاسيكية (قضى عليها بعد ذلك أيام حركة التطهير التى تزعمها المنصور بن أبى عامر) • ويتجلى ذلك فى بقايا ناووسين كبيرين يمكن نسبة زخارفهما الى الفن اليونانى الرومانى ، عثر عليهما فى خزان صغير بقصره فى مدينة الزهراء •

وظلت قرطبة تتمتع بهذه الحياة الرفيعة زمنا طويلا ، حتى توفى الحكم المستنصر ، وخلفه ابنه هشام المؤيد ٣٦٦ — ٣٩٩ هـ (٩٧٦ — ١٠٠٨ م) ، وكان طفلا ، فقامت أمه السيدة « صبح » بالوصاية عليه ، واتخذت محمد بن أبى عامر حاجبا للدولة • وقد نجح ابن أبى عامر فى كسب محبة الناس ، كما نجح فى حجب الخليفة عن الشعب والاستئثار

بالسلطة دونه ، فلم يعد للخليفة من النفوذ سوى اثبات اسمه في السكة وذكره في الخطبة •

وعمد ابن أبى عامر الى الاتجاه بالبلاد اتجاها عسكريا ، لاعتماده على الجيش في حروبه وغزواته ، فصار يغزو في كل عام غزوتين في الربيع والخريف • وقيل انه غزا بنفسه ستا وخمسين غزوة طوال سنى حكمه : ام تنتكس له فيها راية ، ولا فل له جيش • وتلقب ابن أبى عامر بالمنصور وفي عهده عرفت قرطبة للمرة الأخيرة مجدا يشبه الوهج المتألق الذى يغمر الأفق عند الغروب ، ولكنه ما يلبث أن يختفى سريعا • وقد احتفظت قرطبة بهذا المجد في عهد ابنه عبد الملك ٣٩٢ — ٣٩٩ هـ (١٠٠١ — ١٠٠٨ م) الذى ورث عن أبيه صفات القوة والشجاعة •

ثم خلفه أخوه عبد الرحمن — وكان خسيسا مستهترا ماجنا — فطمع في الخلافة ، وكتب له هشام عهدا بولاية العهد ، وتلقب بالناصر لدين الله — وقيل بالمأمون — فكان ذلك سببا في نهاية العامريين وانقراض دولتهم ••• اذ نقم عليه الناس ، وقتلوا صاحب شرطته ، وخلعوا هشام المؤيد ، وبايعوا محمدا بن هشام بن عبد الجبار ، ولقبوه بالمهدى • فلما بلغ هذا النبأ عبد الرحمن ، وهو بالثغر يجارب الأعداء ، قفل عائدا الى قرطبة • وعند اقترابه من العاصمة تخلص عنه جنده ، وانفض عنه جمعه ، وقبض عليه المهدى وقتله •

وتبع ذلك عصر من الفوضى عانت فيه البلاد فتنا واضطرابات ما بين ٣٩٩ — ٤٢٢ هـ (١٠٠٨ — ١٠٣٠ م) ، وتولى أمر الأندلس فيها عدد من الخلفاء الأمويين الضعاف يزيد عددهم على عدد من تولى الأندلس قبلهم من بنى مروان طوال ثلاثة قرون • وانقسمت البلاد ، وتفككت وحدتها ، واستحكمت الفوضى ، واشتد الصراع العنصرى في البلاد بين البربر والصقالبة والعرب • وكان كل فريق منهم يستعين على خصومه

بنصاري الشمال • وظل الأمر كذلك حتى وفاة المعتد بالله • وبموته أعلن الوزير أبو الحزم بن جهور محو خلافة بني مروان بالأندلس •

ملوك الطوائف

٤٢٢ — ٤٨٤ هـ (١٠٣١ — ١٠٩١ م)

وهكذا تفككت الوحدة السياسية عقب سقوط الخلافة الأموية بقرطبة ، وانتزى الأمراء والرؤساء من البربر والعرب والصقالبة بسائر المدن ، وقسموا خطتها ، وتغلب بعضهم على بعض ، وقامت في البلاد على أنقاض الخلافة عدة دويلات صغيرة • واستقل كل أمير بدويلته ، واستبد بأمورها • • • لذا أطلق عليهم المؤرخون اسم ملوك الطوائف • وكان من أعظم هؤلاء الملوك بنو عباد باشبيلية ، وبنو ذي النون بطليطلة ، وبنو جهور بقرطبة ، وبنو حمود بغرناطة ومالقة والجريرة الخضراء ، وبنو حمادح بالمرية ، وبنو الأفضس ببطليوس ، وبنو هود بسرقةسطة ، وبنو عامر والصقالبة بشرق الأندلس • وانتحل هؤلاء الملوك الألقاب الخلافية ، من معتمد ومعتمد وموفق ومستكف ومستظهر ومنصور وناصر ، كما قال الشاعر :

مما يزهدنى في أرض أندلس
سماع معتمد فيها ومعتمد
ألقاب مملكة في غير موضعها
كالهر يحكى انتفاخا صولة الأسد

وكان طبيعيا — وقد أنهار سلطان الخلافة بقرطبة — أن تلتبس العناصر الثقافية والفنية التي كانت تزخر مجالا أنسب لها في ظل هؤلاء الملوك • فتألفت نتيجة لذلك ، في حاضرة كل دويلة منها ، مراكز فنية

الأندلس

وثقافية شملها الملوك برعايتهم ، منافسين بعضهم بعضا في ضم رجال الفن والفكر الى حواضرهم ، بحيث يمكننا أن نعد هذا العصر أزهى عصور الفن الأندلسي ، بالرغم من الانحلال والتفكك السياسى الذى منيت به دولة الاسلام فى الأندلس . وبالرغم من عوامل الضعف والنوهن التى أخذت تدب فى جسم هذه الدولة .

وكان أغلب هؤلاء الملوك شعراء يقرضون الشعر : منهم المقتدر بن هود ، والمعتمد بن عباد ، والمعتمد بن صمادح ، وأبو الحزم بن جمهور . وارتقى فنا الموسيقى والغناء اللذان توارثتهما الأندلس فى عصر ملوك الطوائف عن زرياب . وتقدم فن العمارة والزخرفة ، وبالنح الفنانون فى الحشد الزخرفى ، وأسرفوا فى التعقيد الجنونى ، مما تشهد به آثار قصر الجعفرية بسرقسطة ، وقصر بنى حمود بمالقة .

أخذ خطر الاسترداد الاسبانى يزحف زحفا حثيثا فى الوقت الذى استغرق فيه ملوك الطوائف فى ملاذهم ، وعكفوا على حياة اللهو والترف ومظاهر الرقة التى كانت تنعم بها الأندلس ، ولاذوا بالجزيات لألفونسو السادس ملك قشتالة : اتقاء لشره ، ودرءا لتهديداته ، ورغبة فى خضب سلمه ومرضاته . وكان سقوط طليطلة ، سنة ٤٧٨ هـ (١٠٨٥ م) ، نذيرا بما يترصد الاسلام فى الأندلس من أخطار جسام . وملوك الأندلس لاهون بما انعموا فيه من النعيم ، مستغرقون فيما يتمتعون به من نرف وفى سقوط طليطلة يقول عبد الله بن هرج اليجضبى المشهور بابن انجسال الشاعر :

يا أهل أندلس حثوا مطيكم
فما المقام بها الا من الغلط
الثوب ينسل من أطرافه ، وأرى
ثوب الجزيرة منسولا من الوسط

من جاور الشر لا يأمن عواقبه

كيف الحياة مع الحيات في سبط !

وكانت قد ظهرت في الجانب الآخر من الزقاق دولة فتيحة جديدة ،
هي دولة المرابطين ، مؤسسها يوسف بن تاشفين اللمتوني . وتمهدت له
الاقطار في المغرب ، وتآقت نفسه الى ضم الأندلس لدولته . وكره ملوك
الطوائف أن يكونوا بين عدوين : النصاري في الشمال ، والمرابطين في
الجنوب . واشتدت وطأة النصاري عليهم ، وتوالت اغاراتهم على مدنها .
وارتاع ملوك الأندلس ، والتمسوا النصيح عند كبيرهم المعتمد بن عباد
ملك اشبيلية - وكان يهم بطلب معونة المرابطين - فحذروه من ذلك
قائلين : « السيفان لا يجتمعان في غمد واحد » . فأجابهم ابن عباد بكلمته
السائرة مثلاً : « رعى الجمال خير من رعى الخنازير » . فآقتنعوا بقوله ،
وتعلقت آمالهم بنجدة ابن تاشفين ، بعد أن اشتد عليهم ألفونسو
السادس ملك قشتالة ، وغالى في اذلالهم ، وأمعن في طلب الجزية .

ولم يتردد ابن عباد في دعوة ابن تاشفين اليه . فعبر المرابطون
الزقاق الى الأندلس ، والتقت جيوشهم مع جيوش ألفونسو في واقعة
الزلاقة (Sagrajas) بالقرب من بطليوس سنة ٤٧٩ هـ (١٠٨٦ م) ،
وانتصرت جيوش المسلمين انتصارا ساحقا ، وسحقت جيوش قشتالة .
ومضى جيش ابن تاشفين ، وعلى رأسه سير بن أبي بكر ، يطارد بقايا
جيش ألفونسو ، ويفتح الحصون والمعازل ، حتى خلاص الأندلس من
طغيانه . وعاد يوسف بن تاشفين الى عاصمته مراكش وهو ناظم على
ما أصاب الأندلس على أيدي ملوك الطوائف الماچنين ، وتأثر بقول الشاعر
أبو الحسن بن الحد :

أرى الملوك أصابتهم بأندلس

دوائر السوء لا تبقى ولا تذر

الأندلس

ناموا وأسرى لهم تحت الدجى قدر
 هوى بأنجمهم خسفا وما شعروا
 وكيف يشعر من في كفه قدح
 يحدو به ملهياه : الناي والوتر !

فحقد على ملوك الأندلس ، واتهمهم بالاغماض في أمره ، فجاز
 للأندلس سنة ٤٨٣ هـ (١٠٩٠ م) ، وشرع في خلعهم الواحد أثر الآخر ،
 وأزالهم عن عروشهم ، فأسلموا إليه البلاد ، ولحقوا بمراكش حيث
 قضوا البقية من حياتهم •

ودخل يوسف غرناطة سنة ٤٨٣ هـ • ولم تأت سنة ٤٩٥ هـ (١١٠١ م)
 حتى تمت للمرابطين السيطرة على الأندلس ، وضموها لدولتهم •

فلما توفى يوسف بن تاشفين ، قام بالأمر بعده ابنه على بن يوسف
 ٥٠٠ - ٥٣٣ هـ (١١٠٦ - ١١٣٨ م) • فجرى على سنن أبيه في الجهاد
 ومداغة النصارى وحماية البلاد • وكان ورعا زاهدا ، حاط نفسه بالفقهاء
 ورجال الدين ، فعظم شأنهم في عهده ••• الا أن اقبال على على الدين
 وعلومه جعله يهمل شئون دولته ، ويترأخى في ادارتها : فاختل حالها ،
 وفقد المرابطون في الناحية الحربية صفاتهم التي جعلت منهم جنودا
 محاربين ، وتراجعت جيوشهم أمام جيوش القشتاليين والبرتغاليين
 والأرغونيين ، كما أصابهم انهيار خلقى نتيجة لاستغراقهم في الترف ،
 واستنماقتهم الى اللذة واللهو ، ونسيانهم مظاهر الغلظة والجفاء التي
 فطروا عليها في الصحراء بحثا وراء شهوات النفس • ففقدوا خصالهم ،
 وانحطت همهم • فثار عليهم أهل الأندلس وطردها عمالهم • ففى سنة
 ٥٤٠ هـ (١١٤٥ م) ثق أهل اثيبيلية عصا الطاعة على المرابطين ، وباعوا
 عبد المؤمن بن على خليفة المهدي ابن تومرت ، مؤسس دولة الموحدين
 بالمغرب التي أطاحت بدولة المرابطين •

وعادت الأندلس الى مثل حالتها في عهد ملوك الطوائف ، وتعدد
 انثوار في أعقاب دولة المرابطين : مثل أبى محمد سدرى ، ويوسف
 البطروجى الثائر بمدينة لبلة ، ولييد بن عبد الله صاحب شنترين ، وعلى
 بن عيسى بن ميمون صاحب قادس ، ومحمد بن على بن الحجام صاحب
 بطليوس ، وأبى القاسم بن قسى الصوفى بشلب ومرتلة ، والقاضى أحمد
 بن حمد بن بقرطبة ، والقاضى أبى الحكم بن حسن بمالقة ، وأبى عبد الله
 بن محمد بن سعد ، المعروف بابن مردنيش ، بشرق الأندلس .

وعاد الاسبان يجددون هجماتهم على المدن الاسلامية ، فعاد
 الأندلسيون يلتزمون النجدة من الموحدين . فجاز عبد المؤمن بن على
 الى الأندلس سنة ٥٥٥ هـ (١١٦٠ م) ، وضمت جيوشه الجزيرة الخضراء
 واشبيلية وقرطبة وغرناطة ومالقة الى سلطانه . ولم تمض سنوات حتى
 ضم الأندلس الى حوزته . وولى اشبيلية ابنه أبا يعقوب يوسف ، بعد
 أن اختارها حاضرة لدولته فى الأندلس ، فظلت اشبيلية عاصمة لدولة
 الموحدين حتى سقوطها فى أيدي المسيحيين سنة ٦٤٦ هـ (١٢٤٨ م) .

وكان موقعها المتطرف ، بالنسبة لموقع قرطبة ، يتناسب والأحوال
 السياسية فى ذلك الوقت . فقد كان الاسلام يتراجع أمام دفع الاسترداد
 الأسباني مما حمل الموحدين الى اختيار عاصمة بعيدة عن الخطر المتزايد
 الغارات القشتالية والبرتغالية .

ولى أبو يعقوب يوسف الخلافة بعد وفاة أبيه عام ٥٥٨ هـ (١١٦٤ م)
 فجاز الى الأندلس ، واستولى على أملاك سعد بن مردنيش . وكان أبو
 يعقوب ، فوق ميوله الحربية ، محبا للفنون والآداب والفلسفة ، وكان
 يؤثر اشبيلية على مراكز : فجعلها بالقصور ، وأقام بها مسجدا رائعاً
 أتمه ابنه أبو يوسف يعقوب من بعده عام ٥٩٣ هـ (١١٩٦ م) .

وقد قام أبو يعقوب في أواخر أيامه بحملة على البرتغال ، وحاصر
شنترين دون جدوى • وعند عودته الى اشبيلية هاجمته قوات دون
انريكي ملك البرتغال — ويعرف عند المسلمين باسم « ابن الريق » —
فأصيب بسهم مسموم ، وقتل في عام ٥٨٠ هـ (١١٨٤ م) •

وخلفه ابنه أبو يوسف يعقوب ٥٨٠ — ٥٩٥ هـ (١١٨٤ — ١١٩٨ م)
وفي عهده اشتد خطر الولايات المسيحية في الشمال ، فتقدم أبو يوسف
بجيوشه لينقذ ما تبقى من الأندلس في أيدي المسلمين ، وانتصرت جيوشه
على جيوش ألفونسو الثامن ملك قشتالة وألفونسو الثاني ملك أرغون ،
في موقعة الأرك (Alarcos) سنة ٥٩١ هـ (١١٩٥ م) بالقرب من بطليوس •

وفي عهده بلغت اشبيلية ذروة مجدها وبهائها • وكان أبو يوسف يحب
البناء والتشييد ، فما كاد يظفر بالبيعة حتى أكمل بناء جامع اشبيلية ،
وأتم بناء صومعته (١) المعروفة بالخيرالدا بعد انتصاره في موقعة الأرك •
الا أن ملوك اسبانيا المسيحية لم يسيكتوا على هزيمتهم في الأرك ،
فأخذوا يدعون لحرب صليبية في اسبانيا ، وتقوت جيوشهم بمن تطوع من
الممالك الأوروبية • وفي بداية عهد محمد الناصر بن أبي يوسف يعقوب
٥٩٥ — ٦١٠ هـ (١١٩٨ — ١٢١٣ م) ، انهزمت جيوش الموحدين في واقعة
العقاب ، المعروفة بـلاس نافاس دي تولوزا (Navas de Tolosa) عام
٦٠٩ هـ (١٢١٢) هزيمة لم تقم للمسلمين بعدها قائمة محمد ، وبها
بدأت عوامل الضعف تسرى في كيان دولة الموحدين •

ومع ذلك فقد نجد من بين خلفاء الموحدين الضعاف شخصيات لامعة:
مثل أبي العلاء ادريس ٦١٥ — ٦٢٨ هـ (١٢١٨ — ١٢٣٠ م) ، الذي
حاول أن يعيد لاشبيلية ازدهارها في عهد أبيه المنصور ، فعمد إلى
تحصينها أمام الخطر الجاثم حولها ، فأقام بها عام ٦١٨ هـ (١٢٢٠ م)

برجا ضخما يعرف ببرج الذهب ، ويعد من أهم آثار الموحدين الحربية .
وقد قصد من بنائه أن يخلق الميناء ، ويحصن هذا الجانب من المدينة .
وفي سنة ٦٢٠ هـ (١٢٢١ م) جدد أسوار المدينة ، وشيد أمامها الحزام
البرانى — وهو نوع من الأسوار الأمامية — وحفر أمامه خندقا .

وبموت أبى العلاء ادريس ، تلاشى كل أمل فى انقاذ اشبيلية . فقد
امتولت جيوش فرناندو الثالث (القديس) على قرطبة ، الحاضرة
القديمة للأندلس ، فى ٢٩ من يونيو سنة ١٢٣٦ (٢٣ من شوال ٦٣٦ هـ) .
وأثار سقوطها فى أيدي المسيحيين الحزن والهلع فى نفوس المسلمين .
وتحطمت أعواد اسبانيا الاسلامية بعد هذه الصدمة الكبرى ، وانكمشت
رقعتها سريعا أمام الزحف السريع للاسترداد الأسبانى على أثر سقوط
بلنسية ومرسية عام ٦٣٧ هـ (١٢٣٩ م) . واجتاحت الأندلس موجات
عاتية من الاضطرابات والفوضى . وفى ٢٢ من ديسمبر سنة ١٢٤٨ ، وبعد
حصار دام نحو ١٧ شهرا ، دخلت جيوش قشتالة مدينة اشبيلية
حاضرة الموحدين ، وانتهت بذلك دولتهم فى الأندلس .

بنو نصر بغرناطة

ونهاية دولة الاسلام فى الأندلس

كان الأمر قد آل الى ملك بنى الأحمر بعد أن نجح محمد بن يوسف
بن نصر ملك أرجونة — سنة ٦٣٥ هـ (١٢٣٧ م) ، فى ضم المدن الأخرى
الى مملكته ، مثل مدينة بسطة ووادى آس وشريش ومالقة وجيان . وفى
سنة ٦٣٦ هـ (١٢٣٨ م) استولى على غرناطة ، وجعلها حاضرة لدولته .

وكان محمد بن يوسف معقدا آمال أهل الأندلس فى انقاذ ما بقى

(١) الصومعة : هى المئذنة باللهجة المغربية .

من دولة الاسلام من الخطر الذي كان محدقا بها • وكانت الأحوال السياسية وقتئذ تحتّم تأليف جبهة قوية أمام الخطر المسيحي الجاثم • • • • • فما كاد ابن يوسف يستولى على غرناطة حتى عمد الى توسيع رقعة مملكته ، فاستولى على المرية • وقامت مملكة غرناطة بين مظاهر الاضطراب التي كانت تجتاح ما بقى من ملك المسلمين في شبه جزيرة أيبيريا • ومع ذلك ثقت قدر لها أن تدوم نحو قرنين من الزمان : بالرغم من الصراع غير المتكافئ بين النصرانية والاسلام ، وبالرغم مما عانته مملكة غرناطة من حروب داخلية •

ويرجع الفضل في بقاء غرناطة ، رغم الأنواء والعواصف ، الى أنه احتشد فيها خلاصة العرب الموتورين ، ممن تشردوا من بلادهم والتجأوا الى ما بقى من مدن الاسلام في الأندلس • وكان توسل بنى الأحمر بسلاطين بنى مرين في الجانب الآخر من الزقاق (شمال افريقيا) حيناً ، ثم عدهم المحالفات السياسية مع ملوك قشتالة حيناً آخر ، عاملاً قوياً في اطالة أمد هذا الصراع •

وترك محمد بن يوسف عام ١٢٧٢ م ملكاً قوياً يستطيع الثبات أمام الأعداء ، في الوقت الذي نشأت فيه بينهم الفتن والانقسامات الداخلية • وكان تقلص الاسلام في شبه الجزيرة قد أدى بها الى تركيز أهل الفنون والعلوم والآداب في غرناطة ، فأقاموا فيها ، واستغلوا كل شبر من أراضيها •

وخلف محمد الثانى (١٢٧٢ — ١٣٠٢ م) أباه • وكان سياسياً بارعاً ، استطاع أن يوطد سطرانه في البلاد • وكان لا يتردد في الاستنجاد ببنى مرين كلما أحس بشبح الاسترداد يهيم بمملكته • وقد نصره سلطان بنى مرين عام ١٢٧٤ ، حين استنجد به ضد ملك قشتالة ، وقدم هذا السلطان بنفسه الى الأندلس ، وتوغل في أراضي الأعداء مدمراً كل ما

قابله في طريقه ، وأغار على المدن الإسلامية التي استولى عليها
انقشاليون ، وحاصر مدينة المدور ، وقاتل دون لوبو دي لارا في استجة
وهزمه وقتله . ومنذ ذلك الحين توثقت عرى الصداقة بين غرناطة وفاس .
وفي سنة ١١٧٦ عادت جيوش المغرب تنثر الدمار حول اشبيلية وقرطبة .

ولما مات محمد الثاني خلفه محمد الثالث . وكان عالما مولعا بالفنون
والآداب ، رغم كونه ضريرا ، فبنى قصرا بالحمراء ، وبنى المسجد
الجامع بالقصر . ثم عزل محمد الثالث عام ١٣٠٩ م ، وخلفه أخوه نصر
بن محمد ، الذي تنازل عن الحكم عام ١٣١٣ م لأبى الوليد اسماعيل بن
مُرج بن نصر .

وكان عهد اسماعيل عهد سلم واستقرار . واستطاع أن ينتصر على
جيوش قشتالة قرب البيرة . واستولى على بياضة سنة ١٣٢٤ ، ولكنه
قتل في يونيو عام ١٣٢٥ في أثناء عودته من إحدى حملاته .

وتولى الأمر من بعده ابنه محمد الرابع الذي نجح ، رغم حداثته ،
في استرداد جبل طارق سنة ١٣٣٣ بفضل بنى مرين . ولكنه قتل في أثناء
عودته الى غرناطة منتصرا ، بالقرب من الجزيرة الخضراء سنة ١٣٣٣ .

وتولى أخوه أبو الحجاج يوسف الأول السلطنة . وكان يوسف هذا
حاميا للآداب والفنون ، فأقام أول نواة لقصر الحمراء بما فيه برج
قمارش والحمام الملكي وباب الشريعة ومصلى البرطل . وظل يوسف
الأول يحكم سنين كلها رخاء ، وفي عهده تملك الأعداء قلعة يحمب
والجزيرة الخضراء . وقتل سنة ١٣٥٤ م وهو يؤدي صلاة العييد في
جامع الحمراء .

وخلفه ابنه محمد الخامس الغنى بالله ، الذي أكمل في قصر الحمراء
ما كان أبوه قد بدأه فيه . ودام عهده حتى عام ١٣٩١ م . ثم تولى بعده

الأندلس

عدة سلاطين ضعاف • وتوالى الأحداث فى العهد الأخير الذى سبق مباشرة سقوط غرناطة ، آخر معقل للإسلام فى الأندلس ، فى أيدي النصارى • وانبعثت الفتن بين أفراد الأسرة المالكة ، وقامت الثورات تأييدا لأحدهم على الآخر • وكان آخر حلقة فى سلسلة هذه الفتن الصراع الرهيب بين أبى عبد الله محمد بن سعد ، المعروف بالزغل ، وابن أخيه السلطان أبى عبد الله محمد بن أبى الحسن • • • ذلك الصراع الذى أدى الى تسليم مدينة غرناطة فى ٢ من يناير عام ١٤٩٢ •

ودخلت جيوش قشتالة الظافرة قصر الحمراء ، بعد أن خرج منها السلطان المجهور ، وقدم لفرناندو الرابع (الكاثوليكي) مفاتيح الحمراء •

وسار أبو عبد الله فى شعب تل البذول ، وألقى نظرة أخيرة على قصره الذى كتب عليه الخروج منه ، وترقرقت الدموع فى عينيه ، وما لبثت أن انهمرت على خديه فى صمت ، فصاحت به أمه عائشة الحرة : « أجل ، فلتبك كالنساء ملكا لم تستطع أن تدافع عنه كالرجال ! » • وأطلق الاسبان على هذا الموضع اسم زفرة العربى الأخيرة

(el último suspiro del mo)

وهكذا انطوى بسقوط غرناطة آخر صفحة من تاريخ الإسلام فى الأندلس •

الباب الأول

أشهر قواعد الأندلس في العصر الإسلامي

١ - قرطبة

تقع مدينة قرطبة على سفوح جبال قرطبة المتفرعة من سلسلة جبال سيرا مورينا ، الممتدة شمالى المدينة . وتمتد قرطبة على الضفة اليمنى لنهر الوادى الكبير ، الذى ينحنى طفيفا فى مجراه نحو الغرب مؤلفا أهم طريق طبيعى فى اسبانيا الجنوبية . وتعتمد قرطبة فى ثروتها على الزراعة خاصة فى سهلها الجنوبى ، المعروف بالكنبانية (Campina) بالاسبانية على حد نسمية الشريف الادريسى فى كتابه « نزهة المشتاق » . وأهم محاصيلها الزراعية الزيتون ، وعليه يقوم كثير من الصناعات المختلفة . كما تشتهر قرطبة بمعادنها الكثيرة ، وعلى الأخص الفضة والنزبق ، وبجبالها نوع من الحجر يسميه المقرئ فى كتابه « نفح الطيب من غصن أندلس الرطيب » بحجر الشادنة ويستعمل فى التذهيب ، كما تكثر بها مقاطع الرخام الأبيض الناصع اللون والخمرى .

وقرطبة مدينة قديمة البناء ، وليس من المستبعد أن تكون أيبيرية الأصل ، إذ أنه قد عثر فى بعض الحفائر الاثرية التى أجريت فى نطاقها على بعض تماثيل برونزية أيبيرية . ويمكننا أن نستدل على أصلها الايبيرى من اسمها (Corduba) الذى عربيه المسلمون الى قرطبة ، وهو اسم أيبيرى بحث يتشابه فى مقاطعه مع أسماء بعض مدن أخرى مثل (Salduba) الاسم القديم لمدينة سرقسطة (Zaragoza) . وليس لهذا الاسم أصل فينيقى كما يزعم بعض المؤرخين أمثال رافييل راميريث دى آريانو ، إذ يعتقدون أنه مشتق من الكلمة الفينيقيّة (Kartuba) التى تعنى بالعبرية المدينة الحسنة .

وذاعت شهرة قرطبة بادية ذى بدء منذ الصراع بين قرطاجنة ورومة ، عندما اصطحب هانيبال معه نفرا من أهل قرطبة فى حملته على

قرطبة

رومة • وفي سنة ٢٠٦ ق.م استولى عليها القنصل الرومانى لوثيو مارثيو،
نم اتخذها الرومان منذ سنة ١٦٩ ق.م عاصمة لاسبانيا السفلى • وانتسح
نطاقها في عهد الحاكم الرومانى ماركوس كلوديوس مرثيوس ، وأمرها
بالأبنية الرائعة والأسوار المنيعة التى اشتهرت بها العمارة الحربية
الرومانية • وهكذا انخرطت قرطبة في سلك الامبراطورية الرومانية ،
وعمرت وازدحمت بالأسرات الرومانية النبيلة •

وفي القرن الأول الميلادى ، انحازت قرطبة مع بومبى ، واستطاع
قائد الامبراطور يوليوس قيصر أن يستولى عليها بعد موقعة مندنا سنة
٤٥م ، ويقضى نهائيا على ثورتها • ومنذ أن شرع الاجرطور أغسطس
قيصر في اصلاحه الادارى انقسمت اسبانيا السفلى الى اقليمين لوزيتانية
وباطقة • واتخذت قرطبة عاصمة لاقليم باطقة ، ثم أصبحت بعد ذلك
بقلب أحد مراكز قضائية أربعة في اسبانيا الجنوبية ، والثلاثة الأخرى
هى قادس واشبيلية واستجة •

وعندما غزا الفندال والسواف والألان شبه جزيرة أيبيريا سنة
٤٠٩م ، استولى الفندال على اقليم باطقة ، واستولوا على اشبيلية ،
وجعلوها عاصمة الاقليم • أما قرطبة فقد ظلت خاضعة للبيزنطيين حتى
نجح ملك القوط الغربيين ليوفخلدو (Leovigildo) أخيرا في الاستيلاء عليها
سنة ٥٦٨م ، وأقام بها أسقفية • ثم أخذت قرطبة تفقد شيئا فشيئا
أهميتها أمام طليطلة، التى تفوقت عليها منذ أواخر القرن السابع الميلادى •

وكان الفتح الاسلامى لقرطبة أمرا هينا ميسورا • ويذكر مؤرخو
العرب أن طارق بن زياد بعث قائده مغيث الرومى الى قرطبة في سبعمائة
فارس ، فأقبلوا نحو المدينة ليلا يستترهم الظلام — وقد أغفل حرسها
حراسة سورها — ونجح بعض رجال مغيث في ارتقاء ممشى السور ،
ووثبوا داخل المدينة ، وفاجأوا حراس بابها الجنوبى ، فقتلوا منهم نفرا

وذبحوا الباب ، فتدفقت منه جيوش المسلمين ، وفتحوا المدينة عنوة • وأصبحت قرطبة ، بعد فتح المسلمين لها ، حاضرة اسبانيا الاسلامية ، واستعادت مكانتها القديمة التي سلبتها أياها طليطلة • واستقر بها ولاية الأندلس منذ عهد أيوب بن حبيب اللخمى ، حتى سقوط الخلافة الأموية بالأندلس (أى نحو ثلاثة قرون) ، واحتفظ أهلها من النصارى بحريتهم الدينية والمدنية مقابل ما كانوا يدفعونه من جزية وفقا للعهد الذى صولحوا عليه •

الا أن تاريخ قرطبة الاسلامى يبدأ حقيقة منذ عهد السمع بن مالك !الخوانى الذى ولى الأندلس سنة ١٠٠ هـ (٧١٩ م) ، وهو الذى رفعها الى مصاف الحواضر الكبرى • وكان السور الرومانى الذى يحيط بقرطبة قد تثلّم فى بعض أجزائه ، وتفتحت العاصمة للداخلين اليها والخارجين منها ، فأعاد السمع بناء هذه الأجزاء المهدمة من اللبن ••• اذ أن المسلمين كانوا حديثى عهد بالأندلس لا يعرفون بعد مقاطع أحجارها •

واستخدم السمع الأحجار الضخمة المتخلفة من الأجزاء المهدمة من السور الرومانى بعد ترميمه فى إعادة بناء قنطرة قرطبة التى كانت تعد إحدى أعاجيب الدنيا ، وأعظم آثار الأندلس وأعجبها • وكانت هذه القنطرة من بناء الرومان ، ثم سقطت عقودها — وكانت تبلغ نحو سبعة عشر عقدا — على مر الأيام ، ومحيت أعاليها ، وبقيت أرجلها وأسافلها •• فجدها السمع بأمر الخليفة الأموى عمر بن عبد العزيز •

ويذكر صاحب مناهج الفكر « أن طولها ثمانمائة ذراع ، وعرضها عشرون باعا ، وارتفاعها ستون ذراعا ، وعدد حناياها (أقواسها وعقودها) ثمانى عشرة حنية ، وعدد أبراجها تسعة عشر برجاً » • وفيها يقول بعض الشعراء :

قرطبة

بأربع فاقت الأمصار قرطبة
منهن قنطرة الوادى وجامعها
هاتان ثنتان والزهراء الثالثة
والعلم أعظم شىء وهو رابعها

وكانت القنطرة تصل بين مدينة قرطبة نفسها (أى المركز القديم للمجموع العمرانى فيها) ، وربضها (ضاحيتها) الواقع جنوبى قرطبة على الضفة اليسرى لنهر الوادى الكبير ، وهو الربض المعروف بشقندة . وما تزال هذه القنطرة قائمة الى وقتنا هذا ، وانما كانت قد تغيرت عما كانت عليه لما طرأ عليها من اضافات واصلاحات على مر العصور . وأخذت قرطبة منذ ذلك الحين تنمو وتتسع شيئاً فشيئاً ، وتجاوزت أحيائها نطاق المدينة القديم شرقاً وغرباً .

وكانت قرطبة ، منذ أن اختارها المسلمون حاضرة لهم في الأندلس — وعلى الأخص منذ أن اتخذها الأمير عبد الرحمن بن معاوية ، المعروف بعبد الرحمن الداخل ، حاضرة له — مهد الحياة الرفيعة ، ومصدر الحضارة السامية ، وموطن الفلاسفة والشعراء ، ومركز الفنون والآداب . وكانت أكثر مدن أوروبا سكاناً ، فقد بلغت في عهد الخلافة الأموية تطورا عمرانيا لا مثيل له في دول الغرب المعاصرة ، التي كانت تترجح في ظلمات الجهل والانحطاط .

وبلغت قرطبة أيام الخليفة عبد الرحمن الناصر ، وابنه الحكم المستنصر من بعده ، مستوى من الرخاء والثراء لم تبلغه حاضرة أخرى من قبل . وظلت تنعم بهذا التفوق على سائر مدن اسبانيا زمننا ، حتى سقطت الخلافة الأموية ، فتركت بعدئذ لمصيرها التعس ، وفتحتها البربر في عام ١٠١٠ م ، وهدموا آثارها ، وسلبوا محاسنها .

قرطبة

ومنذ ذلك الحين انطفأت شعلة تفوقها ، وتخلت عن مكانتها السامية
لأشبيلية •

ورغم هذه العواصف التي هزت كيائها استطاعت أن تحتفظ ببعض
عظمتها وتفوقها في المجال الفني والصناعي والأدبي ، حتى فتحتها فرناندو
الثالث في ٢٩ من يونية سنة ١٢٣٦ م •

وأثار سقوط قرطبة في أيدي المسيحيين الحزن والأسى في نفوس
المسلمين ، وتحول مسجدها الجامع ، الذي كان يعتبر كعبة المسلمين في
الأندلس ، إلى كنيسة كبرى ، وهجرها عدد كبير من سكانها المسلمين ،
فاستبدل فرناندو بهم سكانا آخرين من قشتالة وليون وقطالونية وغيرها
من أقاليم اسبانيا المسيحية •

ومع أن إعادة تعمير قرطبة بعد سقوطها بالعناصر الاسبانية الجديدة
قد أزال كثيرا من مظهرها القديم ، وأن التقاليد القشتالية التي حملها
الغالبون معهم قد غيرت كثيرا من مظهرها العمراني الخلافي ••• فإن
قرطبة ظلت مدينة خلافية الطابع • ولم يتمكن الفن القوطي ، الذي
أدخلوه في الأندلس ، أن يتغلغل في فنونها ، بل أنه لم يقو هو نفسه على
التخلص من تأثيرات الفن القرطبي الاسلامي الأصيل ، وظلت عمائر
قرطبة الاسلامية مصدرا يستوحى منه معماريو النصراني كنائسهم
ردورهم ومختلف أبنيتهم •

وكانت مدينة قرطبة ، في عهد الخلافة الأموية ، أكبر مدن العالم
بعد القسطنطينية • وقد وصفها مؤرخو العرب وجغرافيوهم أبداع وصف،
وأشادوا بعظمتها وتفوقها على سائر مدن الأندلس ••• إذ كانت قاعدة
الأندلس وقطبها وأم مدائنها ومستقر خلفائها ، ودار المملكة في النصرانية
والاسلام • ويشهد الرحالة ابن حوقل — مع ما هو معروف عنه من عداء
للأمويين — بهذه العظمة في قوله : « هي أعظم مدينة بالأندلس • وليس

قرطبة

بجميع المغرب لها عندى شبيه فى كثرة أهل ، وسعة محل ، وفسحة أسواق ونظافة محال ، وعمارة مساجد ، وكثرة حمامات وفنادق » •

وكانت قرطبة فى القرن العاشر تنقسم الى جانبين كبيرين : جانب شرقى كان يعرف بالشرقية ، ومازال يعرف بهذا الاسم الى اليوم وجانب غربى • ويغلب على الظن أن المدينة ، عند اتساعها فى (Ajargua) القرن العاشر ، تجاوزت نطاقها القديم جنوبا فى الضفة اليسرى من نهر الوادى الكبير ، وشرقا فيما وراء باب رومية • وكانت المدينة نفسها ، أو المركز العمرانى القديم — باثتمالها على المسجد الجامع الذى وضع حنش الصناعى التابعى أساسه الأول ، والقيصرية والفنادق والحمامات والأسواق — مركز الحياة الدينية والاجتماعية والاقتصادية ، كما كانت تنقسم الى أحياء تعرف فى الأندلس بالحومات • وكانت هذه الحومات تتسمى بأسماء الأبواب المجاورة لها أو بأهم الآثار القائمة فى مناطقها ، أو بأسماء حرف سكانها ، مثل حومة باب الفرج ، وحومة الرقاقين قرب باب العطارين ، وحومة النجارين ، وحومة عين فرقد شرقى قرطبة ، وحومة غدير بنى ثعلبة ، وحومة حير الزجالى خارج باب اليهود •

ويذكر ابن بشكوال أن عدد أرباض قرطبة (أى ضواحيها) — عند انتهائها فى التوسع والعمارة — بلغ واحدا وعشرين ربضا : فالمدينة القبلية بعدوة النهر بها ربض شقندة ، وربض منية عجب • وأما الغربية فتسعة هى : ربض حوانيت الرياحان ، وربض الرقاقين ، وربض مسجد الكهف ، وربض بلاط مغيث ، وربض مسجد الشفاء ، وربض حمام الالبيرى ، وربض مسجد السرور ، وربض مسجد الروضة ، وربض المسجن القديم • وأما الشمالية فتلاثة هى : ربض باب اليهود ، وربض مسجد أم سلمة ، وربض الرصافة • وأما الشرقية فسبعة هى : ربض شبلار ، وربض فرن بريل ، وربض البرج ، وربض منية عبد الله ، وربض منية المغيرة ، وربض الزاهرة ، وربض المدينة العتيقة •

قرطبة

ونلاحظ أن بعض الأرباض المحيطة بالمدينة الوسطى ، أنتى كانت تعرف بالقصبة ، كانت تبعد عنها كثيرا : كربض الزاهرة ، وربض الرصافة كما أن كثيرا من هذه الأرباض كان يقع على امتداد نهر الوادى الكبير ، حيث كانت تقام المنيات والقصور : فكان هناك ربض الروضة ، وربض الرصافة ، وربض منية عجب التى أقامتها زوجة الحكم الربضى جنوبى قرطبة •

وقد اختلفت كل هذه الأرباض فى وقتنا الحاضر ، وحلت محلها حدائق وبساتين ، ولكن أسماءها تثبت اثباتا قاطعا أن اتساع مدينة قرطبة نحو الغرب بدأ منذ القرن التاسع فى عهد الحكم بن هشام ، المعروف بالحكم الربضى ، نسبة لواقعة الربض بقرطبة التى انتصر فيها على سكان الربض الجنوبى (ربض شقندة) •

ويذكر « ابن بشكوال » أن هذه الأرباض لم تكن محاطة بالأسوار ، فلما كانت أيام الفتنة — وهو العهد المضطرب الذى تبع سقوط الخلافة بقرطبة — حفر حولها خندق يدور بها جميعا ، كما أقيم حولها سور مانع • وذكر ابن غالب أن محيط هذا السور كان يبلغ أربعة وعشرين ميلا •

ولقد أجمعت المصادر العربية على أن الجزء الأوسط من قرطبة يتفق وموقع العاصمة القديمة للاقليم الرومانى المعروف بباطقة ، وهى مدينة قرطبة نفسها أو القصبة • وكان يحيط هذه المدينة فى جميع العصور سور من الحجر الجيرى •

وحدث فى السنوات الأولى من القرن الثامن الميلادى ، فى ولاية السمع بن مالك ، أن تهدمت قنطرة قرطبة — كما سبق أن أوضحنا — فأعاد السمع بناءها من أحجار سور قرطبة ، ثم أعاد بناء السور من اللبن ثم أعاد الأمير عبد الرحمن الداخل بناء هذا السور فى عام ٧٧٦ م على أساس السور الرومانى القديم • وما زالت بقايا أعمال هذا الأمير ظاهرة

قرطبة

حتى اليوم في قطاع أسوار قرطبة بالقرب من المستشفى العسكري • وقد ظل هذا السور موضع رعاية الأمراء والخلفاء حتى جددته الموحدون • ولم يتبق اليوم من السور الاسلامي الا بقايا متناثرة ، ومع ذلك غنقد تخلف من السور الروماني ، رغم قدمه ، قطاع يمتد على جانبي باب اشبيلية •

وكان سور المدينة على شكل متوازي الأضلاع ، ومحيطه لا يتجاوز أربعة كيلو مترات • وهو ما يتفق وتقدير ابن حوقل الذي يقول : « ودرت بقرطبة في غير يوم في قدر ساعة » •

ويذكر المؤرخون أنه فتحت بهذا السور سبعة أبواب : أهمها الباب الجنوبي المؤدى الى القنطرة ، أو باب الوادي أو باب الصورة (١) •

وكان هذا الباب ينتهي بالرصيف الممتد على طول الضفة اليمنى للنهر ، وتمر به المحجة العظمى ، أو الطريق الأعظم (٢) الذي يمتد ، منذ عهد الرومان ، من مدينة قادس الى أربونة ، مارا بقرطبة واشبيلية وسرقسطة وطركونة ، ويخرج من باب رومية ، الذى سمي كذلك نسبة الى خروج هذا الطريق الروماني منه •

وكان ينفتح في السور بابان : الجنوبي منهما — وهو « الباب الجديد » — يقع قرب النهر ، ويعرف هذا الباب بباب سرقسطة ، لأنه يطل على الطريق المتجه الى هذه المدينة • والثانى يعرف بباب عبد الجبار نسبة لعبد الجبار بن الخطاب مولى الخليفة الأموي مروان بن الحكم •

(١) كان يقول فوق هذا الباب تمثال روماني يمثل إلهة ، وينسبه المسلمون الى العذراء مريم • ولأكد المؤرخ ابن عذارى الراكشى أن العذراء كانت صاحبة قرطبة ، اذ يقول : «وهي العذراء صاحبة قرطبة التي وضع أقدم حكامها صورتها فوق باب مدينتها القبلى ، وهو باب القنطرة » •

(٢) كان يسمى في الكتب العربية السكة العظمى • (Via Augusta)

ويقع هذا الباب شمال السور الشرقى ، وكان يطلق عليه كذلك اسم باب
ظليطة و باب رومية •

أما السور الشمالى فكان يفتح فيه باب يعرف باب ليون أو باب
طليرة ، لاشرافه على الطريق المؤدى الى مدينة طليبة (Talavera) ، أو
باب اليهود لقربه من حي اليهود • وقد استقبحوا قولهم باب اليهود ،
فقالوا باب الهدى • ويشرف هذا الباب على حير الزجالى ، وفيه يقول أبو
عامر ابن شهيد :

لقد أطلعوا عند باب اليهود
شمسا أبى الحسن أن تكسفا
تراه اليهود على بابها
أميرا فتحسنه يوسفا

وظل هذا الباب يعرف ، حتى سنة ١٩٠٣ ، باسم باب أوساريو
(Ossario) نسبة الى مقبرة كان يؤدى اليها ، تعرف بمقبرة أم سلمة فى
العهد الاسلامى ، ثم الى جبانة اليهود •

وأما الجانب الغربى من السور فكانت به ثلاثة أبواب : واحد
شمالى يعرف بباب عامر القرشى ، وهو نفس باب الجلالقة (Gallegos)
الذى هدم فى سنة ١٧١١ ، وينسب هذا الباب الى عامر ابن عمرو القرشى
الذى لعب دورا هاما فى حوادث القرن الثامن • وكانت له مقبرة خارج
هذا الباب ، فأمر الخليفة عبد الرحمن الناصر بفتح هذا الباب فى شعبان
عام ٣٠٣ هـ (فبراير سنة ٩١٦ م) لتيسير الذهاب الى المقبرة المذكورة •
والباب الثانى ، ويتوسط هذا السور الغربى ، يعرف بباب الجوز أو باب
بطليوس • ولا شك أنه يتفق وموضع الباب الحالى المسمى بباب المدور
(Almodovar) الذى أقيم على أساس الباب الخلفى • والباب الثالث
الأخير يقع جنوبى السور الغربى ، ويعرف باسم باب العطارين أو باب

قرطبة

اشبيلية • وما زال هذا الباب قائما حتى وقتنا هذا •

وكان يشق مدينة قرطبة طريق أعظم ، يعرف بالمحجة العظمى ، يمتد من باب القنطرة شمالا ، مارا بين المسجد الجامع وقصر الخلافة ، ثم يذئني شرقا خارجا من باب عبد الجبار الذي ذكر آنفا ، ثم يتابع سيره نحو الشمال الشرقي خارجا من باب عباس ، أحد الأبواب الثلاثة التي كانت تنفتح في سور الربض الشرقي المعروف بالشرقية ، أما البابين الآخرين فهما باب الفرج وباب الحديد •

وكان يلتقي مع هذا الطريق الأعظم طريقان : أحدهما غربى يمتد من باب عامر ، والثانى شمالى يمتد من باب اليهود ••• بحيث يتألف من تقابل هذه الطرق الثلاثة شكل صليبي كان هو النظام الرئيسى في تخطيط المدن الرومانية (١) • ونلاحظ مثل هذا التخطيط في اشبيلية وغرناطة ومالقة وبنسبة وسرقسطة •

وكان يتفرع من هذه الطرق الرئيسية شبكة من الدروب والحارات والأزقة • وكانت هذه الدروب اما نافذة وأما مقفلة مسدودة بالمبانى • ويذكر ابن القوطية دربا بقرطبة ، زمن عبد الرحمن الأوسط ، سماه درب ابن شراحيل ، نسبة الى محمد بن شراحيل المعافرى قاضى قرطبة • ويذكر الخشنى أن جده عمر بن شراحيل المعافرى كان يعيش في قرطبة في درب الفضل بن كامل الواقع قبلى مسجد أبى عثمان ، وذلك في عهد الأمير عبد الرحمن الداخل • ويذكر ابن الفرضى اسم دربين آخرين بقرطبة : أحدهما درب أبى الأشهب ، والآخر درب بنى فطيس •

وكان على كل درب من هذه الدروب دراب يسهر عليه ليلا ، ويحميه

(١) يسمى الشارعان الرئيسيان المتقاطعان على شكل الصليب
(Documanus) (Cardo Maximus)

قرطبة

من اللصوص • ويذكر ابن سعيد المغربي « أن بالأندلس عسسا يطوفون بالدروب ليلا ، ويعرفون بالدرابين • • لأن بلاد الأندلس لها دروب بأغلاق تغلق بعد العتمة ، ولكل زقاق بائت فيه : له سراج معلق ، وذب يسهر ، وسلاح معد • وذلك لسطارة عامتها وكثرة شرهم واعياهم في أمور التلصص » • ومن هذا النص نستنتج أهمية الدروب ودورها الكبير في حماية السكان ، فان من يسكن الدرب لا يخرج الا من منفذ واحد ، ومن ثم يسهل عليهم الدفاع عن أنفسهم • وما زالت نظم الدروب العربية قائمة في قرطبة حتى وقتنا هذا كما يتضح ذلك من بعض الصور •

وكان بعض هذه الحارات والدروب يتخذ أسواقا : من ذلك حارة القرائين ، وحارة الحصارين وكان بخارج المدينة سوق يعرف بسوق اندواب (Zocodover) لم ينفرض اسمه الى اليوم من المدن الأندلسية ، كاشبيلية وقرطبة وغرناطة • وما زالت أسماء بعض شوارع قرطبة تذكرنا بالتسميات العربية القديمة : مثل شارع الزنيقة (Alzonaicas) ، وشارع المونة (الصابون ، وشارع القيسارية (Alcaiceria) وشارع (Alfayates) الخياطين

} وكان المسجد الجامع بقرطبة أساس التنظيم العمراني للمدينة ، والمركز الديني الذي تلتف حوله بقية مراكزها العمرانية ، والقلب الذي ينبض بحياتها ويهبها النشاط والحركة منذ أن ركز حنش الصنعاشي التابعي قبلته • وكانت العادة تجرى وقتئذ على أن يكون المسجد قائما على أنقاض الكنائس الكبرى ، وهذا ما حدث بالفعل في المسجد الجامع بقرطبة وغيره من المساجد الأندلسية الأخرى : مثل جوامع طليطلة ، وأشبيلية ، والجزيرة الخضراء •

وكان لذلك رد فعل قوى تكشف عند الاسترداد القومي الاسباني للمدن الأندلسية • • • اذ كانت المساجد الجامعة بها تتحول الى كنائس

قرطبة

بمجرد سقوط المدينة ، وأصبح المسجد أو الكنيسة اللواء الذي يرمز الى الدين الغالب .

وكان المسجد هو الذى يسيطر على حياة المدينة الاجتماعية والاقتصادية . فكانت تقام حول ساحته الأسواق والحوانيت ، كما كانت للمسجد أهميته فى الحياة السياسية : ففيه كانت تعقد الاجتماعات ، وتوزع ألوية الجيش وبنوده ، وتقرأ المنشورات . وكذلك كانت له أهميته فى الحياة العلمية ، اذ كان يؤمه الطلبة لتحصيل العلوم الدينية . وكان يحيط بالمسجد الدور والقصور والفنادق والحمامات وغيرها . وكان قصر الامارة يقع غربى المسجد الجامع ، ويصله بالمسجد سباط على أزج معقود يمر تحته الناس .

وكانت الدار بقرطبة تقوم حول فراغ مركزى هو الصحن الذى تنتوزع حوله الغرف . وكان مظهرها الخارجى يتنافى مع مظهرها الداخلى حيث كانت تركز حياة الأسرة فبينما كانت واجهتها الخارجية بسيطة عاطلة من الزخرفة ، كانت غرفها الداخلية تزخر بالزخارف الرائعة .

ويمكن تفسير ذلك بأن المرأة المسلمة كانت تقضى جل وقتها داخل البيت ، وكانت حياتها ترتبط ارتباطا وثيقا بداخل بيتها ، فكان من الطبيعى أن يتألق الناس فى تزيين جدران بيوتهم بالداخل وكسوة أزرها بنوع من الغضض المعروف فى الشرق بالفسيفساء — ويعرف فى الأندلس بالزليجى — وهو ذو ألوان عجيبة ، ويقوم مقام الرخام الملون الذى يتخذه أهل الشرق فى زخرفة بيوتهم . ولهذا الزليجى تأثير كبير فى ترطيب أبهاء المنازل وجدران القاعات زمن الصيف حين تشتد درجة الحرارة — هذا الى ما لألوانه المتعددة ، وخطوطه الهندسية المتشابكة ، من آثار طيبة فى النفس .

وكانت المرأة الأندلسية تجد فى ذلك كله تعويضا لها عن العزلة التى

قرطبة

تعانيها • ولعل هذا هو السبب في أن أغلب دور المدن الأندلسية تستمل على غرف علوية أو مصارى (جمع مصرية) ، وهى غرف بارزة عن جدار البيت ، مزودة بشبكات من عيدان الخشب المتقاطعة فيما بينها ، وتسمى بالشرابيبي ، وهى لا تختلف كثيرا عن المشربيات فى المنازل المصرية • وهكذا كان يتاح للمرأة أن تشاهد ما كان يجرى فى الدروب والشوارع من أحداث دون أن يشاهدها أحد •

وكان صحن البيت ، أو فناؤه ، عنصرا هاما لا غناء عنه باعتباره المكان الذى تقضى فيه المرأة أوقات فراغها ، ومنه كان ينفذ الضوء والهواء الى غرف الدار • لهذا اهتم الناس بتزيين الصحن ، وفرشه بالحصى والرخام ، وغرسه بأكارم الأشجار ، كالبرتقال والليمون ، ومده بالمياه الجارية مما يزيده روعة وسحرا ، ويخفف فى الوقت نفسه من حرارة الجو

أما قصور قرطبة فكانت تقام عادة فى الأرباض خارج المدينة ، ما عدا قصر الامارة ، وكان فيه البدائع الحسان والرياض الأنيقة • وأجرى فيه الأمراء المياه العذبة ، المجلوبة من جبال قرطبة فى قنوات الرصاص التى تصب فى البحيرات البديعة والصهاريج وأحواض الرخام العجيبة • ومن مجالسه وقاعاته : قصر الكامل ، والحائر ، والروضة ، والزاهر • ومن أبوابه : باب الجنان ، وباب السطح المشرف — يطلان على الرحيف الأعظم — وباب الوادى المؤدى الى النهر • وكان للقصر باب ، يدعى باب الجامع ، كان يدخل منه الخلفاء يوم الجمعة الى المسجد الجامع على الساباط المعلق بينهما ، ولم يتبق من هذا القصر الا بقعته ، وعليها يقوم اليوم القصر الأسقى •

وقصر الرصافة ابتناه الأمير عبد الرحمن الداخل لنزهه وسكنائه سُمالى قرطبة ، ودحا فيه جنانا واسعة ، ونقل اليه غرائب الخروس وأكارم الشجر من كل ناحية ، وأودعها ما كان استجلبه رسله الى الشام

قرطبة

من البذور الغريبة ، حتى نمت وأصبحت أشجارا أثمرت ، وسماه الأمير
باسم رصافة جده هشام بأرض الشام الأثيرة لديه (١) .

ومن قصور قرطبة أيضا : قصر الزهراء ، وقصر شيده بنو أمية أبدع
تشييد ، وحاكوا به قصرهم بالمشرق ، والقصر الفارسي بخارج قرطبة ،
وقصر السيد أبي يحيى بن أبي يعقوب يوسف الموحدى ، وهو على من
النهر الأعظم تحمله أقواس . وما زالت آثار هذا القصر قائمة حتى يومنا
هذا ، وفيه يقول الشاعر ناهض بن ادريس يصف أقواسه فوق مياه نهر
الوادي الكبير :

ألا حبذا القصر الذي ارتفعت به
على الماء من تحت الحجارة أقواس
هو المصنع الأعلى الذي أنف الثرى
ورفعه عن لثمه المجد والباس
فأركب متن النهر عزا ، ورفعته
وفي موضع الأقدام لا يوجد الراس
فلا زال معمور الجنباب وبابه
يغص ، وحلت أفقه الدهر أعراس

ومن قصور قرطبة أيضا : قصر الزهراء ، والزهارة ، وقصر الحير
الزجالي . ولم يبق من هذه القصور الا آثار قليلة تذكر بما بلغه من البناء
وللخرقة في العصر الاسلامي ، ومنها آثار قصور الزهراء التي بهرت
العالم بما جلته من روائع فنية . وسنذكر كل هذه الآثار في حينها .

ولكى نكمل صورة الحياة الاجتماعية بقرطبة ، لابد لنا أن نتحدث

(١) ما زالت آثار هذا القصر ظاهرة خارج قرطبة ، وتعرف هذه المنطقة
بالاسبانية باسم (Aruzafa)

قرطبة

تليلا عن حماماتها التي تعد من أهم أبنيتها ، لأن الحمامات في اناواق تلى المساجد أهمية ••• اذ أن عادة الاستحمام كانت متأصلة فى الاسلام ، وكانت قرطبة الخلافية تتمتع بكثرة حماماتها •

وذكر ابن حيان أن عدد هذه الحمامات بلغ فى عهد ابن أبى عامر نسعمائة حمام ، وقيل ٩١١ حماما • وكان العدد الأعظم من هذه الحمامات. يقع قرب المسجد حتى يسهل على المصلين الاستحمام والتوجه رأسا الى المسجد ، ولم يتبق من هذه الحمامات جميعها سوى بقايا حمامين : أحدهما والآخر فى شارع لاس كوميدياس (Calle del Bano) فى شارع الحمام (Las Comedias) ويتألف هذا الأخير من قاعة وسطى بها عقود مفلطحة ، وأخرى متجاوزة على شكل حدوة الفرس ، تحملها عشرة أعمدة • وتنانف تعلو هذه العقود قبوة لم يبق لها وجود اليوم بعد أن تحولت هذه القاعة الى صحن ، واحتفظت الغرف المجاورة بقبواتها • وبهذا الحمام غرفة تعلوها قبوة كانت تتخللها مضامى لانفاذ الضوء ، سدت جميعها اليوم •

أما المسجد الجامع بقرطبة فهو الأثر الرائع الوحيد الذى بقى الى اليوم فى حالة جيدة بفضل الكاتدرائية التى أقيمت بداخله • ويمعد هذا المسجد الأثرى الوحيد فى اسبانيا لعصر من أرقى العصور التى مرت عليها فى وقت كانت دول أوربا تعاني فيه من الجهل والهمجية والانحطاط • وتتضمن عمارة هذا المسجد تاريخ أعظم عصر مرت به الأندلس • اذ أن بناءه ، الذى تم خلال قرنين من الزمان ، يحتضن فى عناصره الأسس الأولى التى قامت عليها العمارة الأندلسية المغربية فى العصور التالية •

وكان بقرطبة — عدا هذا المسجد الجامع — مساجد أخرى أقل أهمية بلغ عددها — على حد قول بعض المؤرخين — نحو ٣٨٧٧ مسجدا ، وقيل ١٦٠٠ مسجد • ولم يتبق اليوم من جميع هذه المساجد سوى ثلاث مآذن هى اليوم أبراج كنائس سان خوان وبسانتا كلارا

قرطبة

وسانتياجو • ويغلب على الظن أنها ترجع الى عصر عبد الرحمن الأوسط،
الذى أقام عددا كبيرا من المساجد في قرطبة والأندلس ، والذي أغرمت
جواريه ببناء المساجد وفعل الخير •

هذه هي قرطبة قاعدة الأندلس ، وقطبها وقطرها الأعظم ، نقص
لنا آثارها ما بلغت في عهد المسلمين من بهاء وازدهار ، وتخلد لنا صفحة
من أروع صفحات تاريخها الاسلامى المجيد •

مدينة الزهراء

المدن الاسلامية في الأندلس نوعان : الأول يشتمل على المراكز العمرانية السابقة على الفتح الاسلامي ، مثل مدينة قرطبة التي سبق أن تحدثنا عنها . والثاني المدن التي أسسها المسلمون بعد الفتح . ولقد شاهد المسلمون ، عند فتحهم الأندلس ، بلادا غنية موفورة الرخاء : ما ضيها مجيد ، وعمرانها متقدم مزدهر . . . فأحسوا عندئذ بالحاجة الى الاستقرار فيها . اذ وجدوا في هذه المدن المأهولة من قبل نظاما ممتازا من الطرق التجارية ، فاهتموا بها غاية الاهتمام ، وسرعان ما عربوها ، وأنشأوا فيها المساجد الجامعة والمدن والقصور . وأصطبغت هذه المدن بالصبغة الاسلامية .

ثم أقام المسلمون بعد ذلك مدنا اسلامية بحثة : أما حربية رغبة في دعم نظامهم الدفاعي أمام محاولات الاسبان المستمرة للتحرر ، مثل : مدينة قلعة رباح (Calatayud) ومدينة قلعة أيوب (Calatrava) ومدينة حصن القصر (Aznalcázar) وحصن الفرج (Aznalfarache) ومدينة القليعة (Alcolea) ومدينة القلعة (Alcala) وغيرها وأما مدينة أميرية يقصدها الأمراء لطلب الراحة والتمتع بملذات الحياة بعيدا عن أنظار رعيتهم بالعاصمة ، مثل : مدينة الزهراء ، ومدينة الزاهرة ، ومدينة العامرية .

ولقد أمدتنا المدونات التاريخية العربية بمعلومات قيمة عن بناء هذه المدينة الخلافية ، وعن الفترة التي ازدهرت فيها وعم بها الرخاء ، ثم عن الأسباب التي أدت بها الى الزول ، فأنحدرت سريعا الى القبر وكانت لاتزال في مقتبل عمرها (ويروى المؤرخون قصة بناء هذه المدينة فيما يشبه الأساطير ، فيذكرون أن عبد الرحمن الناصر لدين الله ماتت له

مدينة الزهراء

محظية وتركت مالا كثيرا ، فأمر أن يفك بذلك المال أسرى المسلمين ، وطلب في بلاد الافرنج أسيرا فلم يجد ، فطلبت منه جاريته الزهراء — وكان مغرما بها — أن يبتنى لها بهذا المال مدينة تسمى باسمها ، فحقق لها هذه الرغبة ، وشرع في بناء مدينة الزهراء ، سنة ٣٢٥ هـ (٩٣٦ م) ، على بعد خمسة أميال غربى قرطبة ، وأتقن بناءها ، وأحكم الصنعة بها ، واتخذها مقرا للخلافة وسكنا للزهراء ، ورجال خاصته ، ونصب تمثال الزهراء على بابها الرئيسى ، وجلب لها الرخام الأبيض من المرية ، والمجزع من رية ، والوردى والأخضر من سفاقس وقرطاجنة، كما أحضر لها من القسطنطينية حوضا من الرخام منقوشا بالذهب عليه رسوم بارزة ، وأمر بنصبه في وسط قصر المؤنس من قصور المدينة ، وأقام عليه اثني عشر تمثالا .

ثم أقام قصر الخلافة ، وجعل قراميده ذهبا وفضة ، وأقام في وسطه صهريجاً مملوءاً بالزئبق . وفتح في كل جانب من جوانب هذا القصر ثمانية أبواب ، ملبسة كلها بالحديد والنحاس المموه ، انعقدت على حنايا من العاج والأبنوس المرصع بالذهب وأصناف الجواهر ، وقامت على عمد من الرخام الملون والبللور الصافى . وكانت أشعة الشمس تنعكس على مرآة الزئبق فتحدث بريقا يخطف الأبصار ويأخذ بمجامع القلوب .

وقد بالغ مؤرخو العرب في وصف روائع تلك القصور وما احتوته من مظاهر الترف والثراء ، مما لا يمكن أن يصدقه العقل ولا يستسيغه المنطق . غير أن ما أسفرت عنه الحفائر الأثرية ، أثبت بصورة قاطعة صدق هذا الوصف ، فكشف عن قطع من أجمل ما أبدعه فن النحت في الرخام والجص في الأندلس في العصور الوسطى ، كما كشف عن جزء كبير من تمثال رخامى يمثل جسم امرأة لعله تمثال « الزهرة » (Venus) الذى كان يقوم فوق باب المدينة .

كذلك أمر عبد الرحمن الناصر ببناء مسجد بالمدينة ، فتم بناؤه في أقل من شهرين . وكان فناؤه مفروشا بالرخام ، كما كانت في وسطه

نافورة تندفع منها المياه • وأمر الناصر أيضا باتخاذ منبر بديع لهذا المسجد ، فصنع في نهاية الحسن والاتقان ، وأقيمت حوله مقصورة من الخشب المنقوش من الظاهر والباطن •

واتخذ الناصر كذلك في مدينة الزهراء دورا لصناعة آلات الحرب والحلى وأدوات الزينة • وكانت الزهراء مركزا هاما لصناعة العلب العاجية : ففي كنيسة فتييرو ، بمنطقة نافارة ، علبة مستطيلة من العاج مزينة كلها بتوريقات ، ومنقوش عليها بالخط الكوفي العبارة الآتية : « بسم الله : بركة من الله ويمن وسعادة وسرور ونعمة للحبيب ولادة ، مما عمل بمدينة الزهراء سنة خمس وخمسين وثلاث مائة ، عمل خلف » •

وفي متحف بلنسية دي دون خوان بمدير علبة عاجية مستطيلة الشكل أيضا عليها نقش يشبه النقش السابق ، وفيه ذكر لمدينة الزهراء التي عملت فيها العلبة •

ولم يتم بناء مدينة الزهراء في عهد عبد الرحمن الناصر ، فأتمها ابنه الحكم المستنصر من بعده سنة ٩٧٦ م • وظلت الزهراء في ازدهار حتى سقطت الخلافة الأموية بالأندلس ، فهاجمتها حشود البربر في ٤ من نوفمبر سنة ١٠١٠ م بقيادة سليمان المستعين ، واقتحموا المدينة عنوة ، وتبع ذلك مذبحه دامية قضا فيها على حامية المدينة ، وقتلوا رجالها ونساءها ، ونهبوا دورها وقصورها ، وأضرموا فيها النيران ، فأحرقت وخربت وأصبحت أثرا بعد عين • وفيها يقول الشاعر السميصر :

وقفت بالزهراء مستعبرا

معتبرا أندب أشناتنا

فقلت : يا زهرا ، ألا فارجمي

قالت: وهل يرجع من ماتا ؟

يديقة الزهراء

فلم أزل أبكى وأبكي بها
هيهات يغنى الدمع هيهات !

وصارت الزهراء أكواما من الخرائب وتلالا من الأطلال ، وكانت
جدرانها الخربة قائمة في عهد المعتمد بن عباد •

ويذكر الفتح بن خاقان في كتابه « قلائد العقيان » أن المعتمد قصد لها
هو ونفر من أصحابه ووزرائه « وما زالوا ينتقلون من قصر الى قصر ،
ويبتذلون النصوص بجنى وهمر ، ويتوقلون في تلك الغرفات ، ويتعاطون
الكنوس بين تلك الشرفات ، حتى استقروا بالروض ••• وأثار الديار قد
أشرفت عليهم كئالي ينحن على خرابها ، وانقراض أترابها وأطرابها •
والوهى بمشيدها لاعب ، وعلى كل جدار غراب ناعب • وقد محت
الحوادث ضيائها ، وقلصت ظلالها وأفياءها • وطالما أشرقت بالخلائف ،
وابتهجت وفاحت من شذاهم وتأرحب ••• فأضحت ولها بالتداعي تلفع
واعتجار ، ولم يبق من آثارها الا نوذى وأحجار ••• وقد وهت فبابها ،
وهرم شبابها » •

ثم يقول الفتح بعد ذلك : « وغدت تلك المعاهد تصافحها أيدي الغير ،
وتناوحها نعبات الطير ، وراحت بعد الزينة سدى ، وأمست مسرحا للبهوم
وملعبا للصدى » •

وقد تنوقلت عن روائع هذه المدينة روايات ساقها المؤرخون
والجغرافيون العرب والاسبان ممن بهرتهم روائعها الفنية • واجتذبت
أكوام الخرائب والارتفاعات ، التي كانت تضم بين أحشائها بقايا قصور
الزهراء ، اهتمام رجال الآثار في العصر الحديث بعد أن ظلت ، حتى مطلع
القرن الماضي ، محاجر غنية تستخرج منها الأحجار وتيجان الأعمدة
لتزيين دور قرطبة واشبيلية •

وفي عام ١٩١٠ أجرى ألسنيور فيلاسكت بوسكو في خرائبها أول حفائر علمية كشفت عن كميات ضخمة من الخزف ذي البريق المعدني ، وقطع كثيرة من الرخام ، وأدت الى الاهتداء الى قصر الحكم المستنصر . وتتابع الأبحاث الأثرية في بطن شديد على أيدي كبار الاثريين الاسبان — أمثال السنيور فيليث هرناندث ، والسنيور كاستخون — فُكشفت عن آثار قصر من قصور الناصر سنة ١٩٤٣ ، وهي آثار غنية بالزخارف المحفورة في الحجر والرخام . ووجد اسم عبد الرحمن الناصر منقوشا على نيجان من الرخام ، كما أمكن قراءة أسماء مهندسي القصور وعرفائها — أمثال أفلح ورشيق ونصر — من صقالبية عبد الرحمن الناصر وفتيانه . وما زالت الأبحاث الأثرية جارية في وقتنا هذا ، وما زال السنيور فيليث هرناندث يواصل ترميماته لقصر الناصر في أناة وصبر ، فاستطاع أخيرا أن يكسو جدرانه بالقطع الحجرية المبعثرة التي كانت مطمورة في الأطلال ، بعد أن قام بلصق أجزاءها بعضها ببعض ، مراعيًا في ذلك تناسب الزخارف وتناسقها ، ونجح في إعادة تنظيم هذا القصر بمثل الصورة التي كان عليها أيام الخلافة الأموية في الأندلس .

ويمكننا أن نستنتج من الاكتشافات الأثرية بالزهراء أن قصورها نوعان : الأول يتبع نظام الدار التي تقوم على فراغ مركزي هو الفناء ، وتتوزع حوله سائر الغرف . والثاني يتبع نظام القصور الفارسية ، ويتألف من بلاطات متوازية ، يفصل بعضها عن بعض صفوف من الأعمدة تقوم عليها عقود وحنايا كما هو الحال في المساجد .

وكانت أرضيات مجالس هذه القصور وقاعاتها مكسوة جميعا بقراميد الأجر المرصعة بالأحجار البيضاء في أشكال هندسية غاية في الروعة والجمال . وتكشف لنا نيجان الأعمدة وطونفها وقواعدها وبعض اللوحات عن فن رفيع في الحفر الغائر . وينحو هذا الفن في أسلوبه نحو التقاليد البيزنطية حين ينساب الحفر الى عمق كبير ، مما يؤدي الى

مدينة الزهراء

اكساب الزخرفة نوعا من التباين الحاد بين الظل والضوء • هذه انتفايد
البيزنطية دليل مادي قوى على تغلغل التأثيرات البيزنطية والهينية في
الفن الخلافي بالاندلس • ويؤيد ذلك ما رواه المؤرخون من أن امبراطور
بيزنطة بعث صنعا جهازة الى مدينة قرطبة ، وأن هؤلاء الصناع علموا
الفنانين الاندلسيين أسرار صناعتهم فأربوا عليهم وفاقوهم •

طليطلة

طليطلة تعريب لاسم « توليدوث » (Tholedoth) ، وتقع على نسر منيع عظيم الارتفاع ، تحيط به أودية عميقة وأجراف غائرة ، تتدفق فيها مياه نهر تاجه • ويحيط وادي تاجة بطليطلة من ثلاث جهات مساهما بذلك في حصانتها ومنعتها • وكان العرب يسمون طليطلة مدينة الأملاك لأنها كانت دار مملكة القوط ومقر ملوكهم •

وطليطلة مدينة قديمة للغاية ، يحيط بأصلها الغموض • ويغلب على الظن أنها بنيت زمن الاغريق • ومما لاشك فيه أن بناءها يسبق مقدم الرومان ، فقد حاصرها القائد الروماني ماركوس فولفيوس نوبليور (Marcus Fulvius Nobilior) واستولى عليها سنة ١٩٠ ق م • ولم يتحمل سكانها أول الأمر جفوة الرومان ، فسرعان ماثاروا عليهم ، وهزموا حاكمها الروماني كايوس كالبورنيوس بيزون (Caius Calpurnius Pison) الذي خلف فاتحها فولفيوس سنة ١٨٦ ق م • ولكنهم ما لبثوا أن خضعوا أخيرا للرومان ، واستسلمت المدينة للفاثحين •

وازدهرت طليطلة في عهد الرومان ، وازدادت أهميتها بالنسبة لهم ، فحصنوها بالأسوار ، وأقاموا فيها المسرح الكبير والجسر الأعظم ، وغير ذلك من الأبنية الرائعة التي اشتهرت بها العمارة الرومانية • ولما انتشرت المسيحية في اسبانيا ، أقام سان أيوجينو (San Eugenio) بطليطلة مركزا أسقفيا • واستشهد من قديسيها عدد كثير ، نخص بالذكر منهم القديسة ايوكاديا (Santa Leocadia) العذراء التي ذبحها سنة ٣٠٦ داثيانو المتوحش (Daciano el Feroz)

الا أن الامبراطورية الرومانية لم تلبث أن اجتاحتها القبائل المتبربرة انتى تدفقت على أملاكها كالسيول المدمرة ، ولم تنج اسبانيا من ذلك على الرغم من أن طليطلة استطاعت أن تعتمص في حصونها وتحفظ لنفسها

طليطلة

باستقلال داخلى • واستقر القوط الغربيون فى قطاع طركونة وجنوب غالة ، وأخذوا يوجهون من هذه المراكز غاراتهم فى قلب اسبانيا • ونجح ايوريكو (Burico) فى ضم طليطلة ، قاعدة اقليم كاربثانيا ، الى ملكه • وارتفعت طليطلة فى عهد الملك أتاناخيلده (Santa Leocadia) الى الذروة وزودها ملوك القوط من بعده بآثارهم الجليلة ، وسموها «المدينة الملكية» •

ولم يلبث تاريخ اسبانيا ، منذ أن نبذ الملك ريكاريو (Recaredo) المذهب الآرى واعتنق المسيحية ، أن أصبح جزءا لا يتجزأ من تاريخ طليطلة عاصمة البلاد • وشهدت المدينة الملكية أحداث العهد القوطى من خلافتات بين ليوفخلدو (Leovigildo) وهرمنخلدو (Hermenegildo)

ومساوىء حكم فيتيريكو (Witerico) وغيطشة (Witza) وأقيم بها فى هذا العصر كثير من البازيليكاات والكنائس : مثل كنيسة سانتا مارييا (Santa Maria) وسانتا ليوكاديا (Santa Leocadia) وسان بدرو (San Pedro) وسان بابلو (San Pablo) ، وعمرت نواحيها بالأديرة الشهيرة : مثل دير سان كوزمى (San Cosme) وسان داميان (San Damian) وازدهرت فيها العلوم والآداب •

وكان من أجل علمائها كوناثيو (Conancia) والقديس الدهنسو (Ildenso) وأيوخينو الثالث (Eugenio III) • واجتمعت فى طليطلة المجالس العلمية الشهيرة ، وأثرت فى عهد القوط ثراء لم تشهده من قبل ، يدل على ذلك عظم ما غنمه المسلمون عند فتحهم لها •

وكان رودريجو (Rodrigo) آخر ملوك القوط ، مشغولا باخماد ثورة قام بها أهالى مدينة بنبلونة ببلاد البشكنس ، حين وصلته أنباء الفتح الاسلامى ، ونزول جيوش المسلمين بجبل طارق سنة ٧١٢ م فعظم عليه الأمر ، واتجه بجيوشه جنوبا للملاقاة المسلمين بقيادة القائد البربرى

طليطلة

طارق بن زياد • والتقى الجيشان في واقعة وادى لكّة ، وانتصر المسلمون انتصارا ساحقا على جيوش القوط ، وتقدم طارق بجيوشه نحو الشمال فاتحاً مدن شذونة ومدور وقرمونة واستجة ، ولم يلق المسلمون بعدها مقاومة تذكر • وانتهى طارق الى طليطلة ، دار مملكة القوط ، فألفاها خالية قد فر عنها أهلها ، فاستولى عليها ، وغنم فيها غنائم طائلة أحصاها المؤرخون •

ويروى بعض مؤرخى العرب أن موسى بن نصير والى المغرب الذى اشترك مع طارق في فتح الأندلس « كان يجر الدنيا مما احتمله من غنائم الأندلس من الأموال والامتعة حين عاد الى الشام » • وقيل انه حمل معه من الذخائر والجواهر ونفيس الامتعة ما لا يقدر قدره • وقيل انه غل جوهرا عظيم القدر أصابه ، ولم تحو الملوك من بعد فتح فارس مثله • وقال ابن حيان أن مائدة سليمان التى غنمها طارق ، عقب فتحه لطليطلة ، كانت مصوغة من خالص الذهب ، مرصعة بفاخر الدر والياقوت والزمرّد ، لم تر العين مثله •

وورد في تاريخ عبد الملك بن حبيب أن أبا شيبة الصدفي قال : « لقد نظرت الى رجلين يحملان طنفسة منسوجة بالذهب والفضة واللؤلؤ والياقوت ، فلما ثقلت عليهما أنزلاه ، وحملا عليها الفأس فقطعاها نصفين ، فأخذا نصفاً وتركوا نصفاً • ولقد رأيت الناس يمرون عليها لا يلتفتون اليها اشتغالا بما في أيديهم مما هو أرفع منها » • كل ذلك يدل دلالة واضحة على مدى ما كانت تتمتع به طليطلة في العصر القوطي من رخاء وثراء •

وظلت طليطلة بعد الفتح الاسلامي تتمتع بتفوقها السياسى والكنسى على سائر مدن الأندلس ، ولكنها ما لبثت أن فقدت هذا التفوق ازاء السيادة التى فرضتها عليها قرطبة ، عاصمة الأندلس في عهد بنى أمية • وكانت طليطلة تضم أكبر طائفة من المستعربين والمولدين واليهود ، ونعنى

طليطلة

بالمستعربين أفراد الشعب الاسباني الخاضع للعرب مع احتفائه بدينه ونظمه ، وكانت مزاجا لعناصر وتقاليد لاتينية وقوطية وأخرى عربية •

وساهم موقع طليطلة الاستراتيجى على نهر تاجه ، واحاطته لها من ثلاث جهات ، فى مناعتها ... فلم تسور الا فى جهة الشمال فقط • وفتح فى هذا السور الشمالى بابان : أحدهما شرقى ويعرف بباب القنطرة (Puerta Adabaquin) ، لأنه يفضى الى قنطرة وادى تاجه ، وباب غربى يسمى بباب شاة (Peurta de Visagra) كان قائما زمن الخلافة الأموية ، وسمى باسم المنطقة الخصبة التى يشرف عليها •

وكانت قنطرة طليطلة من عجائب البنيان ، اذ تتألف من قوس واحد تتكنفه فرجتان من كل جانب وفى نهايتها ناعورة ارتفاعها تسعون ذراعا تصعد الماء الى أعلى القنطرة ، ويجرى الماء على ظهرها فيدخل المدينة • وقد هدمت هذه القنطرة فى عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط حين ثار عليه أهلها ، ثم جددتها خلف بن محمد العامرى ، قائد المنصور ابن أبى عامر ، سنة ٩٩٧م •

وقد عبر مؤرخو العرب عن عظمة موقع طليطلة • من ذلك ما ذكره الحميرى فى كتابه « الروض المعطار فى عجائب الأقطار » اذ يقول : « وهى على ضفة النهر الكبير، وقل ما يرى مثلها اتقاناً وشماخة بنيان ، وهى عالية الذرى ، حسنة البقعة » • ثم يقول فى موضع آخر : « ولها من جميع جهاتها أقاليم رفيعة وقلاع منيعة ، وعلى بعد منها ، فى جهة الشمال ، الجبل العظيم المعروف بالشارات » •

وقد كان لطبوغرافية المدينة وطبيعة سكانها أثر كبير فى حركاتهم الثورية المتعددة ، وميولهم الانفصالية عن سلطان قرطبة • ويروى المؤرخ الأندلسى ابن القوطية كيف أوقع الحكم الربضى عام ٧٩٧م بأهل طليطلة ، واستذلهم عندما استخفوا بواليه عمروس الوشقى المولد ...

طليطلة

فقد اتخذ عمرو بن قنبر ، واستدعى فيه وجوه طليطلة ، وأوهمهم أنهم إذا طعم منهم قوم انصرفوا من باب غير الباب الذي دخلوا منه ، وجعلوا كلما دخلوا قتلوا • وقيل أن عدد القتلى يؤمنذ من وجوه طليطلة بلغ نحو خمسة آلاف وثلاثمائة رجل ، فلانت بعد ذلك شوكة طليطلة •

وفي عهد محمد بن عبد الرحمن الأوسط سنة ٢٣٣ هـ ، خرجت عليه طليطلة ، فبرز إليها بنفسه ، واستنجد أهلها بملكي جيلقية والبشكنس • وادى سليطة (Guadacelete) ، وقد أكن لهم فأوقع بهم ، وهزمهم هزيمة نكراء •

ثم انضوت طليطلة تحت لواء الخلافة القرطبية منذ عام ٩٣٠ م بعد سنوات طويلة من الثورات ، وانتظمت أمورها في ظل خلافة عبد الرحمن الناصر ، فازدهر فيها فن العمارة ، وانخرطت من الوجهة الفنية في سلك الأسلوب المعماري الشائع في قرطبة بعد أن دخلت طليطلة في فلك الخلافة الأموية • وازدهرت في عهد الخلافة ازدهارا تدل عليه آثارها المعمارية الرائعة ، وأهمها المسجد المعروف بباب مردوم ، الذي بناه موسى بن علي في المحرم سنة ٣٩٠ هـ (يناير سنة ١٠٠٠ م) من مال أخذ أعيانها أحمد بن حديد •

ولما اشتعلت نيران الفتنة الكبرى عقب سقوط الخلافة بقرطبة ، وقامت دول ملوك الطوائف ••• استقل بنو ذي النون بطليطلة ، وهم أسرة من البربر الذين كانوا في خدمة المنصور بن أبي عامر ، وكان اسم جدهم الذي ينسبون إليه زنون ، فحرف الاسم الى ذي النون أو دنون • وارتفع شأنهم ، وذاع صيتهم في عهد المنصور ، وقادوا جيوشه ، واستقروا بكورة شنتبرية •

ولما تولى عبد الملك بن متيوة أمر طليطلة ، وأساء الى أهلها ، خلعه

واتفقوا فيما بينهم على تولية عبد الرحمن بن ذى النون ، فوجه اليها ابنه اسماعيل ، فاستولى عليها وعلى ما يحيط بها من مدن وقرى ، واستنقام له الأمر فيها ، وترك شئون المدينة الى شيخها أبى بكر الحديدى ، وكان من أهل انعلم والذهاء . ثم توفى اسماعيل وخلفه ابنه المأمون يحيى بن اسماعيل ، فجرى على سنن أبيه فى اتباع العدل ، فتوطد سلطانه ، وعظم ملكه . وقام فى عهده نزاع بينه وبين ابن هود صاحب سرقسطة ، ودام هذا النزاع من عام ١٠٤٣ م الى عام ١٠٤٦ م ، وانتهى بموت سليمان بن هود .

ولما توفى المأمون يحيى سنة ١٠٧٤ م ، تولى حفيده القادر بالله يحيى . وفى عهده ثار عليه أهل طليطلة لقتلة ابن الحديدى ، وأرغموا ابن دى النون على الرحيل منها . فاستعان هذا بالفونسو السادس ملك قشتالة لاسترداد ملكه . وأقبل الفونسو بجيوشه ، وحاصر المدينة ، ودخلها واغتصبها من القادر بالله ، فخرج له عنها فى سنة ١٠٨٥ م مقابل مظاهرات الفونسو له على بنسية . وفى سقوط طليطلة يقول الشاعر عبد الله بن فرج اليخصبى :

يا أهل أندلس حثوا مطيكم
فما المقام بها إلا من الغلط
الثوب ينسبل من أطرافه وأرى
ثوب الجزيرة منسولا من الوسط

والتقد بلغت أسرة ذى النون فى البذخ والترف الغاية ، وأقام ملوكها القصور السامقة ، والآثار الجليلة الرائعة ومن بينها القصر الذى بناه المأمون يحيى ، وقد تأنق فى بنائه ، وأنفق فيه مالا كثيرا ، وصنع فيه بحيرة ، بنى فى وسطها قبة ، وسبق الماء الى رأس القبة على تدبير أحكمه المهندسون ، فكان الماء ينزل من أعلى القبة حولها . وكانت من قاعات هذا

طليطلة

القصر قاعة تعرف بالمجلس المكرم ، كسيت جدرانها بأزر من المرمر الأبيض ، ونقشت جميعا بالتوريقات المحفورة في الجص •

وكان للمأمون قصر آخر يعرف بمجلس الناعورة ، وهو قصر ريثي ينساب الماء حول قاعاته بين الأعشاب • وأمام إحدى هذه القاعات بركة تلمرأة نصبت عليها تماثيل أسود تمج المياه من أفواها •

وبطليطلة اليوم آثار قصر عربي يعرف بقصر جاليانا ، ويغلب على انظر أنه المنية أو قصر الناعورة الذي بناه المأمون • • • وقد بلغت حضارة طليطلة الذروة في عهد أسرة ذي النون ، واشتهرت بعلمائها في الفلك والرياضة ، كما عرفت بصناعة الأسلحة وصناعة العلب العاجية وعمل الاصطrolابات •

وشرع ألفونسو السادس ، بعد عشرين عاما من سقوط طليطلة ، في نبير المسجد الجامع بها سنة ١١٠٤ م ، فنصب في مؤذنته ناقوسا تأنق في ابداعه • وكانت التأثيرات الفنية الاسلامية على المجتمع المسيحي قد تأسلت منذ سقوط طليطلة في أيدي النصارى • وقد أباحت معاهد التسليم في طليطلة للمسلمين الاقامة مع المسيحيين في أحيائهم دون اتخاذ أحياء خاصة بهم ، كما حدث في المدن الاسلامية الأخرى التي سقطت في أيدي القشتاليين ، وضمنت اقامة المسلمين في طليطلة ، تحت حكم المسيحيين ، استمرار النظم الاسلامية في الزراعة والصناعة وشن البناء • وكان المسلمون يؤلفون اليد العاملة في كل هذه الميادين ، فساد الأسلوب المدجن في الفنون والعمارة ، وغلب على غيره من الفنون المسيحية •

ولا نعرف عن النظام الذي عليه طليطلة في القرن العاشر الميلادي سوى معلومات ضئيلة لا تفي بمحاولتنا دراسة تخطيطها الاسلامي • • • خاصة وقد تغيرت المدينة على مر العصور • وأغلب هذه المعلومات استقينها من اشارات عابرة وردت في كتب التراجم ، وما ذكره الحميري

طليطلة

في كتابه «الروض المعطار» • وقد سبق أن ذكرنا موقع المدينة وأثره في تحصينها والأبواب التي تنفتح في سورها الشمالي •

وكان يتوسط المدينة مسجدها الجامع الذي تقوم على بقعته اليوم كاتدرائية طليطلة ، وإلى الشمال الشرقي للمسجد يقع سوق الدواب ، المعروف اليوم باسم (Zocodover) وكان يلي باب القنطرة غربا • وقد تبقى منه اليوم عقد كبير على شكل حدوة الفرس كان أحد عقود أربعة تنفتح في جدران هذا السوق المربع • وإلى جانب البابين اللذين ذكرتهما فيما سبق ، واللذين يفتحان في السور الشمالي ، بابان جنوبيان آخران يتسرفان على نهر تاجه ، هما بابا الحديد والدباغين • واسم هذا الباب الأخير محفوظ حتى يومنا هذا باللغة الإسبانية (Peurta Adabaquin) وقد ذكره المقرئ في كتابه نفح الطيب عند ذكره لحوضين أقامهما الخليفة عبد الرحمن الناصر في بيت مشيد داخل النهر الأعظم •

وقد استطعنا — بفضل الوثائق العربية التي نشرها المستشرق الأسباني آنخل جونثالث بلنسية — دراسة بعض حومات المدينة ودروبها في القرنين الثاني عشر والثالث عشر • وكانت أهم هذه الحومات : حومة الجامع ، وكانت تتوسط المدينة ، وبداخلها حارة الصباغين وحارة البئر المر ، التي كانت تسمى في القرن الحادي عشر باسم رحبة القشالي • وكان بداخل هذه الحارة حمام يعرف بحمام «يعيش» ، ذكر اسمه في وثيقة ترجع إلى سنة ١١٩٧ •

ويقع حي العشابين بالقرب من المسجد الجامع ، اذ ورد ذكره في وثيقة مؤرخة سنة ١١٧٠ • ويمتد ربض الافرنج من المسجد الجامع جنوبا • وكان بهذا الربض أسواق كثيرة ، منها : سوق العطارين ، والكمادين ، والصرافين ، والحصارين ، والجامين •

طليطلة

ويقع مسجد المسلمين — وهو مسجد كان يؤدي فيه المدجنون شعائر دينهم — بالقرب من سوق الكمادين • وما زال هذا المسجد قائما حتى يومنا هذا • أما ربض اليهود فكان يقع غربى مدينة طليطلة ، وكان يعرف بالربض البرانى لأنه يتجاوز المدينة • ويذكر ابن بشكوال اسم مندلقة كانت تعرف بالحزام من طليطلة ، ومنطقة خارجها تعرف بالجبل البارد ، وأخرى بالدباغين •

وتذكر الوثائق العربية أن بشمال طليطلة ربضها الشهير ، ويقع فيما بين بابى مردوم (Val Mardam) وشاقرة • وكان بطليطلة مساجد كثيرة ، ذكر ابن بشكوال منها مسجد ابن ذنى القاضى ، وكان قائما بالحزام من طليطلة ، ومسجدين أقامهما فتح بن ابراهيم الأموى المعروف بابن القشارى : أحدهما بالجبل البارد ، والثانى بحى الدباغين •

المريسة

المريسة مدينة اسلامية البناء ، محدثة الانشاء ، أمر ببنائها الخليفة عبد الرحمن بن محمد ، الملقب بالناصر لدين الله ، سنة ٣٤٤ هـ (٩٥٥ م) واسمها مشتق من وظيفتها ، اذ كانت تتخذ مرأى ومرصدا بحريا لمدينة بجانة القريبة منها ، والتي لا تبعد عنها سوى أربعة أميال غربا . وكان يسكن بجانة منذ الفتح الاسلامى للأندلس بعض القبائل العربية اليمنية . فلما قامت دولة بنى أمية بالأندلس ، كان لا بد أن تظهر ، منذ اللحظة الأولى ، كدولة بحرية : بسبب طبيعتها الجغرافية ، وعزلتها بالنسبة للعالم الاسلامى فأنزلوا بنى سراج القضاة في هذا الاقليم ، وجعلوا اليهم حراسة ما يليهم من البحر ، ومراقبة الساحل خشية نزول المخوس أو الأزدمانيين (النورمانديين الذين كانوا يغيرون على سواحل الأندلس) فسمى الاقليم « أرش اليمن » أى عطيتهم ، وكانوا يتمتعون مقابل ذلك باستغلال مياه نهرها المعروف بوادى أندرش ، أو وادى بجانة ، وكان من أفرج الأدوية .

ويذكر الحميري أنه لما نزل البحريون (١) بجانة ، وتغلّبوا على ما كان فيها من العرب ، وصار الأمر لهم جمعوا الحارات المتفرقة بهذه المدينة وبنوا سورها . وما لبثت بجانة أن أصبحت ، منذ أن استقر بها البحريون سنة ٢٧١ هـ (٨٨٤ م) ، مدينة عظيمة ، فأمرها الناس من كل مكان فرارا من الفتن التى اشتعلت نيرانها وقتئذ فى الأندلس . وكانت

(١) هم بحارة اندلسيون مولدون ويستعربون ، كانوا يجوبون البحر من سواحل افرقيا الشمالية وسواحل اسبانيا الجنوبية الغربية . ويذكر ليقي بروميسال أنهم أقاموا بمدينة تنيس من موانئ الغرب ، واختاروا لهم فى المنطقة الواقعة شرقى بجانة ، والمعروفة بحرية بجانة ، قاعدة لهم فى اسبانيا .

الميرة وخروب المرافق والتجارات تجلب اليها من العدو (٢) • وكان ذلك سببا من الأسباب الداعية الى قصدها واستيطانها • ثم أصبح لبجانة أسطول يرسو على شاطئ المرية •

ولما قدم الجوس الى المرية ، وأغاروا على ساحلها ، ابتليت فيها المحارس ، وكان الناس ينتجعونها ويرابطون فيها واتسعت المرية ، وازدهرت ، وأصبحت هي وبجانة — على حد قول ياقوت الحموي — بابي الشرق • منهما يركب التجار ، وفيهما تحل مراكبهم • وتمدت المدينتان برعاية الأمير عبد الرحمن الأوسط • ثم أخذت بجانة تفقد أهميتها شيئا فشيئا منذ عام ٣١٠ هـ (٩٢٢ م) ، وأخذت تتنازل للمريسة تدريجا عن مكانتها السامية • وتقدمت المرية ، وانتقلت اليها قاعدة الاقليم وأقيم بها — في عهد عبد الرحمن الناصر — كثير من المنشآت العمرانية والمعمارية ••• حتى اتخذت في أيامه طابع المدن وحاطها بسور منيع ، وأقام بها القلعة الحصينة المعروفة بقلعة خيران ، نسبة الى الفتى خيران العامري الذي ولاه عليها المنصور بن أبي عامر فيما بعد ••• كذلك أقام بها عبد الرحمن الناصر دارا لصناعة قطع الأسطول •

وارتفعت المرية في عهد الحكم المستنصر الى مصاف انحواضر الأندلسية الكبرى ، وأصبحت أهم موانئ اسبانيا الاسلامية في القرن العاشر الميلادي • وكان يرسو في خليجها العميق أغلب وحدات الأسطول الأندلسي في العصر الاموي ، واتخذها قائد البحر في الأندلس عبد الرحمن ابن الرماحس قاعدة له للارساء والاقلاع •

والواقع أن خلفاء بنى أمية اهتموا باصطناع سياسة بحرية ، وعملوا على اعداد أسطول قوى يدفع عن الأندلس الأخطار الناشئة من غارات

(٢) هي الجهة المتابلة لجبل طارق من ساحل إفريقية ، ونعني بها منداقة طنجة وسبتة •

المرية

المجوس والغزو الفاطمي المرتقب على السواء • وقد اهتم عبد الرحمن الناصر خاصة بتجهيز هذا الأسطول • ويذكر ابن خلدون في مقدمته « أن أسطول الأندلس انتهى في أيامه الى مائتي مركب أو نحوها » • وأمر عبد الرحمن سنة ٣٠٢ هـ (٩١٤ م) بانقاذ هذا الأسطول الى مضيق جبل طارق ليمنع عن ابن حفصون الشائر في ببشتر (Babastro) تلقى الامدادات من الساحل الافريقي وكان لأسطول عبد الرحمن الفضل الأكبر في استيلائه سنة ٣١٤ هـ (٩٢٧ م) على مليلة وسبتة • ومنذ ذلك الحين أخذ الأسطول الحربى الأموى يسدد ضرباته الى الممتلكات الفاطمية في بلاد المغرب •

وأمر الخليفة عبد الرحمن الناصر سنة ٣٤٤ هـ (٩٥٥ م) ببناء مركب كبير للغاية في دار الصناعة بالمرية ، وخصص هذا المركب لنقل البضائع الى المشرق • وقد استطاع بحاره هذا المركب أن يستولوا على مركب آخر من صقلية كان يحمل بريدا للمعز الفاطمي ، مما اضطر المعز الى ارسال أسطول يقوده الحسن بن على حاكم صقلية الى المرية ، فنزل شاطئها سنة ٣٤٤ هـ (٩٥٥ م) وأحرق ما كان راسيا به من مراكب • ونزل فريق من البحارة الفاطميين الى المدينة ، فأحرقوا ودمروا كل ما صادفهم في طريقهم ، وأسروا عددا كبيرا من الأهالى ، وحملوهم معهم الى سقاية • وقد عمد غالب ، قائد عبد الرحمن الناصر ، الى الرد على تلك الحملة الفاطمية ، فأغار في ستين سفينة على مرسى الخرز ، ودمر كل منطقة سموسة •

واحتفظت المرية ، في عصر ابن أبى عامر ، بالمركز السامى في السيادة البحرية • واستخدم المنصور بعض وحدات هذا الأسطول في حملاته على ساحل قطلونية وجليقية سنة ٣٧٤ هـ (٩٨٥ م) وسنة ٣٨٧ (٩٩٧) • واشتهر من قواد البحر في المرية القائد أبو عبد الله محمد بن ميمون •

المريّة

وكانت المريّة ، بالاضافة الى كونها قاعدة للأسطول الحربى الأندلسى ، مركزا للسفن القادمة من المشرق • وكانت تقصدها السفن التجارية من جميع بلاد البحر الأبيض المتوسط من الاسكندرية وانشام ذلك • ولم يكن بالأندلس كلها أيسر من أهلها ، ولا أتعرج منهم فى الصناعات وأنصاف التجارات تصريفا وادخارا • وكانت تشتهر بصناعات المنسوجات وكان بها ، على حد قول الادريسي : « من طرز الحرير ٨٠٠ طراز يعمل بها الحل والديباج والسقلاطون والاصبهانى والجرجانى والستور المكثلة والثياب المعنية والخمر العتابة والمعاجر ، وصنوف أنواع الحرير • وكان يصنع بها من صنوف آلات النحاس والحديد الى سائر الصناعات ما لا يحصى ولا يكفى » •

ويذكر ياقوت « أنه كان يعمل بها الوشى والديباج فيجداد عمله ، ولم يثقف فى الأندلس من يجيد عمل الديباج أجادة أهل المريّة » • كذلك انفردت المريّة بصناعة الزجاج والفخار المذهب والمزجج • وهكذا يشهد مؤرخو العرب وجغرافيوهم بعظمتها الصناعية • وكان مينائها يزخر بالأجفان (المراكب) الغزوية الخاصة بالحروب والغارات ، والمراكب التجارية المختلفة •

أما دار الصناعة بالمريّة فقد ظلت فى أتم حالات نشاطها حتى منتصف القرن الرابع عشر الميلادى على الأقل ، وهو الوقت الذى كتب فيه ابن فضل الله العمري • فقد ذكر أن بالمريّة داراً لصناعة الأسطول الذى يخرج منها لغزو الافرنج • ويغلب على الظن أنها استمرت فى إنتاج السفن والأجفان الحربية فى عهد دولة بنى نصر ، حتى سقوطها فى أيدي القشتاليين فى فبراير سنة ١٤٩٠ م •

وكانت دار الصناعة بالمريّة تقع — وفقاً لما ذكره أسقف نيبو ، واسمه « أجوستين خستينيانى » — بالقرب من البحر • وكانت تتسع لعدد كبير

المرية

من السفن ، وكانت آثارها ما تزال قائمة في أيامه • وما زال الشارع الذى كانت تقوم فيه دار الصناعة معروفا باسم شارع دار الصناعة • وكان هذا الشارع يحتفظ ، حتى طليعة القرن التاسع عشر ، ببلاطة طولها يتجاوز مائة متر ، وعرضها ١٥ مترا ، وارتفاعها ثلاثون مترا •

ثم تفككت الوحدة السياسية بالأندلس على أثر سقوط الخلافة الأموية بقرطبة سنة ٤٢٢ هـ (١٠٣١) • واقتسم رؤساء الأندلس — من عرب وبربر وصقالبة — أم مدنها ، وانتحلوا الألقاب التى أخذوا يتباهون بها مقلدين فى ذلك الخلفاء العباسيين ، وتغلب بعضهم على بعض ، واستند بينهم النزاع • وكان ذلك بداية لعصر ملوك الطوائف • واختص البربر بالأقاليم الجنوبية من الأندلس • واستأثر الصقالبة بشرق الأندلس : فكان فى بلنسية الصقليبان مبارك والمظفر ، وفى دانية وجزائر البليار أبو الجيش مجاهد العامرى •

وتغلب على المرية وأعمالها خيران العامرى فتى المنصور بن أبى عامر • وكان قد نال الرئاسة على الصقالبة ، وحظى بالشهرة على سائر ممالك الأمويين والعامرين بعد انقراض الدولة العامرية • وكان ممن نجا من المذابح التى تلت خلع هشام المؤيد واستيلاء سليمان بن الحكم على قرطبة وقتل من قبض عليه منهم ••• هرب خيران من حضرة قرطبة ، وكان قد اتصل به انتزاع أصحابه بشرق الأندلس ، فاتجه اليهم ، وأبت له همته الانقياد لأحد من رؤسائهم • فاستقر بكورة تدمير ، وكتب الى رفاقه بشرق الأندلس يسألهم المعونة لقيامه عنهم بمصاربة البربر ، ومدافعتهم عن كورة تدمير المجاورة لهم ••• ففعلوا •

واستقر خيران بقصر أريولة — وكانت مدينة حصينة تعد مثلا فى الحصانة والمنعة — وأقبل اليه كثير من العامة والصعاليك يؤيدونه • وأقدم بفضلهم على كثير من خطير الشئون وعظيم الأمور ، فاشتهر أمره ، ووجه

المرية

اليه صاحب قرطبة، موسى ابن مروان بن حدير ، حملة ٠٠٠ فانتصر عايه خيران . ثم تغلب على مرسية ، واتجه بعد ذلك الى ضم المرية معقل الأندلس ، وكان يقوم عليها أفلح الصقلي . وكان أفلح هذا يتصف بانعتو والجهالة : قد ذهب به العجب كل مذهب ، ورأى لنفسه الفضل على سائر جنسه بالشيخوخة .

وتقدمت جيوش خيران من مرسية في غرة المحرم سنة ٤٠٥ هـ (١٠١٤ م) ، وتغلب عليها ودخل المرية ، واستولى على القصب ، وقتل أفلح وولده ، وظفر بما وجده فيها من مال وعتاد . واتخذ المرية حاضرة له وقاعدة لسلطانه ، واستوسع فيما يليها من الأعمال ، واستعان على تدبير أمور مملكته بأحد رجاله المعروفين بالدهاء والحكمة ورجاحة العقل ، واسمه عباس بن أبي زكريا . ثم مرض خيران بالمرية وتوفي في جمادى الأولى سنة ٤١٩ هـ (١٠٢٨ م) .

ولما توفي خيران اجتمع ابن أبي زكريا بأهل العقد والحل ، وقدم زهير العامري ، فرضى الناس به . وامتدت أطنا مملكة المرية الى قرطبة ونواحيها الى بياضة . ثم قتل زهير بقرية الفنت خارج غرناطة في موقعة حدثت بينه وبين باديس ملك غرناطة في شوال سنة ٤٢٩ هـ (١٠٣٧ م) . ولما علم أهل المرية بموته أسندوا أمورهم الى الشيخ أبي بكر الرميمي ، فتصبط المدينة الى أن كاتبوا عبد العزيز بن المنصور بن أبي عامر ، فجاءها من بلنسية وضمها اليه .

وعلم بذلك مجاهد العامري صاحب دانية ، فحسده على ذلك ، وأظلم الاق بينهما . فخرج مجاهد غازيا الى مملكة عبد العزيز بن المنصور . وكان عبد العزيز هذا يومئذ بالمرية مشتغلا بتركة زهير ، فترك المرية ليصالح مجاهد ، واستخلف عليها صهره . ووزيره معن بن صمادح . ولم يكد عبد العزيز يغادر المدينة حتى خان معن الأمانة ، وأسقطه عن الإمارة «وتنكب

المرية

التوفيق'أبن أبى عامر لاسترعائه الذئب الأزل على ثلثه • ومستترعى
الذئب أظلم » •

أصبحت مملكة المرية تابعة لمعن بن صمادح • فلما مات قام بالأمر
فيها بعده ولده أبو يحيى محمد بن معن • فارتقى ذروة الامارة ، وتلقب
من الأسماء الخلافية بالمعتصم • ولم يكن المعتصم بن صمادح رجلا يحب
الحروب ، فأخذ الى حياة السلم ، واكتفى بالضيق من السعة ، وقنع
بمملكته الصغيرة • وكان كريما ، جزل العطاء ، أعملت الى حضرته الرحال
واتسع في مدحه المقال ، ووفد الى قصره فحول الشعراء ، أمثال : أمى عبد
الله ابن الحداد ، وابن عبادة ، وابن الشهيد • وكان محبا للفنون والبناء ،
فأقام الكثير من المنشآت ، وابتنى قصرا سماه بالصمادحية ، واستغرق
في حياة الترف وملاذ الحياة — كما فعل غيره من ملوك الطوائف — حتى
بدأ الضعف يدب في جسم دولة الاسلام بالأندلس • وتقدم خطر
الاسترداد الاسباني في قلب اسبانيا الاسلامية ، فاستجد ملوك الطوائف
بالمرابطين (١) ، فقدموا الى نجدتهم ، وانتصروا على جيوش قشتالة
وابيون في واقعة الزلاقة في ٢٣ من أكتوبر سنة ١٠٨٦ •

وشرع ابن تاشفين في ضم الأندلس لنفسه ، ملتصا الأعذار بأن
هؤلاء الملوك الذين عكفوا على الترف ، قد استبدوا برعيته ، وعرضوا
الاسلام للضياع •• فدخل غرناطة في نوفمبر سنة ١٠٩٠ ، وأسقط عبد
الله بن زيرى ، وأخذ يتأهب لالتحام بقية المدن الاسلامية بالأندلس •

جاهر ابن صمادح بعصيان ابن تاشفين حين رأى من طمعه وثوبه

(١) أتباع يوسف بن تاشفين الذي قام ببلاد المغرب ، واستطاع أن يؤسس
دولة بربرية عظيمة تغلبت على الدويلات القائمة بالمغرب ، وقد تعلقبت
آمال أهل الأندلس بنجدته بعد أن ضايقهم ألفونسو السادس ملك
قشتالة وليون في طلب الجزية • فعبّر ابن تاشفين الرقراق ، والتقت
جيوشه مع جيوش النصرارى في واقعة الزلاقة ، وكان الانتصار لحليف
المسلمين •

المرية

عليه ، وآل أمره مع ابن تاشفين الى ما آل اليه أمر ملوك الطوائف الآخرين . فقد اقتحمت جيوش المرابطين مملكته سنة ٤٨٤ هـ (١٠٩١ م) بقيادة سير بن أبي بكر أحد قواد يوسف المشاهير والأمير يحيى بن واسنو وحاصرت المرية . ولما علم ابن صمادح بذلك — وكان معتلا مريضا — غلب عليه المرض ، ونزل به الموت في أثناء حصار المرابطين لقصره ، وتنتغصت عليه ساعاته الأخيرة ، وأوصى ولده وولى عهده معز الدونة أن يتمسك بقصبة المرية ما بقى المعتمد بن عباد ملك اشبيلية متمسكا بمملكته ... فاذا خلع المعتمد ، فليعبر معز الدولة البحر بأهله وولده الى الجزائر .

وتوفى المعتمد في ربيع الآخر سنة ٤٨٤ هـ (١٠٩١ م) . وأقام معز الدولة على المرية وجيوش المرابطين تحاصره ، وامتلأ وصية أبيه ، فلما علم بسقوط المعتمد بن عباد ، وخروجه أسيرا الى أغمات بالمغرب ، أمر رجاله بنقب السور خارج باب موسى الى دار الصناعة ، وركب مع بعض رجاله في قطعة من أسطوله ، وحمل المال والمتاع في مركبين ، وأحرق باقى الأجفان ، ونجا بنفسه وأهله . ودخل المرابطون القصبة واستولوا عليها .

ظلت المرية تابعة للمرابطين حتى ضعف أمرهم وانحطت همهم . فثار عليهم أهل المرية ، وطردها من كان فيها منهم . ثم اختلفوا فيمن يقدمونه على أنفسهم ، فندبوا اليها القائد أبا عبد الله بن ميمون ، قائد الأسطول المشهور ، فأبى عليهم وقال : « إنما أنا رجل منكم ، ووظيفتي البحر وبه عرفت ، فكل عدو جاءكم من جهة البحر فأنا لكم به . فقدموا على أنفسكم من شئتم غيرى » . فقدموا على أنفسهم رجلا منهم اسمه عبد الله بن محمد ، ويعرف بابن الرميضى ، فتولى شئون المدينة الى أن دخلها القشتاليون عنوة من البر والبحر في عام ٥٤٢ هـ (١١٤٧ م) . فقتلوا

أهلها ، وسبوا نساءها ، وانتهبوا أموالها • وحاول الموحدون (١) دخول
المرية وانقاذها وحاصروها ، لكنهم لم ينجحوا في تخليصها من العدو • ثم
نجحوا أخيرا في تخليصها من النصارى بعد أن خضعت زهاء عشرين سنوات
لحكم قشتالة •

وكان أول الولاة عليها ، من قبل عبد المؤمن ابن علي خليفة الموحدين ،
رجلا يقال له يوسف ابن مخلوف • فثار عليه أهل المرية وقتلوه ، وقدموا
على أنفسهم أبا يحيى بن الرميمي ، وأخذها النصارى منه عنوة •

ولما سقطت المرية أقبل إليها السيدان أبو حفص وأبو سعيد ، ابنا
الخليفة عبد المؤمن ، فحاصرا النصارى بها • وزحف اليهما أبو عبد الله
بن مردنيش ملك شرق الأندلس محاربا لهما ، فكانا يقاتلاته ويقاتلان
النصارى معا • ورأى ابن مردنيش أن من العار حقا أن يحارب مسلمين
مثله فرحل عن المرية • وظن النصارى أن بالأمر شيئا فاصطلحوا مع ابني
الخليفة عبد المؤمن • ودخل الموحدون المدينة وقد خربت وضعفت •

وفي أواخر أيام دولة الموحدين ، قام في المرية أبو عبد الله بن
الريمي بدعوة محمد بن يوسف ابن هود الجذامي ملك مرسية ، سنة
٦٢٥ هـ (١٢٢٧ م) ، فولاه ابن هود وزارته بمرسية • إلا أن ابن
الريمي كان يطمع في امتلاك المرية فأغرى ابن هود بتحسين قلعة المرية ،
فولاه ابن هود حاكما عليها • ثم اعتزم ابن هود أن ينقل بعض قواته
بحرا لانقاذ أمير بلنسية أبي جميل زيان ضد الملك جاييم ملك أراجون •
وكان ابن الرميمي يعد العدة للقضاء عليه ، فاستضافه ابن الرميمي في
قصره ، ودبر قتله غيلة ، واستبد هو بملك المرية •

(١) دولة بربرية أسسها المهدي بن تومرت في مراكش والجزائر ، قضت على
دولة المرابطين المنحلة ، ووحدت بلاد المغرب من تونس الى مراكش •

المرية

وفي ذلك الوقت كان محمد بن يوسف بن نصر ، المعروف بابن الأحمر قد ضم الى مملكته بعض المدن الأندلسية الباقية في أيدي المسلمين ليؤلف بذلك جبهة قوية أمام الخطر المسيحي الجاثم . فما كاد يستولى على غرناطة حتى سار جيوشه الى المرية ليضمها الى مملكته ، وحاصرها مدة . فلما اشتد عليها الحصار غادرها ابن الرميى بحرا ، واتجه الى تونس مستظلا بلواء أميرها أبى يحيى الحفصى . ودخل الغالب بالله محمد بن نصر المرية سنة ٦٣٥ هـ (١٢٣٧ م) .

واتسعت المرية بمن وفد اليها من مسلمى الأندلس الذين أبوا الحياة مع الاسبان عقب سقوط مدنهم . وظلت المرية المنفذ الوحيد الذى تصل اليه الامدادات والمؤن من بلاد المغرب الى مملكة غرناطة حتى تقدمت اليها جيوش الملكين الكاثوليكين فرناندو وايزابيلا وحاصرتها . ولم تطل مقاومة هذا الثغر المنزل فسلمت المرية في عام ٨٩٥ هـ (فبراير ١٤٩٠) .

النظام العمرانى للمدينة

كانت المرية تنقسم الى ثلاثة مراكز عمرانية هامة : أولها المدينة القديمة . وكانت تتوسط هذه المراكز جميعا ، وكانت القلب الذى ينبس بحياة المدينة لأشتمالها على أهم المنشآت المعمارية : كالمسجد الجامع ، ودار الامارة ، والفنادق ، والحمامات ، وغير ذلك . وكان يخترق المدينة طريق يمتد من باب بجانة حتى البحر مارا بالمسجد الجامع . وكان يحيط بالمدينة سور حصين منيع بناه الخليفة عبد الرحمن الناصر ، وكان ينفتح في هذا السور باب يعرف بباب بجانة ، وتقع في خارجه مقبرة تعرف بمقبرة باب بجانة .

والى شرق المدينة كان ربض المصلى ، وكان أكثر مراكزها ازدحاما بالسكان ، وقد حاظه خيران العامرى بسور منيع بناء من الطابية (التراب) عام ١٠١٥ م ، وأوصل اليه المياه من جبل لاهم ، وأجراها في ساقية حتى

المدينة • وكان ينفتح في سور ربض المصلى باب يعرف بباب موسى (١) •
وانى غرب المدينة كان الربض الثانى ، وهو ربض الحوض ، وكان ربضاً
خبيراً عامراً بالأسواق والديار والفنادق •

ويحوى المدينة ذاتها من الشمال نشز مرتفع تتوجه القسبة التى
تشرف حتى اليوم على المجموع العمرانى للمدينة • وتتوزع القسبة انيوم
في ثلاثة مرتفعات غير متساوية : فالمرتفع الأعلى يقبع غربى القسبة ،
ويتصل بسور ربض الحوض في خط يتفق وطريقاً يسمى اليوم طريق
شانكا • وكان هذا الجزء من القسبة هو معقلها الأمن • ويغلب على الظن أنه
القلعة المنسوبة الى خيران ، وقد أعيد بناؤه في عهد الملكين الكاثوليكين •
أما المرتفع الثانى فيكاد يكون منبسطة في سطحه • وكان يشغله القصر
وملحقاته ، ويتصل سوراه شمالاً بسور ربض المصلى مخترقاً الطريق
المعروف اليوم بطريق لاهويا ، وكان يصعد في سيره حتى يصل الى جبل
لاههم الذى ذكره الادريسي ، والذي يسميه أهل المرية اليوم « نى سان
كريستوبال » • والمرتفع الثالث طويل للغاية • ويغلب على الظن أنه كان
مكاناً للحدائق التى أنشأها خيران بعد أن أوصل المياه الى القسبة •

وبناء أسوار القسبة قوامها ، في سائر أجزائها ، خليط من الملاط ،
وتسندها أبراج تتجاوز السور في ارتفاعها • وبالجزء العلوى منها غرفات
داخلية ، وتعلو الأبراج والأسوار شرفات رؤسها هرمية مدببة • وقد
أسفر البحث الأثرى في القسبة عن اكتشاف حمام يتألف من خمس
حجرات تمتد في صف واحد ، وبقياً مسجد جامع هو جامع القسبة الذى
ذكره ابن الأبار • وفي الجزء الجنوبى من قسبة المرية خزان للمياه يتكون
من ثلاثة أروقة •

(١) ذكر المقرئ ان من أبواب المرية باباً يعرف بباب العقاب ، عليه صورة
عقاب بن حجر قديم عجيب المنظر (المقرئ ج ١ ص ١٥٣ طبعة محبى
الدين عبد الحميد) ويذكر ابن الأبار باباً آخر يطلق عليه ارياتين (ابن
الأبار : كتاب التكملة لكتاب الصلة ج ١ ص ٢١٤) •

المرية

وتبقى في المدينة آثار ضئيلة لمسجدها الكبير الذي تحول الى كنيسة سان خوان . وهذه الآثار لا تعدو المحراب وجدار القبلة . ويزين المحراب طبقة جصية تحتشد فيها زخرفة من التوريقات : يرجع بعضها الى عصر انخلافة ، والبعض الآخر الى عصر الموحدين الذين أصلحوا المسجد بعد أن خلصوا المرية من احتلال جيوش قشتالة .

كما تبقى بالمرية في ربض الحوض ، وعلى مقربة من طريق شانكا ، بقايا جدران منزل مكسوة بطبقة جيرية عليها زخارف هندسية مخططة بخطوط همراء تؤلف أربعة أنواع من التكوينات الهندسية المتشابكة . ويغلب على الظن أن هذه الدار ترجع الى عصر المرابطين لتشابه هذه الزخارف بزخارف قصر منتقوط بمرسية .

ولم تعد المرية اليوم ذلك الثغر طالما رست به أساطيل المسلمين ، وانما أصبحت مدينة ثانوية أقرب ما تكون الى القرية بسبب صعوبة الاتصال برايينها وبين سائر مدن الأندلس .

مرسية

تقع مدينة مرسية على وادى شقورة (Segura) قرب مصبه ، وهو
 قسيم نهر الوادى الكبير ، اذ أن كليهما ينبع من جبال شقورة • رمدينة
 مرسية ، التى كانت حاضرة شرق الأندلس فى العصر الاسلامى ، مدينة
 اسلامية محدثة : أسسها الأمير عبد الرحمن الأوسط سنة ٢١٦ هـ (٨٣١م)
 لتقوم مقام مدينة الة (Ello) الحاضرة القديمة لكورة تدمير (١) •
 وقد قام عامله عليها ، جابر بن ملك بن لييد ، بتخطيطها وانشائها ،
 واتخذها منزلا للولايية ، وأصبحت قاعدة كورة تدمير ، ودارا ومقرا
 للقواد •

ولما ضعفت السلطة المركزية بقرطبة فى عهد الأمير عبد الله بن محمد ،
 وقامت الثورات فى سائر أنحاء الأندلس ، استقل ديسم بن اسحق المولد
 بمرسية ولورقة • ولم تدخل مرسية فى فلك الخلافة القرطبية الا بعد أن
 أرسل عبد الرحمن الناصر وزيره اسحق ابن محمد القرشى على رأس
 جيش كبير فانتزعها من الثوار •

وازدهرت مرسية فى عصر الخلافة وعمرت ، وأصبحت من حواضر
 الأندلس الكبرى ••• حتى سقطت الخلافة الأموية بقرطبة ، وتمزقت
 وحدة الأندلس ، وقامت دويلات الطوائف ، فأصبحت مرسية من نصيب
 خيران ••• الفنى العامرى الذى استقل بها ، واستولى على قلعة أريولة ،
 ونازع الموفق مجاهد العامرى صاحب دانية • ولما هزمه مجاهد استنجد
 خيران بمحمد ابن المظفر بن عبد الملك ابن أبى عامر وتنازل له خيران عن
 مرسية وأريولة •

(١) أمر عبد الرحمن الأوسط بتهديم مدينة الة سنة ٢١٦ هـ نتيجة للصراع
 الذى قام فى تلك الكورة المضرية واليهنية وذلك فى بداية عهد الامير
 عبد الرحمن الأوسط . وقد استمرت الحرب قائمة بين هاتين العصبيتين
 مدة سبع سنوات حتى سنة ٢١٣ هـ (٨٢٨ م) •

مرسية

غير أن العلاقات بينهما ما لبثت أن ساءت ، ففر خيران الى المرية في ربيع الآخر سنة ٤١٢ هـ (١٠٢١ م) ، وتحرك منها الى مرسية محارباً لمحمد ابن المظفر ، فاحتال عليه حتى أخرجه عنها في ربيع الأول سنة ٤١٣ هـ (١٠٢٢ م) .

وهكذا خضعت مرسية لخيران وظل يحكمها من المرية ، حتى مات في جمادى الأولى سنة ٤١٩ هـ (١٠٢٨ م) ، فخلفه الفتى زهير العامري ، وأصبحت مرسية خاضعة لزهير يحكمها من قصبته بالمرية .

فلما قتل زهير في معركة قامت بينه وبين باديس ابن حبوس الصنهاجي بقرية الفنت خارج غرناطة في شوال سنة ٤٢٩ هـ (١٠٣٧ م) واتصل نبأ موته بأهل مرسية ، ضبطوا مدينتهم ، وأسندوا الرياسة فيها الى جماعة من أعيانها ، ومنهم الشيخ أبو بكر أحمد بن اسحق ، وأبو بنر أحمد بن طاهر . وكان بيت بنى طاهر بمرسية من أشرف البيوتات بها وأرفعها . واستطاع أبو عبد الرحمن محمد بن أحمد ابن طاهر أن يتغلب على الرياسة فيها : فأجرى أمور مرسية في حزم ، واتبع العدل في أحكامه ورضى الناس بحكمه الا فئة حسدته على ما ناله من مكانة ، وخاطبت المعتمد بن عباد ملك اشبيلية في الايقاع به . فوجه المعتمد اليهم وزيره ابن عمار الشاعر ، وقائد عسكره عبد الرحمن بن رشيق . ووثب الثائرون في المدينة على ابن طاهر فقبضوا عليه .

واستولى ابن عمار على مرسية ، وسولت له نفسه الاستقلال بها ، والخروج على المعتمد رغم معارضة ابن رشيق له . وانتهاز ابن رشيق فرصة خروج ابن عمار لتفقد بعض شئون مرسية وحصونها ، فوثب على مرسية ، واستولى عليها ، وامتنع بها . وحدث بين ابن رشيق والمعتمد نزاع حول ملكية مرسية ، وشكا المعتمد ليوسف بن تاشفين ، فأصلح بينهما يوسف على أن يخرج ابن رشيق عن مرسية للمعتمد مقابل تعويض مالي لها .

ثم آلت مرسية بعد ذلك الى المرابطين • فلما ضعف أمرهم ، أشار
اهل الأندلس عليهم ، وطردوا ولائهم ، وضبطوا أمور بلادهم بأنفسهم • •
فتقلد رياسة مرسية القاضي أبو عبد الله بن أبي جعفر ، وشارك معه في
أمورها أحد قواد الجند ، واسمه عبد الرحمن بن عياض المعروف بالثغري
واستولى على أريولة وما يحيط بها من ضياع وحصون • وعندما عظم
شأن القاضي أبي عبد الله تبض على الثغري ، واستبد بشرق الأندلس
حتى قتل في واقعة حدثت بينه وبين جيوش المرابطين سنة ٥٤٠ هـ (١١٤٥ م)
أما ابن عياض فقد أصبح له الأمر بمرسية • فلما حضرته الوفاة ، جمع
جنده وأعيان المدينة ، وأشار عليهم بتولية محمد بن مردنيش •

وهكذا تولى مرسية الأمير أبو عبد الله محمد بن سعد الجذامي ،
المعروف بابن مردنيش (١) ، سنة ٥٤٢ هـ (١١٤٧ م) • واستقل بشرق
الأندلس ، وضم اليه الحصون المجاورة ، فعظم شأنه واشتهر ذكره •
ومال ابن مردنيش الى تقليد النصاري في الزي ، واستعان بهم في تدبير
شئون دولته ، ورتب منهم أعوانا وجنودا ، وأفرد لهم بمرسية منازل
فيها الخانات والبيع • واضطر الى المال ، فتخيف الرعية بكل وجه من
وجوه البطش والنجور ، واستكثر القبالات ، ورسم بدائع من المكوس •

وكان الموحدون قد اجتازوا الزقاق الى الأندلس ، واستولوا على
أغلب مدنها • وكان لابد لمحمد بن مردنيش أن يحاربهم قبل أن يحاربوه ،
فتحرك اليهم ، واستولى على جيان وأبدة واستجة وبياسة عام ٥٥٤ هـ
(١١٥٩ م) • وجهز اليه الموحدون جيشا ، وتبادل الفريقان النصر
والهزيمة ا ثم انتهى أمر ابن مردنيش الى الادبار ، فهزمه في ذي الحجة
سنة ٥٦٠ هـ (١١٦٤ م) ، في فحص اليندون ، وحاصروا مرسية ، ولكنهم
أقلعوا عنها •

(١) ابن مردنيش من أصل اسباني ، ويتجلى ذلك في الاصل الاسباني للاسم
(Martinez)

ثم عاود الموحدون الهجوم على مملكة ابن مردنيش ، وزحفت جيوشهم نحو مرسية ، والتقت مع جيوش ابن مردنيش — وأغلبها من — النصراني — في موقعة الجلاب ، فانهزم جيش ابن مردنيش ، وثقهقر الى المدينة ، واستعد للحصار ٠٠٠ وما زال الموحدون يحاصرون المدينة حتى مات في رجب سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) . وكتم خبر وفاته حتى قدم أخوه يوسف بن سعد من بلنسية ، واجتمع مع أهل الرأي بالمدينة ، وأثر الجميع الإذعان بالطاعة لأبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن الموحدى ، فوجه الأمير أبو يعقوب الى مرسية السيد أبا حفص أخاه ، وتلطف مع بنى مردنيش لالتزامهم الحكمة باستسلامهم اليه ، وتزوج الأمير أبو يعقوب الزرقاء المردنيشية ابنة محمد بن سعد .

ولما ضعفت دولة الموحدين ، وتفرقت كلمتهم على أثر وفاة أبي يعقوب يوسف الثانى بن محمد الناصر سنة ٦٢٠ هـ (١٢٢٣ م) ٠٠٠ اضطربت مطامعهم حول العرش الموحدى . فقام بالأندلس أبو محمد عبد الله ابن أبي يوسف يعقوب المنصور أمير شرق الأندلس ، وأعلن نفسه أميرا على مرسية وتلقب بالعادل . ولكن المغاربة فى مراكش ما لبثوا أن قتلوه سنة ٦٢٤ هـ (١٢٢٧ م) . فادعى أخوه ، أبو العلاء ادريس ابن المنصور ، الخلافة فى اشبيلية ، وتسمى بالمأمون . وبإيعاز المغاربة فى مراكش أبا زكريا يحيى المعتصم من أولاد الناصر الموحدى . وبينما قامت الحرب بين المأمون والمعتصم ، كان النصراني بالأندلس يستولون على مدن الاسلام مدينة أثر مدينة وحصنا بعد حصن .

وفى هذه الأثناء قام أمير من سلالة بنى هود الجذاميين ، أصحاب برقسطة فى عهد الطوائف ، اسمه أبو عبد الله محمد بن يوسف بن هود — ويسميه الاسبان فى مدوناتهم التاريخية (Zafadola) (سيف الدولة) — فاستولى على مرسية ، وأعلن نفسه أميرا بها ، وتلقب بالمتوكل على الله . ودانت له جيان وقرطبة وماردة وبطليوس ومالقة والمرية واشبيلية بانطاعة

وكان ملوك اسبانيا المسيحية ينتهزون فرصة انقسام المسلمين بالأندلس ويستولون على مدنها • وكان سقوط قرطبة ، حاضرة الخلافة الأموية بالأندلس ، في سنة ٦٣٣ هـ (١٢٣٦ م) ، ضربة شديدة أصابت الاسلام في الأندلس ، وتبع سقوطها سقوط غيرها من المدن الاسلامية • ومات ابن هود في أوائل سنة ٦٣٥ هـ (١٢٣٧ م) • وعلى أثر وفاته وجد خايمي ملك أرغون الفرصة سانحة لغزو بلنسية ومرسية ، فسقطت بلنسية في يده سنة ٦٣٦ هـ (١٢٣٨ م) •

وفي أثناء هذه المحنة أسند أهل مرسية أمور مدينتهم الى قاضيهم أبي بكر عزيز بن أبي مروان ابن خطاب في المحرم سنة ٦٣٦ • الا أن هذا الوالى الجديد لم يثبت كفايته للولاية ، فما كاد يلتحم مع جيوش النصرى في احدى الوقائع ، حتى ولى الأدبار ، وانهزم جيشه انهزاما مخزيا نتيجته قتل عدد كبير من المسلمين • فكرهه أهل مرسية ، واسدعوا الأمير أبا جميل بن مردنيش في رمضان سنة ٦٣٦ هـ ، فدخل المدينة طوعا • وهاجت العامة ، ودخلت قصر ابن خطاب ، ونهبت ما فيه من فرش وثياب •

ولم يطل عهد أبي جميل هذا ، فان أهل مرسية آثروا — وقد احاط بهم الأعداء من كل جهة — الاستسلام لملك قشتالة • وبعث اليهم فرناندو الثالث ملك قشتالة ولده الأمير ألفونسو ، ودخل النصرى مرسية صلحا في ٦٤١ هـ (١٢٤٣ م) •

كانت مرسية مدينة كبيرة في العصر الاسلامى ، اشتهرت بصناعة الوشى والديباچ ، واختصت — دون غيرها من مدن الأندلس — بصناعة البسط التنتلية التى كانت تصدر منها الى سائر بلاد المشرق • كذلك اشتهرت بصناعة الحصر المبهجة للبصر التى تغلف بها الجدران • وكان بها جامع جليل ، وحمامات عديدة ، وأسواق عامرة • كما كان لها ربض تحيط به الأسوار المنيعة وتشقه مياه جدول • أما المدينة نفسها فتقع على

مرسية

ضفة نهر شقورة ، ويجاز إليها على قنطرة تقوم على مراكب ، وكان لها
أرهاء طاحنة في السفن تنتقل من موضع الى موضع •

ولا نعرف من أبواب مرسية الاسلامية سوى باب واحد ، يعرف
باسم باب ابن أحمد ، يفتح في سورها الغربى • وكان بمرسية عدد كبير
من المساجد منها : مسجد محمد بن سكرة ، ومسجد الجرف بجوار باب
ابن أحمد ، ومسجد ابن أبى جعفر •

ولا تحتفظ مرسية اليوم بآثار كثيرة من العصر الاسلامى • ومن
أشهر هذه الآثار بقايا قصر منتقوط (Monteagudo) لا تزال تشرف عن كتب
على بساتين مرسية • ولعل هذا القصر كان احدى دور السرور التى بنيت
فى عهد المرابطين • وقد بقيت منه جدرانه التى لا يتجاوز ارتفاعها ثلاثة
أمتار • وكلها مشيدة بملاط شديد الصلابة • والأجزاء الدنيا من هذه
الجدران مدهونة بأشرطة هندسية متقاطعة •

وكانت مرسية بلد العلم والأدب • وقد وفد من علمائها عدد كبير
الى المشرق ، وعلى الأخص فى مصر ، من بينهم أبو عبد الله محمد بن
يوسف المرسى المتخصص فى الفقه والكلام • وقد زار الديار المصرية ،
ونزل الاسكندرية فى سنة ٥٢١ هـ (١١٢٧ م) • ومنهم الشيخ الزاهد
الكبير سيدى أبو العباس أحمد بن عمر الأنصارى المرسى • وكان من
أكابر الأولياء ، ووارث شيخه سيدى أبى الحسن الشاذلى تصوفاً • وقدم
أبو العباس المرسى الى الاسكندرية واستقر بها ، ومات فيها سنة ٦٨٦ هـ
(١٢٨٧ م) • وقبره موجود الى يومنا هذا • ولأهل الشجر اعتقاد كبير فى
علمه وكراماته • وكان من بين تلاميذه ابن غطاء الله صاحب كتاب «لطائف
المنن فى مناقب الشيخ سيدى أبى العباس وشيخه سيدى أبى الحسن » •

ماردة

ماردة مدينة تقع على وادى أنه قرب بطليوس ، وكانت تسمى دبل الاسلام اميريتا (Colona Augusta Emerita) لأن الامبراطور أغسطس أسسها عام ٢٥ ق.م على أطلال مدينة أيبيرية ، ومنحها للاميرتين * أو قدامى المحاربين الرومان بالفرقتين الخامسة والعاشره ، وجعلها الامبراطور عاصمة لولاية لوزيتانيا * وقد ساهم القنصل الرومانى ماركوس أجريبا مستشار الامبراطور فى تأسيسها ، وجعلها بأروع الأبنية ، وجاء ترتيبها التاسعة بين أشهر مدن العالم فى قصيدة الشاعر أروسيو (Ordo Nobilium Urbium) * وهذه المدن هى : رومة ، القسطنطينية ، قرطاجنة ، أنطاكية ، الاسكندرية ، تريفليس ، ميلانو ، كابو ، ماردة ، أكيليا ، آرلس ، أثينا *

والحق لقد كانت اميريتا أو ماردة أعظم مدن اسبانيا فى العصر الرومانى ، وتحتفظ اليوم بتراث ضخم من آثار هذا العصر (١) منها قنطريتان ، وثلاثة جسور للمياه ، وأسوار حصينة ، ورصيف بحرى ، ومعابد ، ومسرح ، وملعب كبير ، وأقواس نصر كثيرة ، وحمامات لاهصر لها ، وأرضيات من الفسيفساء ، وتماثيل من الرخام وغيرها مما يصعب عده وحصره * وقد ساهم وقوعها فى سهول وادى أنه - فى الطريق البرى الذى كان يمتد من سرقسطة (Tacsaragusta) اليها ، مارا بمدينة ثلمنة (Salamantica) وقاصرثس (Norba) فى ازدهارها فى العصر الرومانى *

ثم سقطت ماردة فى أيدي القوط الغربيين سنة ٤٦٨ م فى عهد الملك أيوريكو * وكانت ماردة مقرا للملك أخيليا الذى التجأ اليها وفيها قتل

(١) ذكر الرازى روائع الرومان بهذه المدينة بقوله : « هى إحدى القواعد التى بنتها ملوك العجم للقرار ، وفيها من اظهر القدرة الماء المجتلب المحبوب عليه بأبنية (بقصد الجسور) أعجزت الصانعين صنعتها » .

ماردة

سنة ٥٥٤ • وفيها قام النزاع بين هرمنخلدو وليوفخلدو ، وانتهى هذا النزاع بتغلب ليوفخلدو عليها • ثم دخلت المسيحية في عهد الملك ريكايريدو ولا تحتفظ ماردة اليوم بآثار كثيرة من عهد القوط ، ومن هذه الآثار بازيليكية ساننا أيولاليا •

وافتحها موسى بن نصير في ٢٣ من أكتوبر سنة ٧١٥ م بعد مقاومة عنيفة • وفي فتحها يقول ابن حيان : « وكانت ماردة دار مملكة لبعض ملوك الأندلس في سالف الدهر ، وهي ذات عز ومنعة ، وفيها آثار وقصور ومصانع وكنائس جليلة القدر فائقة الوصف ، فحاصرها أيضا • وكان في أهلها منعة شديدة وبأس عظيم ، فنالوا من المسلمين دفعات وأذوهم ، وعمل موسى دبابة دب المسلمون تحتها الى برج من أبراج سورها جعلوا ينقبونه ، فلما قلعوا الصخر (١) أفضوا بعده الى العمل المدعو بلسان العجم ألاشة ماشة (٢) ، فنبت عنه معاولهم وعدتهم • وثار بهم العدو على غفلة ، فاستشهد بأيديهم قوم من المسلمين تحت تلك الدبابة ، فسمى ذلك الموضع برج الشهداء • ثم دعا القوم الى السلم فصالحوه » •

وقيل أن موسى عندما فتحها وجد في كنيسة حجرا يضيء الموضع من نوره ، فأخذه بين ما غنمه منها • وقد ذهل المسلمون عند مشاهدتهم لظنطرتها الرومانية المؤلفة من ٦٣ قوسا (١) مبنية من الجرانيت • وتأثر مهندسو جامع قرطبة ببنائها ، فأقاموا عقودا على طابقيين ، وان حابت وظيفه عقود الجامع تختلف اختلافا بينا عن وظيفة أقواس القنطرة •

(١) كسوة حجرية .

(٢) تسمية لاتينية معربة لنوع من الملائ شديدا الصلابة ، ويسميه الاسبان اليوم

(٣) ذكر الحبيرى : هذه القنطرة ووصفها بقوله : وكان على بابها مما يلى انغرب حنايات يكون طولها خمسين ذراعا مثقلة الأنفاء عددها ثلاث وستون حنية » •

وتولى ماردة، في عهد بنى أمية، عظماء بيتهم • وكثيرا ما ثار عليهم سكانها، وكان أغلبهم من المولدين والمستعربين • وقد شجع على قيام هذه الثورات قرب ماردة من الولايات المسيحية المجاورة • ويغلب على أن ألفونسو الثانى كان يشجع المولدين والمستعربين بماردة على الخروج عن طاعة أمير قرطبة • ويذكر ليفى بروفنسال أن ملك فرنسا لويس النقى (Louis le pieux) بعث الى هؤلاء السكان برسالة يؤيدهم فيها ردا على وفد أرسلوه اليه •

وقد اجتمع سكان ماردة حول زعيمين ثوريين في سنة ٢١٣ هـ (٨٢٨ م) : أحدهما بربرى، اسمه محمود بن عبد الجبار، والآخر مولد اسمه سليمان ابن مرتين، ويطلق عليه اسم قعنّب • واستقل هذان الثائران بالمدينة، وشقا عصا الطاعة على الأمير الأموى، وقتلا حاكم المدينة مروان الجليقى • وقد اضطر الأمير عبد الرحمن الأوسط الى ارسال فرقة حاصرت ماردة في سنة ٨٢٩، ودمرت سهولها، وقطعت عن المدينة أقواتها • الا أن هذه الحملة لم تأت بالنتيجة المرجوة •

وفي سنة ٢١٥ هـ (٨٣٠ م) حاصر ماردة حصارا شديدا أدى الى استسلام حاكمها حارث بن بزغ • غير أن اخضاع ماردة لامارة قرطبة لم يتم الا في عام ٢١٩ هـ (٨٣٤ م) • وقد سجل عبد الرحمن الأوسط اخضاعه لثورة ماردة ببناؤه قصبتها (١) التى تعرف اليوم لدى العامة بالدير، وبها نقش عربى محفوظ اليوم بمتحف القسبة يحمل تاريخ سنة ٢٢٠ هـ (٨٣٥ م) • وكانت هذه القسبة مقرا لحاكم المدينة يقيم فيها مشرفا على مدخلها المؤدى الى الجسر • وفى عهد الأمير محمد ثار عبد الرحمن بن مروان الجليقى بماردة، فأرسل اليها وزيره هاشم بن عبد العزيز الذى هدم أسوار قصبتها، وجرد ماردة من رخامها القديم، ونقله الى قرطبة حيث استخدم في بناء قصورها وحماماتها •

(١) بناها عبد الملك بن كليب بن ثعلبة •

ماردة

على أن ماردة ما لبثت أن فقدت أهميتها تماما في عهد خلافة عبد الرحمن الناصر ، وتخلت عن مكانتها السامية لمدينة بطليوس ، وظلت هكذا مدينة ثانوية حتى افتتحها ألفونسو التاسع ملك ليون سنة ١٢٢٩ •

ولم يتبق من آثار ماردة الاسلامية سوى قصبتها • وتخطيطها يقوم على مربع طول ضلعه ١٣٠ مترا تقريبا ، وبنيت أسوارها من كتل من حجر الجرانيت اتخذت من بقايا الأبنية الرومانية ، ولها بابان : أحدهما يؤدي الى الجسر ، والآخر يفضى الى المدينة • ويتوسط القصبه من الداخل فناء فسيح بداخله جبهها المشهور حيث كانت تخزن المياه الراردة من نهر وادى أنه •

سرقسطة

سرقسطة مدينة كبيرة في شمال شرقي الأندلس على الضفة اليمنى من نهر ابرة (Ebro) • وكانت سرقسطة في العصر الاسلامي قاعدة الثغر الأعلى بالأندلس ، وما زالت حتى اليوم حاضرة مقاطعة أرغون •

وسرقسطة تسمية عربية للاسم الروماني قيصر أجسطا (Caesaraugusta) لأن أغسطس قيصر هو الذي أسسها سنة ٢٣ ق.م وسماها باسمه • وأقيمت مدينة قيصر أجسطا على أطلال المدينة الأيبيرية القديمة التي كانت تعرف في عهد الايبيريين باسم سالدوبا (Salduba) • ولم تفقد سرقسطة حتى اليوم نظامها القديم وتخطيطها الروماني الأصيل ، وما زالت بعض أجزاء من أسوارها الرومانية باقية الى يومنا هذا ، خاصة ذلك الجزء من السور الموازي لنهر وادي ابرة • ويحتفظ متحف الفنون الجميلة بسرقسطة بكميات كبيرة من اللوحات الحجرية المنقوشة وقطع الخزف ولوحات الفسيفساء الرومانية •

وأصبحت مدينة سرقسطة ، في عهد القوط الغربيين ، من أهم المدن الاسبانية • وكان أسقفها سان براوليو أحد الشخصيات البارزة في عهده ، وقد قام بتأسيس كثير من الأديرة •

وفي سنة ٧١٤ م حاصر موسى بن نصير سرقسطة واستولى عليها • ونتج عن ذلك استيلاؤه على الحوض الأوسط من نهر ابرة ، وبقي حنش الصنعاني التابعي بها بعد أن فتحها موسى ، وأسس مسجدها الجامع •

وكانت سرقسطة تزخر بعدد كبير من المولدين الذين كانوا يميلون بطبعهم الى الثورة على حكومة قرطبة : من ذلك الثورة التي قام بها عامر القرشي العامري على عامل الأندلس يوسف بن عبد الرحمن الفهري ، وثورة بهلول بن مرزوق في عهد الحكم ابن هشام • وفي عهد عبد الرحمن

سرقسطة

الأوسط استقل موسى بن موسى بن فرتون بن قسى بالشعر الأعلى ، وأخذ تطيلة مقرا له • وقد قبل عبد الرحمن الأوسط هذا الوضع مقابل ما كان يقوم به موسى من تقديم خدماته اليه • وفي بداية عهد الأمير محمد استقل موسى بن موسى استقلالاً كاملاً بامارته في الشعر الأعلى : بما فيه تحليلية وسرقسطة ووشقة وتوارث سرقسطة بعده ابنه محمد بن لب وأولاده من بعده •

ولما تولى الأمير المنذر الامارة بقرطبة ، عهد الى أحمد بن البراء بن مالك القرشي بمحاربة بنى قسى وولاه سرقسطة • الا أن أحمد بن البراء لم يطل عهده بها ، اذ قتله أبو يحيى محمد التجيبى المعروف بالأنقر (الأعور) ، بأمر الأمير عبد الله بن محمد • واستقل أبو يحيى التجيبى بسرقسطة ، وظل ي حكمها حتى توفي سنة ٣١٢ هـ (٩٢٤ م) في عهد خلافة عبد الرحمن الناصر • وخلفه ابنه هاشم الذى ينسب اليه بنو هاشم التجيبىون • واستمر التجيبىون يحكمون سرقسطة مخلصين للخلافة الأموية حتى انتهى أمرهم في عهد الفتنة الكبرى في أواخر عهد بنى عامر • وكان آخر حكامها المنذر بن يحيى التجيبى في عهد سليمان المستعين •

وكان المنذر هذا فارساً لا يبارى • وكان أول من ساس الفرنج ، وهاداهم رغبة في اتقاء شرهم وابعاد خطرهم عن سرقسطة • ولكنه قتل في مجلسه بقصر سرقسطة في أول ذى الحجة سنة ٤٣٠ هـ (١٠٣٨ م) • قتل عبد الله بن حكم • ولكن أهل سرقسطة ثاروا على عبد الله بن حكم لاستبداده بها ، واستجدوا بسليمان بن محمد بن هود الجذامى صاحب لاردة • واستطاع سليمان بن هود أن يدخل سرقسطة ويستولى على القصر •

وجعل ابن هود مدينة سرقسطة حاضرة لدولته حتى مات سنة ٤٣٨ هـ (١٠٤٦ م) • وتوزع ملكه بين أولاده : فتولى أحمد بن سليمان على

مدينة سرقسطة ، وتولى يوسف على لاردة ، وتولى محمد على قلعة أيوب ، وتولى لب مدينة وشقة ، وتولى المنذر تطيلة • واستطاع أحمد أن يتغلب على أخوته واغتصب ما كانوا يملكونه من بلاد ، وتلقب بالقتدر بالله ، واستوثقت له الطاعة بالثغر الجوفى ، وضم اليه مدينة طرطوشة ، وأضاف الى ملكه مدينة دانية فاتسعت مملكته • ومات سنة ٤٧٥ هـ (١٠٨٢) •

وتولى الأمر بعده ابنه المؤتمن محمد الذى ورث مملكة أبيه بالثغر كنه ، ولم يطل عهده اذ مات سنة ٤٧٨ هـ (١٠٨٥ م) • وتولى بعده ابنه المستعين أحمد • واستمر المستعين بالله أحمد يحكم مملكة سرقسطة : حتى بعد أن نزل المرابطون الأندلس وخلصوا ملوكها عن عروشهم ، اذ استبقوه على ملكه لولائه لهم •

ولما قتل المستعين بالله بظاهر سرقسطة سنة ٥٠١ هـ (١١٠٧ م) ، بايع الناس ابنه عماد الدولة عبد الملك بن أحمد ، فكان عهده قصيرا اذ تحالف مع ملك قشتالة ضد المرابطين • فأنكر أهل سرقسطة عليه ذلك ، واستدعوا قائد على بن يوسف بن تاشفين من بلنسية ، فأقبل اليهم ، وفتحت له المدينة • واستعان عبد الملك بجيوش ملك أرغون ألفونسو الأول ضد المرابطين ، وانتصرت جيوش أرغون على المرابطين ، واستشهد عدد كبير من المسلمين • • • وكان ذلك فى منتصف ذى الحجة سنة ٥٠٣ هـ (١١٠٩ م) وظل عبد الملك ابن أحمد يحكم سرقسطة حتى اغتصبها منه النصارى فى رمضان سنة ٥١٢ هـ (١١١٨ م) •



وكان المسلمون يطلقون على سرقسطة اسم المدينة البيضاء لكثرة جصها وجيارها ، وقيل لأن أسوارها القديمة كانت من الرخام الأبيض • وقد أصبحت سرقسطة فى القرن الحادى عشر حاضرة دولة بنى هود ، وسمت وازدهرت فى ذلك الحين • وكانت سرقسطة فى عهد المستعين أحمد

جنة الدنيا ، وفتنة المحيا ، ومنتهى الوصف ، وموقف السرور والقصف •
وجده المقتدر بالله هو الذى بنى قصر الجعفرية ، المعروف اليوم باسم
(Aljaferia) ، وسماه بذلك الاسم نسبة الى كنيته « أبى جعفر » •

وكانت المدينة تحتفظ فى العهد الاسلامى بتخطيطها الرومانى
القديم ، اذ كانت تتخذ شكلا مستطيلا تحيط به أسوار ضخمة • وكانت
هذه الأسوار تمتد الى ما يقرب من ٩٠٠ متر طولاً ، و ٦٠٠ متر عرضاً •
وكان يخرق المدينة طولاً وعرضاً طريقان مستقيمان يتقاطعان عمودياً
على شكل الصليب ، هذان الطريقان هما نفسهما (Decumanus) و (Lo cardo)
المتبعان فى تخطيط المدن الرومانية • ويؤدى هذان الطريقان المتعامدان فى
الجوانب الأربعة لسور المدينة الى أربعة أبواب ، كل باب يقع فى احدى
الجهات الأصلية (١) •

وكان المسجد الجامع الذى ركز حنش الصنعانى محرابه ، يقع فى
القطاع الشمالى الشرقى للمدينة ، فلما زاد فيه موسى بن موسى بن قنسى
اضافته المشهورة ، زمن الأمير عبد ارحمن الأوسط ، احتفظ بالمحراب
القديم الذى أسسه حنش التابعى وذلك بأن نقله وألصقه على جدار
القبلة الجديد (٢) •

وكان باب المدينة اجنوبى — ويعرف بباب القبلة — يؤدى الى

-
- (١) يذكر الحميرى بهذه المناسبة أنها « بنيت على مثل الصليب ، وجعل لها
أربعة : باب اذا طلعت الشمس من أقصى المطالع فى القبط قابلته عند
بزوعها ، فاذا غربت قابلت الباب الذى بازائه من الجانب الغربى ، وباب
اذا طلعت الشمس من أقصى مطالعها فى الشتاء قابلته عند بزوعها وهو
الباب القبلى ، واذا غربت الباب الذى بازائه من الجانب الغربى •
(٢) يقول الحميرى فى ذلك « فلما زيد فيه هدم الحائط القبلى ، غير المحراب
فانه احتفر من جوانبه حتى انتهى الى قواعده ، فأعملت الحيلة فى حمله
على الخشب وجره الى الموضع الذى هو فيه » •

المقبرة التي دفن فيها حنش وصاحبه على بن رباح اللخمي • وكان يفتح في السور الغربي للمدينة - كما ذكر ابن الفرضي - باب يقال له باب اليهود ، وأن كانت الأبحاث الأخيرة في مدينة سرقسطة أثبتت أن حي اليهود كان يشغل الجانب الجنوبي الشرقي للمدينة ، وأن حي المستعربين أو النصاري كان يقع في جانبها الشمالي الغربي • وكان الباب الشمالي يقابل مدخل الجسر القديم الذي كان مقاما على نهر ابرة ، في المكان الذي يشغله اليوم الجس الحجري (٢) • أما الباب الشرقي فكان يعرف بباب بلنسية •

ومن أهم آثار سرقسطة الاسلامية : قصر الجعفرية الذي ذكرناه فيما سبق ، وكان على نهر ابرة خارج الرض ، وقد تبقى منه مصلاه بزخارفه الجصية الرائعة • وسرقسطة نفسها برج ضخم مدجن تبقى من قصر آخر يعرف بقصر السدة (٣) • ويذكرنا هذا البرج بمعاهدة التسليم التي سلم بمقتضاها عماد الدولة - المعروف في الوثائق الأرجونية باسم أمادولا (Amadola) - مدينة سرقسطة الى ألفونسو الأول المحارب ملك أرغون في ١٨ ديسمبر سنة ١١١٨ •

(١) يذكر ابن حيان ان الامير عبد الرحمن الاوسط امر بتجديد هذا الجسر سنة ٢١٢ هـ (٨٢٧ م) عندما تصدع بسبب فيضان نهر وادي ابرة في ذلك الوقت ، كما أمر بتسيير أربع معاد العبور بين الصفتين ريثما يتم اصلاح الجسر •

(٢) كان هذا القصر قائما بالقرب من النهر في الركن الشمالي الغربي من المدينة •

بلنسية

بلنسية قاعدة شرق الأندلس ، وأعظم مدائنه • وهى مدينة سهلية خصبة كثيرة الخيرات • وكانت تعرف بمدينة التراب لخصوبة تربتها ، وبمطيب الأندلس لكثرة بساتينها • تقع بلنسية على مصب السوادى الأبيض ، أو وادى الأبيار ، فى بحر الشام (البحر المتوسط) • وقد دخلت فى فلك الدولة الإسلامية عندما افتتحها أحد قواد طارق على أثر فتحه لمدينة تدمير •

وظلت بلنسية بعد فتحها خاضعة للخلافة الأموية بالشرق ، حتى دخل عبد الرحمن بن معاوية الأندلس ، وأسس له ملكا فيها • ثم استقل الأمير عبد الله بن عبد الرحمن الداخل ببلنسية احتجاجا على تولية الحكم بن هشام امارة قرطبة • وأقام عليها عبد الله مستقلا عن قرطبة ، حتى أنه عرف بعبد الله البلنسى ، وهو الذى أقام ربض الرصافة ببلنسية التى قال عنها الرصافى الشاعر :

ولا كالرصافة من منزل
سقته السحائب صوب الولى

أحن اليها ومن لى بها
وأين السرى من الموصلى

وما زال اسم الرصافة (Ruzafa) يطلق اليوم على إحدى ضواحي بلنسية • وظل عبد الله البلنسى قائما بمملكة بلنسية حتى مات سنة ٨٢٠٨ هـ (٨٢٣ — ٨٢٤ م) ، فاسترجعها عبد الرحمن الأوسط ، وعين عليها واليا من قبله •

وفى عهد الأمير عبد الله بن محمد ، استقل بمرسية وبلنسية ولورقة

بلنسية

ديسم بن اسحق المتوفى سنة ٢٩٣ هـ (٩٠٦ م) ، وتوارثها أولاده من بعده . فلما تولى عبد الرحمن الناصر بعث سنة ٣٠٤ هـ (٩١٦ م) وزيره اسحق بن محمد القرشي على رأس جيش كثيف لاختصاص كورتى ندمير وبلنسية ، فوطىء الكورتين ، وذلك أعاديه وولى على بلنسية ، سنة ٣١٧ هـ (٩٢٩ م) ، عبد الله ابن محمد بن عقيل .

ولما سقطت الخلافة بقرطبة ، استقل ببلنسية عبد العزيز بن عبد الرحمن بن أبي عامر سنة ٤١٧ هـ (١٠٢٦ م) ، وظل يحكمها حتى مات سنة ٤٥٢ هـ (١٠٦٠ م) . وتولى بعده ابنه عبد الملك بن عبد العزيز ، وكان صبيا ، فقام له بالأمر كاتب أبيه المدبر لدولته ، أبو بكر بن عبد العزيز . وكان أبو بكر هذا عين بلنسية التى بها تبصر . ثم أصبح أمر بلنسية الى الفقيه القاضى أبى أحمد بن جحاف فى الوقت الذى كان يحكمها فيه القادر بن ذى النون ، الذى سلم طليطلة الى ألفونسو السادس ملك قشتالة .

وكان يسند القادر ويؤازره ملك قشتالة ، وقائده السيد الكنبيطور (١) فأنف أهل بلنسية أن يحكمهم حليف للنصارى ، فاستدعوا بن جحاف محمد بن عائشة ، قائد يوسف بن تاشفين ، فوجه اليهم فرقة من جيوش المرابطين . ففر القادر من قصره ، وقبض عليه ، وقتل بأمر القاضى ابن جحاف فى رمضان سنة ٤٨٥ هـ (١٠٩٢ م) . وتمت لابن جحاف ، بمقتل ابن ذى النون ، رئاسة المدينة : فرتب الأجناد ، وحاط نفسه بأبهة الملك . فغضب السيد الكنبيطور لمقتل ابن ذى النون ، وحاصر بلنسية ، وضيق عليها الحصار حتى نفدت الأقوات من المدينة . وقتل الزاد ، واستصرخ ابن جحاف أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ، فبعث اليه

(١) السيد القتب منحه المسلمون للكنبيطور ، والكنبيطور كلمة اسبانية معناها البارز .

بلنسية

بجيش عظيم هزمه الكنييطور • فأيقن الناس بالهلاك ، واضطر أهل بلنسية الى طلب الأمان على أنفسهم من الكنييطور ، وخرج اليه ابن جحاف للمفاوضة على الصلح •

ودخل الكنييطور المدينة في جمادى الأولى سنة ٤٨٧ هـ (١٠٩٤ م) بعد حصار دام عشرين شهرا ، فسام أهلها العذاب ، واستخلص أموالهم واعتل القاضي ابن جحاف ، ونزلت النكبة بجميع أهله وذوى قرباه ، اذ أن الكنييطور طالبهم بمال القادر بن ذى النون •• فلما استصفى جميع ماله أمر باضرام نار ، وسبق القاضي ابن جحاف يرسف في قيوده وأغلاله بين أهله وولده ، وأمر بحرقه في هذه النار ، فمات محروقا • وجمع الكنييطور — بعد احراقه لابن جحاف — جميع أعيان أهل بلنسية فقتل عددا كبيرا ، وعاث في بلنسية ، وأحرق المدينة حتى أصبحت خراب • وفيها يقول الشاعر ابن خفاجة الأندلسي :

عاثت بساحتك الظبى يادار
ومحا محاسنك البلى والنار
فاذا تردد في جنابك ناظر
طال اعتبار فيك واستعبار
أرض تقاذفت الخطوب بأهلها
وتمخضت بخرابها الأقدار
كتبت يد الحدثان في عرصاتهما
لا أنت أنت ، ولا الديار ديار

ولم يطل بقاء بلنسية في أيدي المسيحيين ، فقد وجه يوسف بن تاشفين الأمير أبا محمد مزدلى ، ففتح بلنسية سنة ٤٩٥ هـ (١١٠١ م) وتولى عليها أمراء المرابطين • تم استقل بها يحيى بن غانية الذى ولى جميع شرق الأندلس ، وولى على بلنسية أخاه عبد الله بن غانية •

بلنسية

ثم ثار أهل بلنسية على المرابطين ، واجتمعوا الى القاضي ابن عبد العزيز ، الذى قام بأمرها سنة ٥٣٩ هـ (١١٤٤ م) ، واستولى على شاطبة ولقنت ، واتسع ملكه ٠٠٠ الا أن جنده ثاروا عليه فى جمادى الأولى سنة ٥٤٠ هـ (١١٤٥ م) ، وحاصروه فى قصره ببلنسية فغافلهم أثناء الليل ، وتسلق الأسوار ، وفر الى مراكش •

وبايع الجند ابن عياض ملك شرق الأندلس • ثم خلفه على شرق الأندلس أبو عبد الله محمد بن سعيد الجذامى ابن مردنيش • وولى أبو عبد الله هذا أخاه أبا الحجاج يوسف على بلنسية ، وظل أبو الحجاج واليا عليها حتى مات سنة ٥٨٢ هـ (١١٨٦ م) • وظل الأمر بعده بين أولاده الى أن استقرت الرياسة فى أبي جميل زيان بن أبي الحملات مدافع بن يوسف بن سعد ، فدخلها فى صفر سنة ٦٢٦ هـ (١٢٢٨ م) ، وأقام بالقصر وأخذ البيعة لنفسه • ودخلت دانية فى بيعته فضخم ملكه ، واشتهر بجهاده فلما انهزم فى موقعة أنيثة ، من ظاهر بلنسية ، واستجد بأبى زكريا صاحب تونس فى القصيدة الشهيرة التى نظمها أبو عبد الله بن الأبار ومطلعها :

أدرك بخيلك ، خيل الله ، أندلسا
ان السبيل الى منجاتها درسا

فبادر السلطان باعانتهم ، وشحن الأساطيل بالمدد والأقوات اليهم • ولكن خايمي ، ملك أرغون ، كان قد حاصر بلنسية منذ سنة ٦٤٥ هـ (١٢٣٧ م) ، ورماها بالمجانيق • ودافع أهل بلنسية عنها دفاعا مجيدا ، حتى نفدت أقواتهم ، وضعفت قوتهم ، وأكلوا الجلود ، فاضطربوا الى مفاوضة الأعداء على التسليم • فتم ذلك فى صفر عام ٦٣٦ هـ (١٢٣٨ م) وخرج عنها الأمير أبو جميل زيان ، ودخلها جيش أرغون •

وقد رثا أبو المطرف بن عميرة المخزومي بلنسية فقال : « ٠٠٠ وبعد

ذلك أخذ من الأم بالمخفق ، وهى بلنسية ذات الحسن والبهجة والرونق •
 ومالبث أن أخرس من مسجدها لسان الأذان ، وأخرج من جسده روح
 الايمان : فبرح الخفاء ، وقيل على آثار من ذهب العفاء • وانعطفت
 النواثب منردة ومركبة كما تعطف الفاء : فأودت الخنة والحصاة • وذهب
 الجسر (١) والرصافة (٢) ، ومزقت الجلة والشملة ، وأوحشت الجرف
 والرملة (٣) • ونزلت بالحارة وقعة الحرة ، وحصلت الكنيسة من جآذرها
 وخبائثها على طول الحسرة • فأين تلك الخمائل ونضرتها ، وأنجدول
 وخضرتها ، والأندية وأرجها ، والأودية ومنعرجها ، وأنواسم وهبوب
 مبتلها ، والأصائل وشحوب معتلها ؟! ••• دار ضاحكت الشمس بحرها
 وبحيرتها ، وأزهار ترى من أدمع الطل في أعينها ترددها وحيرتها •

وتسأل ابن الأبار في إحدى رسائله : « أين بلنسية ومغانيا ،
 وأغاريد ورقها وأغانيها ؟ أين حلى رصافتها وحسرها ، ومنزلا عطائها
 ونصرها ؟ أين أفيأؤها تندى غضارة ، وركاؤها تبدو من خضارة ؟ أين
 جداولها الطفاحة وخمائلها ؟ أين جنائنها النفاحة وشمائلها ؟ » •

أجل • لقد كانت بلنسية مدينة عامرة القطر ، كثيرة التجارات —
 وعلى الأخص تجارة المنسوجات التى اشتهرت بها — كما كانت زاخرة
 بالأسواق • وكان يحيط بها سور من الحجر والطوايى (مادة من التراب
 والرمل) ، تنفتح فيه خمسة أبواب رئيسية ، هى : باب القنطرة فى
 الشمال الغربى ، ويشرف على منطقة تعرف بالرملة ، يقابلها — على الضفة
 اليسرى من وادى الأبيض — ربض الكدية وباب فى غرب المدينة يعرف
 بباب الحنش ، وتقع خارج هذا الباب مقبره تعرف بمقبرة باب الحنش •

(١) هو قنطرة بلنسية ، وينسب اليها باب القنطرة •

(٢) الرصافة منية أفايها الأمير عبد الله البانسى : تقع جنوب شرقى المدينة •

(٣) اسم ربض بشمال بلنسية •

بلنسية

وباب ينفتح في السور الجنوبي ، يعرف بباب بيطالة ، ويطلق عليه اليوم باب (Boatella) ويؤدي في خارج المدينة الى مقبرة بهذا الاسم .
وباب شرقي يعرف بباب الشريعة ، ويؤدي الى ربض المصلى خارج بلنسية . وباب شمالي اسمه باب الفرّج ، ويؤدي الى منية ابن عبد العزيز على الضفة اليسرى من النهر .

وكانت بداخل بلنسية أحياء منها : حومه ابن جحاف ، وحومة رحبة القاضي ، ورد ذكرهما بعد سقوط المدينة في يد خايمي . وكانت رحبة القاضي تتوسط المدينة بالتقريب .

ويتوسط بلنسية الاسلامية مسجدها الجامع ، وبجواره النصر والقيسارية . وكان ببلنسية — بخلاف مسجدها الجامع — عدة مساجد : منها مسجد عبد العزيز بن غلبون ، ومسجد أبي عبد الله بن نوح ، ومسجد الشراييب ، ومسجد السيدة ، ومسجد باب القنطرة ، ومسجد ابن سرنباقي .

ويحدثنا الشقندى عن بحيرة رائعة المياه كانت داخل مدينة بلنسية . وما زالت مدينة بلنسية تحتفظ اليوم بعطر من ماضيها المجيد في العصر الاسلامي ، وان كانت آثارها الاسلامية قد اندثرت على مرت الأزمان .

قاصرش

لم تكن قاصرش مدينة شهيرة ذات شأن في العصر الاسلامي ، ونم تحظ بعناية الرحالة والمؤرخين المسلمين في الأندلس الا منذ القرن العاشر الى القرن الثالث عشر الميلادي : اذ كانت حصنا أماميا يحمي وادي تاحة الأوسط ، ويعرقل تقدم القوات الليونية من هذا الوادي الى وادي آنة ، حيث تقع مدينتا بطليوس وماردة •

وكانت تقوم في الموقع الذي تحتله قاصرش الاسلامية ، مدينة رومانية اسمها (Caesarina Norba) أي أنه مشتق من اسم قيصر ، ويرجعه ابنر (Hubner) خطأ الى الكلمة العربية « قصور » ، وقد أخذ السنيور ميريدا والسنيور فليريانو بهذا التعليل • والحق أن ارجاع اسم هذه المدينة الى الكلمة العربية من حيث النطق بعيد الاقناع ، وان كان احتمال اشتقاقها من كلمة « قصر » يبدو أكثر اقناعا • وقد وضع الرحالة الأندلسي الادريسي حدا لهذه المناقشات ، حين أطلق على هذه المدينة اسم قاصرش ، وهذا الاسم — الذي كان شائعا في الأندلس وقتئذ — مشتق من كلمة (Caesarina)

وكانت هذه المدينة — وفقا لما ذكره بلنيوس — إحدى مدن حربية خمس اشتهر بها اقليم لوزيتانيا • وقد عثر فيها على لوحين : أحدهما به نقش ذكر فيه اسم الامبراطور تراجان ، والآخر ذكر فيه الامبراطور سبتيوس سفروس سنة ١٩٤ م •

ولا ندري ما كانت عليه مدينة قاصرش في عهد القوط ، وان كان السنيور فرنانديث جرا يعتقد أن الملك القوطي « ليوفخلدو » استولى عليها سنة ٥٨٢ م •

قاصرش

ومرت سنوات طويلة على قاصرش في ظل القوط الغربيين ، الى أن
اغتتحتها موسى بن نصير بين ما افتتحه من مدن غرب الأندلس • ولكنها
فقدت أهميتها في العصر الاسلامي ، وأصبحت حصنا حربيا ذكره
الأدريسي بقوله : « هي حصن منيع ، ومحرس رفيع : فيه خيل ورجال
يغاورون في بلاد الروم » •

والحق لقد كانت مدينة قاصرش — في القرن السابق على سقوطها
في أيدي المسيحيين — مدينة حصينة ، كما كانت مسرحا لوقائع شهيرة :
نظالما دافعت النصارى ، وردت عنها وعن المدن الكبرى في اقليم الغرب
(Algarbe) ، خطر الغارات التي كان يقوم بها ألفونسو انريكي ملك
البرتغال (أو ابن الريق حسب تسمية المدونات العربية) • الا أن ألفونسو
انريكي تمكن أخيرا من وضع يده على قاصرش في صفر سنة ٥٦١ هـ
(١١٦٥ م) ، بفضل قائده المغوار خير الدو سميافور • ولكنها لم تبقي
طويلا في أيدي البرتغاليين ، اذ سرعان ما استردها الموحدون •

وفي سنة ١١٧٠ سقطت في يدى فرناندو الثانى ملك ليون ، وأقام
بها فرقة من القساوسة المحاربين للدفاع عنها ، سموا فيما بعد باسم
فرسان سانتياجو ، ومنحهم مسجدا في داخل المدينة لاقامتهم • وقد اتبع
في ذلك ما كان يفعله المجاهدون المسلمون في الاقامة بالأريطة استعدادا
للجهاد والحرب في سبيل الله •

ولم تحتفظ فرقة القساوسة المحاربين طويلا بمدينة قاصرش ، اذ
سرعان ما اجتاحت جيوش الخليفة الموحدى أبى يعقوب يوسف (سنة
١١٧٣ م) الأراضي الأندلسية من طليطلة الى القنطرة ، واستردت المدينة
وأصبحت قاصرش بذلك حدا بين مملكة الموحدين في الأندلس ومملكة ليون
والبرتغال ••• حتى دهمتها جيوش فرناندو الثانى في يناير سنة ١١٨٤ •
ومع ذلك فقد عز على الموحدين أن يفقدوا هذا الحصن المنيع • الذى كان

قاصرش

يحمى بلادهم ومدنهم في غرب الأندلس ، فسيروا الى قاصرش جيوشهم ، وضربوا عليها الحصار . ولما طال عليهم الأمر ، رحل الخليفة أبو يعقوب يوسف عن قاصرش الى شنترين لمحاربة البرتغاليين ، بعد أن ترك لحصارها فرقة من جنوده ، ولكنه قتل في هذا الحصار في رجب سنة ٥٨٠هـ (١١٨٤ م) ، وتفرق جنوده عن قاصرش عندما بلغهم نبأ موته .

فلما كان عهد أبى يوسف يعقوب ، وانتصاره على جيوش المسيحيين في موقعة الأرك سنة ١١٩٦ م ، استرجع الموحدون مدينة قاصرش بعد أن انتسفوا أراضي شلمنقة ومدينة البلاط وترجالة وطليرة . وحاول ألفونسو التاسع ملك ليون ، افتتاح قاصرش مرتين : الأولى سنة ١٢١٨م والثانية سنة ١٢٢٢ م ولكنه فشل في كلتا المرات . وأخيرا سقطت المدينة نهائيا في أيدي المسيحيين أمام هجمات جيوش ليون وفرسان قلعة رباح في سنة ١١٢٧ م .

وتقوم مدينة قاصرش الاسلامية على نشز من الأرض به قمم صغيرة تمتد من الشرق الى المغرب على الضفة اليسرى من وادى تاجة . وأكثر أجزاء المدينة ارتفاعا هضبة صغيرة ترتفع الى ما يقرب من ٤٥٨ مترا فوق مستوى سطح البحر . وتتخذ الأسوار شكلا رباعيا يقرب من المستطيل : محوره الأكبر ، الممتد من الشمال الى الجنوب ، يبلغ نحو ٣٨٥ مترا . ويبلغ المحور الأصغر الممتد من الشرق الى الغرب نحو ١٨٧ مترا .

وسهل قاصرش جرداء نادرة المياه ، وتحيط بالمدينة مرتفعات تكسوها أشجار الزيتون . وتمثل المدينة الرومانية (Norba) في باب يعرف اليوم بباب المسيح (Peurta del Cristo) ، إذ أن أجزاءه الدنيا رومانية البناء ، وتتوزع في المنطقة المحيطة به تماثيل رومانية ولوحات ونقوش .

قاصرش

أما قاصرش الإسلامية — التي كانت الحصن الأمامي في أنغر الجوفى بغرب الأندلس ، في السنوات الأخيرة من القرن الثباني عشر ، وطليلة القرن الثالث عشر — فتتمثل في بقية السور بأبراجه البرانية ، وفي جب مقام تحت قصر المدينة . . . وهذه الآثار تعبر عن الصفة الحربية التي كانت تتسم بها قاصرش التي وصفها الادريسي ، وتفسر عدم اهتمام النجوم وقتئذ باقامة العماثر المدنية التي كانت تبني في أغلب الظن من الطابية ، وهي مادة أقل تماسكا وصلابة من بلاط الأسوار . ولذلك فإن هذه العماثر المدنية اختفت ، وحلت محلها مبان قوية أقامها الفاتحون الجدد .

على أن أسوار قاصرش تدل دلالة واضحة على عناية خلمااء الموحدين بتحسين هذه المدينة ، لوقوعها في منطقة تتنافس عليها ممالك قشتالة وليون والبرتغال . . . اذ أنها كانت تعد باب الأندلس من جهة الغرب ، ثم أن القوة التي تسيطر عليها كان في مقدورها السيطرة بعد ذلك على منطقة الوادي الكبير . وتقوم بعض أجزاء من أسوار قاصرش على أسس الأسوار الرومانية المبنية من كتل الجرانيت الضخمة ، وما تزال بقايا هذه الأسوار الرومانية ترى اليوم في القطاع الواقع في الركن الشمالي الشرقي من المدينة .

أما الأسوار الإسلامية فتتميز بوضوح عن الأسوار الرومانية : ببناؤها من الطابية والملاط ، وباتخاذها اللون الأحمر ، وبأبراجها البرانية التي تتصل بالسور الأساسي عن طريق جدار واصل يطلق عليه اسم قورجة (Coracha) . وبعض هذه الأبراج مربع الشكل ، وبعضها منمن . وكلها مضممة في أجزاء السفلى ، ولكنها تشتمل على غرف في أجزاءها العليا ، المتصلة بدرب السور أو ممشاء ، كما هو الحال في البرج المعروف باسم رندنا (Redonda) ، والبرج المشطوف .

ويحتفظ السور الغربي اليوم بمظهره الإسلامي القديم ، فقد وصل

الينا سليما رغم ما عانتها المدينة من تغيرات عميقة في نظامها العمراني • وهذا السور مزود بأبراج برانية خمسة : بعضها مربع ، وبعضها مستطيل وكلها ترتفع عن ممشى السور ، وتتصل به عن طريق قورجات •

ومن هذه الأبراج الخمسة : برج تبدو عليه الضخامة ، جزؤه الأدنى من الجرانيت ، ولكنه تعرض لاصلاحات كثيرة • ويبلغ طول هذا البرج ١٠م ٨٣ م ، وعرضه ١٠م ٢٠ م ، وارتفاعه ٢٥ مترا • وتمتد قورجة هذا البرج البراني - أى سوره الذى يصله بسور المدينة الرئيسى - الى مسافة تبلغ نحو ١٢ مترا • ويعرف هذا البرج اليوم باسم برج بوخاكو (Bujaco) ، وهو اسم محرف من اسم خليفة الموحدين أبى يعقوب يوسف ٥٥٨ - ٥٨٠ هـ (١١٦٣ - ١١٨٤ م) • مما يدل على أن أبى يعقوب هذا هو الذى قام بتحسين قاصرش • ويغلب على الظن أن أسوار هذه المدينة أقيمت فى الوقت نفسه الذى أقيمت فيه أسوار مدينة بطلبوس لتشابههما الكبير •

وكان قصر قاصرش يقع فى جنوب شرقى المدينة وفى أكثر مواضعها ارتفاعا • وقد ذكر هذا القصر فى الوثائق القاصرشية فى القرن الخامس عشر ، ولم يثبت منه اليوم سوى جبه الذى يشغل اليوم بهو منزل لاس فيلييتاس (Las Veletas) والجيب المذكور بناء فى جوف الأرض مستطيل الشكل • طوله ١٥م ٥٠ مترا ، وعرضه ١٣م ٢٠ مترا ، وجدرانه من الحجارة وعقوده وقبواته من الآجر • ويتألف الجيب من خمسة أروقة سعة كل منها ٢م ٢٠ متر • أما طوله فيبلغ عشرة أمتار • وتعلو أروقتيه قبوات نصف أسطوانية تفصلها فيما بينها أربعة صفوف من العقود المتجاوزة التى تشبه حدوة الفرس ، وتتكىء هذه العقود على أعمدة ضخمة من الجرانيت •

بطلوريوس

بطلوريوس مدينة كبيرة على وادى أنة أو يانسة (Guadiana) ، قبل اتجاهه نحو المصب بنحو ستين كيلو مترا • وكانت بطلوريوس حاضرة بلاد الجوف ، بغرب الأندلس (Algarbe) ، في عهد ملوك الطوائف •

وكان موضع بطلوريوس قرية رومانية يرى الأستاذ أو بنر أن اسمها (Pax Augusta) ويسمىها الأستاذ ماركيس دى مونسانود بوطوا (Butoa) . ولا نعرف شيئاً عن تاريخ بطلوريوس في عهد القوط ، فقد كانت قرية قليلة الأهمية ، تابعة لمدينة ماردة دار ملك الرومان • وكانت تعرف في العهد الاسلامى الأول باسم البشرنل •

ولم يظهر اسم بطلوريوس الا في عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط ، حين خرج عليه عبد الرحمن بن مروان ، المعروف بالجليقى المولد ، سنة ٢٦١ هـ (٨٧٧ م) ، واستقل بهذه المنطقة ، وأسس تجاهها مدينة بطلوريوس الجديدة وعمرها • وازدهرت بطلوريوس في عهده ، وأصبحت حاضرة الاقليم بعد أن كانت ماردة تتمتع بذلك منذ الفتح الاسلامى • وحاطها عبد الرحمن الجليقى بالأسوار المنيعة (١) • وعظم أمر عبد الرحمن بن مروان ، وأصبح رئيس المولدين في الغرب ، وغنم حصن جلياطة من اشبيلية ، واقتحم كورة لبلة ، ودخل اكثنوبة • وكان لابد من اعتراف الحكومة المركزية به • وبالفعل اضطر الأمير المنذر الى الاعتراف بسيادته على غرب الأندلس •

(١) يذكر الحميرى انه شرع في بناء جامع بطلوريوس فبناه باللبن والطابية ، وبنى له صبة خاصة بالحجر • وكان سور بطلوريوس مبنيا في عهده بالتراب ، ولكنه بنى سنة ٤٢١ هـ بالكس والجندل •

بطليوس

وآل أمر مملكة بطليوس بالغرب ، بعد وفاة عبد الرحمن الجليقي ، الى ابنه محمد بن عبد الرحمن ، وتوراها بعده ابنه عبد الله بن محمد الذي ترقى سنة ٣١١ هـ (٩٢٣ م) ، ثم عبد الرحمن بن عبد الله . فلما ولي الأمير عبد الرحمن بن محمد الامارة بقرطبة عمل على ضم هذه الأقاليم المستقلة الى سلطان قرطبة . ففي سنة ٣١٧ هـ (٩٢٩ م) توجه عبد الرحمن الناصر الى مدينة بطليوس لمحاربة عبد الرحمن بن عبد الله الجليقي ، وحاصرها عبد الرحمن الناصر ، وضيق عليها الخناق ، وأرسل جيوشه الى الحصون التي تكتنفها حتى افتتحها في السنة نفسها ، وولى عليها وعلى ماردة عاملة محمد ابن اسحق . ومنذ ذلك العهد نمت بطليوس ، وعمرت بالأبنية ، وأصبحت مدينة كبيرة .

ولما انقرضت دولة بني أمية من الأندلس ، وانتزى كل على ما بيده ، استقل بالاقليم الغربى من الأندلس — ويشتمل على بطليوس وثنترين وجميع مدن الثغر الجوفى — فتى من عبيد الحكم المستنصر فملا من المعرفة اسمه سابور . وكان يدبر أمره رجل من صناعه يعرف بأبى محمد عبد الله بن محمد بن مسلمة ، ويلقب بابن الأفطس ، أصله من قبائل متكاسة بالمغرب . فلما مات سابور استبد بالأمر بعده عبد الله بن محمد ، واستأثر بملك غرب الأندلس ، وضم اليه يابرة (Evora) وثنترين (Sentarien) وأشبونة (Lison) ، وتلقب بالمنصور .

فلما مات في عام ٤٣٧ هـ (١٠٥٤ م) تولى بعده ابنه المظفر أبو بكر محمد . وكان فاضلا عالما وشجاعا فارسا . وهو الذى صنف كتاب المظفرى فى الأدب والتاريخ ، وكان يقع فى نحو خمسين مجلدا . وأقام المظفر بذلك الثغر ملكا عظيما ، وكانت بينه وبين جاره ابن عباد حروب . وفى عهده استولى ملك البرتغال على مدينة قلمرية (Coimbra) سنة ٤٥٦ هـ (١٠٦٣ م) بعد حصار طويل . ولما توفى المظفر ولى بعده ولجده عمر ويحيى . وفى سنة ٤٦١ هـ (١٠٦٨ م) دب بين الأخوين النزاع ، وانتهز

البرتغاليون هذه الفرصة وأغاروا على بلاده • واشتد الخلاف بين الأخوين وألهاهما ذلك عن مدافعة النصارى • وما زالت السعائيات تقدح بينهما حتى مات يحيى ، وانفرد أخوه عمر بالملك فثلقب بالمتوكل •

وكان المتوكل ملكا على الهمة ، مشهور الفضل • وكانت له قدم راسخة في صناعة الشعر والنثر ، وكان في حضرة بطليوس كالمعتمد بن عباد • وقد بنى المتوكل المبانى الطيبة والمصانع الجليلة ، كما أقام منية البديع خارج بطليوس على نهرها الأعظم ، وهو روض كان المتوكل يذلف بموافاته ، ويبتهج بحسن صفاته • وكانت بطليوس في عهده دار أدب ونسب ونحو وعلم • وقد قال الفتح ابن خاقان عند ذكره في كتابه قلائد العقيان : « ملك جند الكتائب والجنود ، وعقد الألوية والبنود ، وأمر الأيام فائتمرت ، وطافت الآمال بكعبته واعتمرت ••• الى نسن وفصاحبة ، ورحب جناب للوافدين وساحة ، ونظم شعر يزرى بالدر التنظيم ، ونثر تسرى رفته سرى النسيم ، وأيام كأنها من حسنها جمع ، وليال كأن فيها على الأنس حضور ومجتمع » •

واستمرت أيامه حتى حاصره المرابطون ، وضيق عليه الأمير سيز بن أبى بكر ببطلينوس بسراياه وغاراته ••• والمتوكل يطعم بالتمسك بها لقربها من حدود البرتغال • فلما عيل صبره ، وعجز عن مقاومتهم ، راسل ألفونسو السادس ملك قشتالة وأطعمه ، وتنازل له عن مدينة شنترين • فسخط عليه أهل بطليوس ، وراسلوا المرابطين ، فوصلتها جيوشهم ، وفتح الناس لها الأبواب ، فتدفقت اليها ، وقبض على المتوكل وعلى ولديه الفضل والعباس ، وقتلوا في آخر سنة ٤٨٨ هـ (١٠٩٥ م) (١) •

(١) رثاهم ذو الوزارتين أبو محمد عبد المجيد بن عبدون اليابري في قصيدة
وبب السماح وبيب الباس لو سلما
وحسرة الدين والدينيا على عمر

بطلوريوس

وأصبحت بطليوس خاضعة للمرابطين ... حتى كانت آخر أيامهم،
وقيام الثورات عليهم في جميع أنحاء الأندلس ، فاستقل ببطلوريوس محمد
بن علي ابن الحجام . وقدم الموحدون الى الأندلس واستولوا عليها .
فلما كانت آخر دولتهم ، استقل محمد بن يوسف بن هود بمرسية ،
وأطاعته جيان (Jaen) وشريش (Jerez) واشبيلية (Sevilla) وماردة
(Merida) وبطلوريوس (Badajoz) ولكن لم يطل بقاء بطليوس في يده،
اذ حاصرها ألفونسو التاسع ملك ليون ، واستولى عليها في ١٩ مارس
سنة ١٢٢٨ .

ولقد خُطت بطليوس في بسيط من الأرض ، مخضر الأبراد ، منفسح
المراد . ولذلك اهتم ملوكها المسلمون بتحسينها بالأسوار والأبراج ،
وأقاموا بها قصبة منيعة . وكانت بطليوس في القرن الثاني عشر الميلادي
— على حد قول الادريسي — مدينة عامرة بالأسواق تحيط ، بها الأسوار
الحصينة . وكان بجهتها الشرقية ربض ، أكبر اتساعا من المدينة نفسها ،
يقع في فحس بطليوس ، ولكنه خرب بعد سقوط الخلافة بقرطبة ، وخلا
من سكانه . ولا نعرف من مساجدها سوى مسجد كان يعرف باسم ابن
شبوقة .

وقد تبقى من آثار بطليوس الاسلامية : القصبة ، وترتفع نحو ستين

شقت ثرى الفضل والعباس هامية
تمزى اليهم سماحا لا الى المطر
ثلاثة ما رأى السعدان مثلهم
واخير ولو عززا في الصوت بالقمر
ثلاثة ما ارتقا النسران حيث رقوا
وكل يطار من نسر ولم يطر
ثلاثة كذوات الدهر منذ ناوا
عنى مضى الدهر لم يرتع ولم يجر
كانوا رواسى أرض الله منذ مضوا
عنها استطارت بمن فيها ولم تقر

مترا فوق مستوى نهرها آنة • وأسوار القصبية من طابع أسوار اشبيلية —
 أى أنها ترجع الى عصر الموحدين — وتتقدمها أسوار أمامية ، وتقوم بها
 أبراج مربعة • وللمدينة باب ذو مرفق يعرف اليوم باسم باب التاج ،
 وآخر يعرف بباب الزائدة • ويمتد من سورها الرئيسى قرب باب التاج
 جدار ينتهى ببرج متعدد الأضلاع أسمه برج اسبانتنا بروس •

أشبونة

أشبونة مدينة في غرب الأندلس تقع على البحر المحيط (المحيط الأطلسي) ، وتشرف على مصب نهر وادي تاجة • وكانت مدينة رومانية قديمة تعرف باسم (Olisipo) ، ومنه اشتق المسلمون اسم المغرب « الأشبونة » أو « أشبونة » • وقد افتتحها موسى بن نصير فيها يقرب من عام ٧١٤ ، وأصبحت قاعدة من قواعد الأندلس •

ونزلها المجوس (النورمانديون) في عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط ، واستولوا على بسيطها ، وجعلوها مركزا لغاراتهم على قرمونة وهيرش واشبيلية ومورور • واستنجد الأمير عبد الرحمن بوالى الثغر الأعلى موسى بن قسى ، فقدم الى نجده ، وكان له الفضل الأكبر في التغلب على المجوس ، وطردهم من هذا الاقليم •

ولما سقطت الخلافة القرطبية ، وقامت دويلات الطوائف ، أصبحت أشبونة من ممتلكات المتوكل ابن الأقطس ، الذى ولى عليها أنا محمد بن هود المهاجر اليه من سرقسطة • وسقطت أشبونة في أيدي البرتغاليين في أواخر أيام المرابطين بالأندلس •

وكانت أشبونة ، في العصر الاسلامي ، مدينة شديدة الحصانة منيعة ، وكان يحيط بها سور ، وبداخلها قصبة • وينفتح في سورها خمسة أبواب: بابها الغربى قد عقدت عليه حنايا فوق حنايا على عمد من رخام مثبتة على حجارة من رخام ، وكان أكبر أبوابها وأهمها جميعا • كما كان لها باب غربى أيضا ، يعرف بباب الخوخة ، يشرف على مسرح فسيح يشقه جدول ماء يصبان في البحر • ولها كذلك باب قبلى ، يسمى باب البحر ، تدخل فيه أمواج البحر عند المد وترتفع ثلاث قامات • وكان ينفتح في سورهما الشرقي بابان : أحدهما باب الحمة ، نسبة الى عين ماء للاستحمام

الاشبونة

والاستشفاء ، وكان يؤدي الى حي يعرف اليوم باسم (Alfana) أما الباب الآخر فيعرف بباب المقبرة •

ويمكننا اليوم أن نقتنع بسهولة تخطيط السور الاسلامي بأشبونة • وقد أوضح ذلك الأستاذ لامبير في دراسة عن الأحياء الاسلامية القديمة في تخطيط مدينة أشبونة (١) •

وقد طالعنا الادريسي والحميري بمعلومات هامة عن نشاط هذه المدينة في العصر الاسلامي •• ذلك أن بعض سكانها من المغامرين كانوا يخرجون لاستكشاف المحيط • وفي ذلك يقول الادريسي : « ومن مدينة أشبونة كان خروج المغرورين في ركوب بحر الظلمات ليعرفوا ما فيه والى أين انتهاؤه ، ولهم بأشبونة موضع بقرب الحمة منسوب اليهم يعرف بدرب المغرورين • وذلك أن ثمانية رجال اجتمعوا فاتبنوا مركبا ، وأدخلوا فيه من الماء ما يكفيهم أشهرا ، ثم دخلوا البحر في أول طاروس الرياح الشرقية ، فجروا بها نحو من أحد عشر يوما ••• » •

وهذا دليل قاطع على أن المغامرين المسلمين كانوا أول من كشف المحيط الأطلسي ، وأول من ركبوا هذا البحر المظلم للبحث واستكشاف قبل أن يظهر ماجلان أو كرسطوف كولومبس •

(1))lie Lambert, (Les anciens quartiers musulmans dans le plan de la ville de Lisbonne), dans Comptes rendus du congrès international de géographie, Lisbonne, 1949, T. III, 1951.

اشبيلية

تقع مدينة اشبيلية على الضفة اليمنى لنهر الوادى الكبير ، قرب مصبه ، فى خليج عميق بحيث تصلح لأن تكون ميناء بحريا فى جنوب اسبانيا (١) • وتتوسط اشبيلية سهلا فسيحا يعرف بالفحص (J.a Vega) وكانت زمن المسلمين مدينة عامرة بها أسواق قائمة وتجارات رائجة • وأكثر تجارة أهلها الزيت ، وذلك لأن فى محصها تلا مرتفعا يعرف بالتurf دائم الخضرة ، لا تكاد تشمس فيه بقعة لالتفاف زيتونه • وزيتونها هذا يخزن فى جوف الأرض أكثر من ثلاثين سنة ثم يعصر •

وقد أثبت الباحثون أن الاسم القديم لمدينة اشبيلية — وهو اشبالى (Hispalis) — من أصل أيبيري ، ثم تحول هذا الاسم الى اسم لاتينى (Hispalis) بعد أن افتتحها الرومان سنة ٢٠٥ ق.م وعرب المسلمون هذا الاسم الى اشبيلية • ومن هذا الاسم المتعرب اشتق الاسبان الاسم الحالى (Sevilla)

وليس من شك فى أن اشبيلية كانت من بين المدن الأولى التى أسسها الأيبيريون ، ثم تطورت المدينة فى عهد الفينيقيين والاغريق والقرطاجنيين ، وأصبحت المركز التجارى للأندلس • وكانت اشبالى أو اشبيلية ، وبقت الفتح الرومانى ، مدينة صغيرة المساحة ، مسورة بسيطة البناء ، وكان يطلق عليها اسم (Oppidum) ، أى المكان الحصين وفقا لما ذكره المؤرخ الرومانى كايوس بليينوس (Caius Plinius) (٢٣ ق.م — ٧٩ م) • يغلب على الظن أن هذه المدينة الأولى كانت تقع فى مكان مرتفع بعض النسيء باقرب من النهر ، أى أنها كانت تشغل جزءا داخليا من مدينة اشبيلية الحالية •

(١) هذا النهر الكبير يصعد فيه الماء يقرب من اثنين وسبعين ميلا ثم ينحسر

اشبيلية

وورد اسم اشبالي لأول مرة بمناسبة اقامة يوليوس قيصر بها ،
بعد موقعة مندا فيما بين شهرى مارس وأبريل سنة ٤٥ ق.م ، فى كتاب
(Bellum Hispalense) . اذ يروى صاحبه أن بسورها أبوابا ، وأنة
كان يتوسطها مجلس الشعب (Forum) ، وبجوارها كان يقع المسرح .
وكان لها ميناء ترسو فيه السفن .

وذكر مؤلف هذا الكتاب أن يوليوس قيصر أعاد بناء أسوارها بعد
أن اتسع نطاقها نحو النهر (١) . وأصبحت أشبالييس مدينة بكل مداول
هذه الكلمة (Civitas) . كما أصبحت مركزا للقانون الرومانى ، وأطلق
عليها اسم (Colonia Julia, Romula) ، خوليا نسبة الى يوليوس قيصر
الذى بنى أسوارها بالأحجار . ورومولا تصغيرا لروما . ولما ظهرت
المسيحية فى اسبانيا وانتشرت فى اشبيلية ، بدأ عهد من الاضطهاد الدينى
والتعذيب ، واستشهدت فى ذلك الوقت قديستان هما رمز اشبيلية :
احدهما تدعى خوستا (Justa) ، والثانية روفينا (Rufina)

وفى سنة ٤٠٩ م غزت قبائل الوندال اسبانيا ، وتبعهم القوط
الغربيون . واستقر فيها ملوك القوط ، وجعلوها حاضرة لهم ا حتى نقل
الملك ليوفخلدو العاصمة الى طليطلة سنة ٥٦٧ م .

وقد ازدهرت المدينة فى عهد سان هرمنخلدو الذى اعتنق فيها
المسيحية . وأسس سان ايزيدرو مدرسته المشهورة فى اشبيلية .
ثم بدأ عصر جديد بنزول المسلمين فى شبه الجزيرة واقتناحهم لها .

(٢) ذكر الحميرى فى كتابه « الروض المعطار » أن يوليوس قيصر احدث عليها
بأسوار من حـ خر صلد ، وبنى فى وسطها قصـرتين بذيعتى الشان تعرفان
بالاخوين ، وجعلها أم قواعد الاندلس ، واشتق لها اسما من رومية ومن
اسمها ، فسموها رومية يوليوس .

وارتفعت أعلام الاسلام على الأندلس ، وتقدمت جيوش طارق بن زياد تفتتح المعقل والحصون عقب انتصارها على جيوش القوط الغربيين في موقعة وادي لكة سنة ٧١٢م . وقدمت موجة أخرى من الفاتحين بقيادة موسى ابن نصير ، فآتم فتح المدن التي لم يفتحها طارق، وسقطت اشبيلية في أيدي المسلمين بعد حصار دام عدة شهور لحصانة أسوارها ومناعتها . واختارها موسى بن نصير حاضرة للأندلس : لوقوعها على البحر ، وارتباطها في يسر بسائر المدن الأندلسية الأخرى ، وسهولة اتصالها ببلاد المغرب قاعدة الجيوش الاسلامية في حالة قيام الأندلس بالثورات . ولكن اشبيلية لم تتمتع بهذا التفوق ، اذ تحولت العاصمة الى قرطبة عقب مقتل عبد العزيز ابن موسى سنة ٩٨ هـ (٧١٧) م .

وتولى على الأندلس عدة ولاة من قبل خلفاء بنى أمية . وفي عهدهم انبعث بين العرب الصراع القبلي الذي حملوه معهم من المشرق ، وأصبحت البلاد مسرحا للفتن والفوضى ، ومرتعا خصبا للاضطراب . . . حتى دخل الأمير عبد الرحمن بن معاوية الأندلس ، وأنقذها من الفتن التي شملتها : ففوضى على مظاهر الفوضى المستحكمة بها ، وكون دولة عربية اسلامية تعد امتدادا للدولة الأموية .

وظلت الحياة في اشبيلية بعد الفتح الاسلامي على ما كانت عليه زمن القوط ، الا من تغيير طفيف أحدثه الغالبون في المجال الديني والاجتماعي . وسكن اشبيلية عدد قليل من العرب ، اذ آثر أكثرهم النزوح الى العاصمة قرطبة . وازدهرت المدينة بعدد كبير من النصارى باعتبارها المركز الديني المسيحي الأول في اسبانيا منذ عهده القوط ، ثم ازداد عد سكانها العرب فجأة بعد أن استقر فيها جند حمص سنة ٧٤٢م ونزلت باشبيلية عدة قبائل عربية : مثل بنى موسى من بيت غافق ، وبنى زهرة ، وبنى حجاج ، وبنى الجد ، وبنى خلدون . وكانت هذه القبائل تؤلف الأرستقراطية العربية باشبيلية .

اشبيلية

وانتبع المسلمون منذ الفتح سياسة من التسامح في معاملتهم نصارى اشبيلية ، وأتاحوا بذلك تحول كثير من النصارى الى الاسلام ، وعرف هؤلاء المتحولون بالمسالمة . وكان النصارى يتمتعون — خاصة في عهد عبد العزيز بن موسى — بحرية في أداء شعائر دينهم . وكان من أثر سياسة التسامح هذه أن قامت روابط وثيقة بين المسلمين والمسيحيين ، تقوم على مصاهرة المسلمين للاسبان . فكثر زواج الفاتحين من الاسبانيات ، ونشأ من هذا الزواج جيل من الاسبان المسلمين عرفوا بالمولدين . وازداد عدد المولدين شيئاً فشيئاً حتى أصبحوا في نهاية القرن التاسع الميلادي غالبية سكان اشبيلية ، واحتفظ كثير منهم بأسمائهم الاسبانية : مثل بنى أنجلين ، وبنى شبرقة (Sabarico)

أما اليهود فكانوا يشغلون في اشبيلية مكانة سامية بين سكانها ، فقد انضموا للمسلمين وآزروهم منذ الفتح الاسلامي ، وسهلوا بذلك دخولهم المدينة .

واعتلى عبد الرحمن بن معاوية سرير الملك بقرطبة سنة ٧٧٥ م ، ولم يزعج استقرار الامارة في قرطبة المركز السامي الذي كانت تحتته اشبيلية : فقد تمتعت اشبيلية في عهد بنى أمية بازدهار شامل في حياتها ، وأقام فيها أمراء بنى أمية المنشآت العظيمة الخالدة . وكان عصر عبد الرحمن الأوسط العصر الذي اتصلت فيه اسبانيا الاسلامية بالمشرق العباسي — لأول مرة — اتصالاً مباشراً . . . ذلك أن اسبانيا في عهدها الاسلامي الأول — وخاصة في عهد عبد الرحمن الداخل — كانت تحافظ على مثلها وتقاليدها الشامية .

وأقام الأمير عبد الرحمن الأوسط في اشبيلية مسجداً جامعاً سنة ٨٢٩ م . فلما أغار النورمانديون على اشبيلية سنة ٨٤٤ م ودخلوها ، أحرقوا أسقف مسجدها ، وعاثوا في قصورها . ثم أخرجهم الأمير عنها ،

وأشار عليه الوزراء ببناء سور لمدينة اشبيلية لحمايتها ، فعهد بذلك الى عبد الله بن سنان — أحد موالى بنى أمية — فبناه • وأمير عبد الرحمن بإقامة دار صناعة باشبيلية لإنشاء السفن الحربية لأن الأندلس لم يكن لها أسطول في ذلك الوقت يستطيع أن يرد غارات النورمانديين •

وذكر ابن حيان أن عبد الملك بن حبيب كتب الى الأمير عبد الرحمن أثر محنة أهل اشبيلية واثارة موضوع تحصينها — وكان الأمير اذ ذاك مشغولا بعمل زيادته بالمسجد الجامع بقرطبة — فذكر له عبد الملك في كتابه أن بنيان سور مدينة اشبيلية أكد عليه من بنيان الزيادة في المسجد الجامع • فعمل برأية في بنيان هذا السور ، وبناء بالحجارة سنة ٨٤٠ م •

وفي عهد الأمير عبد الله بن محمد رفعت اشبيلية راية الاستقلال ، وخرجت عن فلك الامارة القرطبية • واستبد باشبيلية ابراهيم بن حجاج أحد زعماء المدينة وأشرفها ، وارتنقى في درج الجلال • وكان زعيما قويا ، بعيد المهمة ، جميل الذكر • واستمر بنو حجاج يحكمون اشبيلية حتى نولى عبد الرحمن بن محمد امارة قرطبة ، وعزم على اخضاع الثائرين ، وتوحيد الأندلس ، وضم مدنها المستقلة الى السلطة المركزية • • • ونجح عبد الرحمن الناصر في القضاء على أولاد عمر بن حفصون الثائرين بقلعة ببشتر ، واستسلم له أحمد بن مسلمة ابن حجاج ، وبذلك انضمت اشبيلية الى فلك قرطبة ، وأقام فيها قصبة حصينة •

ولما قام ملوك الطوائف في الأندلس ، بعد سقوط الخلافة بقرطبة ، استولى ابن عباد على مقاليد الأمور باشبيلية سنة ١٠٤٣ ، وجعلها بنو عباد حاضرة لمملكتهم الصغيرة • وشهدت اشبيلية في عصرهم ازدهارا لم تشهد من قبل : لا في عصر الرومان ، ولا في عهد القوط • ووصل بها الأمر أن أصبحت أعظم مدن اسبانيا الاسلامية بعد أن تخلت لها قرطبة عن الرعاية • وكان المعتمد بن عباد خير مثل للشاعر الأندلسي الرقيق • وكان أندى ملوك الأندلس راحة ، وأرحبهم ساحة ، وأعظمهم ثمادا ، وأرفعهم

اشبيلية

عمادا *** ولذلك كانت اشبيلية في عهده بؤرة الرجال ، وقبلة الآمال ، ومركز الشعراء ، ومجتمع الأدباء • وبينما كان شعراؤه يعبرون بقصائدهم الرقيقة عن حياة الترف التي كان ينعم بها ملوك بنى عباد ، كان البنائة والمهندسون يعبرون بمنشآتهم عن الازدهار العمراني باشبيلية : فشيّدوا العمائر الفخمة ، وأقاموا القصور السامقة •

ولم يتح لاشبيلية أن تنعم طويلا في ظل بنى عباد ، اذ سرعان ما عبر المرابطون الزقاق بحجة انقاذ الأندلس من براثن ألفونسو السادس ملك قشتالة ، ثم أخذوا في القضاء على دول الطوائف واستولوا على اشبيلية سنة ١٠٩١ ، وتم لهم بذلك السيطرة على الأندلس •

وفي أواخر عهدهم اختلت أمور دولتهم : ذلك أنهم تأثروا بمظاهر البرقة في العواصم الأندلسية ، ونسوا مظاهر الغلظة والجفاء التي فطروا عليها في الصحراء ، بحثا وراء شهوات النفس ، ففقدوا خصالهم ، وانحطت همهم ، مما هيا المجال لدخول عناصر جديدة في الأندلس وفدت من المغرب • واجتاز الموحدون بدورهم الزقاق الى اسبانيا ، وبأيع أهل اشبيلية عبد المؤمن بن علي ، خليفة الموحدين سنة ١١٥٦ ، فاخترها حاضرة له في الأندلس •

ثم تولى أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن الخلافة بعد أبيه سنة ١١٦٤ • وكان محبا للفنون والآدب والفلسفة رغم ميوله الحربية ، وكانت اشبيلية أقرب الى قلبه من مراكش حاضرتة في المغرب : اذ ولد في قرطبة ، وقضى في اشبيلية شطرا كبيرا من طفولته ، وتأثر برقة الأندلس ، وفتن بسحرها ، وراقته مظاهر الثراء التي كان يستنيم لها الأندلسيون *** فتخلى منذ طفولته عن خشونة الموحدين وتتشفهم ، وأقبل على الترف ، وانغمس فيه ، فشيّد القصور والمساجد ، وحرص على تجميل حاضرة ملكه في الأندلس بكل ما من شأنه التعمير والتمصير • وكان من نتائج ذلك أن انطلقت حركة البناء في تلك المدينة ، واتسمت الأبنية الجديدة بطابع

الأصالة والجمال ، واجتمعت فيها البساطة التي تميزت بها عمائر الموحدين مع التعقيد والعلو في الحشد الزخرفى . وتلك احدى خصائص عمارة الأندلس منذ خلافة الأمويين في قرطبة حتى عهد ملوك الطوائف .

وفي عهد ابنه أبى يوسف يعقوب المنصور بلغت اشبيلية ذروة مجدها وعظمتها ، وأصبحت بحق حاضرة الأندلس في عهد الموحدين : فعمرت بالأسواق والمتاجر والقصور والعمائر ، وازدهرت فيها الحضارة . ولم يتردد أبو يوسف يعقوب في تجميلها ، فأقام لمسجدها الجامع الذى بناه أبوه مئذنة ارتفعت في رشاقة مشرفة على فحش اشبيلية وما يحيط بها من المنطقة المعروفة بالشرف ، وتضم القرى والضياح .

ولما عاد الخليفة الى اشبيلية — بعد انتصاره الرائع على جيوش قشتالة في موقعة الأرك (١٠ يوليو سنة ١١٩٥) ، واستحق لقب المنصور — أمر بصنع تفاحات أربع مذهب لتكلم المئذنة ، ورفعت في حضرتها ، وركبت بالسفود البارز بأعلى القبة ، وأزيحت عنها الأغشية التى كانت تكسوها فبهرت ببريقها ولآلائها عيون الحاضرين . وظلت المئذنة ، بسموقتها ودقة زخارفها وتناسق بنيانها ، تثير اعجاب المسلمين والمسيحيين على السواء . وكانت تمثل للمسلمين تفوق دينهم ودوام حكمهم في هذه البلاد حتى ضعفت دولة الموحدين ، وتفصلت دولة الاسلام في الأندلس بتقديم حركة الاضطداد المسيحية بعد هزيمة الاسبان للمسلمين في موقعة العقاب سنة ١٢١٢ التى لم يقيم للمسلمين بعدها قائمة تحمد ، وبها بدأت عوامل الضعف تسرى في كيان دولة الموحدين .

الا أننا يمكن أن نميز من بين خلفاء الموحدين الضعاف ملكا كان له فضل كبير في تجميل اشبيلية والعناية بها : هو أبو العلاء ادريس بن أبى يوسف يعقوب المنصور (١٢١٨ — ١٢٣٠) ، الذى حاول أن يعيد لاشبيلية بهاء أيام أبيه المنصور ، فعمد الى تحصينها أمام الخطر المحدق بها ، فأقام بها سنة ١٢٢١ برجاً ضخماً ، هو برج الذهب المشهور الذى

اشبيلية

لا يزال قائما حتى اليوم ، ثم جدد أسوار المدينة ، وشيد أمامها سورا.
 أماما يحيى بها جميعا ، وحفر حولها خندقا يدور بهذه الأسوار ، مبالغة
 في تحصين المدينة أمام الخطر الاسباني . وبموت أبى العلاء ادريس
 تلاشى كل أمل في انقاذ اشبيلية ، فقد سقطت المدن التى كانت تؤلف خط
 دفاعها الأمامى ، كقرطبة وقرمونة وحصن القصر والقلعة وحصن الفرج
 وقلعة جابر . وفي ٢٢ ديسمبر سنة ١٢٤٨ دخلت جيوش قشتالة مدينة
 اشبيلية بعد حصار دام ما يقرب من ١٧ شهرا .

ولقد بالغ مؤرخو العرب في وصف روائع اشبيلية ، وما كانت تتفرد
 به دون غيرها من الحواضر الأندلسية . وكانت — على حد قولهم — عروس
 بلاد الأندلس وقاعدتها ، مدينة الأدب واللهو والطرب ، عظمة الشأن
 طيبة المكان ، لها البر المديد والبحر الساكن ، والوادي العظيم . ووصفها
 الشقندى فقال : « أما اشبيلية فمن محاسنها : اعتدال الهواء ، وحسن
 المبانى ، وتزيين الخارج والداخل ، وتمكن التمتع . وأما مبانيتها فقد
 سمعت عن اتقانها واهتمام أصحابها بها ، وكون أكثر ديارها لاتخلو من
 الماء الجارى والأشجار المتكاثفة ، كالنارنج والليم والليمون والزنبوع
 وغير ذلك وقد جعل الله اشبيلية أم قرى الأندلس ، ومركز فخرها
 وعلاها ، اذ هى أكبر مدنها وأعظم أمصارها » .

كذلك مدحها مؤرخو اسبانيا المسيحية وقارنوها بالقسطنطينية .
 وأصبحت اشبيلية عاصمة قشتالة بدلا من طليطلة . وكان هذا الاختيار
 لاشبيلية موفقا كل التوفيق ، اذ أن ماضى اشبيلية كان يزخر بالعظمة
 والمجد ، كما أن طليطلة أصبحت — بعد سقوط اشبيلية — بعيدة عن الشغل
 الأدنى ، حيث الصراع الحاسم بين المسيحية والاسلام في الأندلس .

كذلك اتجه هرناندو الثالث — بعد فتحه لاشبيلية — نحو مراكش ،
 مصدر الخطر الذى يهدد بلاده . فكان لا بد له من عاصمة قريبة من موطن
 نزول المغاربة الى الأندلس لنجدة اخوانهم في غرناطة . ويمكننا أن نخيف

الى ذلك سببا آخر هو أن اشبيلية كانت أحصن مدن الأندلس ، كما أنها كانت غنية بالمحصولات الزراعية ومنتجاتها الصناعية •

عمد فرناندو الثالث الى اعادة تعمير اشبيلية بعناصر مسيحية وفدت مع الاسترداد الاسباني من اسبانيا الشمالية (قطالونية واشتورياش وايون وأرجون وقشتالة) ، وحلت محل العناصر الاسلامية التي هجرت المدينة بعد سقوطها في أيدي المسيحيين • فوزع القصور والدور الاسلامية الكبرى على قواده وجنوده القشتاليين والقطلاتيين والفرنج الذين أسهموا في فتح اشبيلية • وأدى هذا التغيير الفجائي في العناصر التي تسكن المدينة الى تحول عميق في نظام الحياة بها • فبينما أخذت التقاليد القشتالية تمسخ تدريجا النظام الاسلامي في حياة المدينة ، ظلت الممتلكات التي غنمها الاسبان في اشبيلية تحتفظ ببنائها الاسلامي •

أجل ، لقد كان مظهر التجديد في الأندلس — وخاصة في اشبيلية : العاصمة الجديدة للوك قشتالة — عميقا في كافة أنواع الحياة ، ولكنه لم يكن كذلك من الناحية المادية • فمع أن القشتاليين جعلوا من اشبيلية امتدادا لمدينهم القشتالية — وذلك بدمهم ولغتهم ودينهم واقتصادهم وقانونهم وأزيائهم وفنونهم وعاداتهم — فان الظروف المادية والجغرافية التي وجد فيها الفاتحون الجدد، وكذلك استمرار التأثيرات الاسلامية ••• كل ذلك أتاح الفرصة لايجاد خصائص اقليمية يشبه بعضها الخصائص القديمة • وأخذت هذه الخصائص الجديدة تبرز منذ القرن الرابع عشر لتؤلف أسلوبا اشبيليا يذكر بالأسلوب الاشبيلي الاسلامي • وقد ساعد على خلق هذا الأسلوب عدم نقاء الدم القشتالي في اشبيلية ، اذ أن السكان الجدد كانوا يختلفون فيما بينهم في كل نواحي الحياة نظرا لتعدد أجناسهم •

وعاش هؤلاء السكان مع بقايا العنصر الاشبيلي الاسلامي الذي أثر البقاء في مسقط رأسه • وساهم هؤلاء المسلمون الخاضعون لقشتالة ،

اشبيلية

والذين يعرفون بالمدجنين ، فى كل نواحي الحياة الاقتصادية بالمدينة • وأحدث ذلك تراجعاً للفن القوطى الذى جلبه القشتاليون معهم من الشمال، وانتصر الأسلوب المدجن فى العمارة ، وهو أسلوب ناشئ من امتزاج الأسلوب الاسلامى بالأسلوب المسيحى • فقد وجد بين المدجنين كثير من أصحاب المهن الفنية والصناعات ، كالبنايين والنجارين والفخارين ، واستخدمهم ملوك اسبانيا المسيحية فى بناء الكنائس والأديرة والحصون • ولا شك أن الفضل فى ازدهار الأسلوب المدجن يرجع الى تفوق المدجنين المسلمين فى الناحية الفنية ، والى مقدرتهم فى البناء بالآجر بدلا من الحجارة التى كان ينדר وجودها •

وعلى الرغم من ضياع كثير من معالم اشبيلية الاسلامية ، فما زالت تحتفظ حتى اليوم بطابعها الذى اتسمت به منذ عصر الموحدين ، وما زالت تحتفظ بتخطيطها الاسلامى القديم رغم التغييرات العميقة التى أحدثتها الاسبان فى النظام الاجتماعى باشبيلية : فان كنائس المدينة الحالية قامت على أسس مساجدها القديمة ، بل أن أبراج هذه الكنائس تذكرنا بالمآذن الاشبيلية ، لما كسيت به من توريقات عربية وعقود اسلامية • كذلك تشهد دور اشبيلية اليوم — بأفنيته الداخلية المغروسة بالآشجار ، ونوافذها المكسوة بشبكات من الحديد ، وجدرانها الخارجية العارية من الزخرفة ، وواجهاتها البيضاء — بمدى تغلغل الأثر الاسلامى فى النظام العمرانى بالمدينة •

وكانت اشبيلية ، فى عهد الموحدين ، تنقسم الى حى أساسى هو المدينة ، وأحياء أخرى تحيط بها • وكان يحيط بالمدينة وأحيائها أسوار قوية تحمى المدينة من غارات الأعداء • وكان يقع خارج الأسوار أرباض، تما كان الشأن فى أغلب مدن الأندلس •

أما المدينة ذاتها فكانت تشتمل على مسجدين جامعين : الأول مسجد ابن عدبس، الذى بناه القاضى عمر بن عدبس بأمر الأمير عبد الرحمن

الأوسط سنة ٨٢٩ ، وما زالت بقاياها ظاهرة حتى اليوم ، وإن كانت تقوم عليها كنيسة سان سلفادور • والثانى المسجد الجامع بالقصبة الذى أسسه أبو يعقوب يوسف ، وعليه تقوم اليوم كاتدرائية اشبيلية • ومن ساحة هذا المسجد الأخير كانت تتشعب كل طرق المدينة مؤدية الى الأبواب المفتوحة بالأسوار • ومن العجيب حقا أن نرى اليوم بعض الطرق تحتفظ بتخطيطها القديم ، اذ تمتد من طرف الى آخر بالمدينة مارة بالمركز الدينى الذى تؤلفه اليوم كاتدرائية اشبيلية ، والذى كان يؤلفه فيما مضى جامع القصبة الكبير •

أما المركز الاقتصادى والصناعى باشبيلية فيتبع فى أهمية المركز الدينى مباشرة • فقد كان لموقع اشبيلية الجغرافى على مصب نهر الوادى التبر ، وسط اقليم غنى بمنتجاته الزراعية ، أثر كبير فى اعتبار اشبيلية أعظم مدن الأندلس فى التجارة • وكانت الحياة الاقتصادية مزدهرة على الأخص حول المسجد الجامع الذى كانت تحوطه الأسواق والقيساريات • ومن هذه الأسواق : سوق الصباغين والخياطين ، وسوق باعة الإثواب ، وسوق القراقين والعطارين ، والزجاجين ، والفخارين ، والنجارين والقصابين ، وسوق الصاغة • وما زالت بعض أسماء هذه الأسواق معروفة حتى اليوم بأسمائها العربية ، من ذلك شارع القيسارية (Alcaiceria) وشارع الخياطين (Alfayates)

ومن أهم المؤسسات الاقتصادية ، فى مدينة اشبيلية الاسلامية ، الفندق : اذ كان يقصده التجار الغرباء ، وكانت تحفظ فيه البضائع قبل توزيعها على التجار • واستعمل القشتاليون لفظة (Alfondiga) التى تحولت اليوم الى كلمة (Fonda) تحريفا عن كلمة فندق العربية •

وتعد دار الصناعة من أهم الأبنية الاقتصادية فى اشبيلية فى العصر الاسلامى • وكانت دار صناعة اشبيلية تقوم ببناء القطائع الحربية والسفن وما يختص بالآلات الملاحة • وكانت هذه الدار تقع على نهر

اشبيلية

الوادي الكبير قرب برج الذهب خارج الأسوار • وفي هذا الموضع باب كان يعرف بباب القطائع نسبة الى قطائع الأسطول الاشبيلي • الا أن هذه الدار أحرقت عند حصار الاسبان للمدينة قبل سقوطها سنة ١٢٤٨ • وأقام الفونسو العاشر دارا أخرى مكانها بقيت منها اليوم بقايا كثيرة •

وكانت المياه ترد الى اشبيلية من طريق جسر كبير يبدأ من عين ماء بالقرب من قلعة جابر أو قلعة وادي أيره (Alcala de Guadaira) وينتهي عند باب قرمونة من أبواب اشبيلية • وهذا الجسر من عمل الخليفة أبي يعقوب يوسف الموحدى سنة ١١٧٢ • وقد بقى منه اليوم قطاع صغير خارج باب قرمونة • وكانت المياه تتوزع فى شبكات مائية فى جوف الأرض الى القصور والدور للسقاية ورى الحدائق والمزارع • وقد عثر منذ عهد قريب ، عد حفر أساس منزل بالقرب من الكاتدرائية ، على بعض قنوات فخارية خاصة بالمياه من العهد الاسلامى •

وكان يحيط بمدينة اشبيلية وأحيائها سور حصين يعوض المدينة ما تفقده من الوجهة الاستراتيجية ، لوقوعها فى أرض سهلة لاجبال فيها تحميها ، كالمرية ومالقة وغرناطة •

وقد ابتكر المرابطون نظاما جديدا فى تخطيط أسوار اشبيلية ، اذ عمدوا الى الاكثار من الزوايا الداخلية والخارجية بالسور ، بحيث يتخذ شكل خطوط متعرجة متكسرة • وميزة هذا النظام أن يترك الجند أعداءهم يتقدمون داخل احدى الزوايا ، ثم يندفعون عليهم من أعلى الأسوار على الدروب فيفتكون بهم فتكا ذريعا • ويشبه هذا النظام « الزمبرك » : اذا ضغط عليه ثم ترك اندفع بقوة فيصيب ما يقابله • وما زال قطاع من هذه الأسوار باشبيلية قائما حتى اليوم ، ويعرف باسم سور مقارنة ، ويمتد من باب مقارنة حتى باب قرطبة ، وتتناثر بعض بقاياها بعد ذلك فى حديقة معهد الوادى (El Jardin del colegio del valle)

ويحيط بهذه الأسوار أسوار أمامية أقل ارتفاعاً كانت تعرف بالبربخ خانة ، ومنها احتفظت اللغة الاسبانية بالاصطلاح (Barbacana) ، ويمنع هذا السور الأمامى — أو الحزام البرانى حسب تسمية ابن ابي زرع — العدو المهاجم من شن هجومه مباشرة على الأسور الرئيسية ، ويعطل من تقدمه لفتح الثغرات التى يمكنه أن ينفذ منها داخل المدينة .

وسور اشبيلية الأمامى شيده الخليفة أبو العلاء ادريس سنة ١٢٢٣ ، وحفر حوله خندقاً ما زالت آثاره باقية الى اليوم . وهو الذى مد من سور اشبيلية سوراً قليلاً الارتفاع يعرف فى اللهجة المغربية باسم قورجة ، وبالاسبانية باسم (Coracha) ينتهى الى نهر الوادى الكبير ببرج ضخّم كثير الأضلاع هو برج الذهب القائم حتى وقتنا هذا .

ومع أن اشبيلية فقدت كثيراً من معالمها الاسلامية ، فما زالت تزخر حتى اليوم بكثير من آثار الموحدين . وأهم هذه الآثار بقايا القصر الاسلامى (Alcazar) وتشتل على بقايا بهو الجص ، وقبوة من المقرنصات والضلوع المتشابكة فى دار تقع ببهو البنود . ونضيف الى هذه الآثار الهامة بقايا المسجد الجامع باشبيلية ، الذى أمر أبو يعقوب يوسف ببنائه سنة ١١٧٢ . ومن هذه البقايا نستدل على أن هذا الجامع كان يجمع بين صور أنشائية وفنية ظهرت فى مساجد الموحدين بمراكش وصور أخرى مستوحاه من المسجد الجامع بقرطبة . وأهم ما تبقى من هذا الجامع الجليل مؤذنته الرائعة المعروفة بالجيرالدا . وقد تم بناؤها سنة ١١٩٥ ، وارتفعت فى رشاقة وجلال تشق عنان السماء . ويكفى لاطهار روعتها أن يلمس الزائر بها اليوم عمارتها المصاعدة فى ايقاع ، وزخارفها المحفورة فى الآجر كالمخرمات ، والموزعة فى تعادل واتزان مع رقعة وبساطة .

الجزر الشرقية

هي ثلاث جزر في البحر الشامي (البحر الأبيض) تقع شرفى
بلنسية : أكبرها جزيرة ميورقة (Mallorca) ، وأوسطها منورقة (Minorca)
وأصغرها يابسة (Ibiza) . ولا تتجاوز المسافة بين جزيرة ميورقة
ومنورقة خمسين ميلا .

وجزيرة ميورقة كانت من أخصب بقاع الأندلس وأكثرها زرعاً .
وكان فيها من الحضارة والتمكن والتمصر وعظم البادية ما يغنيها . وجزيرة
ميورقة صغيرة في مساحتها ، وعاصمتها بلمة مدينة مزدهرة عامرة ، تتوزع
حولها القرى مثل قرية قطينة .

ويبدأ التاريخ الاسلامي لهذه الجزر الشرقية سنة ٧٩٨ م ، وهو
العام الذي افتتحها فيه عبد الله بن موسى بن نصير ، وأصبحت من
أمالك المسلمين في الأندلس . وقد ثار المعاهدة من أهل ميورقة على الأمير
عبد الرحمن بن الحكم ، فغزاهم في ثلاثمائة مركب وافتتحها ثانية .

وظلت هذه الجزائر خاضعة للخلافة القرطبية حتى سقطت الخلافة
الأموية . . . فاستقل بها أبو الجيش مجاهد العامري صاحب دانية ،
وتسمى — أول استقلاله بالجزائر الشرقية — بذى الوزارتين . وكان
شديد الموطاة على رعيته ، سام أهل هذه الجزائر الخسف : فسطا
بوجوهم ورؤسائهم ، وبعث في نفوسهم الرهبة والرعب لخوفه منهم على
دولته . وهو الذي أغار على جزيرة سردانية ، اذ اقتحمها في مائة
وعشرين مركبا ، ثم عاد الى دار ملكه بدانية وميورقة . ولما توفى مجاهد ،
تولى بعده ابنه على بن مجاهد المسمى باقبال الدولة وظلت ميورقة تابعة
لعلى حتى استولى ابن هود على دانية ، وحاصر عليها بها . وأخرجه منها
سنة ٤٦٨ هـ (١٠٧٥ م) .

الجزر الشرقية

ولما استولى المرابطون على الأندلس ، أرسل أمير المسلمين على بن يوسف رجلين الى الأندلس هما يحيى ومحمد ابنا غانية • وتولى يحيى على مدينة قرطبة ، وتولى أخوه محمد على بعض أعمال هذه المدينة • فلما مات يحيى اضطرب أمر محمد بن غانية ، وأخذ يجول في بلاد الأندلس • • والفتنة تتزايد ، ودعوة الموحدين تنتشر • فلما اشتد خوف محمد هذا أتى مدينة دانية ، فعبر منها الى جزيرة ميورقة في أهله وخاصته ، فملكها وتملك الجزيرتين المجاورتين لها ، وهما منورقة ويابسة • وقيل ان على بن يوسف نفاه اليها •

استقل محمد بن غانية بهذه الجزر ، وضبطها لنفسه ، وأقام فيها حتى مات • وتولى بعده ابنه أبو ابراهيم اسحق بن محمد بن غانية • وفي عهده كثر الداخلون عليه بجزيرة ميورقة من فلول المرابطين وبقاياهم ، فكان يحسن اليهم ، ويجزل لهم العطاء • وأقبل على الغزو ، وصرف عنايته له ، فلم يكن له هم غيره • فكان له في كل سنة غزوتان الى بلاد الروم يغنم ويسبى الى أن امتلأت أيدي أصحابه من الغنائم ، فقوى أمره ، وتشبه بالملوك • ولم تزل هذه حاله حتى توفي سنة ٥٧٩ هـ (١١٨٣ م) بعد أن أصيب في إحدى غزواته •

ثم قام بالأمر بعده ابنه على • وخرج على بأسطول ميورقة الى العدو ، وقصد مدينة بجاية ، واستولى عليها بعد قتال عنيف ، ودخلها ودعا فيها لبنى العباس • ولكن أبو يوسف يعقوب استطاع أن يسترد بجاية من الميورقيين بعد انتصاره عليهم في موقعة الحمامة • وقد لقي على مصرعه في هذه الواقعة ، وتولى بعده أخوه يحيى • أما أخوه عبد الله فقد عاد الى ميورقة ، فألفاها قد انتقضت عليه ودعى فيها للموحدين • واستطاع بفضل من تجمع حوله من أنصار أبيه بوادي الجزيرة أن يدخلها واستقر بها ، وجرى على سنن أبيه في الغزو فلم يزل أمره كذلك حتى دخلها الموحدون سنة ٥٩٩ هـ (١٢٠٢ م) • وكان قائد أسطول الموحدين

في هذه الغزوة أبو العلاء ادريس بن يوسف • وكان قائد الجيش أبو سعيد عثمان بن أبي حفص • فقصدا جزيرة ميورقة ، وفتحها عنوة ، وقتلا عبد الله بن اسحق • وكان يحكم ميورقة في ذلك الوقت أحد أتباع بنى غانية ، وهو الزبير بن نجاح ، فدخل الموحدون الجزيرة وقتلوه •

ولما اختل أمر الموحدين في الأندلس ، وثار أهلها عليهم ، استقل بها محمد بن علي بن موسى وكان هو السبب في استيلاء النصارى على الجزيرة • ويذكر المخزومي في تاريخ ميورقة أن سبب استيلاء النصارى عليها أن أميرها محمد بن علي بن موسى أحد أعيانها وليها سنة ٦٠٦ هـ (١٢٠٩ م) ، واحتاج الى الخشب المجلوب من غابات يابسة ، فأنفذ طريدة بحرية وقطعة حربية ، فعلم بذلك حاكم طرطوشه فجهز اليها من أخذها • فعظم ذلك على والي ميورقة ، وحدث نفسه بغزو بلاد الروم •

وحدث في آخر ذي الحجة سنة ٦٢٣ هـ (١٢٢٦ م) ، في عهد أبي يحيى بن أبي عمر ان التينملى ، أن احتك المسلمون بالنصارى ، واستولوا على أحد مراكبهم الحربية • فلما بلغ ذلك ملك أرغون ، خايمي الأول ، عزم على محاربة المسلمين : فجمع جيشا كبيرا سيره الى جزيرة ميورقة في سنة ٦٢٦ هـ (١٢٢٩ م) — وكانت ميورقة اذ ذاك تابعة لامارة بلنسية اننى يسيطر عليها الأمير أبو جميل زيان بن مدافع ، ويحكمها من قبله أبو يحيى بن أبي عمران التينملى — فنزل النصارى الى الجزيرة من منطقة تعرف بالحربية الحزينة من جهة باب الكحل • وقد دافع المسلمون عن جزيرتهم بمنتهى الشدة والبسالة ، ولكنهم اضطروا الى التسليم في النهاية في ١٤ من صفر سنة ٦٢٧ هـ (١٢٢٩ م) • وقتل حاكم ميورقة ، وتحصن ابن سيرى وجماعة من فرسان ميورقة بأعلى الجبل ، وأخذوا يقاتلون الأعداء حتى قتل ابن سيرى سنة ٦٢٨ هـ (١٢٣٠ م) •

ولما استولى النصارى على ميورقة ثار بجزيرة منورقة أبو عثمان

الجزر الشرقية

سعيد ابن حكم الأموي — وكان قد وليها من قبل الوالى أبى يحيى بن أبى عمران — وعقد صلحا مع النصارى مقابل أن يدفع لهم ضريبة معلومة ، ثم نولى بعده ابنه أبو عمر حكم بن سعيد سنة ٦٨٠ هـ (١٢٨٠ م) • وفى عهده استولى ملك أرغون على الجزيرة ، وأجلى عنها المسلمين فى سنة ٦٨٦ هـ (١٢٨٧ م) •

وهكذا ينتهى التاريخ الاسلامى لجزر البليار • وتحفظ ميورقة اليوم ببعض آثار المسلمين • وأهم هذه الآثار باب عقده مزود بكوابيل بها شواكل ، فى شارع يعرف بشارع المدينة ، وكان هذا الباب يفتح على القصبة ، ويطلق عليه قديما باب الكحل ، وأما اليوم فيعرف بباب سانتا مارجريتا • كما تبقى بالقرب من هذا المكان آثار حمام ، ولا تعدو هذه الآثار غرفة مربعة الشكل تعلوها قبوة تنفذ فيها مضوى ، ويحيط بالغرفة ممرات أربعة على عقود متجاوزة •

ولما كانت ميورقة جزيرة مسطحة تخلو من الارتفاعات ، فقد اهتم ملوكها المسلمون بتحسينها • وكانت تشتمل على حى أساسى يعرف بالمدينة ، تحيطه أسوار قصبتها التى تحمى الميناء • ويحيط بالمدينة مركزان عمرانيان آخران ينتشران فى نصف دائرة حول المدينة : أحدهما يعرف بربرض الباب الجديد ، أقيم فى النصف الأول من القرن الحادى عشر ، فى عهد أبى الجيش مجاهد (١٠٤٤ م) • أما الآخر فيعرف بالبربرض الجديد ، أضيف الى المدينة فى السنوات الأخيرة من القرن الحادى عشر فى عهد مجاهد ، مباشر بن سليمان ، المشهور فى المدونات المسيحية بناصر لدولة •

وكان يحيط بميورقة سور مرتفع يتقدمه سور أمامى أقل ارتفاعا يفصل بينهما خندق • ويتوسط المدينة مسجدها الجامع ، وبجواره قيسارية العطارين • وكانت دار الصناعة تقع قريبا من البحر ، وأطلق عليها المسيحيون بعد فتح ميورقة اسم (Darazana)

مالقة

تتمتع مالقة — قاعدة كورة رية (اقليم Regio الرومانى) والشهر الأعظم بجنوب شرقى الأندلس ، بموقع رائع على البحر الابيض المتوسط وتشرف عليها من الشرق المنحدرات الوعرة بجبل فارو (١) الذى يبلغ ارتفاع قمته ١٧٠ متر • والى جنوب غربى هذا الجبل ، وفى مستوى أدنى منه ، ترتفع قسبة مالقة المنيعة على منحدر شديد الميل • وقد جددت هذه القسبة تجديدا شاملا فى وقتنا هذا • وكانت تشتمل على مسجد جامع أمر الأمير عبد الرحمن الداخل ببنائه على يدى معاوية بن صالح الحمصى ، وكان ممن حضر وقعة مروان بن محمد ، فأنجاه الفرار ولجأ الى الأندلس

وكلمة مالقة العربية (Malaga بالأسبانية) مشتقة من الفعل العبرى (Malac) ، ويعنى التملك ، وان كان بعض الباحثين يرجحون اشتقاقها من الكلمة الفينيقية (Malaca) ، أو من الكلمة اليونانية (Malacos) ، وتعنى الرقة التى تذكرنا برقة مناخ مالقة •

ومدينة مالقة من تأسيس الفينيقيين الذين جاءوا من مدينة صور • ويغلب على الظن أن بناءها تم فى القرن الثانى عشر قبل الميلاد ، على أنقاض موضع أبييرى • واستقر بمالقة جماعة من الفينيقيين المستعمرين الذين اشتغلوا بالتجارة مع أهل البلاد • وقد أقام هؤلاء المستعمرون لهم مرسى بحريا أدنى الجبل المطل على البحر • وأخذت مالقة فى النمو ، وأصبحت بالتدريج مركزا تجاريا وصناعيا هاما • ثم استولى الاغريق

(١) يعرف هذا الجبل اليوم باسم (Gibralfaro) وفى اعلاه حصن يغلب على الظن انه يونانى البناء ، ثم أعيد بناؤه فى العهد الاسلامى ، وادير بالاسوار والابراج القوية • وتشرف هذا الجبل على خليج مالقة • وقد سمى بجبل فارو بسبب منار بناءه الاغريق لهداية السفن •

مالقة

عليها ، ومدوا نفوذهم على سائر المدن المجاورة • وخضعت مالقة بعد ذلك للقرطاجنيين الذين حصنوا المدينة القديمة ، وحسنوا ميناءها • ثم تمكن الرومان من قهر القرطاجنيين ، وازدهرت مالقة في عهدهم ، وتفوقت على سواها من مدن الأندلس وثغوره •

ولما دخلت المسيحية شبه الجزيرة في عهد الامبراطور كلوديو ، تعرض كثير من معتقيها بمالقة للاضطهاد ، خاصة في عهد دقلديانوس ، واستشهد كثيرون منهم أمثال سيرياكو والقديسة باولا • ولما تعرضت اسبانيا الرومانية لغزوات السواف والآلان والوندال ، بقيت مالقة وفيه لروما • ولكنها لم تصمد طويلا أمام القوط الغربيين ، واستسلمت للملك سيبوتو رغم ما كانت تتلقاه من معونة البيزنطيين •

وفي سنة ٧١٣ م تم فتح المسلمين لمالقة على يدى عبد الأعلى بن موسى بن نصير • وقيل انه لما حاصر مالقة، وكان ملكها ضعيف الرأى قليل التحفظ ، يخرج الى جنان له بجانب المدينة طلبا للراحة من غمة الحصار، نصب عين وتقدّم طليعة ••• وعرف عبد الأعلى بأمره فأمكن له ، في جنبات الجنة التي كان يرتادها ، قوما من وجوه فرسانة ذوى رأى وحزم، أرسدوا له ليلا فظفروا به وأسروه، فاستولى المسلمون على المدينة عنوة •

ولسنا ندرى ما كانت عليه مالقة بعد الفتح الاسلامى • وكل ما نعرفه عنها أنها لم تتألق أو تزدهر في عهد بنى أمية • فلما سقطت الخلافة الأموية بقرطبة ، وقامت دول الطوائف ، استقل بنو حمود بها ، وجعلوها مقرا لحكمهم •

وبنو حمود هؤلاء من عقب أدريس بن الحسن الذى أسس دولة الأدارسة في فاس • وقد جاز منهم أخوان : هما على بن حمود وأخوه قاسم ، مع نفر من البربر ، العدو الى الأندلس • فدعسوا لنفسيهما ، وتجمع حولهما البربر بالأندلس ، وملكوا قرطبة سنة ٤٠٧ هـ (١٠١٦ م) ،

بلكين ، مدينة غرناطة * وظلت مالقة خاضعة لتميم بن بلكين وكان شديد الجراءة ، بعيد الاعتدال ، وهو الذى أمر بصنع ثريا من الفضة بمسجد مالقة * فلما جاز يوسف بن تاشفين الى الأندلس ، بعد انتصاره على ألفونسو السادس ملك قشتالة فى واقعة الزلاقة ، وشرع فى خلع رؤساء الأندلس ، وبدأ منهم بعبد الله ملك غرناطة عام ٤٨٣ هـ (١٠٩٠ م) * - بلغه استبداد تميم بأهل مالقة ، ووشى به الأمير أبو المطرف الشعبى * فاضطر يوسف بن تاشفين الى خلع تميم عن حكم مالقة ونفاه فى بلاد السوس من المغرب ، ثم عفا عنه وأسكنه مراكش *

ظلت مالقة تدين بالولاء للمرابطين حتى ضعف أمرهم ، واتفق الناس على خلع دعوتهم * واستبد بالأمير القاضى أبو الحكم بن حسون الذى حاصر المرابطين بقصبة مالقة حتى أنزلهم منها بعد ستة أشهر ، وملك القصبة وانتقل اليها ، وتسمى بالأمير ، واستقل بها * وكان المرابطون فى انتقيرة يغيرون عليه فى مالقة ، فاضطر الى التماس عون ملك قشتالة مقابل اتاوة يدفعها له : فضيق على أهل مالقة حتى كرهوه ، واتفقوا مع أحد قواده - ويعرف باللوشى - على شق عصا الطاعة عليه * وتغلب اللوشى على أبواب المدينة ، واستولى على القصبة ، وقتله فى عام ٥٤٧ هـ (١١٥٢ م) ، وسلمها للموحدين *

ولما انقرضت دولة الموحدين ، ضم محمد بن يوسف بن هود مالقة الى مملكته بمرسية سنة ٦٢٥ هـ (١٢٢٧ م) * وأخيرا استولى محمد بن يوسف بن نصر ملك غرناطة على مالقة ، وندب صهره أبا محمد بن اشقيلولة لحكمها * وظل أبو محمد يحكم مالقة حتى توفى سنة ٦٧٦ هـ (١٢٧٧ م) * فتملكها أبو عبد الله محمد بن محمد ابن يوسف الملقب بالفقيه * وقد حاول ملك قشتالة سنة ١٣٤١ م أن يستولى على المدينة من البحر ولكنه فشل فى حملته * وتكررت المحاولة برا فى بسائط مالقة سنة ١٤٣٥ ، ١٤٣٧ م فى عهد انريكي ملك قشتالة دون جدوى *

مالمقة

وفي عام ٨٨٧ هـ (١٤٨٢ م) تقدمت جيوش قشتالة نحو مالمقة — أعظم الثغور الأندلسية التي تبقت في أيدي المسلمين ، والثغر الوحيد الذي تصل منه الامدادات من المغرب الى غرناطة — ودافعتها جيوش الأمير أبي عبد الله محمد بن سعد المعروف بالزغل . وفي هذا الوقت لجأ الى مالمقة السلطان أبو الحسن بن سعد ملك غرناطة ، بعد أن ثار عليه أهلها ، وبايعوا بالسلطة ابنه أبا عبد الله محمد . وكان النصارى يمنون أنفسهم بالقضاء على هذا الثغر المنيع ، فسيروا جيوشهم مرة أخرى في صفر سنة ٨٨٨ هـ (١٤٨٣) ، ولكنهم هزموا في موقعة الشرقية هزيمة نكراء بفضل استبسال الزغل الذي تولى الحكم فيها بدلا من أخيه .

ولم تسكت قشتالة على هذه الهزيمة ، فسيرت جيوشها تجتاح أرض مالمقة : فاستولت على رندة في جمادى الأولى سنة ٨٩٠ هـ (ابريل ١٤٨٥ م) ثم استولت على لوثة سنة ٨٩١ هـ (مايو ١٤٨٦ م) . وفي مارس عام ١٤٨٧ م سيرفرناندو الرابع ملك قشتالة قواته الى مدينة بلش التي تعد خط الدفاع الأمامي لمالمقة وحصنها الأمنع ، في الوقت الذي اشتغل فيه المسلمون بانقساماتهم الداخلية . وسقطت بلش في أيدي الملكين الكاثوليكين في مايو سنة ١٤٨٧ ، بعد دفاع مجيد . وأصبح القشتاليون يهددون مالمقة ، ثم عمدوا الى تجريدتها من حصونها المجاورة ، فسقطت الواحد تلو الآخر ، ووصل بهم الأمر الى تطويقها من كل مكان . وفي يونيو سنة ١٤٨٧ اضطر المحاربون المالقيون الى الامتناع داخل أسوار المدينة . وكان حاكمها محمد بن سعد ، المعروف بالزغل ، غائبا عنها اذ ذلك . وكان يتولى الدفاع عنها قائدها الشهير حامد الثغرى الذي استبسل في الدفاع عنها ، وتجالد وأبدى من ضروب الشجاعة ما شهد له به المسيحيون . وأبى المسلمون المحاصرون داخل المدينة وفوق قصبته أن يستسلموا لأعدائهم ، وآثروا الموت على ذلك واستمر النصارى يشدون الحصار على المدينة من البر والبحر ، حتى انقطعت الأقوات ، وفتك بالناس الجوع والمرض . . . فلم يجد أهلها بدا من التسليم . فسلمت

وقتلا الخليفة سليمان المستعين ، وأزالا ملك بنى أمية • ثم ولى الخلافة على بن حمود الذى تلقب بالناصر ، وظل قائما بالخلافة حتى قتله بعض الصقالبة سنة ٤٠٨ هـ (١٠١٧ م) • فولى أخوه القاسم ، وتلقب بالمأمون • ونازعه الأمر ابن أخيه يحيى بعد أربع سنوات من خلافته •

وكان يحيى حاكما على مدينة سبتة ، فجاز الى الأندلس فى عام ٤١٠ هـ (١٠١٩ م) ، واحتل مالقة التى أصبحت منذ ذلك العهد حاضرة دولة بنى حمود (١) • وكان ادريس أخوه يحكمها منذ عهد أبيهما ، فبعثه يحيى الى سبتة ، وزحف من مالقة الى قرطبة فاستولى عليها سنة ٤١٢ هـ (١٠٢١ م) وتلقب بالمعتلى • ثم عاد المعتلى الى مالقة بعد أن تملك عمه المأمون قرطبة عام ٤١٣ هـ (١٠٢٢ م) • ثم تغلب المعتلى على مناوئه ، واشتد أمره بعد أن أسلمت له الحصون والمدن ، ثم قتل سنة ٤٢٩ هـ (١٠٣٧ م) •

واستمر أمر بنى حمود بين صراع ونزاع وانقسام ، حتى انقرضت دولتهم ، واستولى على مالقة أبو مناد باديس بن حبوس بن ماكسن بن زيرى ملك غرناطة ٤٢٩ — ٤٦٦ هـ (١٠٣٧ — ١٠٧٣ م) ، بعد أن أخرج منها القاسم بن محمد الملقب بالمستعلى • واستولى المعتمد بن عباد ملك اشبيلية على الجزيرة الخضراء ، وفر منها حاكمها الحمودى • وأعاد باديس بناء قصبة مالقة فيما بين عامى ١٠٥٧ — ١٠٦٣ م ، وأقام فيها قصرا (١) ما زالت آثاره باقية الى يومنا هذا •

وعندما مات باديس تولى الحكم على مالقة من بعده حفيده أبو معد تميم بن بلكين بن باديس ، وحكم حفيده الآخر ، أبو محمد عبد الله بن

(١) عثر فى مالقة على عدة عملات سكّت بمالقة عليها نقش باسم يحيى •
(٢) يبدو أن باديس توسع فى بناء القصر الذى كان قد بناه على بن حمود •
وآثار هذا القصر ترتبط ارتباطا وثيقا بالاسلوب الشائع فى عصر ملوك الطوائف •

مالقة

مالقة بعد دفاع رائع استمر نحواً من ثلاثة شهور ونصف • واعتصم حامد الثغرى ورجاله البواسل بأعلى جبل فارو ، ولكنهم اضطروا في النهاية الى التسليم • ودخلت جيوش قشتالة المدينة في ١٨ من أغسطس سنة ١٤٨٧ ، ورفعوا الصليب المقدس بأعلى برج التكريم ، وحولوا المسجد الجامع بالمدينة الى كنيسة سانتا ماريّا •

وكانت مالقة في العهد الاسلامى إحدى القواعد الكبرى بالأندلس • وكانت مدينتها تمتد ما بين القصبه ورملة وادى المدينة (Guadalmedina) الذى ينبع من المرتفعات المجاوزة زمن الشتاء ويجف زمن الصيف • ويتوسط المدينة مسجدها الجامع بالقرب من البحر ، وتقوم عليه اليوم الكاتدرائية الحالية • ويرجع بناء هذا المسجد الى عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط ، وكان بيت الصلاة فيه يحتوى على خمس بلاطات • وكان بالمدينة مساجد كثيرة : منها مسجد العطارين ، ومسجد الغبار • ويذكر الحميرى أن للمدينة ربعا يعرف باسم فنتالة ، كان يقع خارج باب ، يقال له باب فنتالة ، ذكره ابن الأبار •

وقصبه المدينة تقع شرقيها ، ويحيط بها سور من الحجر ، وهى في غاية الحصانة والمناعة • ويحيط بالمدينة سور فتحت فيه خمسة أبواب : منها باب يعرف بباب البحر ، وباب شرقى يعرف بباب الوادى ، وباب جوفى يعرف بباب الخوخة • وكانت المدينة تزخر بالمباني الفخمة والحمامات الحسنة والأسواق الجامعة الكثيرة •

وقد وصف ابن بطوطة مسجد مدينة مالقة بقوله : « ومسجدها كبير الساحة شهير البركة ، وصحنه لأنظير له في الحسن ، فيه أشجار النارنج البديعة » •

وكان يصنع بمالقة الفخار المذهب العجيب ، ويجلب منها الى أقاصى البلاد • وكان يصنع بها كذلك — كما ذكر ابن سعيد — الزجاج الغريب •

وقد وصفها الشقندى أبدع وصف حين قال : « وأما مالقة فإنها جمعت بين منظر البحر والبر بالكروم المتصلة التي لا تكاد ترى فيها فرجة لموضع غامر ، والبروج التي شابهات نجوم السماء ، كثرة عدد وضياء ، وتخلل الوادى الزائر لها فى فصلى الشتاء والربيع فى سرور بطحائها ، وتوشيحها حضور أرجائها • ومما اختصت به من بين سائر البلاد الثين الربى المنسوب اليها لأن اسمها فى القديم رية ••• وفيها تنسج الحلال الموشاة التي تجاوز أثمانها الآلاف ، ذات الصور العجيبة المنتخبة برسم الخلفاء • وساحلها محط تجارة لراكب المسلمين والنصارى » •

ومن أهم آثارها الاسلامية : القصبة التي ذكرناها آنفا ، وبداخلها قصر باديس ، وبقايا دار الصناعة من عهد بنى الأحمر •

غرناطة

لم تكن غرناطة مدينة ايبرية قديمة ولا رومانية البناء ، وانما كانت مدينة اسلامية الانشاء • ولم تكن ، زمن التفح الاسلامى سنة ٧١٢ م ، سوى قرية صغيرة افتتحها المسلمون عنوة ، وضموا اليهود فيها الى قصبتها ، ولعل ذلك كان سببا فى تسميتها بعد ذلك « باغرناطة اليهود » • ومنذ الفتح لم يعرها المسلمون اهتماما ، اذ استقر جند دمشق فى مدينة البيرة (١) ، التى أصبحت حاضرة كورة البيرة زمن أمية • وكانت غرناطة من مدن البيرة ، ولكنها أخذت تنمو شيئا فشيئا منذ القرن العاشر • وأصبحت فى أيام الفتنة التى تبعت سقوط الخلافة القرطبية مدينة كبيرة ، اذ استولى البربر على البيرة وأحرقوها ، فخربت وخت ، وانتقل أهلها منها الى غرناطة •

وبزعت شمس غرناطة ، وأصبحت حاضرة كورة البيرة ، ثم أخذ اسم غرناطة يسيطر تدريجا على الكورة أو الاقليم ، وأخيرا حل محل اسم البيرة •

وكان لموقع غرناطة ، على الضفة اليمنى لنهر شنيل ، واختراق نهر حدرة لها ، أثر كبير فى احاطة الجنان والبساتين بها • وكانت تشرف من

(١) البيرة مدينة تقع شمال غربى من غرناطة ، على سفح الجبل المعروف اليوم بـسيرا البيرة ، وهى مدينة قديمة ايبرية الأصل ، واسمها القديم البيرى (Eli berri) . وكانت البيرة عاصمة القليم البيرة ، ونزلها جند دمشق من العرب ، وكثير من موالى بنى أمية زمن عبد الرحمن الداخل الذى عمرها بالابنية واسكنها مواليه . وجامع البيرة بناه الأمير محمد على أساس حنن الصناعى . وكانت البيرة من قواعد الأندلس الجبلية ولكنها ضربت فى عهد الفتنة ، وأحرقت وهجرها أهلها الى غرناطة التى حظت محلها ، ونالت ما كانت تتمتع به البيرة من مكانة سامية •

غرناطة

الناحية الجنوبية الغربية على سهل فسيح ، ويطل عليها من الشرق والغرب جبل شلير الذى يغطيه الثلج شتاء وصيفا ، فسمى بجبل سيرا نفادا : أى الجبل المكسو بالثلج • ونهر حدرة يشقها من أعلاها ، وينبع من جبل شلير ، وتلتقط مياهه — فى أثناء جريانها فى واديه شديد الانحدار — برادة من الذهب الخالص ، يجرفها النهر من الصخور التى تفتتها مياهه ، ولذلك سمي نهر حدرة تعرييا لكلمة « دى أورو » الإسبانية ، ومعناها « الذهبى » • وكان للمرتفعين اللذين يفصل بينهما نهر حدرة ، واللذين تقوم عليهما مدينة السلاطين وحى البيازين ، أهمية استراتيجية عظيمة ، كان لها أثر كبير فى مناعة المدينة •

ولما سقطت غرناطة فى أيدي البربر جعلها زاوى بن زيرى (سنة ١٠١٣ م) عاصمته ، ومدنها حبوس الصنهاجى وحسن أسوارها وبني قصبتها العظيمة • وخلفه ابنه باديس فكملة فى أيامه وعمرت • وكان لحكمه الطويل أثر كبير فى ازدهار المدينة واتساعها • وظلت غرناطة عاصمة بربر صنهاجة حتى استولى عليها المرابطون سنة ١٠٨٩ • وفى عهد هؤلاء الصنهاجيين أقيم القصر الملكى على المرتفع المشرف على حى البيازين • وتروى بعض الروايات أن هذا القصر كان يعرف ببيت الديك ، نسبة الى دوار هواء على شكل ديك كانت تتوجه من أعلاه •

ولم يتبق من غرناطة فى القرن الحادى عشر — أى فى عصر بنى زيرى — الا بقايا عقد كانت تقوم عليه قنطرة نهر حدرة ، تعرف اليوم بقنطرة القاضى • ويقوم بجوار هذا العقد برج سداسى الشكل •

ويغلب على الظن أن المرابطين جعلوا غرناطة حاضرة لهم فى الأندلس ثم فتحها الموحدون سنة ١١٤٦ • وفى نهاية عهدهم نجح ابن هود ، ملك مرسية (سنة ١٢٣١) ، فى ضم غرناطة الى ملكه • وبعد وفاته سنة ١٢٣٧ ضمها اليه محمد بن يوسف بن نصر سيد حصن أرجونة وبسطة ووادى آش وشريش وجيان ومالقة ، وجعلها عاصمة مملكته • واختار القصبة

الحمراء القائمة فوق المرتفع الأيمن لنهر حدرة •

وكانت اسبانيا الاسلامية اذ ذاك قد انكسرت رقعته أمام الزحف الاسباني لاسترداد المدن الاسلامية : فسقطت قرطبة سنة ١٢٣٦ ، ومرسية سنة ١٢٣٩ ، وأشبيلية سنة ١٢٤٨ ، في أيدي النصارى • وكانت الأحوال السياسية تقتضى تأليف جبهة قومية تقف أمام الخطر الاسباني المسيحى • فقامت مملكة غرناطة ، وعقد عليها أهل الأندلس آمالهم لانقاذ ما بقى من دولة الاسلام • ودامت مملكة غرناطة ما يقرب من قرنين ونصف من الزمان : بالرغم من الصراع غير المتكافئ بين النصرانية والاسلام ، وبالرغم مما عانت مملكة غرناطة من حروب داخلية • وكان توسل بنى الأحمر بسلطين بنى مرين فى الجانب الآخر من الزقاق حينا ، ثم عقدهم محالفات سياسية مع ملوك قشتالة حينا آخر ، عاملا قويا فى اطالة أمد هذا الصراع •

وتوفى محمد بن يوسف عام ١٢٧٢ بعد أن ترك ملكا قويا يستطيع الصمود أمام الأعداء فى الوقت الذى اشتعلت فيه بينهم الفتنة والانقسامات الداخلية •

وكان تقدم حركة الاسترداد الاسبانية فى قلب الأندلس ، وتقلص رقعة اسبانيا الاسلامية نتيجة لذلك ، قد أدى الى هجرة الأندلسيين من مدنهم التى استردها الاسبان الى مملكة غرناطة • وكان من بين هؤلاء اللاجئين المسلمين عدد كبير من الفنانين والصناع وأرباب الحرف ، ممن شردوا بعد سقوط مدنهم فى أيدي أعدائهم ، وأقاموا فى غرناطة ، واستغلوا كل بقعة من أرضها • فنهض فن الزخرفة • وأقام محمد بن يوسف قصبة الحمراء ، وبنى فيها برجى الطليعة والتكريم ، كما شرع فى بناء بعض الأسوار الضخمة •

وحرص خلفاء محمد بن يوسف على اتباع سياسة انتهاز الفرص

غرناطة

واحدا بعد واحد • وكانوا لا يترددون في الاستنجاد ببني مرين كلما أحسوا شبح الاسترداد يهيم بمملكتهم • • • • • وهكذا عبرت الزقاق الى الأندلس جيوش مراكش وفاس أكثر من مرة • ولكن سرعان ما يعود بعض سلاطين بني نصر الى مخاصمة بني مرين اذا وجدوا من هؤلاء خطرا على مملكتهم : فيتحالفون مع ملوك قشتالة ، ويقبلون دفع الاتاوة اليهم مقابل اسكاتهم عنهم •

وكان من أعظم سلاطين أسرة بني نصر السلطان أبو الوليد اسماعيل الذى تولى سلطنة غرناطة فى عام ١٣١٣ م • وكان عهد اسماعيل عهد سلم واستقرار ، واستطاع أن يبلغ بمملكته درجة من القوة لم تبلغها من قبل • وانتصرت جيوشه على جيوش قشتالة قرب البيرة سنة ١٣١٩ ، واستولى على بياسة سنة ١٣٢٤ • ولكن خاتمته كانت أليمة ، اذ قتل فى يونيو عام ١٣٢٤ بخنجر قاتل مأجور •

ولم تسكت قشتالة على هزيمتها فى البيرة وبياسة ، وانتصرت جيوشها عام ١٣٤٠ على جيوش فاس وغرناطة مجتمعة فى واقعة نهر سلاو • وأراد سلطان غرناطة أن يتفادى الكارثة ، فعقد مع ملك قشتالة معاهدة صلح ، تقوم بمقتضاها هدنة بين الفريقين لمدة عشر سنوات مقابل اتاوة يدفعها السلطان •

على أن العصر الذهبى لدولة بني نصر يبدأ بعهد أبى الحجاج يوسف الأول • فقد كان حاميا للآداب والفنون فأقام أول نواة لقصر الحمراء بما فيه برج قمارش ، والبرج المعروف بقصر متشوكة ، والحمام الملكى ، وباب الأسيرة ، ومصلى البرطل • وظل يوسف يحكم سنين كلها رخاء ، حتى قتل عام ١٣٥٤ ، وهو يؤدى الصلاة فى جامع الحمراء • وخلفه ابنه محمد الخامس الغنى بالله ، الذى أكمل فى الحمراء ما كان أبوه قد بدأه فيها • ثم تولى بعده ملوك ضعاف •

وكانت هذه الفترة الأخيرة للحكم الاسلامى فترة كلها نزاع وانقسام

بين أفراد أسرة بنى نصر وفي هذه الفترة تحددت أهداف سياسة قشتالة للقضاء على الاسلام في الأندلس وتوحيد اسبانيا المسيحية ، وأخذت الحصون تسقط تباعا في أيدي القشتاليين والمسلمون لاهون بمنازعاتهم الداخلية التي فتنت وحدتهم ، ومزقت قوتهم • وانبعثت الفتن بين أفراد الأسرة المالكة ، وقامت الثورات تأييدا لأحدهم على الآخر •

وكان آخر حلقة في سلسلة هذه الفتن ، ذلك الصراع بين أبى عبد الله محمد بن سعد ، المعروف بالزغل ، وابن أخيه السلطان أبى عبد الله محمد بن أبى الحسن ، المعروف لدى الأسبان ببو أبديل (Boabdil) —
 أى أبو عبد الله — أو الملك الصغير (el rey chico) • وفى هذا الوقت اكتسحت جيوش الملكين الكاثوليكين ، فرناند الرابع وايزابلا ، بسائط غرناطة ، بعد أن استوليا على جبل طارق وأرشدونة والمرية ولوشة ومالقا ، وضيقا الحصار على غرناطة نفسها • وطال حصارهما على غرناطة فلم يبق لها الا التسليم •

وفى ٢ من يناير سنة ١٤٩٢ دخلت جيوش قشتالة الظافرة مدينة غرناطة ، ورفعت راية القديس ياقب الى جانب صليب الجهاد الفضى على برج الطليعة من أبراج قصر الحمراء • وسار أبو عبد الله المقهور ، فى كوكبة من رجاله وأفراد أسرته ، فى شعب تل البذول فى صمت حزين • وألقى نظرة أخيرة على قصره الذى كتب عليه الخروج منه ، وترقرقت الدموع فى عينيه ، ولم تلبث أن سألت على خديه • فصاحت به أمه عائشة الحرة : « أجل فلتبك كالنساء ملكا لم تدافع عنه كالرجال ! » • وأطلق الاسبان على هذا الموضع اسم « زفرة العربى الأخيرة » •

كانت غرناطة تنقسم الى حى مركزى منبسط فى اتساع يعرف بالمدينة • وكانت المدينة تشتمل على المسجد الجامع الذى تتفرع حوله شبكة الطرق والدروب • والى جوار الجامع تقع القيسارية التى ماتزال

غرناطة

قائمة الى وقتنا هذا (١) • وكان يباع في هذه القيسارية الأقمشة والمنسوجات الحريرية وأدوات الزينة • وكان يحيط بالمدينة سور فتحت فيه أبواب : منها باب الرملة الذى كان لا يبعد كثيرا عن القيسارية ، ويعرف مكانة اليوم ببيب رملا (Bibramla) • وبداخل المدينة ، وبالقرب من المسجد الجامع ، كانت مدرسة غرناطة التى لا تختلف كثيرا عن مدارس فاس في عهد بنى مرين ، وما زالت بقاياها منها قائمة الى وقتنا هذا • وبالقرب من المدرسة كان الفندق القديم الذى لا يزال يعرف حتى اليوم بالكورال دى كاربون لأنه كان يباع فيه الفحم بكميات كبيرة •

ويحيط بالمدينة أحياء أخرى منها : حى السقاطين ، وحى أنتقيرة (١)، وحى مورو • • • • • وهى أحياء ما زالت تحمل أسماءها العربية نفسها • وإلى خارج المدينة يقع ربضان مشهوران : ربض البيازين (١) ، وربض القصبة التى تضم قصر الحمراء وقصر جنة العريف • ويشرف ربض البيازين على وادى حدرة ، وتقابله من المرتفع الآخر قصبة الحمراء •

وتخلفت من عصر المسلمين بغرناطة آثار هامة : منها قصر الحمراء الشهير ، وقصر جنة العريف • ومنها القيسارية والمدرسة وفندق الفحم ، أحد فنادق مدينة غرناطة ، بواجهته البديعة التى تزخر بالزخارف والنفوش • ومنها مسجد البيازين ، ومئذنة جامع التوابين ، وأسوار البيازين ، والحمام المعروف بحمام اليهود ، وقصر عائشة الحرة • • • • • وغير ذلك من الآثار الجلية •

-
- (١) تهدمت القيسارية بغرناطة اثر حريق حدث سنة ١٨٤٣ وكانت تضم شوارع ضيقة مسقوفة فى أعلاها ، فتحت أبواب الحوانيت والمتاجر تحت أقواس مفصصة ومقصوصية ومكسوة بالفسيفساء والزليج والأزخارف الجصية التى تشبه زخارف قصر الحمراء • وتقوم هذه الاقواس على أعمدة رخامية رشيقة •
- (٢) هم اللاجئون المسلمون من مدينة أنتقيرة

ويشهد قصر الحمراء بغرناطة الأحداث التي مرت به ، وتروى قاعاته وأبراجه قصة هذا الصراع الأليم الذي انتهى بضياح الأندلس . وتعد حمراء غرناطة متحف الحضارة الأندلسية : ففيها وضع رجال الفن، من مسلمي الأندلس ، خلاصة فنهم وعصارة ما وصلت اليه عبقريتهم .

ومن أهم مزايا الفن الغرناطي أنه فن دنيوى ، على نقىض فن المرابطين . ولم يكن بناء بنى نصر للمساجد الا نتيجة للتوسع الاجتماعى الذى فرضته هجرة سكان المدن التى سقطت تباعا فى أيدي النصارى . وحتى هذه المساجد كانت تترخر بالزخارف التى تلهى المسلم عن صلاته ، وتجعل من هذه المساجد قصورا خيالية تشبع فى زخارفها وتنميقها الأبصار دون كلل أو ملل بل أن هذه الزخارف كانت تغطى جدراننا رقيقة ضعيفة ، وتكسوها كما لو كانت أبسطة .

وهكذا يكشف فن غرناطة عن حقيقة طبيعية : هى رغبة شعب قد بلغ ذروة التطور فى التمتع بحاضره ، والشك فى غده . وهكذا كانت الأبنية التى زخرت بها غرناطة قصورا يتمتع فيها المرء بحياة من الترف فى نطاق طبيعى لا مثيل لجماله . وكان المجال الذى يحيط بهذه القصور يتجاوب مع هذه المتعة . ونجح عرفاء بنى نصر فى أحداث تأثير جمالى يصحب فن توزيع الخمائل والجنان ومزج المنظر الطبيعى بالعمارة : فهذه النسمات المنعشة التى تهز الأشجار فترطب الوجوه المحترقة ، والماء الذى ينساب بين الصخور ، والطيور التى تغرد على الأشجار وبين الأغصان كل ذلك يجعل من قصر الحمراء قصرا أسطوريا ، أو جنة الله فى أرضه ، ويحمل المرء على أن يحيا فى عالم خيالى لا يفكر فيه الا فى القصور التى كانت تعيش فيها أميرات ساحرات . وهنا يبلغ الفن الغرناطى الذروة ، فقد أعد كل شىء اعدادا دقيقة لتخدير المشاعر عن ادراك الحقيقة التى لا سبيل الى التغافل عنها ، وهى انتهاء دولة الاسلام فى الأندلس !

الباب الثاني

الفنون الإسلامية بالاندلس

ما كاد العرب المحاربون في اسبانيا يتمون فتح هذه البلاد ، حتى أخذوا يلتهمون الراحة بعد المعركة ، ويجنون ثمار انتصارهم على دولة القوط الغربيين . . . فاستقروا في السهول ، وامتلكوا الاقطاعات الواسعة واستعانوا بأهل البلاد في الزراعة والصناعة : اذ كان المسلمون والمسيحيون الذين اكتظت بهم المدن يتقلدون المناصب الكبرى في الادارة والدواوين ، ويحاكون العرب أنفسهم في السهر على ما لديهم من تراث . وكان طبيعيا أن يؤلفوا العنصر الحضري المتقدم المثقف ، كما كانوا يؤلفون العنصر العامل المنتج ، عصب الحياة الاجتماعية . فلم يكن هناك فن اسلامي بمعنى الكلمة في الفترة التي تبعت الفتح ، لأن العرب لم يحملوا معهم سوى الدين واللغة ، فتوسلوا بالعناصر المحلية في بناء قصورهم ومساجدهم ، وصناعة ما يحتاجون اليه .

وكانت اسبانيا الاسلامية ، في عصر الولاة ، استمرار لاسبانيا القوطية . . . فيما عدا تغييرها غازيا بغاز . فقد ظل الصناع ، وأصحاب الحرف ، يسيرون في طريقهم الذي كانوا يسيرون فيه من قبل ، مع تغيير طفيف ، هو تكييف منتجاتهم الفنية وفقا لما يقتضيه الوضع الجديد وما يستلزمه الدين الاسلامي . وما لبث أن وجد هؤلاء الصناع وأصحاب الحرف أنفسهم مضطرين الى مشاركة المسلمين في حياتهم ، وافتتوا بكل ما هو شرقي ، وأقبلوا يعملون على بث مظاهر الرقة للثقافة المستعربة السامية على الثقافة اللاتينية ، وتحققت بذلك النقلة .

ثم أتت الفترة التي انصهرت فيها جميع هذه المظاهر الفنية تحت سلطان الخلافة القرطبية في القرن العاشر . وصيغ من ذلك أسلوب فني جديد ، يختلف كثيرا عن الأساليب المعروفة في الشام ومصر والعراق ، وإن كان من اليسير الاحساس برابطة قوية تدل عليها جميعا .

ومنذ ذلك حين نبتت بذور الفن الاسلامي بالاندلس . وما لبث أن

الفنون الإسلامية بالأمم

ترعرع في العصور التالية حتى وصل ذروة نضارته في عصر بنى نصر ،
بفضل ما تلقاه من تأثيرات بيزنطية وشرقية لم تنقطع عن اثرائه منذ عصر
الخلافة . ثم هاجر هذا الفن الى المغرب ، بعد أن طرد من بلاده التي ولد
فيها على أثر الاسترداد المسيحى ، وقدر له أن يقضى فيه الباقية
من حياته .

أولا : فن الغناء والموسيقى بالأندلس

فن الغناء — على حد تعريف ابن خلدون — تلحين الأسعار الموزونة، بتقطيع الأصوات على نسب منتظمة معروفة ، يوقع على كل صوت منها توقيعا عند قطعه فيكون نغمة ، ثم تؤلف تلك النغم بعضها الى بعض على نسب متعارفة ، فيلذ سماعها لأجل ذلك التناسب . وقد يصحب هذا التلحين في النغمات الغنائية تقطيع أصوات أخرى ، اما بالقرع واما بالنفخ في الآلات المتخذة لذلك ، فيحدث من ذلك لذة عند السماع .

ويرى ابن خلدون أن الغناء يحدث في العمران اذا تجاوز حد الضرورة ، فانه لا يرغب في هذه الصناعة الا من فرغ من جميع حاجاته الضرورية ، ولا يطلبها الا الفارغون عن سائر أحوالهم ، تفننا في مذاهب اللذة .

وكان فن الغناء مقصورا عند العرب — في جاهليتهم — على حدائهم للابل . وكانوا يسمون الترنم غناء اذا كان بالشعر . فلما ظهر الاسلام ، وفتح المسلمون بلاد فارس والشام ومصر ، وغلبت على العرب حياة الترف والرفقة ، وتفرغوا للملاذ الحياة ونعيمها . . . استلهموا موسيقى الفرس والروم . واشتهر بفنون الغناء والموسيقى الموالي دون العرب ، وقدم المغنون الفرس والروم الى الحجاز « وغنوا بالعيدان والطناير والمعازف والمزامير » ، وظهر بالمدينة نشيط الفارسي وطويس وسائب جائر . . . ثم أخذ عنهم معبد المغنى وابن سريج وابن المسجح . وازدهر فن الغناء والموسيقى في عصر الدولة العباسية ، وبلغ ذروته في عهد الرشيد : فنبتغ ابراهيم الموصلى وابنه اسحق وابنه حماد ، واتخذت آلات للموسيقى ، وأخرى للرقص تسمى بالكرج .

أما الأندلس فقد كان أهلها بطبعهم يحبون اللهو ، ويغرمون

الفناء والموسيقى بالأندلس

بالغناء (١) • وقد نقل عنهم ابن غالب الأندلسي ، صاحب كتاب « فرحة الأنفس » : « وأهل الأندلس عرب في الانساب والعزة والانفة وعلو الهمم ، وفصاحة الألسن ، وطيب النفوس ، وأباء الضيم وقلة احتمال الذل ، والسماحة بما في أيديهم ، والنزاهة عن الخضوع واتبان الدنيا » • ثم عد من فضائلهم اختراعهم للموشحات التي استحسنتها أهل المشرق ، وصاروا ينزعون منزعا • وقد ازدهر عندهم فن الغناء والموسيقى ، وألفوا فيه التواليف الكبرى • وإلى أبي بكر بن باجة الغرناطي تنسب الألحان المطربة بالأندلس • وليحيى الخدج المرسى كتاب الاغانى الأندلسية ، على نحو كتاب الاغانى لأبى الفرج الأصفهاني •

الذهبي في فن الغناء • فقد كان شاعرا اديباً ، بعيد المهمة والغايات • وهو الذهبي في فن الغناء • فقد كان شاعرا اديباً ، بعيد المهمة والغايات • وهو أول من اتخذ رسوم الخلافة وأبعتها ، ورتب الدواوين ، وجمل القصور ، وأشأ دار الطراز ، ورفع من شأن مملكته ، وجعل من قرطبة عاصمة

(١) يروى المقرئ في كتابه « نفع الطيب بن غصن: أندلس المرطيب » أن أبا الأصبغ عبد العزيز بن الخليفة عبد الرحمن الناصر ، كان مغرماً بالخمر كافاً بالفناء • وحدث أن انقطع عن الخمر ، فسر أخوه الله تنعمر بالله الحكم لما بلغه تركه للخمر ، وتمنى أن يترك الفناء لاهل الغناء • فلما سمع بذلك أبو الأصبغ قال : «والله لا تركته حتى تترك الطيور تغردها» ومما يثبت شغف أهل الأندلس بالفناء والموسيقى، النقوش المحفورة في علب العاج الأندلسية ، وهي نقوش تمثل مجالس الطرب والموسيقى وتصور بعض الآلات الموسيقية — مثل اللزمار والهود — في أيدي موسيقيين • وبتجلى في أحد هذه النقوش خلفه من خلفاء بنى أمية ، وقد طرب طرباً شديداً عند سماعه غناء تصحبه الموسيقى • وتعتبر هذه الصورة وتنطق في جلاء عن ولع الخلفاء الأندلسيين بفن الغناء والموسيقى •

جديرة بالخلافة ، واستقدم المغنين والمغنيات الى الأندلس ، وأجزل لهم العطاء ، وأجرى عليهم الرواتب . فتطعم فن الغناء بالأندلس بالتقاليد البيزنطية المحلية الموجودة أصلا في اسبانيا ، بالإضافة الى التقاليد المشرقية التي أخذت تنفذ في موجات من المشرق العباسي منذ عهد عبد الرحمن بن معاوية المعروف بالداخل (٧٥٥ — ٧٨٩ م) .

وقد وفد من المغنيات في عصره المغنية « فضل » المدنية ، وكانت حاذقة بالغناء كاملة الخصال . وأصلها لاحدى بنات هارون الرشيد ، ونشأت وتعلمت ببغداد ، ودرجت من هناك الى المدينة حيث أتقنت فن الغناء ، واشترت من هنالك للأمير عبد الرحمن الداخل مع زميلتها « علم » المدنية . وقد أسس الأمير الأموي لهؤلاء المغنيات دارا بقصره تعرف بدار المدنيات . وكان يؤثرهن لجودة غنائهن ، ونصاعة ظرفن ، ورقة أدبهن .

كذلك اشتهرت احدى جوارى هذا الأمير بالغناء ، وتعرف « بلقم » المغنية . وكانت أندلسية الأصل ، رومية من سبى البشكنس ، وحملت صبية الى المشرق ، وبيعت بالمدينة . وهناك تعلمت فن الغناء ، وحذقته . وكانت — الى كونها مغنية — أدبية ذاكرة ، حسنة الحفظ ، راوية للشعر ، حافظة للأخبار ، عالمة بضروب الآداب . وكان بقرطبة ، في عهد عبد الرحمن الداخل ، مغنية شهيرة اسمها « العجفاء » المغنية ، كانت جارية مسلم بن يحيى ، مولى بنى زهرة ، فاشتراها الأمير وضمها الى مغنياته .

وكان أول من دخل الأندلس من المغنين : علون وزرقون ، في عهد الأمير الحكم بن هشام (٧٩٦ — ٨٢١ م) . واشتهر في عهده منصور اليهودي المغنى .

وسما فن الغناء والموسيقى ، وارتقى في عهد الأمير عبد الرحمن بن الحكم المعروف بالأوسط (٨٢١ — ٨٥٢ م) ، بوفود المغنى أبى الحسن على بن نافع ، الملقب بزرياب ، الى الأندلس . وقد عقد المقرئ في كتابه

الغناء والموسيقى بالاندلس

« نفس الطيب » فصلا طويلا عنه ، وذكر رواية ابن حيان في المقتبس فيما يختص بهذا المغنى ، وقال أن زرياب لقب غلب عليه ببلاده من أجل سواد لونه مع فصاحه لسانه وحلاوة شمائله ، وشبهه بطائر أسود غرد عندهم ، وكان شاعرا مطبوعا * وأصل زرياب عراقى ، وكان مولى المهدي العباسى ، كما كان تلميذا للمغنى والموسيقى العظيم اسحق الموصلى ، رئيس الموسيقيين المغنين في بلاط الرشيد ببغداد *

وقد نبغ زرياب في فن الألحان على يد أستاذه اسحق الموصلى ، وتميز بفهم هذا الفن وصدق العقل مع طيب الصوت ، فتنفوق على أستاذه اسحق دون أن يدري هذا الى أى درجة من اجادة وصل تلميذه *

فلما سأل الرشيد اسحق أن يأتيه بمغن جديد ، مجيد للصنعة لم يشتهر اسمه ، ذكر له اسحق اسم زرياب ، وأثنى عليه أمام الخليفة ، وذكر له أنه من اكتشفه ، وأحضره أمام الرشيد * فطلب منه الرشيد أن يتناول عود أستاذه ويغنى على نغماته ، فامتنع زرياب ، وأصر على أن يعزف على عوده الخاص * فلما سأله الرشيد عن الفارق بين عوده وعود أستاذه ، أجابه زرياب : « عودى وأن كان في قدر جسم عوده ، ومن جنس خشبه ، فهو يقع من وزنه في الثلث أو نحوه ، وأوتارى من حرير لم يغزل بماء ساخن يكسبها اناثة ورخاوة ، وبمها ومثلثها اتخذتهما من مصران شبل أسد ، فلها في الترنم والصفاء والجهارة والجدة أضعاف ما لغيرها من مصران سائر الحيوان ، ولها من قوة الصبر على تأثير وقع المضارب المتعاقبة بها ما ليس لغيرها » * عندئذ أمره الرشيد بالغناء فغناه :

يا أيها الملك الميمون طائره
هارون راح اليك الناس وابتكروا

وطرب الرشيد طربا شديدا ، وأوصى اسحق به حتى يفرغ من

مشاكله له • فسقط في يد أسحق ، واثارت به الغيرة والحسد من زرياب وخلا بزرياب بعد انتهاء المجلس ، وهدده بالموت أو مغادرته البلاد فوراً . وقال له بين ما قاله : « عن قليل تسقط منزلتي وترتقى أنت فوقى ، وهذا ما أصاحبك عليه • ولولا أنك ولدي ، ولولا رعيى لذمة تربيتك ، لما قدمت شيئاً على أن أذهب نفسك ، فتخير في اثنتين لابد لك منهما : أما أن تذهب عنى في الأرض العريضة ، لا أسمع لك خبراً بعد أن تعطينى على ذلك الأيمان الموثقة ، وأنهضك لذلك بما أردت من مال وغيره • وأما أن تقويم على كرهى وغمى مستهدفا الى • فخذ الآن حذرک منى فلسنت واللّه أبقي عليك ، ولا أدع اغتيالک باذلاً في ذلك بدنى ومالى ، فاقض قضاءك » • وكان زرياب ذكياً فأدرك في الحال أنه لن يقف أمام اسحق ، فآثر أن يفر بنفسه وأولاده ، ورحل الى المغرب •

وكان الحكم بن هشام قائماً بأمر الأندلس اذ ذاك ، فكتب اليه زرياب ذاكراً مكانته في الغناء ، واختياره لبلاطه • فاستدعاه الحكم مرحباً به • وسار اليه زرياب بأولاده ، وعبر الزقاق الى الجزيرة الخضراء • وأوفد اليه الحكم مغنيه منصور اليهودى لاستقباله • فلم يزل زرياب بالجزيرة الخضراء حتى بلغه وفاة الحكم ، فهم بالعودة الى العدو ، لولا أن ثناه عن ذلك رسول الحكم اليه ، ونصحه بالكتابة الى عبد الرحمن بن الحكم • • • ففعل • وجاءه كتاب عبد الرحمن يرحب بمقدمه • وخرج الأمير بشخصه لاستقبال زرياب ، وأكرم وفادته ، وأنزله في دار من أعظم الدور بقرطبة ، وحمل اليها جميع ما يحتاج اليه ، وأجزل عليه العطاء ، ورتب له ولأفراد أسرته الرواتب والاقطاعات • وبدأ بمجالسته على النبيذ وسماع غنائهم ، فما ان سمعه حتى كره كل غناء سواه ، وقدمه على جميع المغنين في بلاطه ، وأدنى منزلته ، وفتح له باباً خاصاً في قصره يستدعيه منه متى شاء •

وقد أثبت زرياب حذقاً كبيراً في الموسيقى ، وجدد في الألحان تجديداً

الغناء والموسيقى بالأندلس

لم يعرفه أحد من معاصريه • وذكر أنه ادعى أن الجن كانت تعلمه الألحان • وكان يهب من نومه سريعا فيدعو جاريثيه غزلان وهنيدة فتأخذان عوديهما ويأخذ هو عوده ، ويطارجهما ليلته ، ثم يكتب الشعر ويعود الى مضجعه •

وأسس زرياب مدرسة في الغناء والموسيقى بقرطبة ، ووضع الأسس القوية التي قامت عليها الموسيقى الأندلسية ، والتي فاقت كل ما عداها في الشرق والغرب • وكان له تلاميذ استطاعوا أن ينهجوا سبيله في هذا الفن • وكان اذا تناول الالقاء على تلميذ يعلمه ، أمره بالقعود على الوساد المدور ، وأن يشد صوته جدا اذا ما كان قوى الصوت • فان كان لينه أمره أن يشد على بطنه عمامة ، فان ذلك مما يقوى الصوت ، ولا يجد متسعا في الجوف عند خروجه من الفم • فان كان ألصق الأضراس لا يقدر على فتح فمه ، أو كانت عادته زم أسنانه عند النطق ، راضه بأن يدخل في فمه قطعة خشب عرضها ثلاث أصابع يبيتها في فمه ليالى حتى ينفرج فكاه • وكان اذا أراد أن يختبر المطبوع الصوت المراد تعليمه من غير المطبوع ، أمره أن يصيح بأقوى صوته : يا ججام ، أو يصيح : آه ، ويمد بها صوته ، فان سمع صوته بهما صافيا نديا قويا لا تعتريه غنة ولا جسة ولا ضيق نفس ، عرف أنه سوف ينجب ، وأشار بتعليمه ، وان وجده خلاف ذلك أبعدته •

ونبغ من تلاميذه أولاده الثمانية الذكور وبناته عليه وحمدونة ، وكلهم مارس الغناء • كما أجاد من جواريه « متعة » التي أدبها وعلمها أحسن أغانيه حتى ثبت ، وكلف بها الأمير عبد الرحمن ابن الحكم ، فأهداها إليه زرياب • وكذلك أخذت عنه الغناء جارية الكاتب أبي حفص عمر بن قلهيل ، وكانت غاية في طيب الصوت •

وقد أورث زرياب صناعة الغناء بالأندلس • ويذكر ابن خلدون « أنه طما من صناعة الغناء باشبيلية (١) بحر زاخر ، وتناقل منها بعد

(١) اشتهر بالغناء في اشبيلية : أبو بكر الاشبيلي والمعنى السوسى •

ذهاب غصارتها الى بلاد العدو بافريقية والمغرب ، وانقسم على أمصارها وبها الآن (القرن ١٤ م) منه صباية على تراجع عمرانها وتناقص دولها « وما زالت آثار الموسيقى الأندلسية موجودة اليوم بمراكش ، وتعرف « بموسيقى الأندلس » •

وكان أهل الأندلس يغنون القصائد الشعرية الى أن ابتكرت الموشحات ، وهى شعر عربى بنى على أغنية شعبية شائعة بالرومانسية (أى اللاتينية الحديثة) • وكان الموشح ينظم أسماطا أسماطا وأغصانا يكترون منها ومن أعاريضها المختلفة • وكان الجزء الأخير من الموشحة — وهو الذى يتضمن ألفاظا رومانية — يعرف بالخرجة •

وقد شرح ابن بسام فى الذخيرة معنى الموشحة فقال : « وهى أوزان كثر استعمال أهل الأندلس لها فى الغزل والنسيب ، تشق على سماعها مصونات الجيوب ، بل القلوب • وأول من صنع أوزان هذه الموشحات بأفقتنا واخترع طويقتها — فيما بلغنى — محمد بن حمود القبرى الضرير (١) • وكان يصنعها على أشطار الأشعار ، غير أن أكثرها على الأعارىض المهملة غير المستعملة : يأخذ اللفظ العامى والعجمى ويسميه المركز ، ويضع عليه الموشحة دون تضمين فيها ولا أغصان • وقيل ان ابن عبد ربه صاحب كتاب « العقد » أول من سبق الى هذا النوع من الموشحات عندنا • ثم نشأ يوسف بن هارون الرمادى ، فكان أول من أكثر فيها من التضمين فى المراكز ، يضمن كل موقف عليه فى المركز خاصة • فاستمر على ذلك شعراء عصرنا : ككرم بن سعيد ، وابنى أبى الحسن • ثم نشأ عبادة القزاز (٢) فأحدث التغيير ، وذلك أنه اعتمد مواضع الوقف

(١) هو مقدم بن معافى القورى (وفقاً لابن خلدون) ، وكان شاعرا من شعراء الأمير عبد الله بن محمد البروانى . وقد أخذ عنه أحمد بن عبد ربه صاحب كتاب المعقتات الفراء •

(٢) هو عبادة بن ماء السماء شاعر المعتصم بن صهاح ملك المرية •

الغناء والموسيقى بالأندلس

في الأغصان فيضمنها ، كما اعتمد الرمادي مواضع الوقف في المركز » •

وقد أعجب أهل الأندلس بالموشحات ، وأخذوا بها ، واستظرفوها :
لسهولة تناولها ، وسرعة حفظها ، وسلاستها ، وتنميق كلامها • وكانت
الموشحات تغنى مع نعمات الموسيقى •

وقد ازدهر فن الموشحات في عصر ملوك الطوائف ، واشتهر من
الوشاحين في ذلك الوقت أبو عبد الله بن أرفع رأسه شاعر المأمون بن ذي
النون ملك طليطلة • ونبغ من الوشاحين في عهد المرابطين : أبو العباس
الأعمى التطيلي ، ويحيى بن بقى ، وأبو بكر بن الأبيض ، والحكيم أبو
بكر بن باجة صاحب التلاحين •

ثم استحدث أبو بكر بن قزمان القرطبي فنا جديدا في الشعر الشعبي
هو الزجل ، وخلفه في صناعة الزجل عبد الله بن الحاج ، المعروف
بمدغليس •

وكثر عدد المغنين والمغنيات في بلاط ملوك الطوائف • واشتهرت
اشبيلية بالخلاعة واللهو وحب الموسيقى والغناء • • • حتى أنه قيل :
« إذا مات عالم باشبيلية فأريد بيع كتبه حملت الى قرطبة حتى تباع
فيها • وان مات مطرب بقرطبة فأريد بيع آلاته حملت الى اشبيلية » •
وكانت طريانة من اشبيلية موطننا للطرب واللهو ، يقصده الشعراء والمغنون
فيشربون ويطربون •

ويصف الفتح بن خاقان ما كان يفعله المستعين بالله ملك سرقسطة في
نزهه « حين يقصد المتنزهات راكبا النهر ، يريد طراد لذاته وارتياذ نزهته ،
ويجتمع مع أصحابه • • • وقد أحضر من آلات ايناسه ، وأظهر أنواع ذلك
أجناسه ، ما راق من حضر ، وفاق حسنه الروض الأنضر • والزوارق
قد حفت به والتقت بجوانبه ، ونعمات الأوتار تحبس السائر عن عدوه ،

وتخرس الطائر المفصح بشدوه ، والراح لا يطمس لها لمع ، ولا ييخس منها بصر ولا سمع » •

أما أدوات الطرب وآلاته بالاندلس فكثيرة ويذكر ابن خلدون أن منها ما يسمونه الشبابة ، وهي قصبة جوفاء مزودة بأبخاش (فتحات) في جوانبها معدودة ، وينفخ فيها فتصوت ، ويخرج الصوت من جوفها على سداة من تلك الأبخاش ، ويقطع الصوت بوضع الأصابع على تلك الأبخاش وضعا متعارفا ، حتى تحدث النسب بين الأصوات فيه •

والمزمار من نوع هذه الآلة نفسها ، ويسمى أحيانا الزلامى ، وهو شكل القصبة منحوتة الجانبين من الخشب ، جوفاء من غير تدوير لأجل اثنتائها من قطعتين منفردتين • والمزمار مزود كذلك بأبخاش ينفخ فيها بقصبة صغيرة •

ومن آلات الزمر بالاندلس الشفرة والنورة ، وهما مزماران : أحدهما غليظ الصوت ، والآخر رقيقه • ويعد البوق بالاسبانية (Albogue) أفضل هذه الآلات ، وكان يتخذ من نحاس أجوف في مقدار الذراع « يتسع الى أن يكون انفراج مخرجه في مقدار دون الكف ، في شكل برى القلم » • وينفخ فيه بقصبة صغيرة تؤدي الريح من الفم اليه ، فيخرج الصوت قويا غليظا ، وفيه أبخاش كذلك •

ومن آلات الطرب : الآلات الوترية — أى المزودة بالأوتار المشدودة — وهي كثيرة متعددة : منها ما كان مستدير الشكل مثل الكريج (بالاسبانية Carrizo) • والعود (بالاسبانية Alaud) • والروطة (بالاسبانية Rota) ، والقنار (بالاسبانية Guitarra) ، والكثير (بالاسبانية Citara) • والرباب (بالاسبانية Rabel) •
ومنها ما كان على شكل مربع : كالقانون والمؤنس •

وفي كل هذه الآلات الوترية تشد الأوتار على سطحها من جانبيها الى دساتر (مفاتيح) جائلة ، حتى يتمكن الموسيقى من شد الأوتار ورخوها عند الحاجة الى ذلك بادارتها • ثم تقرع الأوتار اما بعود آخر ، واما بوتر مشدود بين طرفي قوس ، يمر عليها بعد أن يطلى بالشمع • ويقطع الصوت فيه بتخفيف اليد في امراره أو نقله من وتر الى وتر • واليد اليسرى مع ذلك — في جميع آلات الأتار — توقع بأصابعها على أطراف الأوتار فيما يقرع أو يحك بالوتر ، فتحدث الأصوات متناسبة متناسقة •

وقد استحدث زرياب بالأندلس مضربا للعود صنعته من قوادم النسر ، معتاضا به عن مرهف الخشب ، فأبدع في ذلك ، للطف قشر الريشة ، ونقائه وخفته على الأصابع ، وطول سلامة الوتر على كثرة ملازمته •

وكانت بالأندلس آلات موسيقية أخرى : مثل الدف (بالاسبانية Adufe) ، وأقوال ، وهي الطبول والطسوت التي تقرع بالقضبان • وتنصب الموسيقى عادة آلة تصفق ، تعرف بالصنجات •

وقد ابتكر زرياب وتر جديدا أضافه الى أوتار عود الأربعة ، وهي الزير والبم والمثنى والمثلث كل منها يرمز الى طبع من طبائع النفس البشرية • وكان هذا الوتر الخامس وسطا بين الهاديء والحاد ورمز له بالروح ، وسمى صول (Soul)

وقد استخدم زرياب ، لأول مرة ، جماعة من المغنين يعرفون بالمشدين (كورس) ••• كانوا يرددون معه بعض المقاطع في الأغنيات وما زالت آثار زرياب باقية الى يومنا هذا ، في الموسيقى والغناء الأندلسي ، في غناء السجيريا التي يغنيها النوريون بالأندلس ، وهي أغنان حزينة تبعث على البكاء ، وكذلك في السوليارس • وكانت عادة المغنين والمغنيات الأندلسيين أن يبدأوا الغناء بجس اللحن ، فيغنون لذلك جملة من الأغنية،

الغناء والموسيقى بالأندلس

وهو ما يفعله الأندلسيون اليوم حين يبدأون أحيانا بالمقطع الآتى :

Ay, Ay, Ay, o jirio mio!

آه ، آه ، آه يا حبيبي

ويؤكد ريبييرا وأنطونيو أرفالو أن الغناء الأندلسي المعروف اليوم

بالفلامنكو ، ليس الا أثرا من آثار الغناء الأندلسي الاسلامي •

ثانيا العماره الدينيه بالاندلس

ما كاد الفاتحون المسلمون يلفون عن كواهلهم عدد الحرب وآلاته ، حتى أخذوا يلتمسون الراحة بعد المعركة ، ويجنون ثمرات انتصاراتهم • • فحرصوا على الاستمتاع بحياة الترف ، واحاطة أنفسهم بكل مظاهر الأبهة • وبهرتهم تلك الأبنية السامقة التي بناها الرومان في أسبانيا بماردة وشقوبية وطالقة • وكان لا بد لهم أن يقيموا لأنفسهم أبنية تضارع تلك الأبنية بهاء وروعة : فشمّلوا رجال الفن والبناء من الأسبان برعايتهم ، واستخدموهم في تشييد عمائرهم وزخرفتها بعد أن كيفوها وفقا لما يقتضيه دينهم وتقاليدهم •

وكان المسلمون حديثي عهد ببلاد الأندلس • وكان من الطبيعي أن يجهلوا مصادر استيراد الرخام والحجر وغيرها من مواد البناء ، فاضطروا الى استغلال العمائر القديمة المهذمة في أبنيتهم الخاصة • وهكذا جدد والى الأندلس ، السّمع بن مالك الخولاني ، بناء قرطبة سنة ١٠١ هـ (٧١٩) من أحجار سور المدينة الروماني • وقيل « انه كانت في هذا المكان قنطرة من بناء الأعاجم ، قبل دخول العرب بنحو مائتي سنة ، وأثرت فيها الأزمان بمكابدة المدود ، حتى سقطت حناياها ، ومحيت أعاليها ، وبقيت أرجلها وأسافلها • وعليها بنى السّمع في سنة احدى ومائة » •

وما كاد عبد الرحمن بن معاوية يظفر بامارة الأندلس ، ويستقيم أمره بها ، حتى شرع في تجديد ما طمس لبنى أمية بالمشرق من بهاء الخلافة وعظمتها ، فبنى المسجد الجامع وقصر الامارة بقرطبة • وكان يحن دائما الى دمشق مسقط رأسه (١) ، فأقام منية الرصافة شمال غربي قرطبة ،

(١) كان عبد الرحمن الداخل ينظم الهياتا من الشعر فيها حين متواصل لارض الشام وفيها احساس بالغربة عن وطنه • وسقط رأسه منها قوله =

العمارة المدنية بالأندلس

أقام بقرطبة قصرا سماه بالدمشق ، وأبدع بناءه ، وقلد به قصر أجداده
وبنى بها قصرا رائعا حاطه بالجنان والبساتين ، واتخذة لنزهه ، وكذلك
بالمشرق •

وبدأ فن العمارة بالأندلس ينمو منذ ذلك العهد مع نمو المجتمع ،
تغذيه تقاليد مشرقية وفدت اليه مع الوافدين من الشام ، وتقاليد مغربية
ومحلية وما لبث أن ترعرع هذا الفن في عصر الخلافة بقرطبة ، وأخذ
يتسع تأثيراته في مجالات بعيدة • فقد أدركت تأثيرات العمارة الأندلسية
شمالى اسبانيا وجنوبى فرنسا ، وانطلقت نحو المشرق ، فتغلغت في نظم
العمارة السائدة ببلاد المغرب ومصر • ثم استكمل نصارته ونضوجه في
عصر ملوك الطوائف ، ثم تطورت هذه العمارة وتحولت — في عصر بنى
نصر — الى عمارة زخرفية بحته كما نشهداها في قصر الحمراء •

وما زال فن العمارة الأندلسى هو الفن السائد في عمائر بلاد المغرب
الى وقتنا هذا ، اذ هاجر — بعد سقوط غرناطة — من مسقط رأسه ،
واستقر ببلاد المغرب • ومع ذلك فقد ترك في أرض الأندلس آثارا عميقة

أيها الراكب الميم أرضى
أقر منى بعض السلام لبعضى
أن جسمى كما تراه بأرض
ومؤادى ومالكه بأرض
ومن قوله في وصف نخلة وحيدة تبديت له في مزية الرصافة ، متأثرت فيه
آلام الأبعد عن وطنه فقال :

تبديت لنا بين الرصافة نخلة
تنامت بأرض المغرب من بلد النخل
فقلت : شبيهى في التغرب والنوى
وطول ابتعادى من بنى وعن أهلى
نشأت بأرض أنت فيها غريبة
فمثلك في الاقضاء والمنتأى مثلى

في أسلوب البناء ... فان الأسلوب الشائع في أبنية الأندلس ، في وقتنا هذا ، يحتفظ بالطابع الاسلامى الذى حاول ملوك اسبانيا المسيحية عبثا محوه. وازالته ، بفرض أساليب قوطية ورومانية .

ولا شك أن الفضل في بقاء هذا الطابع الاسلامى بأسبانيا ، في الوقت الحاضر ، يرجع الى تأصيل الصبغة الاسلامية ما يقرب من ألف سنة في كيان اسبانيا الاجتماعى والفكرى والاقتصادى . وكذلك يرجع الى تفوق فن العمارة الأندلسى على سائر فنون العمارة بأسبانيا ، وتوافقه مع حاجات سكان الأندلس .



وتشمل العمارة الدينية بالأندلس المساجد والكنائس والبيع اليهودية :

١ - المساجد :

المسجد الجامع بقرطبة

هو أعظم آثار المسلمين بالأندلس ، وأروع أمثلة العمارة الاسلامية والمسيحية على السواء في العصور الوسطى . وقد حظى هذا المسجد وحده بعناية كبيرة من مؤرخى المغرب والاندلس ، لأنهم أدركوا أهميته الكبرى فعظموه ، ووصفوه وصفا دقيقا ... بل ان بعض هؤلاء المؤرخين خصص فصولا كاملة عن تاريخه ووصفه .

والحق أن تاريخ هذا المسجد الجامع يمتد من القرن الثامن الميلادى الى القرن الحادى عشر ، أى أن بناءه يحتضن في عناصره ذلك المجد الذى بلغه الفن الاسبانى الأموى طوال قرنين ونصف قرن من الزمان : ففيه نبتت أصول هذا الفن ، وفيه أزهى وأثمر وامتدت جذوره شرقا وغربا .

العبارة الدينية بالأندلس

وتاريخ بناء هذا المسجد يفسر سبب تعظيم المسلمين له وأجلالهم لبقعته وقبلته • فقد شارك المسلمون ، بعد فتحهم قرطبة ، نصارى هذه المدينة في كنيستهم الكبرى ، المعروفة بشنت بنجنت (San Vicente) وأقاموا في شطرهم مسجدا ركز قبلته حنش الصنعاني التابعي • فلما كثر المسلمون بقرطبة ، وضاق عنهم مسجدها ، علقوا فيه سقائف متتابعة ، يقل ارتفاعها تدريجا تبعا لارتفاع مستوى سطح الأرض كلما اتجهنا شمالا بعيدا عن نهر الوادي الكبير • وكان المصلون يجدون صعوبة في دخول بيت الصلاة لقصر ارتفاع السقائف •

وظل المسجد على هذه الصورة حتى دخل عبد الرحمن بن معاوية أرض الأندلس ، واستولى على مقاليد الأمور ، وجعل قرطبة دار سلطانه • وأراد أن يجعلها ، ويحيط نفسه بهالة من الأبهة والعزة • • • فنظر في أمر المسجد الجامع ، وطلب من نصارى قرطبة بيع ما بقى بأيديهم من الكنيسة فأبوا أول الأمر ، ثم وافقوا بعد أن اشترطوا على الأمير — مقابل تخليجهم عن شطرهم — بناء كنيستهم خارج الأسوار المعروفة بشنت أجـلـح (San Ascielo) وأوسع لهم عبد الرحمن البذل ، فمحمهم ثمانين ألف دينار • ويتم الأمر على ذلك عام ١٦٩ هـ (٧٨٤ — ٧٨٥ م) ، وابتنى المسجد الجامع بعد أن هدم الكنيسة والمسجد القديم • وتم بناء الجامع الجديد ، وكملت بلاطاته وأسواره عام ١٧٠ هـ (٧٨٦ م) •

وكان هذا الجامع ، في عهد عبد الرحمن ، يتميز باشماله على تسعة أروقة (تسمى في بلاد المغرب بلاطات) عمودية على جدار القبلة الرواق الأوسط أكثرها اتساعا وارتفاعا • وتتألف الأروقة من صفوف متوازية من أحد عشر قوسا ، على شكل حدوة الفرس ، وظيفتها ربط الأعمدة فيما بينها • ويتناوب في هذه الأقواس الآجر الأحمر وقطع الحجارة الصفراء ، مما يكسب المسجد مظهرا زخرفيا بسيطا • وتقوم هذه الأقواس على أعمدة رخامية تعلوها تيجان قديمة من الكنائس الخربة بقرطبة • وتعلو

الأقواس المذكورة صفوف أخرى من أقواس نصف دائرية ، قائمة على دعائم مربعة ، ووظيفتها حمل الأسقف • ويسند جدران المسجد من الخارج ركائز قوية تضيء على المسجد مظهر القلاع •

وكان فناء المسجد مغروسا — زمن عبد الرحمن الداخل — بالأشجار شأنه في ذلك شأن جميع المساجد الأندلسية الأخرى • ونلاحظ أن عناصر بناء جامع قرطبة في مرحلته الأولى تشف عن أصالة وابتكار ، وذلك لابتداع النظام المزدوج للأقواس ، وتناوب قطع الآجر والحجارة بها •

وقنع الأمير عبد الرحمن الداخل بأحد أبراج القصر ، المجاور للمسجد من جهته الغربية ، ليقوم مقام المئذنة ، وترك أمر بناء المئذنة الى ابنه هشام من بعده (٧٨٨ — ٧٩٦) ، فأقامها من خمس فيء حملته بأربونة • وقد اهتدى المهندس الأثري دون فيلث هرناندث الى موضع المئذنة ، وأجرى فيه حفائر أسفرت عن كشف أساس قاعدتها المربعة •

ثم زيد في المسجد الأول ، زمن الأمير عبد الرحمن الأوسط (٨٢٢ — ٨٥٢ م) ، زيادتان أساسيتان : الأولى تمت عام ٨٣٤ م ، ذلك بإضافة رواقين جانبيين الى الأروقة التسعة السابقة • والثانية عام ٨٤٨ م بأن زيدت جميع أروقه المسجد طولا نحو القبلة الى عمق ٢٦ مترا • وتتميز زيادة عبد الرحمن الأوسط بأن المساند الحجرية (الكوابيل) التي تتكىء عليها الأقواس ، محدبة وقد تطورت هذه المساند في العهود التالية حتى بلغت أقصى مراحل تطورها زمن الحكم المستنصر • وحال موت عبد الرحمن الأوسط دون اتمام ماكان يزمع عمله بالمسجد من زخرفة ، فأتى الزخرفة وجدها ابنه محمد عام ٢٤١ هـ (٨٥٦ م)

وعلى باب من أبواب المسجد الخارجية « باب الوزراء » — المعروف الآن بباب سان استييان — نقش تاريخي يسجل هذه الأعمال نصه :
« بسم الله • • • أمر الأمير — أكرمه الله — محمد بن عبد الرحمن ببنيان

العبارة الدينية بالاندلس

ما حكم به من هذا المسجد واتقانه ، وجاء ثواب الله عليه وذخره به ، فتم ذلك في سنة احدى وأربعين. ومائتين على بركة الله وعونه ... مسرور ونصر فتياه » •

وأضيفت الى المسجد عام ٢٥٠ هـ (٨٦٥ م) مقصورة • وزاد فيه الأمير المنذر بن محمد بيت المال ، وأمر بتجديد السقاية واصلاح السقائف أما أخوه عبد الله فقد أقام ممرا يصل بين القصر والجامع ، اسمه الساباط ، ليخرج من قصره الى المسجد دون أن يراه أحد •

وفي سنة ٣٤٠ هـ (٩٥١ م) شرع عبد الرحمن الناصر في بناء مئذنة كبرى تتناسب ورواء الخلافة • وكانت مئذنة هشام قد تصدعت ، فهدمها وأتم بناء المئذنة الجديدة في ثلاثة عشر شهرا • وما زال جزء كبير من هذه المئذنة قائما حتى اليوم الى ارتفاع ٢٣ مترا ، بعد أن تهدم جزؤها العلوى على أثر زلزال حدث سنة ١٧٨٩ ، فكساها المهندس الاسباني هرنان رويث برداء حجري ، وملا الفراغ الداخلى ، بين أدراج المئذنة في جزئها الأدنى ، بالبناء حتى يمكن للمئذنة أن تتحمل ثقل الطابق العلوى الذى بناه على أسلوب عصر الاحياء •

أما الحكم المستنصر (٩٦١ - ٩٦٧ م) فقد اهتم بتوسيع المسجد بغد أن ضاق بمصلية ، فزاد أقواسه اثني عشر قوسا نحو الجنوب ، وأقام في مدخل الرواق الأوسط ، من هذه الزيادة ، قبة كبرى مخرمة ، كان الغرض منها ادخال الضوء الى مسطح بيت الصلاة • كما أقام قبة أخرى عليه في أسطوان المحراب • • • كما هو الحال في المساجد التونسية (جامع القيروان وجامع الزيتونة بتونس) • ثم أحاط هذه القبة الأخيرة بقبتين جانبيتين تؤولفان معها ما يشبه المجاز في الكنائس • وزودت اضافة الحكم جامع قرطبة بتناسق أجزائه وتعادلها • وأنزل الفسيفساء بجوار المحراب ، ونصب مقصورة من الخشب منقوشة. الظاهر والباطن ، وأجرى الماء الى سقايات الجامع ، وأقام منبرا مركبا من ٣٦ ألف وصلة •

وتلت هذه الزيادة زيادة المنصور بن أبى عامر التى تمتد طولا من أول المسجد الى آخره • ففى سنة ٣٧٧ هـ (٩٨٧ م) ، أضاف المنصور ثمانية أروقة على المسجد كله من جهته الشرقية ، وذلك حين ضاقت قرطبة بمن وفد اليها من البربر • واهتم ابن أبى عامر فى زيادته باحكام البناء دون المظهر الزخرفى ، ومع ذلك فان زيادته لا تقل عظمة عن سائر الزيادات بالمسجد ، ما عدا زيادة الحكم المستنصر • ولكن المسجد فقد تناسقه وتعادل أجزائه بتلك الزيادة الأخيرة ، اذ أصبح الرواق الأوسط ، الذى كان يؤلف محور بيت الصلاة ، متطرفا •

ولما سقطت قرطبة فى أيدي القشتاليين سنة ١٢٣٦ م ، حولوا المسجد الى كنيسة سموها « سانتا ماريا الكبرى » • ومنذ ذلك العهد أخذ مظهر الجامع يتحول شيئا فشيئا الى صورته الحاضرة • وأضاف اليه ملوك قشتالة بعض الاضافات التى غيرت بعض الشئ من مظهره ، ولكنها لم تغير جوهر البناء • غير أن التغيير الأساسى حدث سنة ١٥٢٣ م ، حين هدم الأسقف انييجو مانريكى جزءا كبيرا من زيادة عبد الرحمن الأوسط والمنصور لبناء كاتدرائية قوطية الطراز فى قلب الجامع •

وعارض المجلس البلدى بقرطبة وبعض أعيانها هذا المشروع ، الذى كان من شأنه هدم الوحدة المعمارية لأثر من أجل آثار العالَم ، وعرضوا الأمر على الامبراطور شارلكان (كارلوس الخامس) ، فوافق على الهدم دون أن يكلف نفسه عناء معاينة الأثر • ولكنه حين مر بقرطبة سنة ١٥٢٤ ، ورأى المسجد الجامع ، أخذ يمتع بصره بجمال عمارته وزخارفه ، وشاهد بيت الصلاة مغروسا بغابة من النخيل البنائى قوامها أعمدة لا يدركها البصر ، تقوم عليها عقود مزدوجة مما يولد احساسا بالطبيعة الحية ، وعابن أعمال التخريب ••• تألم ، وقال موجها كلامه الى فراى خوان أسقف طليطلة والى أعضاء المجلس الكنسى عبارته المشهورة : « لو كنت قد علمت ما وصل اليه ذلك لما كنت قد سمحت بأن يمس البناء القديم ، لأن ما بنيتموه موجود فى كل مكان ، وما هدمتموه فريد فى العالم » •

العمارة الدينية بالاندلس

ويحتفظ مسجد قرطبة اليوم بصورته الاسلامية ، رغم ما أصابه من تغيير منذ سقوط قرطبة في أيدي المسيحيين ، وتمتد في بيت صلاته صفوف الأعمدة على أروقة طولية يبلغ عددها تسعة عشر ، تتميز أقواسها جميعا بتناوب اللون الأصفر والأحمر . وهذا المظهر الزخرفي أوضح من أن يوصف ، لأن زخارفه توزع النظر وتشتتة بدلا من تركيزه في بقعة واحدة : فالعين لا تقف عند نقطة معينة ، بل تنتقل من مكان الى مكان .

وتتمثل الأصالة المعمارية في قباب المسجد ، وقوامها هيكل من الأقواس البارزة تتقاطع فيما بينها بحيث تترك فراغا تشغله قبية مفصصة ، وقد كسى ما بين تقاطع الأقواس بالزخارف الجميلة .

وقد انتشر نظام الأقواس المتقاطعة في القباب باسبانيا المسيحية انتشارا كبيرا . ونرى منه أمثلة كثيرة في قشتالة ونافارة ، وانتقل منها الى جنوبى فرنسا : فنراه ممثلا في برج دير موساك ، وقبوة أولورون ، وأوسبتال سان بليز . وسنرى أنه تطور في اسبانيا الاسلامية تطورا جوهريا ، وفقد خصائصه المعمارية ، وأصبح فنا زخرفيا بحتا ، في حين استفاد منه الفرنسيون ، فابتدعوا منه نظام القبوات القوطية .

جامع عمر بن عبدس باشبيلية

الأمير عبد الرحمن الأوسط ، هو أول أمير من بنى أمية عمل على تفخيم السلطنة بالاندلس ، بما شيده من مساجد وقصور وحصون وأسوار ومدن وقلاع في جميع أنحاء الأندلس . ومن بين المساجد التي أمر ببنائها : المسجد الجامع باشبيلية ، بناء القاضي عمر بن عبدس سنة ٢١٤ هـ (٨٢٩ — ٨٣٠ م) . وقد سجل تاريخ انشاء الجامع في نقش كوفى على بدن عمود من الرخام محفوظ اليوم بمتحف الآثار الأهلى باشبيلية نصه :

يرحم الله عبد الرحمن بن الحكم ، الأمير العدل المهتدى ، الأمر ببنيان هذا المسجد على يدى عمر بن عدبس قاضى اشبيلية ، فى سنة أربع عشرة ومائتين ، وكتب عبد البر بن هارون » •

ويختلف هذا المسجد عن جامع قرطبة فى أنه لم يتعرض منذ بنائه لأى زيادة أو اضافة ، حتى ضاق بعد مضى ثلاثة قرون من انشائه عن المصلين • فأقام الموحدون جامع القصبة الكبير باشبيلية بالاضافة الى جامع ابن عدبس •

وكان بيت الصلاة فى هذا المسجد — وفقا لما ذكره الحميرى — يشتمل على أحد عشر بلاطا (رواق) عمودية على جدار القبلة : البلاط الأوسط منها أكثر البلاطات ارتفاعا ، وكان طول جدار القبلة — حسبما ذكره العالم الأثرى توريس بلباس — يتراوح ما بين ٤٨ و ٥٠ مترا • وكانت المئذنة تستند على الجدار الشمالى للجامع ، وتبرز خارج هذا الجدار قليلا • أما بهوه فقد كان مغروسا بأشجار البرتقال وال نارنج ، ويسمى اليوم : (Patio de los Naranjos) كما كاي ت توسطه نافورة على شكل محارة •

وقد أصيب جامع ابن عدبس ببعض الأضرار ، اذ أحرقت سقفه الخشبية ولما يمض على بنائه خمس عشرة سنة : ذلك أن النورماندين احتلوا اشبيلية سنة ٢٣٠ هـ (٨٤٤ م) ، وكانوا يقذفون أسقف المسجد بسهام ملتهبة محمية • ويذكر ابن القوطية القرطبى أن آثار السهام كانت ما تزال ترى فى زمنه •

ثم أصيب المسجد عام ٤٧٢ هـ (١٠٧٩ م) بزلزال عنيف هدم الجزء الأعلى من المئذنة ، فجدد المعتمد بن عباد بناءها فى شهر واحد • وتاريخ البناء مسجل على لوحة اكتشفت فى الجدار القبلى بقاعدة المئذنة •

العمارة الدينية بالأندلس

ويغلب على الظن أن بناء المسجد قد تأثر بهذا الزلزال ، فتصدعت جدرانه الغربية ومالت ، وتآكلت جوائز سقفه (الكتل الخشبية التي تسمى عليها لوحات السقف) • فأمر الخليفة الموحدى أبو يوسف يعقوب المنصور ، فى جمادى الأولى سنة ٥٩٢ هـ (مايو سنة ١١٩٥ م) ، بترميمه • وأقام له ركائز قوية تسند جدرانه الغربية من الميل ، وأعاد إليه الصلاة بعد أن كانت قد انقطعت منه منذ سنة ٥٧٠ هـ (١١٧٤ م) •

ولما سقطت اشبيلية (سنة ١٢٤٦ م) فى أيدي القشتاليين ، تحول جامع ابن عدبس الى كنيسة سان سلفادور • وأصبحت المئذنة فى ٢٤ من أغسطس سنة ١٣٥٦ بأضرار جسيمة نتيجة لزلزال عنيف هدم جزءها العلوى ، وأقيم مكانها طابق النواقيس الحالى • ثم هدم المسجد بأكمله سنة ١٦٧١ ، باستثناء المئذنة والبهو ، وبُنيت مكانه الكنيسة الجديدة •

ونظام مئذنة الجامع — وهى الأثر الوحيد الذى حفظ لنا من المسجد — تشبه نظام المآذن الأندلسية التى ترجع الى عهد عبد الرحمن الأوسط بقرطبة ، مثل مئذنة سان خوان وسانتياجو ، وفى داخلها درج حلزونى عرضه ٨٠ سم ، يدور حول دعامة أسطوانية ضخمة •

مسجد الباب المردوم بطليطلة

تحتفظ مدينة طليطلة بأثر اسلامى جليل ، هو المسجد المعروف بمسجد الباب المردوم • وأقامه أحمد بن حديدى من ماله الخاص ، وتم بناؤه على يد موسى بن على البناء وسعادة فى المحرم سنة ٣٩٠ هـ (ديسمبر ٩٩٩ — يناير سنة ١٠٠٠ م) • وأحمد بن حديدى هذا من أعيان طليطلة الذين اشتهروا بالعلم • وكان قد استوزره اسماعيل ابن ذى النون ملك طليطلة •

والمسجد صغير المساحة ، مشيد من الحجر الجرانيتى والآجر •

وبيت الصلاة فيه مربع الشكل : طول كل جانب منه ثمانية أمتار ، ويتألف من ثلاثة أروقة طولية ، تقطعها ثلاثة أروقة عرضية ، بحيث يحدث من ذلك التقاطع تسعة أساطين ، تفصل بينها أربعة أعمدة تيجانها قوطية قديمة ، يتفرع منها اثنا عشر قوسا على شكل حدوة الفرس • ويعلو كل أسطوان من الأساطين التسعة قبة تتقاطع فيها الأقواس على النحو الذى رأيناه فى قرطبة • والقبة الوسطى أكثر ارتفاعا من القباب الأخرى •

أما واجهة المسجد الرئيسية — وهى الواجهة الجنوبية الغربية — فتطل على الطريق المؤدى الى الباب المردوم بثلاثة أقواس ، فى أعلاها نقش كوفى يتألف من قطع من الآجر ، بارزة على سطح البناء داخل افريز بين صفين من الأسنة البارزة • ويسجل هذا النقش تاريخ البناء • والقوس الأيمن من هذه الأقواس متجاوز على شكل حدوة الفرس ، على نمط نظام أقواس المسجد الجامع بقرطبة • والقوس الأيسر مفصص ، أما الأوسط فمجدد • ويعلو هذه الأقواس الثلاثة ، التى تعتبر أبوابا لبیت الصلاة ، بأئكة صماء من أقواس متجاوزة متقاطعة • ويتوج هذه البائكة الزخرفية افريز بداخله شبكة مخرمة من المعينات •

أما الواجهة التى تطل على بهو المسجد فمن ثلاثة أقواس متجاوزة بمثابة أبواب ، تعلوها ستة أقواس متجاوزة صماء يتناوب فيها اللونان الأبيض والأحمر ، نتيجة لتعاقب قوالب الحجر والآجر على نظام أقواس جامع قرطبة •

ولقد تحول هذا المسجد الى كنيسة الكريستو دى لالوث ، بعد استرداد ألفونسو السادس ملك قشتالة لطليطلة • وأضيفت اليه فى الجانب الشرقى حنية من الأسلوب المدجن ، وذلك فى القرن الثالث عشر •

المسجد الجامع بالمريّة

لم يتبق من هذا المسجد الا آثار ضئيلة داخل كنيسة سان خوان ، لا تعدو المحراب وجزءا من جداره • ويعتقد العالم الأثرى توريس بلباس أنه قد شيد بعد زيادة الحكم المستنصر لجامع قرطبة بسنوات قليلة ، وأنه كان يتألف من خمسة بلاطات عمودية على جدار القبلة : البلاط الأوسط منها كان أكثر البلاطات الأخرى اتساعا وكان يعلو المحراب المربع قنبيبة مفصصة ما زالت قائمة حتى وقتنا هذا • وكان نظام البناء في جدار المحراب ، الذي حفظ لنا اليوم ، يخضع للنظام القرطبي القسائم على « آدية وثنائوى » ، أى تناوب حجرين موضوعين عرضا مع حجر موضوع طولاً •

وقد أضيف الى هذا المسجد ، زمن زهير العامرى ، زيادة من جوانبه الثلاثة الشرقى والغربى والشمالى • ويتجلى ذلك في قول ابن الخطيب في كتابه أعمال الأعلام : « هو الذى بنى هذا المسجد الجامع بالمريّة ، وزاد فيه الزيادات من جهاته الثلاث ما سوى القبلة » • وكان البلاطان اللذان أضافهما زهير العامرى ، على جانبى بيت الصلاة ، أكثر البلاطات الأخرى اتساعا • وترى في المحراب بقايا طبقتين من الزخرفة تختلفان في الأسلوب : السفلى منهما يمكن نسبتها الى زهير العامرى • وتتميز هذه الزخرفة ، التى تختلفى تحت طبقة الزخرفة الثانية ، بأقواسها الزخرفيّة المدببة في أقسام المحراب الوسطى ، وبالمحارات نرى لها نظائر في جامع قرطبة •

أما الأقواس الصغيرة الصماء القائمة على عمد ، بزخارفها القائمة على المرواح النخيلية ، والفصوص المتصلة بحلقات معقوفة ، فترجع الى عصر الموحدين الذين أصلحوا المسجد بعد أن خربه النصارى في أثناء احتلالهم للمريّة ما بين عامى ١١٤٧ — ١١٥٧ م • وتشبه هذه الزخرفة زخرفة محراب آخر عثر عليه في كنيسة نويسترا سنيورا دى لا اسونثيون بمرتلة بالبرتغال • وكانت مسجدا شيد بعد عام ١١٥٧ م •

العمارة الدينية بالاندلس

وقد زار الرحالة الألماني منتزر جامع المرية سنة ١٤٩٤ ، ووصفه بأنه من أجمل مساجد غرناطة ، وكان يتألق بمئات الثريات ، وكان صحنه مغروسا بأشجار الليمون والبرتقال ومفروشا بالرخام ، كما كانت تتوسطه نافورة للوضوء •

ولقد تحول هذا الجامع الى كنيسة ، وأقيمت به الشعائر المسيحية في عام ١٤٩٠ ، وشيدت بداخله كاتدرائية سنة ١٤٩٢ • ثم تهدمت هذه الكاتدرائية على أثر زلزال حدث سنة ١٥٣٢ • وأقيمت سنة ١٥٢٤ كاتدرائية أخرى في مكان آخر غير هذا المسجد • ثم حول المسجد الى كنيسة سان خوان • ثم تحولت هذه الكنيسة بدورها الى مخزن للمدافع والمهمات سنة ١٨٤٥ ، ثم سلمت الى جماعة الآباء الفرنسيين ، فحفظت بقاياها وبقايا الجامع الى اليوم •

وقد عثر في أرض هذا المسجد على بضعة كوابيل حجرية تشبه كوابيل جامع قرطبة ، الا أنها تختلف عنها بكثرة زخارفها القائمة على التوريقات ، وتبدو فيها أوراق مبسطة مقسمة الى أصابع ، وتتشابه هذه الأوراق مع غيرها في قصر الجعفرية بسرقسطة وقصبة مالقة ، مما يقطع بأنها من عصر المعتصم ابن صمادح •

جامع الموحدين باشبيلية

شرع الخليفة الموحدي أبو يعقوب يوسف في بنائه في شهر رمضان سنة ٥٦٧ هـ (١١٧٢ م) • وعهد الى شيخ العرفاء (كبير المهندسين) أحمد بن باسة والبنائين من أهل اشبيلية ومراكش وفاس بذلك •

وكان سبب بنائه لهذا المسجد أن جامع ابن عديس قد ضاق بأهل اشبيلية ، فكانوا يصلون في رحابه وأقبيته وفي حوانيت الأسواق المتصلة به ، فيبعد عنهم التكبير بالفريضة • وحفر المهندسون أساسه حتى وصل

العمارة الدينية بالاندلس

الحفر الى الماء ، ثم وضع أساسه من الآجر والجيار والجص والأحجار ، وأسست دعائمه تحت مستوى سطح الأرض • وظل البناء مستمرا ، حتى كمل بالتسقيف ، مدة أربعة أعوام ، وقارب جامع قرطبة في الاتساع • واهتم العرفاء ببناء قبة المحراب ، وأودعوا فيها كل عبقريتهم • وصنع للمسجد منبر من أجود أنواع الخشب ، ونقشت فيه الزخارف الرائعة ، ورصع بالصندل مجزعا بالعاج والأبنوس وبصفائح الفضة والذهب ، ثم أقيمت له مقصورة أحاطت بالمحراب والمنبر •

وكان المسجد يشتمل على سبعة عشر رواقا عمودية على جدار القبلة ، البلاط الأوسط منها أكثر البلاطات اتساعا • وكانت أقواس الجامع متجاوزة منكسرة تستند على دعائم من الآجر • وكان يدعم جدران الجامع الخارجية ركائز ضخمة لدفع الناشئ من الأقواس •

ولما عاد أبو يوسف منصورا ، أمر بصنع التفاحات الأربع المذهبة خليفته ، أبو يوسف يعقوب ، يظفر بالبيعة حتى أمر والى اشبيلية بالاشراف على اتمام مشروع أبيه وأكمال بناء مؤذنة تجاوز في ارتفاعها مؤذنة قرطبة • ولم يتم بناء المؤذنة الا بعد انتصار أبي يوسف يعقوب المنصور على جيوش قشتالة في موقعة الأرك في ١٠ يوليو سنة ١١٩٥ • وارتفعت المؤذنة في رشاقة مشرفة على سهول اشبيلية •

ولما عاد أبو يوسف منصورا ، أمر بصنع التفاحات الأربع المذهبة لتتوج المؤذنة ، ورفعت في السفود البارز بأعلى قبة المؤذنة ، ثم أزيحت عنها الأغشية التي كانت تغطيها في احتفال حضره الخليفة وولى عهده الناصر وجميع بنييه وأشياخ الموحدين والقاضى وأعيان المدينة ، وذلك في ربيع الآخر سنة ٥٩٤ هـ (١١٩٧ م) ، فبهرت ببريقها ولألائها عيون الحاضرين •

ولما سقطت اشبيلية في يد فرناندو الثالث ملك قشتالة ، تحول

المسجد الجامع الى كنيسة سانتا ماريا • وظل المسجد قائما على تلك الحال دون أن تصيب عمارته أضرار جسيمة ، ومع ذلك فقد أقيمت به عدة مصليات ، منها المصلى الملكى ، وتلاحقت عليه بعد ذلك المصائب على أثر الزلازل ، فاضطر المجلس الكنسى باشبيلية الى اتخاذ قرار بهدمه وبناء كاتدرائية بقرطبة مكانه • وبالفعل هدم الجامع ، ووضع حجر الأساس في البناء الجديد سنة ١٤٠٢ • وقد ظل بهو الجامع — المعروف ببهو البرتقال — محتفظا بسلامته الى حد كبير حتى تهدمت مجنبته الغربية سنة ١٦١٨ م •

ولم يتبق من جامع الموحدين الا عدة أقواس تطل على بهو من جهة الشمال والشرق • ومن بين هذه الأقواس قوس الباب المعروف بباب الغفران • وقوام زخارفه شريطان بارزان ، ترتسم فيها مستطيلات ومربعات قائمة على رؤوسها ، ويتوسطهما شريط أوسط يزدهم بتوريقات من سعف النخيل الملساء التى تخلو من السيقان ، تطوقها خطوط مخرزة ، وأطرافها تنحني في تجعدات وتتلاحم في تناسق وإيقاع • وكلها زخارف يمتزج فيها الطراز الأنندلسى بالطراز المغربى •

أما المئذنة فقد تحولت ، بعد سقوط اشبيلية سنة ١٢٤٦ ، الى برج للنواقيس ملحق بالكنيسة • ثم سقطت تفاحاتها الذهبية على أثر زلزال سنة ١٣٥٥ • ثم أزال أحدى الصواعق الجزء العلوى من المئذنة سنة ١٤٩٤ ، كما سقط جزء آخر منها فى زلزال سنة ١٥٠٤ • وأقام الاسبان مكان هذا الطابق العلوى طابقا جديدا من البناء سنة ١٥٦٧ ، نصب فى أعلاه سنة ١٥٦٨ تمثال من البرنز يدور مع الرياح • ومن هنا أطلق عليه اسم خيرالديو (Giraldillo) أو دوار الهواء ، وتحول هذا الاسم الى خير الدا (Giralda) ، وأصبح يطلق منذ أوائل القرن الثامن عشر على البرج بأكمله •

ويزين كل جدار من جدران المئذنة شبكتان من المعينات البارزة

تختلف في كل وجه من وجوها ، وتحتل المنطقة الوسطى بين الشبكتين
أقواس متجاوزة ومفصصة في غاية الروعة والجمال •

المسجد الأعظم بقصر الحمراء

لم يتبق من هذا المسجد الجامع سوى أسس جدرانه ، ويقع الى
جنوب بهو السباع من قصر الحمراء • ويذكر ابن الخطيب « أن من أعظم
مناقب السلطان محمد بن محمد بن محمد بن يوسف بن نصر (٧٠١ —
٧٠٨ هـ) ابتناء المسجد الأعظم بالحمراء من غرناطة ، على ما هو عليه من
النُزف والتنجيد والترقيش ، من فخامة الحكم واحكام أنوار الفضة
وابداع ثرياتها » • والى هذا المسجد تنسب ثريا برنزية محفوظة اليوم
في متحف الآثار الأهلئ بمديرد •

وقد بنى هذا الجامع من الآجر ، وكان طوله ١٦ مترا وعرضه
١٣ر٣٠ مترا • وكان محراب الجامع مئنا في تخطيطه ، ويبلغ اتساعه
نحو ١٨٠ متر • وكان بيت الصلاة فيه يشتمل على ثلاثة أروقة طويلة ،
تقطعها ثلاثة أروقة عرضية ، وتستند أقواسه على ثمانية أعمدة ارتفاع
الواحد منها ١٨٦ متر • وقد عثر الحفائر التى أجريت بأرض هذا المسجد
على قطع من الأعمدة وتيجانها وقواعدها • وكانت المئذنة تقوم فى الركن
الغربى من المسجد •

ويذكر العالم الأثرى توريس بلباس أن هذا الجامع يشبه الى حد
كبير مسجد سيدى بل حسن بتلمسان ، الذى أقامه السلطان أبو سعيد
عثمان سنة ١٢٩٦ • وقد ذكر ابن خلدون أن أبا الوليد اسماعيل ، سلطان
غرناطة ، ٧١٣ — ٧٢٥ هـ (١٣١٤ — ١٣٢٥) ، أرسل الى السلطان ابن
تاشفين الأول (١٣١٨ — ١٣٣٧) من أسرة بنى عبد الواد بالجزائر ،
مهندسين غرناطين بارعين أقاموا له القصور والمساجد فى المنصورة
والعباد • وهذا يفسر التشابه العجيب بين جامع غرناطة ومسجد سيدى

بل حسن •

ولما استولى الملك الكاثوليكيان على غرناطة ، في ٢ يناير سنة ١٤٩٢ نحول المسجد الى كنيسة ، ثم تهدم سنة ١٥٧٦ • وقد أجرى السنيور موديسنتو ثندويا ، سنة ١٩٣٣ ، في أرضه أولى حفائره الأثرية •

مسجد المدجنين بطليطلة

اغتنب ألفونسو السادس ملك قشتالة مدينة طليطلة ، من القادر ابن ذى النون ، سنة ٤٧٨ هـ (١٠٨٥ م) مقابل مظاهرة ألفونسو له على أهل بلنسية • وكان المسلمون يمارسون بادیء ذى بدء شعائر دينهم في أحد مساجد طليطلة التي خصصت لهم •

على أنهم ، منذ أن انتزع منهم المسيحيون مسجدهم الجامع سنة ١١٥٩ ، استبدلوا به مسجدا آخر حاولوا اخفائه اتقاء نعمة بعض المتعصبين في بلاط ألفونسو الثامن من الفرنج (الفرنسيين) الذين كانوا يتربصون بهم السوء • ولعل هذه التقية يمكن أن توضح لنا الوضع الشاذ الذى اتخذته « مسجد المسلمين » • وهو مسجد ورد ذكره في ثلاث وثائق ، نشرها المستشرق الأسباني آنخل جنثالث بلنسية فيها ذكر اسم « مسجد المسلمين الواقع في ربض الافرنج بمدينة طليطلة ، حرسها الله » • وربض الافرنج المذكور كان حيا تجاريا ، يقع بجوار الكاتدرائية ، خاصا بسكنى الفرنسيين •

وكان هذا المسجد يقوم في طابق علوى بعيدا عن أنظار الفرنسيين وتخطيط البناء من أسفل يكشف في خفاء شديد عما فوقه • ويسمى هذا المسجد اليوم بدار الدباغين (Casa de las Tornerias) • ولسنا نعرف الغرض من هذا الطابق الأدنى ، ويغلب على الظن أنه كان يتخذ بيتا • أما الطابق العلوى فيحتفظ بنظام المسجد اذ ينقسم — شأنه في ذلك شأن مسجد الباب المردوم — الى اثني عشر قوسا متجاوزة تقوم على أربعة

العمارة الدينية بالأندلس

أعمدة وسطى ، بحيث تنقسمه الى تسعة أساطين مربعة ، تعلو الأسطوان الأوسط منها قبوة من الضلوع ، قوامها أربعة أقواس نصف دائرية متقاطعة فيما بينها : اثنان رأسيا واثنان أفقيا • ويشغل كل مربع من المربعات التسعة الناشئة من هذا التقاطع ، قبيبات صغيرة يتقاطع فيها قوسان صغيران في شكل صليبي • وهو تطور غريب لقبوات مسجد الباب المردوم : فبدلا من وجود تسع قبات يعلو كل منها أسطوانا من أساطين المسجد ، اجتمعت القباب التسع في قبوة واحدة تغطي الأسطوان الأوسط من مسجد المدجنين ، في حين غطيت الأساطين الأخرى بقبوات نصف اسطوانية ذات أربعة مقاطع رأسية •

وقد أصبح مظهر هذا المسجد اليوم يثير الأسى ، فقد أهمل منذ «جره أصحابه ، وجعل بعد ذلك مستودعا للخرائب والأنقاض ، وأدجج أحد أساطينه في منزل مجاور له ، وصار اليوم مخزنا لبراميل الخمر • ومع ذلك فلهذا المسجد أهمية كبرى باعتباره المثل الوحيد في الأندلس لمساجد المدجنين في عصر الاضطهاد • ثم أن قبوته تمثل مرحلة جديدة من الفكرة المعمارية البحتة التي رأيناها في جامع قرطبة ، الى الفكرة الهندسية انزخرفية التي تتجلى في قبوات مسجد الباب المردوم •

٢ — الكنائس :

تمتع المسيحيون الذين أقاموا في ديار الاسلام بالأندلس منذ الفتح ، وتأثروا بالثقافة العربية ، وتعربوا تعريبا أنسا هم لغتهم ••• تمتع هؤلاء المسيحيون — ويعرفون بالمستعربين — طوال العهد الاسلامي بحرية العقيدة والتسامح التام • وقد أبقت لهم الحكومة الاسلامية بالأندلس كنائسهم وأديرتهم ، بل منحتهم الحق في بناء كنائس جديدة • وكان المستعمرون يعيشون في أحياء خاصة بهم ، وكان رئيسهم يعرف بالقومس ، وقاضيهم يسمى بقاضى النصارى •

وقد اهتم المستعربون بدراسة التراث العربى من شعر وأدب وفلسفة ، وشارك عدد كبير منهم فى الحياة السياسية والأدبية بالبلاد . وكان لهم الفضل الأول فى انتشار الحضارة الاسلامية فى اسبانيا المسيحية بحكم اجادتهم للغة العربية واللغة اللاتينية الحديثة .

وقد كان للنصارى كنائسهم فى أحيائهم الخاصة بهم بقرطبة وسرقسطة وطليطلة واشبيلية . وكانوا يقرعون نواقيسهم رغم ما كان يسببه هذا من ازعاج المسلمين واثارة بعض المتعصبين منهم عليهم . وفى قرع النواقيس دلالة واضحة على تسامح المسلمين وتركهم النصارى يبهج سمعه ، وبرق الحميا يسرح لمعه . والقش قد برز فى عبدة المسيح ، ذكر لقرع النواقيس منها :

أثيتنى وهلال الجو مطلع
قبيل قرع النصارى للنواقيس

ووصف الشاعر أبو عامر بن شهيد احدى الكنائس فقال : « وقد فرشت بأضغاث آس ، وعرشت بسرور واستيناس . . . وقرع النواقيس يبهج سمعه ، وبرق الحميا يسرح لمعه . والقش قد يبرز فى عبدة المسيح ، متوشحا بالزنائير أبدع توشيح » .

وظل النصارى فى الأندلس يتمتعون بحريتهم الدينية ، حتى حد المرابطون منها ، وأخذوا يضطهدونهم . فقد طالب ابن عبدون ، فى كتابه عن آداب الحسبة ، أن يمنع قرع النواقيس من الكنائس ، وأن يرتدى المسيحيون واليهود ثيابا معينة ، وألا يركب أحد منهم جوادا ، ألا يشتري مسلم رداء ارتداه مسيحى أو يهودى .

ويغلب على الظن أن هذا الاضطهاد بدأ عقب توسع الاسترداد المسيحى فى قلب اسبانيا الاسلامية ، واتهام المسلمين لهؤلاء المستعربين بالتجسس عليهم لمصلحة الدول المسيحية فى شمال اسبانيا . . . وخاصة

العمارة الدينية بالأندلس

بعُد حملة ألفونسو المحارب ، سنة ١١٣٥ ، التي اجتاحت فيها بلاد الاسلام حتى أدرك قرطبة واشبيلية • وازداد اضطهاد الموحدين لهم ، فنفوهم الى بلاد المغرب حتى يكونوا بعيدين عن مؤازرة الممالك المسيحية في الشمال ، واستطاع عدد كبير من المستعربين التسلسل من الأندلس الى هذه الممالك الشمالية •

ويهمنا الآن دراسة الكنائس المستعربة في العصر الاسلامي • وهي كنائس بناها مهندسون من النصارى وفقا للأسلوب السائد في اسبانيا الاسلامية • غير أن ما تبقى من هذه الكنائس قليل جدا بالنسبة للكنائس المستعربة التي بنيت في ممالك قشتالة وناغارة وليون • وقد بقيت في الأندلس بقايا كنيسة « ببشتر » التي أقامها عمر بن حفصون (١) بين عامي ٨٩٨ — ٩١٧ م ، بعد اعتناقه المسيحية ، وكنيسة سانتا ماريادى ماي بطليطلة التي أقيمت في منتصف القرن التاسع وطليعه القرن العاشر • وتتميز هاتان الكنيستان بالعقد المتجاوز الذي ظهر وساد استعماله في العمارة الاسلامية بالأندلس •

وهناك نوع آخر من الكنائس التي أقامها العرفاء المسلمون الخاضعون للحكم المسيحي ، ويعرف باسم الكنائس المدجنة ••• اذ أن

(١) ثار عمر بن حفصون على الأمير محمد والأمير عبد الله ، واستقل ببشتر وأخذ يناوئ منها سلطان قرطبة • وقد استطاع الخليفة عبد الرحمن الناصر سنة ٣١٥ هـ أن يستولى على مدينة أنجش من طاعة حفص بن عمر بن حفصون ونازله ببشتر ، وأبتنى بجوارها حصن طليجة • فأذعن حفص الى السلم ، وتم ذلك سنة ٣١٦ هـ ، ودخل الناصر مدينة ببشتر ، وصلى في مسجد المهجور • وأقيمت الدعوة للناصر بجامع ببشتر وعمرت المساجد المخربة وهدمت الكنائس المعمورة • وقد كان حسن عمارة هذه الكنائس وتخريب المساجد بها واستيلاء الدثور عليها من اعظم الأدلة على ردة عمر بن حفصون •

ملوك اسبانيا المسيحية وجدوا من بين المدجنين كثيرا من أصحاب المهن الفنية والصناعات ، كالنجارين والفخارين والبنائين ، فاستخدموهم في بناء كنائسهم ، فازدهر الطراز المدجن في الكنائس . ولا شك أن الفضل في ازدهاره يرجع الى تفوق المدجنين المسلمين في الناحية الفنية ، والى مقدرتهم في البناء بالأجر ، بدلا من الحجر الذي كان يندر وجوده . وكان الطراز المدجن لا يختلف عن الطراز الاسلامي ، حتى أنه ليصعب على الفاحص التمييز بينهما .

وقد انتشر هذا الأسلوب المدجن في طليطلة ، لأنها كانت أولى المدن الاسلامية التي سقطت في أيدي المسيحيين . ونستطيع أن نشاهد في كنيسة سان سباستيان (القرن ١٤ م) ، وسان رومان بطليطلة (قرن ١٣ م) ، عقودا على شكل حدوة الفرس تحيط بها طرز أو ترايع على النحو الشائع في العمارة الاسلامية . وتحفظ كنيسة سانتياجو دل آراباك التي أسسها ألفونسو السادس بعد استرداد طليطلة ، بكثير من العناصر المعمارية الاسلامية . وقد أعيد بناء هذه الكنيسة على صورتها الحاضرة في القرن الثالث عشر . وجميع الزخارف التي تكسو جدران هذه الكنيسة من الخارج وثيقة الصلة بالعمارة الاسلامية ، وبرجها لا نكاد نفرقه عن المآذن إذا استثنينا منه طابق النوافيس . وأجمل الأبراج المدجنة بطليطلة أبراج كنائس : سان رومان ، وسانتا ليوكاديا ، وسان ميغل الألتو .

ومن أمثلة الأبراج المدجنة التي كان يرجع أنها مآذن : برج كنيسة أمنيوم سانكتورم Omium Sanetorum باشبيلية ، وبرج كنيسة سانتا كاتالينا ، وبرج كنيسة ماركوس بالمدينة نفسها ، وذلك لتقارب زخارفها من زخارف مئذنة المسجد الجامع باشبيلية (الخيرالدا) التي أصبحت مثلا اتخذته الأبراج المدجنة ، وانتقل منها الى سائر مدن الأندلس .

٣ — البيعة اليهودية (الكنيس) :

كان اليهود يثنون من اضطهاد القوط الغربيين لهم ، ومن القيود التي فرضتها عليهم مجامع طليطلة • ولذلك أيدوا العرب ، وآزروهم عند الفتح الاسلامي للاندلس • ووكّل اليهم الفاتحون أمر حراسة المدن المفتوحة ، وعينوهم في المناصب الرفيعة ، ومنحوهم كثيرا من الامتيازات • • فتمتعوا بتسامح المسلمين وعطفهم عليهم •

وعظم شأن الطوائف اليهودية في بعض المدن الأندلسية ، مثل طليطلة وقرطبة وغرناطة — التي كانت تعرف بأغرناطة اليهود — واشتهر منهم كثيرون في الطب والكيمياء ، وأمثال : حسداى بن شفروط (٩١٠ — ٩١٨ م) — وكان طبيبا وفلكيا ، واتخذ الخليفة عبد الرحمن الناصر طبيبا له ومستشارا — والياس بن المدور اليهودى بمدينة رندة •

وحظى منهم يوسف ابن النغرلى الاسرائيلى (٩٨٢ — ١٠٥٥) بالوزارة في بلاط ملك غرناطة ، باديس بن حبوس بن ماكسن الصنهاجى ، وكانت بيده أموال الملك •

وقال عنه ابن يسام :

« أنه تقلد أزمة الأعمال ، ووطىء عقبه جماهير الرجال • • • حتى كان يغسل يده من القبل ، ويتمدح بالطعن على الملل • ألف كتابا في الرد على الفقيه أبى محمد بن خزم ، وجأهر بالكلام في الطعن على ملة الاسلام • • • فما دفع عن ذلك بتأنيب ، ولا استطيع تغييره عليه الا بالقلوب » •

وبلغ ابن النغرلى منزلة عالية حتى تسمى بالناغير ، أى المدير بالعبرية ، وقد أنشد أبو اسحق الأليبرى الشاعر قصيدة خاطب فيها باديس وحرصه على اليهود ، منها :

ألا قل لمنهاجة أجمعين
 بدور الزمان وأسد العرين
 مقالة ذى مقة مشفق
 يعد النصيحة زلفى ودين
 لقد زل سيدكم زلة
 تقر بها أعين الشامتين
 تخير كاتبه كافرا
 ولو شاء كان من المؤمنين
 فعز اليهود به وانتخوا
 وتاهوا وكانوا من الأرذلين

كذلك نال الوزير الكاتب أبو الفضل بن حسداى منزلة كبيرة فى بلاط
 المقتدر بن هود ملك سرقسطة * وكان الكاتب أبو بكر بن سدرائ اليهودى
 وزيرا فى بلاط أبى مروان بن رزين ملك السهلة *

ونبغ من اليهود شعراء كثيرون ، منهم : ابراهيم بن سهل
 الاسرائيلى ، الذى كان من أعظم شعراء اشبيلية وشاحيها فى عهد
 الموحدين ، وكان يتظاهر بالاسلام * و ابراهيم بن الفخار اليهودى ، وكان
 عارفا بالمنطق والشعر ، واشتغل فى بلاط ألفونسو السادس * واشتهر
 بسام بن شمعون الوشتقى بالغناء والموسيقى فى عهد الموحدين * وكان
 بالاندلس من شاعرات اليهود : قسمونة بنت اسماعيل اليهودى * وكان
 منهم الفلاسفة والعلماء : أمثال ابراهيم بن عزرا التطيلى (١٠٩٣ —
 ١١٦٧) ، وابن جبرول المالقى (١٠٢١ — ١٠٥٢) ، وموسى بن ميمون
 (١١٣٥ — ١٢٤٠) أعظم فلاسفة اليهود *

وظل اليهود متمتعين طوال العهد الاسلامى بتسامح المسلمين ***
 حتى كانت أيام الموحدين ، فطردوهم من الأندلس لمالأتهم للنصارى
 الشماليين * وهاجر عدد كبير منهم الى بلاط ملوك اسبانيا المسيحية

العمارة الدينية بالاندلس

وصانعوهم • ومع ذلك فقد كان لليهود بيع أقاموها في اسبانيا
الاسلامية منها كنيس قرطبة الواقع في شارع بنى ميمون • وقد أقامه
اليهود سنة ١٣١٤ على أنقاض كنيسهم القديم ، وأصيب هذا الكنيس
بأضرار جسيمة منذ طرد اليهود نهائيا من اسبانيا سنة ١٥٤٢ الى أن صار
أثرا قوميا في ٢٤ يناير سنة ١٨٨٥ • وجدران هذا الكنيس مكسوة جميعا
بالتوريقات الاسلامية المحفورة في الجص •

وما زالت طليطلة تحتفظ حتى اليوم بكنيسين : أحدهما يسمى سانتا
ماريا لابلانكا ، والثاني الترانسييتو • ويعد كنيس سانتا ماريا لابلانكا
أحدى روائع الفن المدجن • ويغلب على الظن أنه بنى في القرن الثالث
عشر • ويشتمل على خمسة أروقة تفصلها فيما بينها أربعة صفوف من
البوائك ذات الأقواس المتجاوزة على شكل حدوة الفرس • وتقوم هذه
الأقواس على عمد مئمنة الشكل • أما كنيس لترانسييتو فيعد من أبدع
العمائر المدجنة حقا • بناء صمويل بن ميرها ليفى ، خازن أموال بدرو
الأول ، في سنة ١٣٥٧ على نفقته الخاصة • وتكسورأس الكنيس من
الداخل زخرفة تتسبه زخارف قصر الحمراء بغرناطة والقصر باشبيلية •

ثالثا - العمارة المدنية بالأندلس

يستجيب النظام المعماري للدار الأندلسية ومظهرها الداخلي والخارجي عادة، إلى عدة عوامل جغرافية : كدرجة حرارة المكان ، والموقع الذي تقوم عليه الدار . ولقد افتتح المسلمون في الأندلس مدنا مزدهرة العمران وشاهدوا أبنية تختلف عما شاهدوه في المشرق بهرتهم عمارتها وكان لابد لهم أن يعيشوا في دورها حتى تنهيا لهم الوسائل لبناء دور خاصة بهم .

ولم يكد يمضى على فتح الأندلس نصف قرن حتى شهدت حركة معمارية ضخمة ، في عهد الأمير عبد الرحمن وبنيه من بعده : ونخص بالذكر منهم عبد الرحمن بن الحكم ، وعبد الرحمن الناصر ، والحكم المستنصر . فأقيمت في عهدهم أبنية تخضع لنظام الدور السابقة على الفتح الإسلامي . ثم تطور هذا النظام بالتدريج بطبيعة الحال ، متأثرا في تطوره بنظام المسجد الذي يعد أساسا لكل الأبنية الإسلامية . ولم تتخذ الدار في الأندلس طابعا أندلسيا خاصا الا منذ عهد ملوك الطوائف . وبمرور الزمن أدرك نظام الدار الأندلسية ذروة اتقانه في عهد الموحدين وعصر دولة بني نصر .

ولقد وصف ابن سعيد المغربي دور الأندلس بأنها « في غاية الجمال لمبالغة أهلها في أوضاعها وتبلييضها لثلاثين العيون منها » . وأضاف : « اننى تعجبت ، لما دخلت الديار المصرية ، من أوضاع قرأها التى تكدر العين بسوادها ، ويضيق الصدر بضيق أوضاعها » . كذلك أثنى الشقندى ، في رسالته عن فضائل الأندلس ، على المبانى الأندلسية فقال : « أما مبانيها فقد سمعت عن اتقانه واهتمام أصحابها بها ، وكون أكثر ديارها لا تخلو من الماء الجارى والأشجار المتكاثفة ، كالنارنج والليم والليمون والزنبوع وغير ذلك » .

العمارة المدنية بالاندلس

وكان البيت الأندلسي يتألف من جزئين أساسيين : الواجهة الخارجية ، وداخل البيت •

الواجهة الخارجية : كان المظهر الخارجى للدار عادة متواضعا ، عاطلا من الزخرفة ، يتناقض مع مظهره الداخلى الزاخر بالزخارف والتنميقات • ذلك أن أهل الأندلس كانوا يبنون دورهم لأنفسهم كي يتمتعوا بالحياة داخلها • ثم أن المرأة الأندلسية كانت تؤثر دائما البقاء داخل بيتها فلا تخرج الا نادرا ، فحياتها وثيقة الصلة بداخل الدار • ومن هنا كان من الضروري تزيين داخلها بالزخارف الرائعة ، حتى تعوض للمرأة ما كانت تفقده من بقائها رهينة دارها •

وكان مدخل الباب فى دور الأثرياء يفضى الى أسطوان أو ردهة ، وتؤدي الردهة الى البهو أما المدخل فى الدور العادية ، فكان يتصل بممر منكسر على شكل زاوية قائمة ، حتى لا يتاح للمارة فى الطريق رؤية من بداخل الدار وما يجري فيها •

وظهر فى دور بنى نصر ، التى ترجع الى أواخر القرن الثالث عشر ، طابع جديد لواجهة المدخل غنية بالزخرفة ، اذ يعلو المدخل فى العادة عتب ثم يعلو العتب نافذة مزدوجة ، ويكتنف المدخل من كل من جانبيه عمود ملتصق بالجدار يعلوه مسند (كابولى) ، نصفه الأدنى من الجص ، والأعلى من الخشب المنقوش • ويستقبل هذا النصف العلوى من المسند أحد طرفى ظللة بارزة من الخشب ، وظيفتها حماية الزخارف الجصية الملونة والزليج الذى يكسو ازار واجهة المدخل •

وكانت الواجهة الخارجية للدار تزود فى بعض الأحيان بشراجيب أو شماسات ، أى نوافذ بارزة تشبه الشرفات ، تعلو فتحة الباب • وتغطى هذه النوافذ شبكات من الخشب تتيح للمرأة رؤية المارة دون أن يراها أحد من الخارج • وكانت هذه الشراجيب البارزة عن الجدران تساهم فى

تضييق الحارات وزيادة حلكتها ، ولكنها في الوقت نفسه كانت تخفف من حرارة شمس الأندلس ، وتمنح النساء المحجبات فرصة التمتع بما يجري خارج الدار دون أن يراهن أحد من السابلة .

وقد عرفت مصر هذا النوع من النوافذ تحت اسم مشربية ، وهو تحريف ظاهر من كلمة مشرفية ، أى التى تشرف منها النساء . وما زالت ذكرى الشراحيب ماثلة فى شرفات الدور الأندلسية فى الوقت الحاضر ، وعلى الأخص فى مدن رندة واشبيلية والسهلة .

وبالإضافة الى الشراحيب كان يطل على الشوارع — بطول الواجهة — حجرة كبيرة بارزة تحملها مساند تسمى الغرفة البرانية ، وبالاسبانية (Algorfa albaranna) . ويغلب على الظن أن انتشارها كان بسبب رغبة الأهالى فى استغلال الأرض التى تبني عليها الدار أقصى حدود الاستغلال ، الا أن هذه الغرف كانت تجعل من الشوارع الأندلسية ممرات مسقوفة تحجب الضوء وتخفف حرارة الجو .

داخل البيت : كان يتوسط الدار الأندلسية بهو مربع يمدده بالهواء والضوء . ويصفه المؤرخ الاشبيلي ألونسو موراڊو (الذى عاش فى القرن السادس عشر) فى بعض بيوت اشبيلية فيقول : « وللبهاء التى لا تخلو منها دار ، أرضية من الآجر المحكوك ، ويكسوها الأغنياء بالزليج ، ويحيطونها بأعمدة الرخام ، وكانوا يعنون كل العناية بتنظيفها . وكثيرا ما تغطى هذه الأبهاء بظلات من النسيج فى الأوقات التى تشتد فيها درجة الحرارة ، فيلطف الزليج والرخام من حرارة المكان . وأكثر من هذا وذاك كانوا ينصبون نافورة مياه فى وسط الأبهاء ، ويغرسونها بأكارم الأشجار . أما البيوت التى يتعذر على أصحابها عمل ذلك ، فقد كانوا يستغنون عن ذلك بآبار مياه » .

والواقع أن هذا الوصف — رغم تأخره فى التاريخ — يعبر عما

العمارة المدنية بالأندلس

كانت عليه أبهاء الدور الأندلسية في العصر الاسلامي ، حيث كان لكل دار بهو تتوسطه نافورة ينطلق منها الماء فيرطب المكان ، وتهذا لرؤيته النفوس أو تتوسطه بئر تحيط بها اشجار وأزهار ، كما كان الحال في المدن التي تخلو من قنوات المياه ، مثل مالقة وطيطة واشبيلية ، في عصر بنى عباد والمرابطين •

وكانت بالأحياء التجارية في الأندلس دور صغيرة تتألف من طابق واحد ، وأحيانا من غرفة واحدة تعلو أحد الحوانيت التجارية • وكان يصعد الى هذه الغرف العليا من طريق فتحة بجوار باب الحانوت ، يخرج منها درج يصل بين الحانوت والغرفة • وكانت هذه الغرفة تستقبل الضوء من منافذ صغيرة تشبه منافذ السهام التي ترى في أسوار المدن والقلاع • وكانت هذه الغرف تسمى بالمصارى (مفردتها مصرية) ، وما زالت اللغة الاسبانية تحتفظ بهذا الاسم العربي (Almaceria)

وتذكر الوثائق الاسبانية التي تبعت سقوط المدن الاسلامية — بمناسبة توزيع الدور الأندلسية على الفاتحين الاسبان — أن كثيرا من هذه الدور كانت تشتمل على اصطبلات ومطابخ ملحقة بفناء الدار •

ولدينا من الدور الاسلامية أمثلة مادية بقيت في بعض المدن ، ومن هذه الأمثلة دار اسلامية بمدينة غرناطة ، من القرن الخامس عشر ، حفظت حتى أواخر القرن الماضي ثم هدمت • وكانت تتألف من بهو مربع : طول كل جانب منه خمسة أمتار ، وتدور الغرف حول هذا البهو • وبكل من الجانبين الشمالي والجنوبي ممر يطل على البهو بثلاثة عقود أو أقواس قائمة على أعمدة • كما حفظت الزخارف التي تكسو الجدارين الشمالي والجنوبي اللذين يطلان على الممرين السابق ذكرهما • • • هذه الزخارف جصية هندسية ونباتية بينها عبارات « لا غالب الا الله » ، « لا اله الا الله » وكلها محفورة في الجص •

وكان باب الدار ينفذ في الجدار الشمالى المطل على الفناء ، تعلوه ثلاث نوافذ أقواسها نصف دائرية • وتكسو هذه النوافذ شبكات جصية من الزخرفة الهندسية • وتشغل الفراغ بين هذه النوافذ توريقات غاية في الروعة والجمال ، ويحيط بالنوافذ اطار مستطيل به افريز كتابى تتكرر فيه عبارتتا « العزة لله » و « البقاء لله » •

وعثر في المرية على أساس لدار تقع على الطريق المعروف بشانكا • وقد زينت جدرانها بزخارف من أشرطة ملونة متقاطعة في أشكال هندسية رائعة • وترجع هذه الدار الى القرن الرابع عشر •

ووصف لنا « جيبين روبلز » في كتابه « مالقة الاسلامية » دارا يرجع تاريخها الى عصر بنى نصر • وذكر روبلز أنها مستطيلة الشكل تتألف من طابقين : أحدهما سفلى ، والآخر علوى ، ويفتح مدخل الدار في واجهته • ويتوسط الدار بهو مكشوف تحيط به أروقة مسقوفة تطل على البهو ببوائك من ثلاثة عقود أو أقواس قائمة على أعمدة ، وتتوزع الحجرات على هذه الأروقة •

وفتحة الباب على شكل عقد متجاوز لنصف الدائرة تحيط به تربيعة من الآجر ، وتملأ ببنيات العقد زخارف من سيقان نباتية ملفوفة • وكان يسقف الحجرات لوحات خشبية تتخذ شكل هرم ناقص •

القصر

لما افتتح المسلمون الأندلس أقام رؤساؤهم في القصور الكبرى بالمدن المفتوحة • وتروى أخبار الفتوح الاسلامى أن مغيث الرومى — القائد الذى افتتح مدينة قرطبة — أقام في قصر أمير قرطبة القوطى ، وهو القصر المعروف ببلاط قرطبة • غير أن موسى بن نصير رأى أن هذا البلاط أنسب لأن يكون مقراً لوالى قرطبة ، فمنح مغيثاً داراً تشرف على

العمارة المدنية بالآندلس

باب الجزيرة ، أو باب القنطرة المقابل للثلاثة التي دخل منها مغيب عند فتحه لقرطبة • وكانت « دارا شريفة ذات سقى وزيتون وثمار ، يقال لها اليمانية ، كانت للملك الذي أسره ، وكان له فيها بلاط منيف شريف ، فهي تسمى بالآندلس بلاط مغيب » •

وكان لكل مدينة مفتوحة قصبة بداخلها قصر يحكم منه الأمير رعيته • وقد استولى المسلمون على هذه القصاب ، مثل لاقصبة غرناطة ، وقصبة أريولة حاضرة كورة تدمير ، وقصبة باجة •

ولم يشرع المسلمون في بناء قصورهم الا في عهد بنى أمية ، وهو العصر الذي نبتت فيه الفنون الاسلامية الأندلسية • فاما كاد عبد الرحمن ابن معاوية يستولى على الامارة بالآندلس حتى رأى أن يحيط نفسه بهالة من فخامة الملوك وأبهة الخلفاء ، فقامت حركة معمارية قوية بالبلاد (١) ، ونشطت هذه الحركة في عصر الخليفة عبد الرحمن الناصر ، الذي نالت الأندلس على يديه من المجد الرفيع والازدهار ما نالت ، حتى بلغت مستوى من الرخاء والثراء لم تبلغه الأمم الأخرى • كذلك اشتدت حركة البناء في عهد ابنه الحكم المستنصر ، والمنصور بن أبى عامر •

ويعد عصر ملوك الطوائف ، الذي تتبع عصر الخلافة الأموية ، أزهى عصور العمارة المدنية على الإطلاق ، إذ حرص هؤلاء الملوك على الانغماس في حياة الترف ، فبلغوا في الرقة الغاية ، وأقاموا القصور الشاهقة والآثار الجليلة الرائعة • وقد بالغ المؤرخون العزب في وصفها • ومن أهمها : قصر الناعورة بطليطلة ، وقصر الجعفرية بسرقسطة ، وقصر القصبة بمالقة ، وقصر الصمادحية بالمرية ، وقصر الشراحيب بشلب •

(١) من بين القصور التي اقيمت ، في عهد امراء بنى أمية ، قصر أبى دانس بالبرتغال ، وقصر عمروس بطليطلة •

وكنا نجهل ما كانت عليه عمارة القصور الأندلسية في عصر المرابطين حتى أمكن الكشف عن بقايا قصير منتقوت في سهل مرسية ، فزودتنا بمعلومات وافية عن نظام هذه القصور •

أما عصر الموحدين فكان من أزهى العصور في البناء والتشييد ، فقد أقاموا القصور في غرناطة وقرطبة ومالقة واشبيلية • ونوهت كتب التاريخ بما بذله أبو يوسف يعقوب من بنائه قصر البحيرة خارج باب جهور ، من أبواب اشبيلية ، ومدده له بالمياه من قلعة جابر (قلعة وادي أيرة) ، ومن تشييده للقصر الموحدى بقصبة اشبيلية • وكذلك كثر بناء القصور في عصر بنى نصر بغرناطة • وليس أدل على ذلك من ذكر قصر الحمراء ، وقصر البرطل ، وقصر جنة العريف •

قصور قرطبة في عهد بنى أمية

كان الخلفاء من بنى أمية وأمراؤهم يشيدون قصور الحكم بجوار المساجد الجامعة ، وكانوا يطلقون عليها اسم « دور الامارة » • على أنهم كانوا يلتمسون الراحة في بعض الأحيان ، فيعمدون الى بناء قصور للراحة واللهو بعيدا عن الحاضرة ، ليتمكنوا من الاستغراق في الترف ، والاستئمام الى حياة اللهو والنعيم التي لا تتاح لهم في مقر الحكم بالحاضرة •

وكانت هذه القصور تتخذ مظهرا عمرانيا شديدا يشبه بالمدن الصغيرة • فقد كانت تتألف من قصور الأمير وأفراد حاشيته وخاصته ، ومن متنزعات ومحال للوحوش فسيحة ، ومسارح للطيور مظلة بالشباك ، واسواق وحمامات وفنادق ، ودور للصناعة ومساجد • غير أن حياة هذه المدن الملكية كانت موقوتة ، فما أسرع ما كانت تنتهب وتسلب على أثر سقوط الأسرة الحاكمة ، كما حدث في مدينة الزهراء ومدينة الزاهرة ومدينة العامرية • ويغلب على الظن في أسباب تخريب هذه القصور أن

العمارة المدنية بالأندلس

الاسلام يستهجن اصفاء معنى الأزلية على البناء ••••• فالدوام لله فقط •
وبناء قصور لها صفة الخلود ، أمر خارج عن الدين ، ويشف عن تحد
للأوهية •

(١) قصر الامارة : قال عنه ابن بشكوال : « هو قصر أولى تداولته
ملوك الأمم ••• وفيه من المباني الأولية والآثار العجيبة — لليونانيين ،
ثم للروم والقوط والأمم السابقة — ما يعجز الوصف • ثم ابتدع الخلفاء
من بنى مروان — منذ فتح الله عليهم الأندلس بما فيها — في قصرها
البدائع الحسان • وآثروا فيه الآثار العجيبة والرياض الأنيقة • وأجروا
فيه المياه العذبة المجلوبة من جبال قرطبة على المسافات البعيدة • وتمنوا
المؤن الجسيمة حتى أوصلوها الى القصر الكريم ، وأجروها في كل ساحة
من ساحاته وناحية من نواحيه في قنوات الرصاص ، تؤذيها منها الى
المسانع (الأبنية المختلفة) صور مختلفة الأشكال : من الذهب الابريز ،
والفضة الخالصة ، والنحاس المموه ••• الى البحيرات الهائلة ، والبرك
البديعة ، والصحاريج الغربية ، في أحواض الرخام الرومية المنقوشة
العجيبة » •

وأضاف ابن بشكوال قائلاً : « وفي هذا القصر القصاب العالية
السمو ، المنيفة العلو ، التي لم ير الرءون مثلها في مشارق الأرض
ومغاربها » • وذكر أن من أبنية قصر قرطبة المشهورة : قصر الكامل ،
والمجدد والحائر والروضة والزاهر والمعشوق والمبارك والرشيقي وقصر
السرور والتاج والبديع • من أبوابه : باب السطح المشرف ، وباب جنوبي
اسمه باب الجنان يشرف على الرصيف الأعظم وباب السوادي ، وباب
شمالي يعرف بباب قورية ، وباب آخر — يعرف بباب الجامع — كان
يؤدى الى ساباط الجامع ، ومنه كان يدخل الأمراء يوم الجمعة •

ولقد أضيف الى هذا القصر ، في العصر الاسلامي ، اضافات
متتالية • ولما استولى فرناندو الثالث على قرطبة سنة ١٢٣٦ ، أعطى هذا

القصر الى أسقف قرطبة ، فسمى منذ ذلك الحين بالقصر الأسقفى (Palacio Episcopa) وأصيب هذا القصر بأضرار جسيمة على مر العصور اذ أحرق عدة مرات . ثم حوله الأسقف دون سانشو دى روخاس ، فى القرن الخامس عشر ، الى قصر من الطراز القوطى . ثم هدمت الواجهة الجنوبية فى السنوات الأولى من القرن السابع عشر ، وأحرق القصر سنة ١٧٤٥ ، ولم يتبقى منه اليوم سوى الجدار المقابل لجدار الجامع وجزء من الجدار الشمالى للقصر ، فما زال يحتفظان بنظام جدران جامع قرطبة نفسه ، بما فى ذلك الركائز التى تدعم الجدران وتدفع عنها الضغط .

(ب) قصور الراحة واللهو : أقام عبد الرحمن الداخل – فى أول أيام امارته عام ١٣٨ هـ – قصر الرصافة على بعد كليو مترين شمال غربى قرطبة ، وسماه باسم رصافة جده هشام بدمشق ، وجعله خاصا لنزهه وسكنه أكثر أوقاته . وأحاط هذا القصر بالجنان الواسعة : غرسها بأكارم الشجر ، وأودعها ما كان يستجلبه له يزييد وسفر رسوله الى الشام ، من النوى المختارة والحبوب الغربية ، حتى نمت هذه الأشجار بحسن التربية والتعهد ، فى زمن قصير ، وأصبحت أشجارا معتمدة أثمرت أجود أنواع الفواكه وأطيبها . وانتشرت هذه الثمار فى أرض الأندلس ، فاعترف بفضلها على أنواعها . وأصل الرمان السفرى ، الذى فاض على أرجاء الأندلس ، وأصبح الناس لا يفضلون عليه سواه . . . من هذه الرصافة . وسمى بالرمان السفرى نسبة الى سفر رسوله الى الشام لاحتضار أخته .

ومن بين الزراعات التى أدخلت فى الأندلس ، زراعة النخيل ، وكان عبد الرحمن الداخل أول من غرس نواة النخل فى الرصافة ، فكبرت فى عهده ، ونظير اليها يوما فهاجت الذكريات فى نفسه ، وتذكر بها وطنه فقال:

تبسدت لنا بين الرصافة نخلة
تتاعث بأرض الغرب عن بلد النخل

العمارة المدنية بالاندلس

فقلت : شبيهى فى التغرب والنوى
وطول ابتمعادى عن بنى وعن أهلى
نشأت بأرض أنت فيها غريبة
فمثلك فى الاقصاء والمنتأى مثلى !

وأصبحت منية الرصافة — بعد سقوط قرطبة — مقرا للآباء
الفرنسيين ، وتبقى منها اليوم بعض آثار جدران وقاعات • وفى جوف
هذه الجدران باب يؤدي الى طريق فى باطن الأرض يقال انه كان يصل
بين قرطبة والرصافة ، وأن هذا الطريق كان يرتاده الأمير عبد الرحمن متى
شاء لنفسه الراحة واللهو بعيدا عن أنظار رعيته بالحاضرة • وما زالت
فى الرصافة نخلة قدم عليها العهد حتى تأكلت أجزاء منها ، يقال انها نخلة
عبد الرحمن الداخل • وتذكر هذه النخلة — سواء صدقت الرواية
الاسبانية أم لم تصدق — بما كان لهذا القصر من روعة وبهاء •

وبقرطبة قصر آخر شيده عبد الرحمن بن معاوية ، وأضاف اليه بنو
أمية وزخرفوه ، وذهبوا سقفه وفضضوها ، ورخموا أرضه وروضوها ،
وأبدعوا بناءه ، وغرقوا ساحته وفناءه ، واتخذوه ميدان مراحهم ومضمارا
لانشراحهم ، وحاكوا به قصرهم بالمشرق •
وفيه قال ابن عمار :

كل قصر بعد الدمشق يذم
فيه طاب الجنى وفاح المشم
منظر رائق وماء نمير
وثرى عاطر وقصر أشم
بت فيه ، والليل والفجر عندى
عنبر أشهب ومسك أحم

ولما تولى الأمير عبد الرحمن بن محمد الامارة بقرطبة سنة ٩١٢ م،

وتلقب بألقاب الخلافة سنة ٩٣٣ م ، ونالت الأندلس على يديه من المجد الرفيع والازدهار ما نالته ، حتى بلغت مستوى من الرخاء لم تبلغه الأمم الأخرى ... رأى أن يبنى له قصرا يليق بجلال الخلافة وبهائها ، فبنى قصر الزهراء على بعد خمسة أميال غربى قرطبة وقد ذكرنا قصور الزهراء عندما تحدثنا عن هذه المدينة •

وأقام محمد بن أبى عامر ، على نهر الوادى الكبير بالقرب من قرطبة ، قصرا سماه بالزاهرة • وشيدت الى جواره عدة قصور وثكنات للجند ، حتى أصبح هذا القصر نواة لمدينة سميت بالزاهرة وقد توسع المنصور فى تخطيطها ، وبالنخ فى رفع أسوارها : فالتسعت المدينة ، وكمل بناؤها بعد عامين • وانتقل اليها المنصور بن أبى عامر سنة ٩٨٠ ، وأخذ فيها الدواوين • وبنى كبار قواده ورجال حاشيته عظيم الدور وشاهق القصور ، وقامت بها الأسواق ، وكثرت الأرفاق ، وأحاطها بالمنايا والجنات ، مثل : منية السرور ، ومنية العامرية • واشتد ملك ابن أبى عامر منذ نزل قصر الزاهرة ، وتوسع مع مرور الأيام فى تشييد أبنيتها حتى كملت •

ولما ثار محمد بن هشام بن عبد الجبار بن الناصر المعروف بالمهدى ، وثارت معه عامة الناس على ابنه عبد الرحمن بن المنصور الملقب بشنجل • خربوا الزاهرة ، واستولى النهب على ما فيها من التحف والمخاثر ، وعم بها الخراب ، ونهبت خزائنها ، وأضرمت النيران بساحاتها وتوزعت آثارها • فلم تبق دار فى الأندلس الا ودخلها من فيئها حصاة كثيرة أو قليلة ، وقيل ان بعض ما نهب منها بيع ببغداد وغيرها من البلاد الشرقية • وفى بهو الجص بقصر اشبيلية — الذى بنى فى عصر بنى عباد ، وأضيف اليه زمن الموحدين — أعمدة تيجانها متخذة من أطلال الزاهرة والزهراء •

القصور في عصر الطوائف

استنقل ملوك الطوائف بأهم مدن الأندلس ، وعظم شأن كثير منهم ، أمثال : المعتمد بن عباد باشبيلية ، وبنى الأفطس ببطليوس ، وبنى ذى النون بطليطة ، وبنى حمود بمالقة ، وبنى حوس بغرناطة ، وبنى صمادح بالمرية ، وبنى هود بسرقسطة ، وبنى رزين بالسهلة ، وبنى برزال بقرمونة . وقد عمل هؤلاء الملوك على احاطة أنفسهم بكل مظاهر الترف : ففتحوا أبواب مدنهم للشعراء والأدباء ورجال الفن ، وتنافسوا في بناء القصور السامقة والمباني السامية . ومن هذه القصور بالله يزيد بن المعتمد بن عباد واليا عن أبيه فيها ، وقصر الصمادحية الذى شيده المعتمد بن صمادح بالمرية ، وقصر أبى عيسى بن لبون بمربيطر وقصر المخضر بن الأفطس بيابرة .

ولم يتبق من قصور الطوائف الا آثار قليلة منها : قصر بنى عباد باشبيلية ، وقصر بنى برزال بقرمونة ، وقصر الناعورة بطليطة ، وقصر الجعفرية بسرقسطة ، وقصر القصبة بمالقة .

قصور المعتمد بن عباد

أقام المعتمد بن عباد ملك اشبيلية مجموعة من القصور ، منها : قصر المبارك ، وقصر الثريا ، وقصر الوحيد ، والقصر الزاهى ، وقصر المؤيد . وكانت هذه المجموعة تقع شرقى مدينة اشبيلية ، خارج أسوارها فى المكان الذى يقوم عليه القصر الحالى (Alcazar) . وما زالت فى هذا القصر الاشبيلي بقايا من قصر ابن عباد تتمثل فى عقدين على شكل حدود الفرس ، بينهما عمود ، يطلان على بهو الجص من أبهاء قصر اشبيلية .

كذلك أقام المعتمد قصرا آخر خارج مدينة اشبيلية ، على الضفة الأخرى من النهر ، وسماه قصر الزاهر أو حصن الزاهر . وكان من أجمل المواضع لديه وأبهاها ، وأحبها اليه وأشهرها ، لاطلاله على نهر الوادى

الكبير ، واشرافه على القصر العبادى ، وجماله فى العيون ، واشتمالة
بالشجر والزيتون • وكان المعتمد يحن اليه وهو فى منفاه بأغمات ، ويقول:

فياليت شعرى هل أبيتن ليلة
أمامى وخلفى روضة وغدير
بمنبتة الزيتون مورثة العلاء
يغنى حمام أوتدن طيور
بزاهرها السامى الذرى جاده الحيا
تشير الثريا نحونا ونشير
ويلحظنا الزاهى وسعد سعوذه
غيورين والصب المحب غيور ؟ !

وموضع هذا القصر اليوم بالقرب من قرية حصن الفرج
(San Juan de Aznalfarache) على الجانب الأيسر من الوادى الكبير •

وكان للمتعمد قصر رائع يطل على بحيرة كبرى خارج باب جهور من
أبواب اشبيلية ، وهو الموضع الذى أقام فيه الخليفة الموحدى أبو يعقوب
يوسف قصره المعروف بالبحيرة •

قصر بنى برزال بقرمونة : قرمونة مدينة قديمة اشتهرت منذ العصر
الرومانى بتحسيناتها المنيعه • ويذكر صاحب كتاب « أخبار مجموعة »
أنها مدينة ليس بالاندلس أحصن منها • وخضعت قرمونة ، زمن الفتنة ،
لبنى برزال البربر • وأقام اسحق بن محمد بن عبد الله البرز الى قصر
قرمونة ، وجعل فيه مجلسا رائعا سماه بالسامرة • وقد أجريت فى هذا
القصر عدة اصلاحات ، وأضيف اليه زمن الموحدين ثم أصيب بأضرار
فادحة بعد الاسترداد ، وقاسى من جراء التغييرات المعمارية العميقة التى
شملت عمارته زمن بدرو القاسى ملك قشتالة وغيره من ملوك اسبانيا

المسيحية • ولم يتبق منه اليوم سوى آثار قليلة بالقرب من باب مرشانة •
وكان القصر يقوم في أكثر مناطق المدينة ارتفاعا •

قصر الناعورة بطليطلة شيدة المأمون بن ذى النون ملك طليطلة ،
في سنة ٤٥٥ هـ (١٠٦٣ م) ، وصنع في وسطه بحيرة ، جعل في وسطها
قبة من زجاج ملون منقوش بالذهب ، وساق الماء على رأس القبة بتدبير
أحكمه المهندسون : فكان الماء ينحدر من أعلى القبة حولها محيطا بها
متصلا بعضه ببعض ، وكانت القبة في غلالة من ماء سكب خلف الزجاج
لا يفتت جرية ••• والمأمون بن ذى النون جالس فيها لا يمس منه شيء
وقد سمي هذا القصر بالناعورة بسبب ساقية كانت تدور بالقرب من قبة
الزجاج ، تجلب الماء من نهر طليطلة وتزوي به الروض •

وقال الفتح بن خاقان في كتابه « قلائد العقيان » في ترجمته للعلامة
أبي محمد عبد الله بن السيد البطليوسى : « وأخبرنى أنه حضر مع
المأمون بن ذى النون في مجلس الناعورة بالمنية التي تطمح اليها المنى ،
ومرآها هو المقترح والمتمنى ••• والمأمون قد اجتبى وأفاض الحبا •
والجلس يروق كأن الشمس في أفقه ، والبدر كالنجم في مفرقه • والنور
عقب ، وعلى ماء النهر مصطبج ومغتبق ، والدولاب (الساقية) يئن كناية
أثر الحوار ، أو كئلى من حر الأوار • والجو قد عنبرته أنوؤه ، والروض
قد رشته أمطاره وأنداؤه ، والأسد قد فغرت أفواهها ، ومجت أمواها ! » •

وقد وصف ابن حيان هذا القصر ، وذكر أن من مجالسه : المجلس
المكرم ، قد كسيت أجزاؤه السفلى بازار من الممر الأبيض الرقيق ،
ونقشت فيه صور حيوانات بين أشجار ، وطيور تحط فوق ثمار • ويفصل
هذا الأزار عما فوقه طراز عريض به نقوش كتابية محفورة في الرخام ،
كلها أشعار في مديح المأمون • ويعلو هذا الطراز الكتابى أفاريز من
الفسيفساء المذهبة ، عليها صور حيوانات وطيور وأشجار • وأرضية
هذه الأفاريز مكسوة بتوريقات مذهبة وملونة •

وكان لقصر الناعورة بحيرتان ، نصبت على أركانها تماثيل أسود من الذهب والصفير ، تشبه أسود بهو السباع بغرناطة ، وقد فُغرت أشداقها ، وانساب الماء من أفواهها نحو البحيرتين هونا • ووضع في قاع كل بحيرة حوض رائع من المرمر ، بديع النقش ، قد برزت في جوانبه صور حيوانات وطيور وأشجار • وغرزت في وسط كل حوض منها شجرة من فضة ، فيندفع الماء منها ، وينصب على الأفنان كذاذ المطر ، وتحدث عند مخرجه نغمات كالأحان موسيقية عذبة !

وقد اندثر هذا القصر بصورته التي وصفناها ، ولم يبق منه سوى أطلال بفحص طليطلة • ويطلق الاسبان على هذه الأطلال قصر جاليانا ، وقد نسجوا حوله قصصا من الفروسية والأساطير • وتزوى هذه القصص أن أميرة مسلمة كانت تعيش فيه ، وانتهى بها الأمر — بعد مغامرات عجيبة — الى أن تتزوج الامبراطور شارلمان •

وقد بقى من هذا القصر جزء مستطيل أقيم في طرفيه طابقان يؤلفان برجين كبيرين ، ويتكون الطابق الأدنى منهما من قاعة متوسط تتخلل جدرانها فتحات • والبناء يتبع الأسلوب الطليطلي في العمارة ، اذ تتناوب فيه صفوف الحجر الجرانيتي و صفوف الآجر • أما القبوات فمتعارضة • وقد بقيت بعض عقود (أقواس) نصف دائرية وأخرى مفصصة في داخل الغرف • أما الزخارف فمن نوع مدجن ، وتحمل رنوك (رموز) أسرة قزمان ، مما يفسر — الى حد كبير — صحة هذه الرواية •

قصر لجعفرية بسرقسطة : بناه أبو جعفر أحمد المقتدر بالله بن هود (١٠٤٧ — ١٠٨١) ، كما يثبت ذلك نقش بأحد تيجان أعمدة هذا القصر • وقد سمي بالجعفرية نسبة الى كنيته (أبى جعفر) • وكان المقتدر يسميه « مجلس الذهب » ، وفيه يقول :

العمارة المدنية بالاندلس

قصر السرور ومجلس الذهب
بكما بلغت نهاية الأرب
لو لم يحز ملكى خلافا
كانت لدى كفاية الطلب

وقد تحول هذا القصر الى دير بعد سقوط سرقسطة في أيدي
النصارى ، ثم ألحقت به بعد ذلك عدة مقصورات دينية نذرت لسان
جورج ، ثم أضيفت اليه سنة ١٤٩٢ - في عهد الملكين الكاثوليكيين :
فرناندو وايزابيلا - قاعة العرش * غير أنه مالبث أن أقيمت فيه محكمة
التفتيش بسجونها الرهيبة * ثم دعمه فيليب الثانى بمعاقل ، وحفر من
حواله خندقا ، ثم حول الى معسكر في سنة ١٨٦٦ في عهد الملكة ايزابيلا الثانية ،
فهدمت المنصورة الكبرى التى شيدها بدرو الرابع ، وجردت من زخارفها
الاسلامية الرائعة *

وقد وصم جوميث مورينو هذا التخریب للقصر بأنه « عمل بربرى
يندى له الجبين ، ومن أشد النقاط سوادا في تاريخ اسبانيا » * ولم
يستثن من هذا العمل الهمجى سوى المصلى الذى يؤلف بزخارفه - مع
ما يحتويه متحفا سرقسطة ومدرید من تيجان أعمدة ، وعقود جصية
رائعة - كل ما بقى من قصر بنى هود *

ومن العسير أن نتصور ما كان عليه هذا القصر قبل أن يعتريه هذا
التشويه ، ولكن لدينا تصميما يصور هذا القصر سنة ١٧٥٧ * وقد
استطاع سافرون أن يقيم عليه دراسة علمية هامة *

والقصر على مسافة قصيرة من ربض المدينة على نهر ابرو * ويتألف
من سور مستطيل يدعمه تسعة عشر برجاً أسطوانية الشكل ، عدا برج
التكریم فقد كان مربع الشكل * وفى وسط هذا البناء فناء مستطيل تدور
به أروقة جانبية * وكانت تطل على جانبيه القصيرين مجموعتان من الغرف ،

العمارة المدنية بالاندلس

كك منهما تتألف من قاعة وسطى وغرفتين جانبيتين كما هي الحال في قصور الحمراء وقصور المدجنين • وإلى جانب برج التكريم قاعة كبيرة - لعلها كانت مجلس الذهب الذي كان يعتز به المقتدر بن هود - تنفتح في جانبيها غرفتان ، احدهما يشغلها المسجد الذي ما زال قائما حتى وقتنا هذا • وكانت هذه القاعة الكبرى تتصل جنوبا بالصحن ، وكان يقابله في الجهة الأخرى قاعة تسمى قاعة الرخام نسبة الى كثرة أعمدتها الرخامية •

وقد كشفت بائكة من العقود الاسلامية كانت تتصل بأسطوان المدخل الرئيسى ، على أثر هدم جزء من مقصورة سان جورج التي في قاعة الرخام • وتتألف هذه البائكة من ثلاثة أقواس كلها غلو في التعقيد الزخرفى ، وأقواسها طبقتان : احدهما فوق الأخرى ، والدنيا منهما أقواس مفصصة متقاطعة ، فوقها أقواس أخرى تتداخل فيها الخطوط المستقيمة بالمنحنيات • وفيها نشهد اتجاه الفن الأندلسى ، اذ ذاك ، الى الاسراف في التعقيد ، والغلو في حشد الزخرفة ، والتوسل بالأقواس المتقاطعة التي تظهر فيها التوريقات المتشابكة والتشجيرات المتداخلة •

أما المصلى فبابه مدجن ، وأما داخله فمئمن الشكل • وأصله مربع طول ضلعه • ٥٠ م ، تحول الى مئمن بأن أقيمت في أركانه أنصاف حوائط ويشغل المحراب الركن الجنوبي الشرقى ، وتعلوه قبيبة مفصصة محارية الشكل ، ومدخله على شكل قوس متجاوز يشبه قوس محراب جامع قرطبة ، يحيط به افريز مستطيل ، وفي بنيقته محارتان • ويزين الجدران السبعة الأخرى قوس أصم شديد التعقيد من النوع الذى تختلط فيه الخطوط والمنحنيات ، ويحيط به افريز بارز يتخذ الشكل نفسه • أما القوسان المحفوظان بمتحفى مدريد وقرطبة فكانا يزينان القاعة الرئيسية ويستحيل على المرء أن يتقصى امتداد خطوط هذه الأقواس ، اذ هي تتشابك وتتداخل فيما بينها بطريقة ساحرة فريدة •

العمارة المدنية بالأندلس

ويحتفظ متحف سرقسطة بمجموعة رائعة من تيجان الأعمدة المرمرية تمثل لنا مدى التطور الذي أحرزه الفن الأندلسي بعد أن تحرر مما كان يغلب عليه من تأثيرات سابقة على الاسلام • ونلمس في هذه التيجان حرية الأداء والرشاقة • وتكسو هذه التيجان زخارف قوامها ورقة الأكنش أو شوكة اليهود ، وتوريقات دقيقة حفرت على طبقتين حفرا غائرا أبرز هذه الزخارف وأوضحها •

ولا تزال في متحف سرقسطة اشلاء كثيرة من هذا القصر نجعل مكانها منه وتتألف من ألواح رخامية وشمسيات جصية ، ان دلت على شيء فعلى مدى ما وصل اليه الفن الأندلسي من تعقيد رائع يعجز عنه الوصف •

قصر بنى حمود بقصبة مالقة : أقام يحيى بن على ابن حمود (١٠٢١ — ١٠٣٧) هذا القصر بقصبة مالقة التى بناها حبوس الضاهجى ولم يبق من هذا القصر ، الذى أضيف اليه فى عصر بنى نصر ، سوى قاعة يبلغ طولها ٧٥٠ م وعرضها ٣ أمتار ، وتنتهى جنوبا بشرفة رائعة تطل على البحر ، وتبدو جدرانها من الخارج فقيرة البناء ، ولكن الزخارف التى تكسوا أجزاءها الداخلية وثيقة الصلة بزخارف قصر الجعفرية •

وعندما شرع فى اجراء حفائر فى قصبة مالقة سنة ١٩٣٦ ، لم يكن فى الحسبان اكتشاف مثل هذا الأثر الجليل الذى يرجع الى القرن الحادى عشر • ومدخل القاعة تزيينه بائكة من ثلاثة عقود أو أقواس شديدة التجاوز ، مكسوة بزخارف رائعة • ويسبق هذه البائكة رواق أعيد بناؤه فى عصر النصرين ، كما يبدو من أسلوب التيجان ونوع العقود • وتطل هذه القاعة على بهو شأنها فى ذلك شأن الجعفرية بسرقسطة ، والى غربها بناء مربع طول ضلعه ٢٥٠ متر ، ويقوم فى كل واجهة من واجهاته الأربع عقدان متقاطعان ، وينشأ من تقاطعهما عقد جديد يعلوهما على النحو

الذى نراه فى عقود زيادة الحكم المستنصر بجامع قرطبة • وهذه العقود جصية ملساء •

أما القاعة نفسها فكان يدور بجدرانها طراز بارز به زخرفة جصية لم يبق منها سوى أجزاء ملتصقة بالجدران • وعقود المدخل تتألف من سنجات (١) مزخرفة ، وأخرى عارية من الزخرفة بالتناوب • وتتكون الزخرفة من توريقات تظهر بينها المراوح النخيلية الطويلة التى ما تلبث أن تلتف حول نفسها ، وكيزان الصنوبر التى تتدلى وسط الفروع والسيقان • وفى باطن العقود لوحات موزعة فى امتداد السنجات تحتشد فيها الزخارف الجصية التى تذكرنا بالفن الخلافى بقرطبة ، وتمهد لزخارف قصر الجعفرية •

قصور الموحدين فى الأندلس

اهتم خلفاء الموحدين فى الأندلس ببناء القصور • وحظيت اشبيلية — حاضرتهم فى اسبانيا الاسلامية — بعنايتهم ، فأسسوا فيها القصر الذى يحكم فيه الخليفة فى أثناء مروره بها أو زيارته لها ، وقصر البحيرة ، والقصر الواقع خارج باب الكحل • • كما أقام ولاتهم فى الأندلس قصورا فى المدن التى حكموها ، منها : قصر أبى يحيى بقرطبة وقصر السيد بمالقة • واشتهر من مهندسيهم فى بناء القصور يعيش الملقى ، والعريف • محمد بن المعلم ، وشيخ العرفاء أحمد بن باسة ، والعريف على الغمارى • قصر أبى يحيى بقرطبة : هو قصر بناه السيد أبو يحيى بن أبى

قصر أبى يحيى بقرطبة : هو قصر بناه السيد أبو يحيى بن أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن خارج أسوار قرطبة على متن نهر الوادى

(١) السنجات : هى قطع الحجارة أو قوالب الأجر التى يتألف منها عقد من العقود أو قوالب من الاقتواس • وهذه السنجات تكسى بطبقة من الجص وينقش عليها زخارف نباتية وتوريقات •

العمارة المدنية بالاندلس

الكبير ، وتأنق في بنائه ، وبالنغ في اتقانه ، وأنفق في بنيانه مالا كثيرا • وقد قال الشاعر ناهض بن ادريس في وصف هذا القصر :

ألا حبذا القصر الذى ارتفعت به
على الماء من تحت الحجارة أقواس
هو المصنع الأعلى الذى أنف الثرى
ورفعه عن لثمه المجد والبأس
فأركب متن النهر عزا ورفعته
وفي موضع الأقدام لا يوجد الراس
فلا زال معمور الجنب وبابه
يغص ، وحلت أفقه الدهر أعراس

ويغلب على الظن أن المهندس الحاج يعيش الملقى هو الذى بنى هذا القصر ، لأنه انتقل الى قرطبة بعد سنة ١١٦٠ لعمارة قصورها • وما تزال بقايا هذا القصر قائمة على احدى طواحين الهواء بنهر الوادى الكبير قرب قنطرة قرطبة •

قصر البحيرة خارج باب جهور بأشبيلية : أمر الخليفة أبو يعقوب ببناء قصر البحيرة خارج باب جهور سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) ، واختط بحيرته في الجنان المنسوبة لابن مسلمة القرطبي ، بعد أن عوضه عنها بعوض صحيح من الجنات مثلها • وأقام في هذا المكان قصورا ودورا ، وأمر أحمد بن محمد الحوفى قاضى اشبيلية ، وأبا بكر محمد بن يحيى الحذاء أمام جامع اشبيلية ، أن يخطا له ما يتصل بهذا القصر وملحقاته وجناته لغرس الزيتون والأعشاب وغرس الفواكه المستغربة النادرة • • • فاخطا ما أمرهما به • واستجلبت أشجار الزيتون المختارة ، وغرست هى وأحمال الأجاص (الكثرى) والتفاح •

أما القصور فقد قام ببنائها عريف البنائين بالاندلس أحمد بن باسة، فجاءت في غاية الحسن والبهاء • وما زالت آثار الموضع الذي كان يشغله هذا القصر قائمة حتى وقتنا هذا •

قصر اشبيلية : من العسير استخلاص ما أقامه الموحدون في مجموعة الأبنية التي تؤلف اليوم قصر اشبيلية ، فقد كان يتألف من قصور مختلفة في مركزين رئيسيين : قصر الملك بدرو الذي أقامه سنة ١٣٦٤ على أبنية اسلامية ، والقصر المسمى بالقصر القديم •

على أن الذي يهمنا هو القصر الموحدى الذى أقامه أبو يوسف يعقوب على أنقاض أحد قصور المعتمد بن عباد • ولم يتبق منه اليوم سوى قاعة تسمى قاعة الجص ببوها ، وهو بهو ضيق صغير المساحة ، مستطيل الشكل تقريبا ، يقوم في أحد جانبيه القصيرين صف من العقود تتألف من قوس أو وسط منكسر ، يحيط به من كل جانب ثلاثة أقواس صغيرة ، وتتكىء هذه الأقواس أو العقود على أعمدة استغلت من قصر المعتمد بن عباد ، ويؤلف حافات العقود السبعة خطوط متموجة •

أما بنيقتا العقد الأوسط فتغطيها شبكة من أشرطة منحنية متشابكة، في حين تمتد العقود الجانبية وتتقاطع منحرفة لتحدث معنيات محزمة • وكان بالجدار المقابل لهذه البائكة جوفة من ثلاثة عقود على شكل حدوة الفرس ، تتكىء على عمودين مركزيين •

كذلك تبقت من بقايا قصر اشبيلية قبة ذات اثني عشر عقدا متقاطعة فيما بينها ، وذلك في المنزل رقم ٣ ببهو البنود ، غير بعيد من بهو الجص • وتشبه هذه القبة قبة المحراب بجامع تلمسان •

العمارة المدنية بالأندلس

قصر الحمراء بغرناطة

ينسب قصر الحمراء الى أبى الحجاج يوسف الأول (١٣٣٤ - ١٣٥٤) • وقد شيّد فيه أول ما شيّد : البرج المعروف بقمارش ، وقصر متشوكة ، والحمام الملكى ، وباب الشريعة ، وبرج الأسيرة ، ومصلى البرطل • ولما قتل أبو الحجاج يوسف خلفه ابنه محمد الخامس الغنى بالله ، فأكمل بناء قصر الحمراء بما فيه القصور السلطانية التى تحيط ببهوى الريحان والسباع •

أعمال يوسف الأول : وينسب إلى يوسف الأول السور الحصين الذى يحيط بمرتفع الحمراء ، بأبراجه وبوابته العظمى المعروفة بباب الشريعة ، الذى ينم نظام بنائه عن أصالة وعن فن اسلامى خالص • وقد تم بناؤه سنة ١٣٤٨ وفقا لما ورد فى النقش الكتابى • وقد أطلق عليه باب العدل نسبة لصورة كف مفتوح ومفتاح : يرمز الكف الى العدالة ، ويرمز المفتاح الى مدخل قصور الحمراء كما أطلق عليه اسم باب الشريعة نسبة الى المصلى الذى كانت تقام فيه صلاة العيدين والابتهالات الدينية وقت الشدة والقحط والجفاف •

ومن أقدم قصور الحمراء التى ترجع الى عهد يوسف الأول قصر البرطل ، ويعنون بالبرطل فى الأندلس الخلّة التى تقوم على بائكة هذا القصر ، الواقعة بين برج السيدات ومصلى صغير • وتتألف خلّة هذا القصر من خمسة عقود ، أوسطها أكثرها ارتفاعا • ويطل البرطل على بركة تزودها نافورة أسفل العقد الأوسط بالمياه • ووراء هذا البرطل ، وفى ركن منه قاعة مربعة تشبه البرج يمكن الارتقاء منها الى طابق علوى • ويغطى الجدران التى تعلو عقود بائكة البرطل شبكات من زخرفة المعنيات ، ويحيط بالجدران ازار من الزليج تتعدد فيه الرسوم الهندسية الملونة • وتقوم عقود البائكة على أربع دعائم من الآجر •

والى يمين البرطل من شرقه ، وعلى ممشى السور ، مسجد صغير ملحق بالبرطل لصق دار قديمة • ويتناقض مظهر هذا البناء الصغير ، من حيث ترابه ، مع بناء الأسوار والأبراج المجاورة في حمرتها وعرائها من الزخرفة • ويبلغ طول هذا المسجد ١٦م ٤ أمتار وعرضه ٣ أمتار • وفى رأسه محراب يقابل الباب ، ويتجه نحو الجنوب الشرقى • وتعلوه قبوة مقرنصة •

كذلك ينسب الى يوسف الأول برج الأسيرة الذى يضم بداخله قصرا صغيرا يتألف من قاعة أساسية تكتنفها شرفات ومخادع جانبية • ويتوسط البرج بهو داخلى صغير يحيط به من جهات الأربع مجنبات • وزخرفة قاعات هذا البرج — لا سيما تربيعاته الزليجية — من أجمل ما شيده يوسف الأول • وينسب الى السلطان نفسه برج الشرفات بين مصلى البرطل وبرج الأسيرة • والى يسار برج السيدات يقع مخدع الملكة ، ويضم هذا البرج قصرا لطيفا من أعمال يوسف الأول ، ويتصل هذا البرج بقصر الريحان وبرج قمارش • وقد تغيرت الأجزاء العليا منه فى القرن السادس عشر ، وازدانت بروائع من فن التصوير الايطالى •

أما قصر السلطان يوسف الأول ، فهو أروع ما شيده السلطان ، ويتوسط هذا القصر بهو الريحان ، وفى جهته الشمالية برج قمارش الذى يشتمل فى داخله على قاعة السفراء • ومن قمريات هذه القاعة ومنظراتها يمكن امتاع البصر بمنظر من أروع مناظر الطبيعة الساحرة ، وتنتقل العين فى نهر حدرة الذى تندفع مياهه أدنى البرج الى حى البيازين فى المرتفع الآخر المقابل للحمراء •

وزخاف هذا القصر يعجز عنها الوصف ، وتتألف من زخرفة جصية ملونة هندسية ونباتية وكتابية ، ويعلوه سقف خشبى يعرف باسم رواق المبركة • وتطل على بهو الريحان بأثقة مؤلفة من سبعة عقود ، العقد الأوسط منها أكثرها ارتفاعا • وهو أروع مثال للبهو الأندلسى ، اذ

العمارة المدنية بالأندلس

تشغل وسطه بركة كبيرة ، مستطيلة الشكل ، تحف بها أشجار الريحان ، ومن هنا سمي أيضا باسم بهو البركة • ويقابل هذه الواجهة جنوبا ، واجهة أخرى مماثلة تقع في المحور نفسه •

والى شرقى مجلس قمارش وبهو الريحان : الحمامات السلطانية ، وهى من أقدم أبنية القصر • وتؤلف هذه الحمامات مجموعة كاملة من الأبنية • وترجع الى عهد يوسف الأول الذى سجل اسمه فى نقش كتابى • ويسبق الحمامات الى الشمال قاعة يطلق عليها اسم قاعة الأسرة ، وقد أجريت عليها اصلاحات عديدة فى القرن السادس عشر ، غيرت كثيرا من معالمها القديمة • ويسقف القاعة الأساسية فى الحمامات قبة تخترقها مناوِر أو مضاوى ، وهى أشكال نجمية لانفاذ الضوء ، وتكسو الجزء الأدنى من الجدران تزيينات رائعة من الزليج •

أعمال محمد الخامس : توج محمد الخامس أعماله المعمارية بتشييده أروع مجموعة فى قصور الحمراء ، وهى مجموعة قصر السباع • ونظام هذا القصر جديد فى تاريخ العمارة الغرناطية فى القرن الرابع عشر ••• اذ أنه ـ بدلا من القاعتين اللتين تقعان فى الطرفين القصيرين للمستطيل فى بهو قصر جنة العريف وبهو الريحان — أحاط بالبهو المركزى ، المعروف ببهو السباع ، فى واجهاته الأربع بواقع بوائك • وتتوسط البهو نافورة أو فوارة تقوم على حرص استدار تحته اثنا عشر أسدا تلمج المياه من أفواهها ويدور بالبهو أربع بوائك ، تقوم على عمدها الرشيقة عقود نصف دائرية مطولة ، تحلوها جدران مكسوة بالشبكات الزخرفية • ونقرأ على جدران هذا القصر نقوشا عربية ، منها « عز لمولانا السلطان أبى عبد الله الغنى بالله » كما تزخر بكثير من أشعار ابن زمرك فى مدح السلطان •

وبهو السباع على شكل مستطيل طوله ٢٨ر٥ مترا ، وعرضه ١٥ر٧ مترا • ونظام هذا البهو يماثل نظام القصيرين جوسقان مقببان تحملهما أعمدة رشيقة ، ويتقاطع محورا البهو — وقد اتخذ شكل قناتين للمياه —

بحيث يؤلفان شكلا صليبيا * وتتقع خلف الجوسق الغربى قاعة فسيحة تغيرت معالمها الاسلامية *** فى حين تقع خلف الجوسق الشرقى قاعة الملوك ، أو قصر العدل ، وترخر بالعقود المتعارضة التى تحتشد فى بواطنها المقرنصات الدقيقة *

أما القاعتان الجانبيتان للبهو شمالا وجنوبا ، فهما من أروع ما جاء به فن العمارة الاسلامية فى الأندلس : فالقاعة الجنوبية — وتعرف بقاعة بنى سراج — يتوسطها حوض من الرخام به آثار بقع حمراء ، يقال انها من دماء بنى سراج بعد أن قضى عليهم ملوك بنى نصر * وتعلو القاعة قبة رائعة الجمال من المقرنصات الدقيقة ، نجمية الشكل * أما الشمالية المقابلة لها ، فاسمها قاعة الأختين ، نسبة الى لوحتين كبيرتين من الرخام متماثلين فى الشكل تكسوان الأرضية * وتعلو هذه القاعة بالمثل قبة نجمية الشكل من المقرنصات الدقيقة التى تشبه خلايا النحل * وتؤدى هذه القاعة الى شرفة تطل على حى البيازين * وجميع جدران هذه القاعات مكسوة بالزخارف الهندسية والنباتية المحشدة ، تتخللها كتابات كوفية ونسخية فيها أدعية للسلطان * والأجزاء الدنيا منها مؤزرة بالزليج والفسيفساء *

ونلاحظ أن فن البناء بقصر الحمراء فن دنيوى ، على نقيض فن المرابطين * ولم يكن بناء بنى نصر للمساجد الا نتيجة للتوسع الاجتماعى الذى فرضته هجرة سكان المدن التى سقطت تباعا فى أيدي النصارى * وحتى هذه المساجد كانت تزخر بالزخارف التى تلهى المسلم عن صلاته ، وتجعل من هذه المساجد قصورا خيالية تسبح فى زخارفها وتميقاتها الأبصار دون كلل أو ملل *** بل أن هذه الزخارف كانت تغطى جدراننا رقيقة ضعيفة ، وتكسوها كما لو كانت أبسطة *

وهكذا يكشف فن غرناطة عن حقيقة طبيعية : هى رغبة شعب قد بلغ ذروة التطور فى التمتع بحاضره والشك فى غده * وهكذا كانت الأبنية

العمارة المدنية بالاندلس

التي زخرت بها غرناطة قصورا يتمتع فيها المرء بحياة من الترف في نطاق طبيعي لا مثيل لجماله • وكان المجال الذي يحيط بهذه القصور يتجاوب وهذا التمتع •

ونجح عرفاء بنى نصر في احداث تأثير جمالى يصحب فن توزيع الخمائل والجنان ومزج المنظر الطبيعي بالعمارة ••• فالحمراء تجلو لنا أروع أمثلة هذا الفن ، بل هي واحة خضراء في اقليم قاحل جاف تحرقه الشمس ، ولا تدع غابة الحمراء التي تحيط بالقصر السلطاني وكثافة الفروع أى مجال لنفاذ أشعة الشمس • كما أن هذه النسومات المنعشة التي تهز الأشجار فتترطب الوجوه المحترقة ، والمياه التي تنساب بين الصخور، والطيور التي تغرد على الأشجار وبين الأغصان والافنان ••• كل ذلك يجعل من قصر الحمراء قصرا أسطوريا أوجنة الله في أرضه ، ويحمل المرء على أن يحيا في عالم خيالى لا يفكر فيه الا في القصور التي كانت تعيش فيها أميرات ساحرات •

وهنا يبلغ الفن الغرناطى الذروة ، فقد أعد كل شىء اعدادا دقيقة لتخدير المشاعر عن ادراك الحقيقة التي لا سبيل الى التغافل عنها ، وهى انتهاء دولة الاسلام فى الأندلس !

الحمامات

كثر بناء الحمامات فى المدن والقرى الأندلسية ، بحيث يمكننا القول بأن دور الحمام فى الأهمية المعمارية يأتى مباشرة بعد المسجد الجامع • وكانت للحمام أهمية عظمى فى الحياة الاجتماعية الأندلسية ، اذ كانت عادة الاستحمام من العادات المتأصلة بعمق فى الاسلام • والواقع أن الحمام هو المكان الذى يستشعر فيه المرء بجهة الحياة ، لأن الاستحمام يولد فى النفس احساسا بالراحة ، ويحدث فيها شعورا بانتعاش بدنى وروحى •

وكان من أسباب تعلق أهل الأندلس بالاستحمام — بالإضافة الى الشعور النفسى الذى يحدثه بخار الماء الساخن ، وما يتبعه من تدليك — أن الحمام كان مركزا للاجتماعات المرحية ، ومجالس الأتس واللهو والغناء ثم أن النساء يجدن فى الذهاب اليه فرصة للتسرية عنهن وتغيير الجو ، والتمتع بحرية نسبية ، اذ أنهن يحطمن فيه — ولو خلال دقائق — أغلال التقاليد • وكان الأمر كذلك بالنسبة للرجل حين يتجرد من ثيابه ، ولا يضع على بدنه غير مؤزر رقيق • وكثيرا ما كان شعراء الأندلس يذكرون الحمام فى أشعارهم ••• من ذلك قول أحد الشعراء فى وصف حمام :

ومنزل أقوام اذا ما تقابلوا
تشابه فيه وغده ورئيسه
ينفس كرى اذ ينفس كربه
ويعظم أنسى اذ يقل أنيسه

وكثيرا ما قصده الشعراء الأندلسيون ، وتطارحوا فيه الشعر • ومن أمثلة ذلك أن أبا بكر بن بقى قابل أبا جعفر بن هريرة التطيلي المعروف بالأعمى الشاعر ، فقال له الأعمى : أجز • فقال :

حمامنا كرمان القيط محتدم
وفيه للبرد صر غير ذى ضرر

فقال الأعمى :

صنوان ينعم جسم المرء بينهما
كالغصن ينعم بين الشمس والمطر

وقال الشاعر نفسه ، أعمى تطيلة ، فى وصف حمام :

يا حسن حمامنا وبهجتة
مرأى من السحر كله حسن

العمارة المدنية بالانطلس

ماء ونار حـواهما كنف

كالقلب فيه السرور والحزن

وكان للحمام — بالاضافة الى ما سبق — غرض ديني ، اذ أنه يطهر
جسد المرء تطهيرا تاما . ولعل ذلك هو السبب الذي من أجله يغسل
المسلمون جثث أمواتهم قبل مواراتها التراب ، لأن جسم الانسان معرض
دائما لكل ما يفسد الطهارة . والماء يطهر الجسم ، ويزيل ما علق به . وفي
ذلك يقول الشاعر الشهاب بن فضل الله :

وحمامكم كعبة للوفود

نحج اليه حفاة عراه

يكرر صوت أنابييه

كتاب الطهارة . . باب المياه

وكانت الحمامات لهذا السبب تكثر بالقرب من المساجد حيث يتيسر
للمسلمين الاستحمام والتطهر قبل الدخول الى المسجد للصلاة . وتدل
الوثائق الخاصة بتوزيع دور اشبيلية على الفاتحين الأسبان ، بعد
استردادهم للمدينة ، على أن حماما اسلاميا كان يقع بالقرب من سقايات
المسجد الجامع . وما زلنا نرى اليوم آثار حمام بجوار المسجد الجامع
باشبيلية ، قبالة مئذنته ولصق القصر الأسقفى .

وفي قرطبة تبقى حمامان بجوار المسجد الجامع : أحدهما في شارع
يعرف بلاس كوميدياس ، والآخر في شارع الحمام . ويتألف الحمام
الأول من قاعة وسطى ، بها عقود مفرطة ومتجاوزة تحملها عشرة أعمدة ،
وكانت تعلو هذه العقود قبو لم يبق لها اليوم وجود بعد أن تحولت هذه
القاعة الى بهو .

العمارة المدنية بالأندلس

ويذكر هرناندو البياسى ، فى القرن السادس عشر ، أن بغرناطة حماما كان يقع بجوار المسجد الجامع الذى تحول الى كاتدرائية غرناطة .

وكثرت الحمامات فى المدن الأندلسية لدرجة أن عددها أصبح متقاربا مع عدد مساجدها . ويذكر ابن حيان أن عدد حمامات قرطبة بلغ أيام المنصور ابن أبى عامر تسعمائة حمام ، وقيل سبعمائة . ويذكر ابن عذارى المراكشى أن حمامات النساء وصلت الى ثلثمائة حمام .

وقد اتخذ بعض ملوك الأندلس من الحمامات مسرحا للجرائم السياسية ، فقد احتال المعتضد بالله بن عباد على طائفة من رؤساء أعدائه البربر حتى زاروه بأشبيلية ، فأدخلهم الحمام مبالغة منه فى الحفاوة بهم ، وما كادوا يدخلون فى قاعته الساخنة حتى سد عليهم الباب فهلكوا عن آخرهم !

ولم تكن عادة الاستحمام فى الأندلس استمرارا لما كان متبعاً فى اسبانيا قبل الفتح الإسلامى ، فقد حمل الفاتحون معهم تقاليدهم ، وغرسوها فى اسبانيا . وانتشرت عادة الاستحمام فى اسبانيا المسيحية بتأثير من اسبانيا الإسلامية . الا أن عادة الاستحمام تلاشت من اسبانيا المسيحية منذ النصف الثانى من القرن السادس عشر فى عصر الامبراطور شارلكان والملك فيليب الثانى . وساعد على ذلك تعصب الكنيسة ضد هذه العادة الإسلامية وعداؤها الشديد لها . وانقرضت فى طليطلة منذ عهد ألفونسو الحكيم ، واقتصرت عند أهل طليطلة على المناسبات الهامة عندهم فكانت الفتاة لا تستحم الا يوم زفافها . وذكر فرأى اراندو دى طليطلة ، أسقف غرناطة ، أن الملكة ايزابيلا الكاثوليكية اعترفت أمامه بأنها كانت لا تغسل قدميها الا مرة واحدة فى الشهر .

وكان دير يوستى ، الذى اعتزل فيه الامبراطور شارلكان ، خاليا من الحمامات . وعندما جردت مخلفاته فى هذا الدير عثر على أربع قطع

العمارة الخفية بالاندلس

من النسيج الهولندي ، كان يستخدمها الامبراطور العظيم لتخفيف قدميه عند غسلهما •

وكان الحمام الأندلسي يتألف عادة من مدخل يؤدي الى ثلاث قاعات أو أربع رئيسية مقبأة ، تضاف اليها ملحقات الحمام من الموقد والمرحاض الى آخره • وكانت هذه القاعات تتصل فيما بينها عن طريق فتحات أو أبواب ، وكانت تتخذ جميعها شكلا مستطيلا ، أو مربعا بخلاف الحمامات المصرية في العصر الاسلامي ، اذ كانت تدور حول غرفة مركزية •

ويؤدي مدخل الحمام الى أسطوان أو ردهة صغيرة في شكل مرفق ، يليه حجرة ضيقة مستطيلة تعلوها قبوة نصف أسطوانية بنهايتها قبوان يعرفان بالخلوتين • ويفصل هاتين الخلوتين عن بقية القاعة عقدان يستندان فيما على عمود مركزي • ونعرف هذه القاعة باسم « البيت البارد » ، وتقابل قاعة (Tepidarium) في الحمامات الرومانية • وكان المستحمون يجلسون فيها ثيابهم عند دخول الحمام ، ويلبسونها عند خروجهم منه • وفي أركان الخلوتين مقاعد بسترية عليها المستحمون •

وفي بعض الحمامات المترفة كانت تسبق البيت البارد غرفة تعرف « ببيت المستراح » ، يستريح فيها المستحمون قبل خروجهم من الحمام ومقابلتهم الهواء الخارجى • يلي البيت البارد قاعة تعرف بالبيت الوسطانى ، وهى أكثر اتساعا من القاعة السابقة ، وتعد أهم أجزاء الحمام • ويتوسط هذه القاعة فراغ مركزي مربع يعلوه قبة ، ويحيط به أربعة ممرات مربعة ، تحملها عقود قائمة على أعمدة • وجميع هذه القبوات الجانبية ، والقبة الوسطى ، تتخللها فتحات نجمية الشكل تغلق بقطع زجاجية — تسمى « مضوىء » — لادخال الضوء •

ويتبع هذه القاعة قاعة أخيرة تعرف « بالبيت الساخن » (Calidarium) وهى غرفة ضيقة مستطيلة تشبه الغرفة الأولى ، ولها نفس نظامها • وفي

منتهى الغرفة موقد كبير يسمى بالقدر أو البرمة أو الفرنش ، وهو ما يقابل (Hypocaust) الرومانية • وتخرج من القدر أنابيب الماء الساخن والبارد ، وتدخل في الجدران لتصب في أحواض الحلوات •

ويلاحظ أن درجة الحرارة ترتفع في الحمام بالتدرج من البيت البارد الى البيت الساخن ، فإذا انتهى المستحم من حمامه تعرض بالتدرج لهواء أقل حرارة من الهواء الداخلى الساخن حتى يصل الى البيت البارد فيستريح فيه قليلا قبل أن يغادر الحمام •

وكانت أرضية الحمام تكسى عادة بالفسيفساء أو بلوحات الرخام ، وجدر أنه تزين بلوحات الزليج ، أو تحلى بالرسوم الجميلة التى تمثل صور النساء عاريات • وكثيرا ما ساهمت التماثيل الرومانية في تجميل الحمامات • ويذكر المقرئ أنه عثر في أطلال طالقة الرومانية على تمثال جارية من المرمر تحتضن صبيا ، وتنظر في ذعر الى حية تكاد تقترب من صبيها ، وقد حملت هذه الدمية ووضعت في حمام الأسطورة باشبيلية ، وتعشقها جماعة من العوام • وفيها يقول أبو تمام غالب بن رهاب الحجام ، من شعراء القرن الحادى عشر :

ودمية مرمر تزهى بجيد
تنهاى في التورد والبياض
لها ولد ولم تعرف خليلا
ولا ألت بأوجاع المخاض
ونعلم أنها حجر ولكن
تتيمنا بالحفاظ مراض •

وكان يعمل بالحمامات قومة ، منهم الحكاك والحجام ، وكان لا يسمح لهم بالتجول داخل الحمام الا بسر اويل نظيفة بضاء • وكان المسقاءون يحملون الماء على ظهورهم من السقايات الى الحمامات • وقد

العمارة المدفنية بالانجلس

تصل المياه رأسا الى الحمامات من قنوات في جوف الأرض ، تنتفرع منها أنابيب الى المباني المختلفة كما حدث في أشبيلية في عهد أبى يعقوب يوسف (١١٧٢) •

ولقد تبقى في اسبانيا عدد كبير من الحمامات الاسلامية — في اشبيلية وبلنسية وميورقة وغرناطة وقرطبة وسرقسطة ومرسية وطليطلة وبسطة — ويرجع سبب بقاء كثير منها في حالة جيدة الى ضخامة جدرانها وصلابتها والى قدرة قبواتها على تحمل بخار الماء ، ثم الى وظيفتها النفعية ، وعدم وجود أية علاقة بينها وبين عمارة المساجد التى عمد الاسبان الى محوها من اسبانيا • ولذلك فان الحمامات هى أقل المنشآت الاسلامية تعرضا للتخريب والتدمير الذى لم تسلم منه بقية الآثار الأخرى •

حمامات طليطلة

تبقى منها حمامان ، وقد أصبح هذان الحمامان اليوم مصارف للقاذورات ومخازن ، الأمر الذى أدى الى سد فمحاتهما وتشويههما • أحدهما يقع قريبا من البوئو أمارجو (البئر المرة) بطليطلة ، وكان يعرف في القرن الثالث عشر باسم حمام يعيشر ، ويتألف من ثلاثة أروقة متوازية ، طول الواحد منها عشرة أمتار ، تعلوها قبوات نصف أسطوانية • ويقع الحمام الثانى — وكان يعرف بحمام زيد — فى الحى القديم لليهود ، ويتصل أسطوان المدخل فيه بروايتين متوازيين فى حجم مماثل لأروقة الحمام السابق ، تعلوهما قبوتان أسطوانيتان مزودتان بالمضاوى التقليدية •

حمام غرناطة

أقامة باديس الصنهاجى ، وكان يعرف فى العصر الاسلامى بحمام الجوز • وقد وءا ، الينا هذا الحمام فى حالة جيدة للغاية • وباب الحمام

يؤدي الى بيت المستراح الذى تخلع فيه الثياب ، وهو قاعة تعلوها قبوة نصف أسطوانية تتخللها مضوا مثمانية نجمية الشكل . ويتلو هذه القاعة البيت البارد ، وهو قاعة طويلة في نهايتها مخدعان يتقدمهما عقد ن على شكل حدوة الفرس تحملهما أعمدة ، ويلى هذه القاعة البيت الوسطانى ، وتحيط به ثلاثة ممرات، في كل ممر ثلاثة عقود على شكل حدوة الفرس قائمة على عمد ، وتلتقى بهذه العقود عقود أخرى عمودية على جدران القاعة من نصف دائرية . ويعلو الجزء الأوسط من القاعة قبوة مفرطحة . ويتبع هذه القاعة قاعة البيت الساخن التى تشبه القاعة الأولى . وينتهى الحمام بموقد وبعض الملحقات .

وجدران الحمام مبنية من ملاط شديد الصلابة ، أما العقود فمن الآجر .

حمام بلنسية

هو أكمل هذه الحمامات جميعا ، ويسمى اليوم حمام الميرانتى (Almirante) . ولقد تهدمت منه ردهة المدخل ، وبقيت عدة قاعات منها البيت الوسطانى ، وتعلو الفراغ المركزى بهذا البيت قبة مثمانية تقوم على جوفات مقوسة ، وحول هذا الفراغ أربعة ممرات تطل على وسط القاعة بعقود على شكل حدوة الفرس ، قائمة على عمد من الرخام الوردى بتيجانها الملساء . وتعلو هذه الممرات قبوات نصف أسطوانية تتخللها ، وتتخلل القبة الوسطى مضوا نجمية الشكل .

الفنادق

تأثر المسلمون في الأندلس بنظام الفندق الذى كان شائعا عند اليونان باسم (Agora) ، والرومان باسم (Horrea) ، فاستخدموا هذا البناء في مدنهم ومن العجيب أن الفندق الاسلامى في الأندلس ظل معروفا

العمارة المدنية بالأندلس

في اسبانيا المسيحية ، وكان يعرف باسم (Alhondiga) أو (Alfondiga) ومنها اشتقت اليوم كلمة (Fonda) ، وتعني بالاسبانية فندقا يأكل فيه النزلاء وينامون .

وكان الفندق في الأندلس بناء يقضى فيه التجار الغرباء ليلهم ، وتحفظ فيه البضائع وتخزن أو تباع أحيانا بالجملة ، فكان بمثابة الخان في المشرق بجانب وظيفته في التخزين والبيع . وكانت هذه الفنادق تتسمى بأسماء ما يباع فيها من بضائع : كالحبوب والقمح والخضروات والقراميد والتين ،... الى غير ذلك ، أو كانت تتسمى بأسماء أصحابها ، كـفندق زائدة بفرناطة .

ويشغل الفندق الأندلسي مكانة هامة في العمران الاقتصادي ، لذلك كثرت الفنادق في أهم مراكز المدينة ، أى حول المسجد الجامع . ويؤيد ذلك ما ذكره الادريسي خاصا بفنادق المرية من أنه كان بها ، في النصف الأول من القرن الثاني عشر الميلادي ، ما يقرب من ٩٧٠ فندقا .

ويتألف الفندق في الأندلس — كما نراه اليوم في مراكش — من بهو مستطيل أو مربع تدور به مجنبات أو ممرات تطل على هذا البهو . وتتوزع غرف الفندق وراء هذه الممرات . ويخصص الطابق الأدنى من الفندق للمخازن والاصطبلات ، أما العلوى فيشتمل على حجرات النزلاء ومخازن البضائع المعدة للبيع . وتقوم عقود المجنبات حول بهو الفندق على دعائم خشبية تربطها فيما بينها أوتار خشبية كذلك . وكانت هذه الدعائم ، في الفنادق الغنية ، تتخذ من الآجر ، ويتوسط البهو عسادة فوارة للسقاية .

ويمكن الصعود الى الطابق العلوى من الفندق من درجين . وجدران الفندق الخارجية خالية من أى منفذ وذلك لتجنب السرقات . أما المدخل فكان يتخذ شكل عقد متجاوز على هيئة حدوة الفرس ، أو منكسر على

العمارة المدنية بالأندلس

مثال عقود الموحدين ، ويحيط به اطار مستطيل تزين بنقشته ، أى خاصرته ، بعض التكوينات الزخرفية والتوريقات • ويلى المدخل ردهة أو أسطوان تعلوه قبوة أسطوانية أو من المقرنصات ، كما هو الحال فى فندق غرناطة المعروف اليوم بفندق الفحم • وتقوم غرفة الفندقى فوق هذا الأسطوان مباشرة ، وهى غرفة مزودة بنافذة مزدوجة العقد ، تطل على البوابة حتى يستطيع الفندقى أن يراقب منها عملية نقل البضائع •

ونظام هذه البوابة ، بعقدتها الضخم المنكسر ، يذكرنا بالايوانات المشرقية التى ظهرت بادىء ذى بدء فى القصور الساسانية • وتؤدى الردهة الى باب يفضى الى البهو ، ويعلو هذا الباب عتب ، وتعلو العتب نافذة مزدوجة العقد • ولم يكن بفنادق الأندلس أسرة للنوم ، بل كان النزلاء ينامون على حصريمدهم بها الفندقى كما يمدهم بالأغطية اللازمة • وكان على النزلاء أن يشتروا طعامهم من الخارج •

وما زال اسم الفندق يطلق اليوم على أحد شوارع اشبيلية (Calle de la Alfondiga) ويعد فندق الفحم بغرناطة أروع أمثلة الفنادق الأندلسية فى القرن الرابع عشر • وبوابته من أجمل البوابات فى المعارة الأندلسية • ويتألف هذا لفندق من ثلاثة طوابق ، ويتوسط بهو الفسيح حوض لسقاية النزلاء •

القيساريات

اشتهرت مدن الأندلس فى العصر الاسلامى بازدهار متاجرها وكثرة أسواقها • واختصت بعض المدن بكثرة منتجاتها الزراعية — كالزيتون وما يقوم عليه من صناعات ، والفواكه والخلال — وأخرى بوفرة منتجاتها الصناعية : كصناعة المنسوجات والبسط والغضار المذهب (الخزف) والزليج ، وصناعة الصابون واستخراج زيت الزيتون ، وصناعة آلات

العمارة المدنية بالأندلس

الصفير والحديد من السكاكين وما إليها • ولذلك كثرت بمدن الأندلس الأسواق العامة •

وكانت هذه الأسواق تمتد حول ساحة المساجد الجامعة ، وكانت البضائع القيمة تباع في بناء كبير على شكل مستطيل ، بداخله طريق تتوزع فيه الحوانيت على كلا الصفيين • وكان يطلق على هذا البناء اسم «قيسارية» • وكلمة قيسارية تعريب للكلمة اليونانية اللاتينية (Kaisareie) وتعنى السوق القيصرى التابع للدولة •

ونظام القيسارية في الأندلس يخضع لنظام قيسارية حلب الرومانية وكانت القيسارية الأندلسية تتألف أحيانا من شبكة من الطرقات الضيقة المسقوفة زنقات ، أو ممرات تدور حول بهو فسيح • وتنتفتح الحوانيت على هذه الممرات • وما زالت اشبيلية تحتفظ حتى اليوم بشارع يعرف بشارع القيسارية بجوار كنيسة سان سلفادور ، نسبة للسوق الذى كان يحيط بجامع ابن عدبس • ويحدثنا ابن عبدون في كتابه عن آداب الحسبه ، بأن هذه القيسارية كانت تضم سوق الثياب ، وسوق الخياطين الذى يسمى اليوم (Calle de los Alfayates) والصبانين ، وسوق السقاطين ، وسوق الصاغة والعطارين •

وكانت القيسارية قائمة حتى عهد الخليفة أبى يوسف يعقوب المنصور سنة ٥٧٢ هـ (١١٧٦ م) • اذ أمر بهدم الديار والحوانيت والفنادق التى كانت تحيط بساحة المسجد الجامع ، ثم أمر ببناء قيسارية حول هذا المسجد الموحدى : تأنق في بنائها ، وجعل لها أربعة أبواب ضخمة تحوطها من جوانبها الأربعة ، أكبرها الباب القبلى والباب الشمالى ، وكانا يقابلان بابى الجامع القبلى والشمالى • فلما كمل بناؤها بحوانيتها نقلت اليها أسواق العطارين والبزازين والخياطين • وتراحم الناس في المزايدة في كرائها ، فمنها الخراج في ذلك الوقت ، وعمر الجامع بالصلاوات

فيه • ويغلب على الظن أن أسقف هذه القيسارية الاشبيلية كانت من ألواح الخشب المنقوشة بالزخارف النباتية والتوريقات ، كما كان الحال في قيسارية مراکش •

وظلت هذه القيسارية قائمة بعد سقوط اشبيلية في أيدي المسيحيين وبقيت أبوابها قائمة حتى النصف الثاني من القرن السادس عشر وفقا لوصف المؤرخ الاشبيلي المعاصر لها ألونسو مرجادو • كذلك وصفها المؤرخ رودريجو كارد بعد ذلك بخمسين عاما بقوله : « وتقع القيسارية أمام الدرجات المؤدية الى كاتدرائية سانتا مارية • وعلى الرغم من فقرها الزخرفي فانها تعد بحق غنية بما تحتويه من أسواق الحرير والديباج وغيرها من المنسوجات القيمة • وهناك سوق الصاغة والحلى والجواهر »

ويحدثنا المؤرخ نفسه عن قيسارية جامع ابن عدبس (كنيسة سان سلفادور) فيقول : « ما زالت قائمة في المكان الذي كانت تشغله في عهد المسلمين » • وظلت القيسارية الكبرى قائمة حتى طليعة القرن التاسع عشر ، ثم اقتصررت — قبل عام ١٨٣٩ بقليل — على شارع واحد قصير هو شارع قيسارية الحرير ، في نهاية كل طرف منه عقد ضخم تقوم عليه غرف •

وكانت قرطبة تحتفظ حتى عهد حديث بميدان مستطيل الشكل يعرف بالقيسارية • وكانت لبلنسية قيسارية في النصف الثاني من القرن الثاني عشر • كما كانت لكل من طليطلة ومالقة وغرناطة قيسارية تقع قريبا من المسجد الجامع • وتبقى من قيسارية غرناطة طريق واحد من الطرق الكثيرة المتشعبة داخلها ، وتصطف على كلا جانبي هذا الطريق حوانيت كانت تباع فيها المنسوجات القيمة والمنتجات الثمينة • وقد احترقت هذه القيسارية سنة ١٨٤٣ • ويصفها مارينيو سيكيلو في القرن السادس عشر بقوله : « يوجد بها ما يقرب من مائتي حانوت ، تباع فيها المنسوجات الحريرية وجميع أنواع التجارات الثمينة • وهذا البناء — الذي يعد في

حد ذاته مدينة صغيرة — يشتمل على كثير من الأزقة والزناجات ، وينفتح في سوره عشرة أبواب عليها درابون أو حراس معهم كلاب يسهرون الليل » •

دور الصناعة

دار الصناعة بناء تصنع فيه السفن والآلات ، وكانت تسمى أيضا بدار صناعة القطائع ، أو دار صناعة الأسطول • ومن كلمة دار الصناعة اشتقت الكلمة الاسبانية (Atarazana) والكلمة الفرنسية (Arsenal)

ولم يكن للمسلمين عند فتحهم الأندلس معرفة بصناعة السفن ، فاستخدموا دور الصناعة القديمة لعمل سفنهم • فقد ذكر ابن القوطية القرطبي ، أن سارة القوطية (١) أنشأت مركبا باشبيلية توجهت به الى الشام ، ونزلت بمسقلان ويغلب على الظن أن هذه الدار كانت من بناء الرومان •

وذكر الحميري في كتابه « الروض المعطار » أنه كان بالجزيرة الخضراء دار للصناعة سنة ٧٤١ م في الوقت الذي نزلت فيه جنود بلج بن بشر في شبه الجزيرة • وقد أصلح الأمير عبد الرحمن بن محمد هذه الدار ، وأتقن بناءها ، على أسوارها • ثم اتخذها الثائرون زمن الطوائف قصرا • وورد ذكرها أخيرا في عهد الملك عبد الله الزيري ملك غرناطة •

ويبدو أن دار الصناعة باشبيلية قد توقفت عن انتاج السفن حتى عهد عبد الرحمن الأوسط ، حين بدأ النورمانديون يغيرون على ساحل الأندلس ، فاضطر الأمير ازاء ذلك الى بناء دار صناعة باشبيلية • ويقول ابن القوطية بهذه المناسبة : « فأمر باقامة دار صناعة باشبيلية ، وأنشأ

(١) هي ابنة « المند » أكبر أبناء الملك « غيطشة » ، آخر ملوك القوط الغربيين الشرعيين •

المراكب ، واستعد برجال البحر من سواحل الأندلس ، فألحقهم ووسع عليهم ، فاستعد بالآلات والنفط . فلما قدموا المقدمة الثانية سنة أربع وأربعين ومائتين (٨٥٨ م) ، في أيام الأمير محمد ، تلفوا في مدخل نهر اشبيلية في البحر ، فهزموا وحرقت لهم مراكب ، فانصرفوا » .

واهتم عبد الرحمن الناصر ، من بنى أمية خاصة ، باصطناع سياسة بحرية في الأندلس لمواجهة أخطار النورمانديين والغزو الفاطمي . وأقام دارا للصناعة بالمرية ، وثانية بطرطوشة ، وثالثة بقصر أبي دانس .

وبلغ الاهتمام بصناعة السفن أقصاه في عصر الموحدين فقد ذكر ابن صاحب الصلاة أن الخليفة الموحدي أبا يعقوب يوسف ، أمر واليه على اشبيلية ، أبا داود بلول بن جلداسن ، قبل حملته على شنترين بالبرتغال سنة ١١٨٤ : « أن يقوم ببناء دار صناعة للقطائع ، تتصل من سور القصبة الذي على الوادي بباب القطائع الى الرجل السفلى المتصلة بباب الكحل » . وقد أكد المؤرخ الاشبيلي « أورث دي ثونيجا » أن دار الصناعة الاسلامية كانت في الموضع نفسه الذي ذكره المؤرخ المسلم ابن صاحب الصلاة .

وقد قامت هذه الدار في عهد الناصر الموحدي بصناعة عدة سفن حربية . وكان يحميها برج الذهب الذي بناه أبو العلا ادريس المأمون سنة ١٢٢٠ ، ألا أن هذه الدار هدمت عند الهجوم البحري الذي قام به رامون بونيفاث ، قائد أسطول قشتالة ، على مدينة اشبيلية سنة ١٢٤٦ . وفي سنة ١٢٤٨ شرع ألفونسو العاشر في إعادة بناء دار الصناعة باشبيلية متبعا في ذلك النظام القديم .

وكانت دار الصناعة بأشبيلية تتألف من عدة أروقة عمودية على الوادي الكبير ، تفصل فيما بينها دعائم قوية من الآجر ، وتعلوها قبوات

العمارة المدنية بالاندلس

مرتفعة من البناء *** اذ كان المسلمون يحرصون على تجنب الخشب في
أبنيتهم الحربية لقابليته للحريق •

وفي عهد بنى نصر أقيمت دور أخرى لصناعة الأسطول في المرية
ومالقة • وقد استمرت دار صناعة الأسطول بالمرية قائمة حتى سقوط
المرية سنة ١٤٨٩ ، ثم خربت بعد ذلك •

أما دار صناعة الأسطول بمالقة ، فقد أنشئت كذلك في عصر بنى
نصر ، ولم يتبق منها اليوم سوى بوابتها الكبرى التى يبلغ ارتفاعها
٨ر٥٦ متر وعرضها ٧ر٥٠ متر • وعقدها من الرخام على شكل حدوة
الفرس المنكسرة بعض الشيء فى رأسها ، وتتناوب فى هذا العقد سنجات
بارزة وأخرى فى مستوى البناء ، ويحيط بحنية العقد شريط منبعج يتصل
بالأطراف العالم المربع ، ويعلوه عتب مستطيل ، ويشغل بنيقتى العقد رنكان
بارزان عليهما شعار بنى نصر ، وهو العبارة المشهورة « لا غالب الا الله »
ويعلو جدران البوابة افريز يمتد فيه صف من العقود المتجاوزة الصغيرة •
ويتوج الجدار كله شرفات تشبه شرفات الحصون •

جسور المياه

عندما افتتح المسلمون الأندلس شاهدوا كثيرا من الجسور الرومانية
الضخمة ، تحمل المياه من الجبال فى أنابيب دقيقة الى المدن • وقد استخدم
الفاثون هذه الجسور حيناً ، ثم تفننوا فى تشييد جسور من عمارتهم
حين تقدم عندهم فن البناء •

ويذكر ابن الفرضى أن عبد الرحمن الناصر أقام سنة ٣٢٩ هـ
(٩٤٠ م) « القناة الغربية الصنعة ، التى أجرى فيها الماء العذب من جبل
قرطبة ، الى قصر الناعورة غربى قرطبة ، فى المنابر المهندسة ، وعلى
الحنيا المعقودة • يجرى مأوها ، بتدبير عجيب وصنعة محكمة ، الى بركة

عظيمة عليها أسد عظيم الصورة ، بديع الصنعة ، شديد الروعة ، لم يشاهد أبهى منه فيما صور الملوك في غابر الدهر ، مطلى بذهب إبريز ، وعيناه جوهرتان لهما وميض شديد ... يجوز هذا الماء الى عجز هذا الأسد ، فيمجه في تلك البركة من فيه ، فيبهر الناظر بحسنه وروعة منظره وثجاجة صبه ، فتسقى من مجاهجه جنان هذا القصر على سعتها ، ويستفيض على ساحاته وجناته ، ويمد النهر الأعظم بما فضل منه ... فكانت هذه القناة وبركتها ، والتمثال الذي يصب فيها ، من أعظم آثار الملوك في غابر الدهر ... لبعد مسافتها ، واختلاف مسالكها ، وفخامة بنيانها ، وسمو أبراجها التي يترقى الماء منها ويتصوب من أعاليها . وكانت مدة العمل فيها ، من يوم ابتدأت من الجبل الى أن وصلت الى هذه البركة ، أربعة عشر شهرا » (١) .

ويغلب على الظن أن هذا الجسر كان لا يختلف في كثير أو قليل عن الجسور الرومانية بماردة وشقوبية وطركونة . ولسوء الحظ لم يتبق شيء من هذا الجسر .

أما اشبيلية فقد كان مشكلة امدادها بالمياه أمرا محيرا بسبب قلة مياهها العذبة القابلة للشرب . ولما اختار الموحدون هذه المدينة عاصمة لهم في اسبانيا ، لم يقفوا عاجزين أمام هذه المشكلة فقد نظر الخليفة أبو يعقوب يوسف في أمر توصيل المياه الى قصوره باشبيلية والبحيرة .

(١) قال ابن بشكوال عن هذا الجسر : « ابتدع الخلفاء من بني مروان في قصرها البدائع الحسان ، وأجروا فيه المياه العذبة المجتوبة من جبال قرطبة على المسافات البعيدة ، وتمنوا المون الجسمية حتى أوصلوها الى القصر الكريم وأجروها في كل ساحة من ساحاته وناحية من نواحيه في قنوات الرصاص تؤذيها منها الى اللصانع صور مختلفة الاسكال من الذهب الابريز والفضة الخالص والنحاس الموه الى البحيرات الهائلة والبرك البديعة والصحاريج الغربية في أحواض الرخام الرومية المنقوشة العجيبة »

العمارة المدنية بالاندلس

وكان خارج باب قرمونة — فى الفحص الواسع — أثر قديم ، قد بعد به العهد ، من بنيان جسر رومانى قديم ، قد علت عليه الأرض ، وأصبح هذا البناء خيطا رفيعا من حجارة لا يفهم المسلمون الغرض منه • فخرج اليه الحاج يعيش المهندس ، وحفر حول هذا الأثر ، فإذا به جسر من المياه قديم من عهد الرومان كانت تجرى فيه المياه • فمازال يعيش يتتبعه بالحفر حتى أوقعة الحفر فى العين القديمة ، المسماة عند أهل اشبيلية بعين الغبار ، كانت تخرج منها المياه ... فأذا تلك العين ليست بعين ماء ماء كما كان الظن ، وإنما كانت فتقا فى طريق الجسر الرومانى • فاستمر يعيش فى الحفر حتى اهتدى الى أصل الجسر — قرب قلعة وادى أيرة — فأصلحه المهندس ، وأجراه الى داخل اشبيلية حيث وزع على القصور والحدايق • ومازالت بقية من هذا الجسر قائمة بالقرب من باب قرمونة بأشبيلية • وبعض عقودها من الآجر ، والبعض الآخر من الحجارة •

القناطر

تتميز الأندلس بكثرة أنهارها التى تشق مدنها ، مثل : نهر تاجة ، ونهر آنة ، ونهر الوادى الكبير ، ونهر حدرة ، ونهر شنيل ، ونهر وادى لكه ووادى سليط • فكان من الضرورى أن يهتم أمراء الأندلس باقامة القناطر على هذه الأنهار لربط الضفتين • وكانت هذه القناطر أما قائمة على أقواس : مثل قنطرة طليطلة ، وقنطرة قرطبة وقنطرة سرقسطة ، وقنطرة ماردة • وأما قائمة على سفن : مثل قنطرة اشبيلية ، وقنطرة مرسية •

وقنطرة اشبيلية بناها الخليفة الموحدى أبو يعقوب يوسف سنة ٥٦٦ هـ (١١٧٠ م) ، لانجاز مصالح الناس ، واجازة الجند عليها فابتدأ العرفاء والصناع العمل بها ، والنجارة والهندسة لوضعها على النهر ، فى أول المحرم سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) فتمت فى ٧ من صفر من العام نفسه •

وعقد القنطرة على سفن مربوطة ، وبذلك يسر الاتصال بين اشبيلية وربضها المعروف بطريانة . وقد هدمت هذه القنطرة سنة ١٢٤٦ عند فتح الاسبان لاشبيلية .

وقنطرة قرطبة كانت تصل بين مدينة قرطبة وربضها المعروف بشقندة ، وهى من بناء الامبراطور أغسطس قيصر ، وقد وجدها الفاتحون العرب ، عند فتحهم لمدينة قرطبة ، مهدمة : قد سقطت حناياها ، ولم يبق منها سوى دعائمها . . . فجددها السمع بن مالك الخولاني من أحجار السور الرومانى . ثم جددت بعد ذلك فى عد هشام بن عبد الرحمن الداخل من خمس فى أربونة ، وأحكم بناءها وأتقنها . وقال يوما لوزرائه : الداخل من خمس فى أربونة ، وأحكام بناءها وأتقنها . وقال يوما لوزرائه « ما يقول أهل قرطبة ؟ » فقال أحدهم : « يقولون ما بناها الأمير الا عليها . وبالفعل لم يمر عليها طول حياته ، ووفى بما حلف عليه .

ثم جددتها عبد الرحمن الأوسط مرة ثانية . وأعيد بناؤها فى عهد الملك دون بدرو . ثم جددتها الملكان الكاثوليكيان . ثم أقيم بها سنة ١٦٠٢ قوسان جديدان . وفى سنة ١٧٨٠ جددت الدعائم التى تحمل القنطرة . وفى سنة ١٨٨٠ أعيد رصفها من جديد . ثم كسيت سنة ١٩١٢ بكسوة من الأسمنت غطت معالمها الأثرية . وفى نهاية القنطرة من جهة شقندة برج كبير يطلق عليه القلعة الحرة ، بناه أنريكي الثانى سنة ١٣٦٩ على أسس بناء اسلامى . وعدد أقواس هذه القنطرة اليوم ستة عشر قوسا تحملها سبع عشرة دعامة .

أما قنطرة طليطلة فتقوم على نهر تاجه . وكانت تتألف من قوس واحد تكتنفه فرجتان من كل جانب ، وقد خربت القنطرة أيام الأمير محمد وهدمها . ثم أعاد بناءها خلف بن محمد العامرى قائد طليطلة بأمر المنصور بن أبى عامر سنة ٩٩٧ . وخربت بعد استرداد القشتاليين لطليطلة ، ولم

يبقى منها سوى الكتف الكبير للجانب المقابل للمدينة ، فرمت سنة ١٢٥٩ •
وظلت على حالتها الى يومنا هذا •

وقنطرة القاضى بغرناطة ، التى تقوم على نهر حدرة ، لم يتبقى منها
اليوم سوى مخرج عقد على شكل حدوة الفرس ، ويلتقى هذا المخرج
ببرج سداسى الشكل ، مشيد من كتل حجرية • وفى هذا العقد شق
مزدوج كانت تحفظ فيه شبكة حديدية ترتفع فى حالة الفيضان ، وتنخفض
وقت الجفاف لتسد النهر • ومن هنا سمي هذا الموضع باسم باب الشبكة،
وسمى أيضا باب الضفاف ، وباب الحواجز ، اشارة الى تلك المغاليق •

ووصلت الينا قنطرة نهر شنيل عند التقائه بنهر حدره فى حالة جيدة،
وتتألف من خمسة أقواس نصف دائرية ، قطر الأوسط منها سبعة أمتار ،
وهو أكبر من بقية الأقواس • وتقوم هذه الأقواس جميعا على دعائم
مزودة بأكتاف مستديرة من ناحية ، ومدببة من الناحية الأخرى • والبناء
قوامه ألواح من الحجر الرملى مصفوفة على جوانبها ، كما هو الحال فى
قنطرة القاضى ، تتعاقب فى صفوف من كتل قائمة وأخرى ممتدة طولاً •

رابعا - العمارة الحربية بالأندلس

يشتمل هذا النوع من العمارة في الأندلس على الأسوار المحيطة بالمدينة بأبراجها وأبوابها ، وما أدخل على هذه الأسوار والأبراج من تحسينات استحدثها المسلمون لتدعيم النظم الدفاعية أمام خطر الاسترداد الإسباني : مثل الأبراج البرانية ، والأسوار الامامية ، والأبواب ذات المرافق . كما يشتمل على القصاب والقلاع التي كانت تقام عادة فوق الأماكن المشرفة العالية حتى تتمكن حامياتها من السيطرة والاشراف على كل ما يحيطها من مناطق .

وتحتفظ المدن الأندلسية في وقتنا هذا بتراث ضخم من الأسوار والقلاع الإسلامية التي تنطق حقا بالدور الكبير الذي قامت به ، كما تعبر عن الجهاد المرير الذي قام به المسلمون للاحتفاظ بوطنهم الحبيب والدفاع عن شرفهم وكرامتهم . وقد ظلت هذه الأبنية الحربية الإسلامية مثلا يحتذى للعمارة المدججة والمسيحية حتى عصر النهضة ، حين فقدت التحصينات من قيمتها الدفاعية القديمة على أثر ما ابتكرته الحروب من آلات حربية جديدة ، كالدافع والمتفجرات .

الأسوار

قنع الفاتحون المسلمون في أول عهدهم بالأسوار الرومانية التي كانت تحيط بأهم مدن الأندلس . فلما اتسع نطاق هذه المدن بازدياد عدد سكانها ، وتثلثت أسوارها ، وتمزقت نتيجة طبيعية للتوسع العمراني ، وإقامة الأرباض الخارجة عن نطاق المدينة ، واتصالها بالحومات أو الأحياء الداخلية وأصبحت هذه الأسوار عقبة كآداء في سبيل العمران استعمل المسلمون أحجار هذه الأسوار في بناء منشآتهم الدينية والمدنية ، وتحولت مواضع الأسوار المتهدمة الى شوارع فسيحة . ثم أقيمت أسوار

العمارة الحربية بالأندلس

اسلامية البناء على نطاق أكثر اتساعاً من الأسوار القديمة ، بحيث أصبحت الأسوار الجديدة تحيط بكل ما طرأ على المدينة من توسع عمراني جديد بعد الفتح .

وتأثرت العمارة الحربية الاسلامية ، بطبيعة الحال ، بالعمارة الحربية الرومانية أو البيزنطية التي كانت سائدة في اسبانيا ، وحذت حذوها بحيث يضعب على المرء التمييز بين الأسوار الرومانية والأسوار الاسلامية . وما لبث بناء الأسوار الاسلامية أن اكتسب طابعاً اسلامياً خالصاً ، وذلك منذ عهد الموحيدين حيث بلغ الغاية في الاتقان والتقدم أمام خطر الاسترداد الذي كان يهدد مملكة المسلمين في الأندلس .

وقد تبقت أجزاء كثيرة من الأسوار التي كانت تحيط بمدن الأندلس : ففي إلمرية أجزاء ما زالت قائمة من سور خيران العامري ، وفي قاصرش تبقى جزء كبير من سورها الموحدي ، وفي بطليوس أجزاء من سورها في عصر الموحدين ، وفي استجة كذلك بقايا من أسوار الموحدين ، وفي غرناطة وقرمونة والجزيرة الخضراء وأرقيش ومدلين بقايا أسوار من عهود مختلفة ودراسة جميع أسوار الأندلس أمر يخرج عن مجالنا ، لذلك فقد اكتفيت بمثالين لبعض هذه الأسوار بقرطبة واثبيلية .

أسوار قرطبة

نجح المسلمون في الاستيلاء على قرطبة من ثغرة في سورها القبلي بجانب باب القنطرة التي كانت قد تهدمت وقتئذ . ويبدو أن هذه الثغرة قد اتسعت بعد ذلك بسنوات ، كما تهدمت أسوار قرطبة من الجانب الغربي ، وأصبحت مدينة مفتوحة للداخلين إليها والخارجين منها .

وكان لا بد لو إلى الأندلس في ذلك الوقت أن يفكر في ترميم سور المدينة ، وتجديد بناء الجسر . فكتب السمع بن مالك الخولاني — وكان والياً على الأندلس وقتئذ — إلى الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز

العمارة الحربية بالأندلس

يستثيره في ذلك الأمر ، ويخبره « أن مدينة قرطبة تهدمت من ناحيتها الغربية ، وكان لها جسر يعبر عليه نهرها ، ووصفه بحمله وامتناعه من الخوض في الشتاء عامة ... فان أمرنى أمير المؤمنين ببنيان سور المدينة فعلت ، فان قبلى قوة على ذلك من خراجها بعد عطايا الجند ونفقات الجهاد وان أحب صرفت صخر ذلك السور فبنيت جسرهم • فيقال — والله أعلم — أن عمر رحمه الله أمر ببنيان القنطرة بصخر السور ، وأن يبنى السور باللبن اذ لا يجد له صخرا » • فبنى السور قنطرة قرطبة ، ثم مات عمر • وتولى يزيد بن عبد الملك ، وعزل السور بعد ذلك ، وبذلك تعطل بناء سور قرطبة •

وظل سور قرطبة مهتما حتى ولى الأمير عبد الرحمن الداخل الأندلس ، فأعاد بناء السور حول قرطبة باللبن في سنة ٧٦٦ م على أساس السور الرومانى القديم • • وفى ذلك يقول صاحب كتاب فتح الأندلس . « وفى سنة خمسين ومائة أمر الامام ابن معاوية ببناء سور قرطبة ، فبنى ما كان جبر منه باللبن ، اذ بنيت القنطرة من صخره ، فكمل بناؤه خصب ما أمر به » •

وكانت أبواب قرطبة سبعة : واحد في السور القبلى هو باب القنطرة ويعرف بباب الصورة نسبة الى تمثال للعدراء كان منصوبا في أعلاه ، وكان يسمى كذلك بباب الوادى • وباب الجزيرة الخضراء ، وبابان في السور الشرقى هما الباب الجديد ويعرف بباب سرقسطة ، وباب عبد الجبار ويعرف أحيانا بباب طليطلة ، وباب رومية • وفى السور الشمالى باب واحد هو باب اليهود أو باب ليون أو باب طليطلة • وفى السور الغربى ثلاثة أبواب هي من الشمال : باب عامر القرش ، وباب الجوز أو بطليوس ، وباب العطارين أو اشبيلية •

وفى سنة ٣٠١ هـ (٩١٣ م) ابتنى الناصر لهذه الأبواب أبوابا داخلية توازيها حتى يتمكن لآبوابون من تثقيفها • وكان هذا ابتكار

العمارة الحربية بالاندلس

معماريًا بقصد المبالغة في أحكام اغلاق هذه الأبواب •

وكانت أرباض قرطبة قد زادت ، وأصبحت تحيط بمدينة قرطبة أو قصبتها من جميع الجهات ، حتى بلغت واحدا وعشرين ربضا • وكانت هذه الأرباض خارج أسوار المدينة القديمة ، غير مسورة على الإطلاق • فلما كان عهد الفتنة التي تبعت سقوط الخلافة الأموية ، وأصبح الناس لا يأمنون على مالهم وأرواحهم ••• أقيم حول هذه الأرباض سور مانع وخندق يدور بجملتها • وذكر ابن غالب أن محيط هذا السور بلغ أربعة وعشرين ميلا بما في ذلك ربض شقندة على الضفة الأخرى من النهر • وكان بناء الأسوار من الطابية (١) •

ظل سور قرطبة موضع رعاية الأمراء والخلفاء حتى أعاد الموحدون بناءه بالملاط الصلب ، ولم يتبق منه اليوم الا بقايا متناثرة لها طابع عمارة الموحدين ، التي تتميز بأبراجها المربعة • ويحيط بالسور الأساسى سور آخر أمامى — أو « حزام برانى » وفقا لتسمية ابن أبى زرع في كتابه روض القرطاس — ويبلغ ارتفاع هذا السور الأمامى نصف ارتفاع السور الرئيسى • ويعلو الأسوار ممشى أو درب يسير عليه لمتحاربون • ويتوج السور شرفات مستطيلة الشكل •

وما زالت بقايا سور عبد الرحمن الداخل قائمة ابتداء من المستشفى العسكرى بقرطبة • وتتركز هذه الأسوار على أسس من قطع الحجارة المهذبة القطع • وهناك قطاع آخر من السور الرومانى القديم مازال قائما حول باب العطارين •

(١) هو تراب مختلط بالكبس يصب بين لوحين من الخشب مقدرين طولا وعرضا ، ومركزين على سسهما في المواضع المعدة للبناء • ويبنى السور كله ملتصقا كأنه قطعة واحدة •

أسوار اشبيلية

ظلت أسوار اشبيلية الرومانية تقوم بوظيفتها بعد الفتح الاسلامي مباشرة حتى اللحظة التي فاض فيها المجموع العمراني على نطاق المدينة . وتجاوز سورها القديم نتيجة لازدحام السكان وكثرتهم ، خاصة عند مقدم جنود الشام الى الأندلس واستقرار جند حمص في اشبيلية . وكان لابد للأسوار أن تطأطى من رعوسها أمام هذه الزيادة في عدد السكان ، لأنها لو بقيت كما هي لأصبحت لا محالة عقبة للتوسع العمراني للمدينة . لذلك فإن أجزاء من أسوار اشبيلية تفتحت لتتيح للسكان الاتصال فيما بينهم داخل المدينة وخارجها . ويغلب على الظن أن الجزء الذي تهدم تهدم منها هو الجزء المواجه للميناء ، وذلك لكثرة العمران به ، ولأنه المكان الذي دخل منه النورمانديون عندما احتلوا اشبيلية .

وكانت اشبيلية مدينة غنية بمنتجاتها ، عامرة بأبنيتها . وكانت ميناء تصدر منه منتجات الاقليم الجنوبي والغربي من الأندلس عبر الوادي الكبير والمحيط الأطلسي ، فكانت مدينة هامة ، تتمنى أى دولة الاستيلاء عليها . وجاءت اللحظة الحاسمة سنة ٨٤٤ عندما نزل النورمانديون في اشبيلية ودخلوها ، ولم تستطع الأسوار أن تمنع دخولهم ، أو تدفعهم عنها (١) . وذعر الناس ، وأدخلوا المدينة . . . فتحرك جيش قرطبة ،

(١) يقول ابن سعيّد : « وفي سنة تسع وعشرين ومائتين ظهرت مراكب الاردمانيين المجوس بسوانط غرب الاندلس . ويوم الاربعاء لاربعة عشرة خلت من محرم سنة ثلاثين ومائتين حلت على اشبيلية — وهى عورة — فدخلوها ، واستباحوها سبعة أيام . . . الى أن جاء نصر الخصى ، وهزم منها النصرارى المعروفين بالمجوس ، وعثت في مراكبهم . وفي ذلك يقول الشاعر عثمان بن المثنى : —
فقلت اذا جاءوا بعثنا لهم نصرا
يقولون ان الاردمانيين اقبلوا
وبعد هذا بنى سور اشبيلية بإشارة عبد الملك بن حبيب » .

العمارة الحربية بالأنطلس-

بقيادة الفتى نصر ، يؤازره جيش الثغر الأعلى بقيادة موسى بن قسى * وأعد المسلمون للنورمانديين كميناً وقع فيه هؤلاء ، وقتلهم المسلمون قتلاً ذريعاً ، واستردوا اشبيلية بعد أن طردوا منها الحامية النورماندية *

عندئذ أشار الوزراء على الأمير عبد الرحمن الأوسط ببنيان سور اشبيلية * وكتب الوزير عبد الملك بن حبيب الى الأمير عبد الرحمن ، اثر محنة اشبيلية ، في بنيان سورها وتحصينها * ووافق ذلك مشروع الأمير عبد الرحمن في بنيان زيادته بالمسجد الجامع بقرطبة * وذكر له الوزير في كتابه « ان بنيان سور مدينة اشبيلية أكد عليه من بنيان الزيادة في المسجد الجامع * فعمل برأيه في بنيان سور اشبيلية ، ولم يثن عزمه عن بنيان الزيادة ، فأعطى كلا منهما بقسطه من ارهاق العزيمة والسخو بالنفقة ، الى أن كمالاً معاً ، كما أراد » *

وذكر ابن القوطية القرطبي أن الأمير عبد الرحمن عهد ببنيان السور الى عبد الله بن سنان ، أحد موالى بنى أمية بالشام ، وكان وثيق الصلة بالأمير وهو طفل * فلما أصبح عبد الرحمن أميراً بعث في استقدامه ، فقدم في هذه الآونة التي قامت فيها مشكلة بناء سور اشبيلية * وقام عبد الله بن سنان ببناء السور ، ونقش اسمه على أبوابه *

ويذكر الحميري أن سور اشبيلية أوثق بناؤه بالحجارة * ويغلب على الظن أن نظام بنائه كان مماثلاً لبناء قصبة ماردة التي بنيت عام ٨٣٥ في عصر عبد الرحمن الأوسط نفسه ، وكذلك كان مماثلاً لبناء مسجد عمر بن عبدس باشبيلية الذي بنى في عهد الأمير أيضاً * ومن المحتمل أن هذا السور بنى من حجارة السور الرومانى القديم *

ظلت أسوار اشبيلية صلبة قوية * وكانت اشبيلية ، زمن الأمير عبد الله ، حصينة ممتعة * وكان يقوم بأمرها بنو خلدون وبنو حجاج * وفي عهد عبد الرحمن الناصر أرسل جيشاً الى اشبيلية بقيادة محمد بن حجاج

وقاسم بن وليد ، وحاصرها الجيش • ويظهر أن جزءاً من السور تهدم في أثناء الحصار ، وحاول ابن حجاج دخول المدينة منه • ولما دخل جيش الناصر اشبيلية أمر — بعد وقت قصير — واليه عليها ، سعيد بن المنذر • المعروف بابن السليم ، بتهديم أسوارها حتى يضمن خضوع المدينة له فهدمت سنة ٩١٣ م •

ثم أحيطت اشبيلية مرة أخرى بسور من الطابية زمن الفتنة ، أي بعد سقوط الخلافة الأموية بقرطبة ، وكان هذا السور يحيط بجميع حومات المدينة • فلما استولى المرابطون على اشبيلية ، قنعوا أول الأمر بأسوارها القائمة • ولكن المدينة لم تلبث أن اتسعت خارج الأسوار ، وأصبحت الأسوار لا تفي بحاجة المدينة الدفاعية في عصر اشتد فيه الصراع بين المسيحية والاسلام في الأندلس • وترك مدينة هامة ، مثل اشبيلية ، مفتوحة أمام غارات القشتاليين والأرغونيين ، يعد مغامرة خطيرة • • • فالأمر كان يقتضى حماية المدينة بأسوار ضخمة تحيط بأحيائها جميعا ، وتدفع عنها غارات الأعداء •

ثم أن اكتساح البسائط ، واضرام النيران في الفحوص التي تحيط بالمدن الأندلسية ، أمر من السهل تحقيقه • أما فتح مدينة مسورة منيعة فهو أمر صعب • • لذلك اتجهت أنظار رؤساء الأندلس في عهد المرابطين — خاصة بعد غارة ألفونسو المحارب سنة ١١٢٥ ، واكتساح أراضي اسبانيا الاسلامية حتى غرناطة واشبيلية — الى تحصين المدن الأندلسية ، فعمد هؤلاء الرؤساء الممثلون لحكومة المرابطين الى فرض ضريبة تعرف بالتعطيب على الفنادق ، وخصصت الأموال الناتجة لاعادة بناء أسوار بعض المدن كالمرية مثلا •

أما اشبيلية ، فلم يكن بها مال متوفر في الوقت الذي قامت فيه مشكلة اعادة بناء أسوارها • فاضطر قاضى المدينة أبو بكر محمد بن عبد

العبارة الحربية بالاندلس

الله ابن العربى المعافى ، الى أن يفرض على أهل المدينة جلود ضحاياهم يوم عيد الأضحى ، فأحضروها كرهين ... الا أن العامة ما لبثت أن ثارت عليه ، ونهبت داره . فاضطر القاضى الى بناء سور اشبيلية من ماله الخاص ، فأقامه بالحجارة والآجر والنورة (الكلس) .

ونضيف الى هذا النص الهام ، نصا آخر اكتشفه الأستاذ بروفنسال فى مخطوط لابن عذارى المراكشى . ويذكر هذا النص أن عليا بن يوسف أمر ببناء سور اشبيلية والشرقية بقرطبة وجزء من سور غرناطة . وقد هدمت هذه النصوص النظرية القديمة التى تنسب هذه الأسوار الى الموحدين . فكل ما عمله الخلفاء الموحدون لا يعدو تجديد بناء بعض أجزاء من هذه الأسوار . ويذكر ابن صاحب الصلاة أن أبا يعقوب يوسف أمر ببنيان سور اشبيلية من جهة الوادى الكبير بعد أن هدمه السيل سنة ٥٦٤ هـ (١١٦٦ م) ، فبنى بالجص والجيار .

وابتكر المرابطون عند بنائهم لسور اشبيلية نظاما جديدا ... ذلك أنهم أكثروا من الزوايا الداخلية والخارجية فيه بحيث يتخذ شكل خطوط متعرجة منكسرة . وميزه هذا النظام أن يترك المسلمون أعداءهم يتقدمون داخل احدى الزوايا ، ثم يندفعوا عليهم من أعلى الأسوار وعلى دروبها هيفتكوا بهم فتكا ذريعا . ويشبه هذا النظام الزمبرك : اذا ضغط عليه ثم ترك ، اندفع بقوة فيصيب ما يقابله .

ولما انهزم المسلمون فى عهد الخليفة محمد الناصر فى واقعة العقاب سنة ١٢١٢ ، واشتد خطر النصارى على اشبيلية ، عمد أبو العلاء ادريس (١٢١٨ — ١٢٣٠) الى تحصينها أمام الخطر المحدق بها ، فأقام بها سنة ١٢٢١ برجاً هائلا هو برج الذهب المشهور الذى لا يزال قائما حتى اليوم . ثم جدد أسوار المدينة ، وشيد أمامها سورا أماميا يحيط بها جميعا ، وحفر حولها خندقا يدور الأسوار مبالغة فى تحصين المدينة .

وكل هذه التحصينات جديدة في فن العمارة الحربية ، ابتدعها المسلمون في أواخر أيام دولة الموحدين ، حين اشتد الصراع بين ملوك اسبانيا المسيحية والمسلمين . واهتم المسلمون بالذود عن أراضيهم والدفاع عن كرامتهم ، فأتجهوا الى تحسين وسائل دفاعهم ، وتفننوا في مناعتها ، فابتدعوا هذه النظم المعمارية الجديدة : كالأبراج البرانية ، والأسوار الأمامية ، والابواب ذات المرافق .

وقد تبقى من سور اشبيلية الذي بناه المرابطون وجده وحسنه الموحدون ، قطاع كامل : يبدأ من باب مقارنة ، وينتهي الى باب قرطبة . ثم ينقطع مسافة قصيرة ، ويستمر دائرا بالمدينة مارا بحديقة « معهد الوادى » . وتقوم بين مسافة وأخرى من هذا السور الأساسى أبراج أكثر منه ارتفاعا تبرز خارج المدينة . وكان معظم هذه الأبراج على شكل مربع . ويتألف البرج من نصفين أدنى مصمت ، ونصف أعلى تشغله غرفة تعلوها في بعض الأحيان غرفة أخرى أعدت للدفاع ، وفتحت فيها منافذ السهام . ويرتقى الراقون درجا في داخل البرج يفضى الى أعلاه ، بحيث يشرف على الأسوار جميعا ، ويدور بأعلى البرج شرفات ودراو مستطيلة الشكل .

أما برج الذهب فهو برج برانى . والأبراج البرانية (Torres Albranas) ابتدع موحدي قصد به الدفاع عن منطقة الوادى الكبير ، واغلاق الطريق أمام الأعداء في أضعف أجزاء السور . ويرتبط برج الذهب بالسور الأساسى من طريق قورجة (Coracha) . وهى عبارة عن سور بسيط لم يتبق منه أى أثر اليوم . وأصبح البرج منعزلا يقوم وحيدا على حافة نهر الوادى الكبير .

كذلك أحس الموحدون بأهمية نظام الأسوار الأمامية في تحصيناتهم لأن السور الأمامى يمنع العدو المهاجم من شن هجومه مباشرة على الأسوار الرئيسية ، ويعطل من تقدمه لفتح الثغرات التى يمكنه أن ينفذ

العمارة الحربية بالأندلس

منها داخل المدينة ، لذلك ابتناه أبو العلاء ادريس سنة ١٢٢١ ليدعم به سور اشبيلية •

وكان يخترق اشبيلية في عهد الموحدين عدة أبواب ، سمي بعضها بأسماء المدن التي تتجه اليها مثل : باب قرطبة ، وباب قرمونة ، وباب مقارنة ، وباب شريش ، وباب طريانة • وأطلق على أحدها اسم معدن من المعادن الموجودة في المنطقة ، وهو باب الكحل ، وباب آخر سمي باسم دار الصناعة ، ويعرف بباب القطائع ، وباب سمي باب جهور ، والباب التاسع عرف بباب الفتح •

ولم يتبق من جميع هذه الأبواب ، بحالته الاسلامية ، غير باب واحد هو باب قرطبة •

القلع والقصاب

لما توطد سلطان المسلمين في الأندلس ، بحيث شمل الجزء الأعظم من شبة جزيرة أيبيريا ، وأحسوا بالاستقرار بعد الفتح ... عمدوا الى انشاء مراكز عمرانية جديدة ، تمكينا لمصالحهم الاقتصادية ، ورغبة في دعم نظامهم الدفاعي أمام المحاولات المستمرة من جانب الاسبان لطرد المسلمين من الأندلس • وتتميز أكثر المدن الأندلسية التي أسسها المسلمون بصفات حربية بحتة ، مما يدل على أنها أسست للدفاع عن بعض المناطق وأسماء هذه المدن تعبر بجلاء تام عن هذه الصفات : مثل قلعة جابر ، وحصن القصر ، وحصن الفرّج • كذلك أقام المسلمون قصابا أو حصونا عظيما في بعض الأماكن المرتفعة من المدينة لدعم الدفاع عنها •

حصن الفرّج :

يقع حصن الفرّج جنوب غربي طريانة من مدينة اشبيلية ، ويعرف اليوم باسم « سان خوان دي اثنالفراش » (San Juan de Aznalfarache)

وهو تحريف من حصن الفرع • وتاريخ بناء هذا الحصن يرجع الى عهد أبي يوسف يعقوب المنصور ••• اذ أنه لما عاد من حملته الظافرة التي استرد فيها شلب من البرتغاليين سنة ٥٨٥ هـ (١١٨٩ م) — أى قبل انتصاره فى موقعة الأرك بخمس سنوات — أمر أن يبنى له على النهر الأعظم باشبيلية حصن ، وأن تبنى له فى ذلك الحصن قصور وقبات ، جاريا فى ذلك على عادته من حب البناء وإيثار التشييد ، فتمت عمارة هذه القصور مثلما أراد •

ولما رجع المنصور الى اشبيلية سنة ٥٩١ هـ (١١٩٥ م) ، بعد انتصاره فى موقعة الأرك ، جلس للوفود المهتة فى قبة من تلك القبات المشرفة على نهر الوادى الكبير ، ودخل عليه الشعراء يمدحونه • وفى هذا اليوم أمر باستعراض جنده فى سلاحهم التام ، فلما مروا بين يديه ، وأعجبه ما رأى من حسن هيئاتهم ، قام وصلى ركعتين لله • وكان ذلك فى ٢٨ من جمادى الآخرة سنة ٥٩١ هـ ، وأصبح هذا الحصن مقرا صيفيا لخلفاء الموحدين ، ومركزا دفاعيا لمنطقة الشرف •

وسقط هذا الحصن فى أيدي القشتاليين سنة ١٢٤٦ بعد مقاومة عنيفة من جانب المسلمين ، ثم تهدمت أسواره فى سنة ١٢٨٤ ، وأقيمت حوله قرية سميت منذ ذلك الحين باسم (San Juan de Aznalfarache) • ولم يتبق منه اليوم سوى آثار ضئيلة لبعض أسواره المرتفعة •

حصن القصر :

من الحصون الشهيرة فى منطقة الشرف المحيطة باشبيلية ، ويقع على بعد ٢٥ كيلو مترا جنوب غربى اشبيلية ، فوق نشز يعرف اليوم باسم (Cerro de Alcazar) ، بحيث يشرف من هذا المرتفع على وادى الطلح • وهذا الموقع يعد من أروع المواقع الاستراتيجية • وكان المعتمد بن عباد كثيرا ما يقضى فيه أوقات نزهه • وآثار هذا الحصن الضئيلة تثبت أنه أقيم فوق أبنية رومانية قديمة • أما الآثار الاسلامية فيه فلا

العمارة البحرية بالاندلس

تعدو قطاعا من الأسوار طوله ٢٠ مترا وارتفاعه أربعة أمتار ، وبرجا ضخما ، بنيت جميعا من الطابية •

حصن فارو بمالقة :

يقوم على مرتفع جبل فارو ، الواقع شرقي مالقة ، على أسس قلعة فينيقية قديمة • بناه الأمير عبد الرحمن الداخل سنة ٧٨٧ م • وكان يتألف في ذلك الوقت من سياجين : أحدهما خارجي مبنى من الآجر ، والثاني يتصل بالقصبة • ولما تولى عبد الرحمن الناصر اهتم بتحسينه واتمامه • وحوله بنو حمود الى قلعة منيعة ، وأقاموا به برجا هائلا للإشراف على مالقة وخليجها يعرف اليوم باسم (Torre Vigia) ويبلغ ارتفاعه ١٧ مترا • وقد سقط هذا الحصن في أيدي الملكين الكاثوليكين سنة ١٤٨٧ م بعد حصار شاق دام أربعين يوما • وتبقى منه اليوم أسوار السياجين والجباب ، وجزء من البرج الأعظم الذي يقال انه كان يعلوه فنار يرسل الضوء الى البحر •

حصن المدور :

يقع هذا الحصن على جبل يبلغ ارتفاعه ١٥٥ مترا في الطريق ما بين قرطبة واشبيلية • بناه المسلمون سنة ٧٥٩ م ، وسمى بالمدور لاحاطة البياسى سنة ١٢٢٦ ، ولكن فرناندو الثالث افتتحه سنة ١٢٤٠ م • وأسوار هذا الحصن متعرجة أسواره لقمة هذا الجبل • وقد جددده أبو محمد تتفق أسواره في أماكن مختلفة منه ، وتقوم بها أبراج ضخمة كلها صماء من الداخل ، وتعلوها جميعا شرفات منشورية الشكل • أما مدخل الحصن فيقع في الجنوب الشرقي منه •

قلعة جابر أو قلعة وادي أيرة :

تقع على بعد ١٢ كيلو مترا غربى اشبيلية ، على الجانب الغربى

لاحدى الهضاب ، ويبلغ ارتفاعها نحو ٨٢ر٥٠ مترا ، ويحيط بها وادى
أيرة من الجنوب والغرب •

وقلعة جابر أهم مثل للحصون الأندلسية الباقية الآن • وكانت تعد
في العصر الاسلامى المفتاح الحقيقى لاقليم اشبيلية • وكانت — بما
تتضمن عليه من أسوار وأبراج ، وقصور ، ودور ، ومسجد جامع ،
وحوانيت — مدينة صغيرة •

وقد تردد اسم هذه القلعة فى المدونات العربية على ثلاث صور :
الأولى — وهى التسمية القديمة — أطلقها المؤرخون عند الفتح ، وهى
قلعة الرعواق • ثم أطلقت عليها التسمية الثانية : القلعة ، أو قلعة وادى
أيرة (Alcala de Guadaira) وهى التسمية الحالية • والصورة الثالثة هى
قلعة جابر ، وهذه التسمية الأخيرة أطلقت عليها فى عهد الموحدين •

ومن الثابت أن الموحدين جددوا بناء هذه القلعة ، وزودوا أسوارها
بالخنادق والأسوار الأمامية • ويتجلى ذلك فى نظام الابراج والاسوار
التي تشابه كل الشبه أسوار اشبيلية وقاصرش وبطليوس وأبراجها •
وكانت القلعة تتألف من سياحين بينهما سور فاصل فى وسطه باب • ولما
استولى فرناندو الثالث على القلعة أصلح حصونها ثم أعيد اصلاحها فى
القرن الخامس عشر فى عهد الملكين الكاثوليكين • وفى سنة ١٥٤٣ أجريت
عليها اصلاحات عديدة ثم جددت مرة ثالثة فى عهد فيليب الثانى •

ولما استولى الفرنسيون فى القرن الثامن عشر على القلعة ، خربوا
كثيرا من أبراجها ، وفتحوا ثغرات واسعة فى أسوارها لتكوين المدافع •
وبالرغم من جميع هذه الاصلاحات التى غيرت مظهر القلعة الاسلامية ،
نستطيع أن نميز أبراج الموحدين •

Vessel :

٢٤٠
agent :**قصبة المرية :**

تقع هذه القصبة في الجزء الشمالى من المدينة ، على جبل مرتفع بحيث يمكن الاشراف منها على الثغر . وتمتد القصبة طولا من الشرق الى الغرب ٥٣٠ مترا ، وتتخللها البروزات والأبراج الكثيرة في غير نظام . وقد لاحظ الحميرى هذا الامتداد طولا فقال : « وهو حصن منيع لايرام ، مديد من الشرق الى الغرب » .

وكان يصل القصبة بالمدينة الوسطى باب ، كما كانت مزودة بباب شرقى يخرج من أسوار المدينة . وكان بها مسجد جامع ما تزال آثاره قائمة حتى وقتنا هذا . وتتوزع القصبة في ثلاثة مرتفعات غير متساوية : فالمرتفع الأعلى يقع غربى القصبة ، ويتصل بسور ربض الحوض في خط يتفق مع طريق يعرف اليوم باسم شانكا . وكان هذا الجزء من القصبة هو معقلها الأمنع . ويغلب على الظن أنه القلعة المنسوبة الى خيران . وقد أعيد بناؤه في عهد الملكين الكاثوليكيين ، ويبدو ذلك واضحا في أبراجه الأسطوانية . أما المرتفع الثانى فيكاد يكون مربعا منبسطا في سطحه ، وكان يشغله القصر وملحقاته، ويتصل بسور ربض المصلى مخترقا الطريق المعروف اليوم باسم لاهويا ، وكان يصعد في سيره حتى يصل الى تل سان كريستوبال أو جبل لاهم الذى ذكره الادريسي . والمرتفع الثالث طويل للغاية ، وكانت في موضعة حدائق وبساتين أنشأها خيران بعد أن أجرى اليها المياه من المدينة .

وبناء أسوار القصبة قوامه ، في سائر أجزائها ، خليط من الملاط ، وتسندها أبراج تتجاوز السور في ارتفاعها . وبالأجزاء العليا منها غرف داخلية ، وتتمثل في بعض آثار هذه الأسوار بقايا جدران تتبع في بنائها النظام الخلافى . وقد أسفر البحث الأثرى عن كشف آثار حمام كان يتألف من خمس غرف تمتد على صف واحد .

قصبة بطليوس :

ذكرنا عند الحديث عن بطليوس أنها من بناء عبد الرحمن بن مروان الجليقي ، وأنه بنى أسوارها من الطوب والطابية • وقد زيد في سمك هذا السور في عهد الأمير عبد الله بن محمد • وأصبحت بطليوس في عهد الموحدين مهددة أمام خطر البرتغاليين والقشتاليين ، فأقام الخليفة أبو يعقوب يوسف بها قصبة شاهقة ، وأجرى إليها المياه من الوادي المعروف بوادي آنة سنة ١١٧٢ م •

وتقوم هذه القصبة على مرتفع من الأرض يبلغ ارتفاعه نحو ستين مترا ، يشرف على المدينة وعلى واديها • ويحيط بالقصبة سور بيضى الشكل ، مزود بأبراج مربعة ، وتتصل به بثلاثة قورجات لا يقل طول الواحدة منها عن ٢٢ مترا • وتنتهى هذه القورجات بأبراج برانية أشهرها البرج المعروف بأسباتنا بروس الذى كان يطلق عليه ، منذ عهد ليس ببيعيد ، اسم برج الطلائع ، وهو مئمن الأضلاع يشبه برج الذهب باشبيلية ، وجدرانه مبنية من ملاط ، ويجرى على هذه الجدران من أعلى افريز بارز من الآجر ، على نحو أبراج الموحدين • وقد تغلف من أبواب القصبة الثلاثة بابان : أحدهما يعرف بباب التاج ، والآخر بباب الزائدة ، وكلاهما نظام الأبواب ذات المرفق ••• اذ أن المر الواصل بين فتحتى الباب ينحنى بزاوية قائمة فى شكل المرفق • ويمتاز هذا النظام بوضع عقبات بتلك الانحناءات تفاجئ الأعداء عند هجومهم •

وجميع الأبراج والأسوار مبنية من الطابية ما عدا عقود الابواب فهى حجرية • وقد تبقت من أسوارها الواجهة الشمالية الغربية فى حالة جيدة • وكان يتقدم هذه الأسوار أسوار أخرى أمامية ، كما هو الحال فى سور مقارنة باشبيلية ، ويبلغ الفراغ بين السورين ما يقرب من ثلاثة أمتار • وقد أسفرت الحفائر الحديثة ، التى أجريت فى الواجهة الشرقية

بالقصبية ، عن كشف بقايا السور الأمامي الذي كان يدعم مراكزها الدفاعية •

قصبية مالقة :

ترتفع أسوار القصبية في جلال في منطقة من أجمل مناطق مالقة ، فوق نشز ينحدر تدريجيا • ولقد أقيمت القصبية أول الأمر ، في أواخر عهد الأمير عبد الرحمن الداخل ، لتحتمي المدينة من غارات النورمانديين • ثم أعيد تشييدها بين عامي ١٠٥٧ - ١٠٦٣ ، في عهد باديس الصنهاجي • وإلى ذلك العهد ترجع مجموعة أسوارها الموزعة في نطاقين • والأسوار مزودة بأبراج ضخمة مربعة الشكل ، تمتد من مسافة لأخرى ، مشيدة من الطوب مع ملاط ضعيف • وفي بعض أجزائها نكتل حجرية غير منتظمة في صفوف ضيقة بين صفوف مزدوجة من الآجر •

وتشتمل القصبية على قصر باديس الواقع بجوار مقر حجلات غرناطة ، كما أن هناك مجموعة من الدور الصغيرة اكتشفت في القصبية ، ولا تقل أهميتها عن أهمية القصر • ولعلها كانت خاصة بكبار الخدم في البلاط •

خامسا — التأثيرات المعمارية في الأندلس

كانت العلاقات الفنية وثيقة بين الأندلس وبلاد المغرب طوال العهد الاسلامي ، وعلى الأخص منذ أواخر الدولة الاموية بالأندلس . وبدأت التأثيرات الأندلسية في عهد بنى أمية تتسلل الى بلاد المغرب الأقصى ، ولكنها أخذت تشتد في عهد ملوك الطوائف ودولتي المرابطين والموحدين ، وشملت كل بلاد المغرب ، وانتهت هذه التأثيرات بسقوط غرناطة ، حين هاجر عدد كبير من أهل الأندلس الى بلاد المغرب واستقروا في مدنه ، يعمرونها ويغرسون فيها بذور حضارتهم الأصيلة .

التأثيرات الأندلسية في عمارة المغرب الأقصى

بدأت التأثيرات الأندلسية تفد الى بلاد المغرب منذ عصر المرابطين الذين تأثروا برقة الأندلس ومظاهر الترف فيها . ويذكر الادريسي أن عليا بن تاشفين ٥٠٠ — ٥٣٧ هـ (١١٠٦ — ١١٤٣ م) ، حين أراد بناء جسر على وادي تنسيقت ، أحضر من الأندلس مهندسين وأشخاصا آخرين مهرة في فن البناء . ويذكر الاستاذ هنري ترأس أن قلعة تسغيموت المراكشية أقيمت سنة ١١٢٥ م ، في عهد علي بن تاشفين ، بتوجيهات رجل أندلسي اسمه الفلكي هاجر الى مراكش . وليس من شك في أن فن المرابطين بمراكش والجزائر تأثر تأثرا كبيرا بالفن الأندلسي ، وهو أمر يقطع باثنتراك فنانين أندلسيين في أعمال البناء بمراكش . ومن هذه العمائر التي يتجلى فيها التأثير الأندلسي : قبة البروديين بمراكش ، والمسجد الجامع بتلمسان .

وعصر الموحدين هو العصر الذي توثقت فيه العلاقات الفنية بين المغرب والأندلس ، وانتقلت التأثيرات الأندلسية الى المغرب ، وظهرت في جميع الأبنية التي أقامها خلفاء الموحدين هناك : مثل جامع حسن برباط ، وجامع الكتبية بمراكش ، وقصبة رباط .

التأثيرات المعمارية بالأندلس

ويذكر ابن سعيد المغربي : « أن حضرة مراکش هي بغداد المغرب ، وهي أعظم ما في بر العدو ، وأكثر مصانعها ومبانيها الجليلة وبساتينها ، انما ظهرت في مدة بنى عبد المؤمن • وكانوا يجلبون لها صناع الأندلس من جزيرتهم ، وذلك مشهور معلوم الى الآن » •

هذه العبارة توضح لنا كيف انتقلت التأثيرات الأندلسية الى المغرب الأقصى في عهد الموحدين • وقد أيدھا قول ابن خلدون : « وأما المغرب فانتقل اليه ، منذ دولة الموحدين ، من الأندلس حظ كبير من الحضارة ، واستحكمت به عوائدها بما كان لدولتهم من الاستيلاء على بلاد الأندلس ، وانتقل الكثير من أهلها اليهم طوعا وكرها » •

والواقع أن أثر المهندسين الأندلسيين في عمائر بلاد المغرب في عهد الموحدين كان عظيما للغاية ، فلقد كان الخلفاء يحيطون أنفسهم — في بلاطهم بمراكش — بشعراء وعلماء من أهل الأندلس • واستخدم عبد المؤمن — وهو أقل خلفاء الموحدين الثلاثة الأوائل بالأندلس — عددا كبيرا من الكتاب الأندلسيين : منهم ابن عطية السدّي كان يقوم بهذه الوظيفة نفسها في العهد الأخير من دولة المرابطين •

ولقد برز من بين مهندسي الموحدين اثنان اشتركا في أعمال البناء بالأندلس ، في عهد عبد المؤمن وابنه أبي يعقوب يوسف ، وهما : أحمد بن باسة ، والحاج يعيش الملقى • ويدلنا اسم أحمد بن باسة على أنه أندلسي الأصل من أشبيلية ، كما يؤكد ذلك أنطونيا ملشر • ولعله ينسب الى أسرة الباصة المستعربة بطليطلة التي ينسب اليها اليان بن أبي الحسن بن الباصة ، في أواخر القرن الثاني عشر ، كما ينسب اليها أيضا حسن بن محمد بن باسة المتوفى سنة ٧١٦ هـ (١٣١٧) ، المكنى بأبي على صاحب الأوقات بالمسجد الجامع بغرناطة ، والمتضلع في علم الحساب والفلك ، وصاحب مواقيت الظل ، وابنه أحمد بن حسن بن باسة •

ونعتقد أنه كان لهذه الأسرة فرع في عهد ملوك الطوائف ، اذ ورد اسم ابن باسة في أحد فصول تاريخ أبى مروان بن حيان عندما يقول : « ... وانكدر بأثر وفاته ابن باسة هدام القصور ومبور المعمور ... بيده بادت قصور بنى أمية الرفيعة ، ودرست آثارهم البديعة ، وحطت أعلامهم المنيرة . قدمه ابن السقاء مدبر قرطبة لجمع آلات ما تهدم من القصور المعطلة » .

أما الحاج يعيش الملقى ، فهو أندلسى أيضا من مالقة . وقد أرسله الخليفة الموحدى عبد المؤمن ابن على مع زميله أحمد بن باسة سنة ٥٥٥ هـ (١١٦٠ م) للإشراف على أعمال البناء بجبل الفتوح (جبل طارق) . وبالفعل توجه ابن باسة من اشبيلية ، والقائد أبو اسحاق البراز بن محمد من غرناطة الى جبل الفتوح ، ولحقهما الحاج يعيش من مراكش . وأمر الخليفة عبد المؤمن بارسال عدد كبير من البنائين والنجارين والفعلة ، من اشبيلية ومناطق أخرى من دولته . وشرع المهندسون في بناء حصن الجبل في ٩ ربيع الأول سنة ٥٥٥ هـ ، وكمل بناؤه في أقل من ثمانية أشهر . وبنى الحاج يعيش طاحونة هواء في أعلى الجبل .

والحاج يعيش هو صاحب المقصورة الشهيرة الملحقة بالمسجد الجامع بمراكش ، وهى عمل ينم عن فن وحيل هندسية أعجبت كل من شاهدها ، تدور بمحركات خفية ترفع وتهبط بعد ساعات الصلاة ، ولا يرى منها الا الجزء الأدنى من المحراب . ولا تزال في أرضية الكتبية بمراكش — في المكان الذى كان يفصل هذا الجزء عن باقى أجزاء المسجد — آثار قطعتين من الخشب بينهما فراغ كاف عميق يتسع لجدران المقصورة حين تهبط فيه . ولا يشك الأستاذ تراس في أن يعيش الملقى هو الذى شيد مسجد الكتبية بمراكش وجامع تتملك ، وهو المهندس نفسه الذى كشف سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) عن جسر المياه الروماني باشبيلية ، وكان يحمل المياه

التأثيرات المعمارية بالأندلس

قديمًا من الوادى قرب قلعة جابر ، ثم انقطع منذ عهد قديم ، فنتبعه بعيش فى الطريق الى قرمونة حتى قلعة جابر فجدد بناءه •

وبعد أن أتم أحمد بن باسة أعمال البناء بجبل طارق مضى الى قرطبة لتجديد قصورها ، وتزويد جوانبها بالقلع الحصينة • ولما عاد الى اشبيلية فى رمضان عام ٥٦٧ هـ (مارس ١١٧١) ، عهد اليه الخليفة أبو يعقوب بالنظر مع البنائين والعرفاء فى بناء المسجد الجامع • وقد اشترك فى ذلك جميع عرفاء أهل الأندلس ومعهم عرفاء البنائين من مراكش ومدينة فاس وأهل العدو ، « فاجتمع منهم من أصناف النجارين والنشارين والفلة لأصناف البناء أعداد من كل صنف ، وصناع مهرة فى كل فن من الأعمال » •

كذلك شرع أحمد بن باسة فى بناء قصور البحيرة سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) خارج باب جهور من اشبيلية • وفى سنة ٥٨٠ هـ (١١٨٤ م) شرع فى بناء مئذنة جامع اشبيلية ، بعد أن ردم أساسها الذى تملؤه المياه بالأحجار والجيار ، وبلط موفد الماء حتى أمن استقرار الأساس وثباته • ويغلب على الظن أنه توفى بعد ذلك بقليل •

واشتهر من مهندسى المغرب على الغمارى من قبيلة غمارة ، وهو الذى قام ببناء مئذنة جامع اشبيلية بعد وفاة المهندس ابن باسة ، وكان يسافر الى مراكش من وقت الى آخر للاشراف على أعمال البناء هناك : كالقصبه بمراكش ، وقصور الخليفة ، والصوامع ، والأسوار بفاس وتاجدرات • ويمكننا أن نميز التأثيرات الأندلسية فى جميع هذه الأبنية •

واشتدت التأثيرات الأندلسية فى عمائر المغرب بعد انهزام الموحيدين فى موقعة العقاب المعروفة بلباس نافاس دى تولوزا سنة ١٢١٢ ، اذ عبر

عدد كبير من أهل الأندلس الى بر العدو مهاجرين الى المغرب ، بعد أن أخذ الأعداء من القشتاليين والأرغونيين يلبثهم مدنهم • وازدادت الهجرة الى المغرب الأقصى بعد هزيمة المسلمين في موقعة نهر سالادو في جمادى الأولى سنة ٧٤١ (٣٠ أكتوبر سنة ١٣٤٠) في عهد السلطان أبى الحجاج يوسف بن الأحمر •

ولما قضى على عدد كبير من أهل الأندلس بالخروج منها — بعد سقوط غرناطة — تفرق كثيرون منهم ببلاد المغرب الأقصى من بر العدو • فأما أهل البادية فمالوا في البوادي الى ما اعتادوه ، ودخلوا أهلها ، وشاركوهم فيها فاستنبطوا المياه ، وغرسوا الأشجار ، وأحدثوا الأرحاء الطاحنة بالماء ، وغير ذلك • وعلموهم أشياء لم يكونوا ليعلموها ولا رأوها ، وصلحت أمورهم ، وكثرت مستغلاتهم ، وعمتهم الخيرات • وأما أهل الصنائع فانهم فاقوا أهل البلاد ، وقطعوا معاشهم ، وأخملوا أعمالهم وصيروهم أتباعا لهم ، ومتصرفين بين أيديهم • وكانوا اذا كلفوا بعمل من الأعمال ، أكملوه في أقصر وقت ، وأفرغوا فيه من أنواع الحذق والتجويد والمهارة ما يجذبون به اعجاب الناس بهم • وكانت لهم اليد الطولى في بناء عمائر بنى مرين بفاس ومراكش ومكناس وسلا والرباط وشالة وغيرها من المدن المغربية الكبرى ، وما زالت آثارهم قائمة في المساجد والقصور والمدارس والحصون والحدائق والبساتين ، وكافة أنواع الأبنية التي تزخر بها هذه المدن •

ولقد تبقى اليوم في مدينة سلا ، الواقعة على المحيط الأطلسي ، بابان بدار الصناعة التي أنشأها بين عامي ٦٥٠ — ٦٦٠ هـ (١٢٦٠ — ١٢٧٠) مدجن من اشبيلية هاجر في هذا العصر الى سلا ، واسمه محمد

التأثيرات المعمارية بالأندلس

بن علي بن عبد الله بن محمد بن الحاج الأشبيلي (١) الذي أنشأ أيضا الدولا ب (الساقية) القائم في مدينة فاس جديد ، وذلك في النصف الثاني من القرن الثالث عشر ، في عهد السلطان أبي يوسف يعقوب المنصور بن عبد الحق المريني وأكبر البابين هو باب المرسى أو باب الميناء الصغير وبه عقد كبير على شكل حدوة الفرس منكسر تبلغ سعته تسعة أمتار ، ويحيط به أفريز زخرفي ، كما يدور حوله نقش كوفي • أما بنيقناه فتحتشد فيها زخرفة من التوريقات • ويتوج عقد المدخل أفريز من عقود صغيرة •

التأثيرات الأندلسية في تونس

بعد أن استولى خايمي ملك أرغون على بلنسية انتقل كثير من أسرة ابن مردنيش وأهل شرق الأندلس الى تونس ، وأقاموا في كنف السلطان أبي زكريا الحفصي • ويذكر ابن خلدون : « أنهم أبقوا فيها وبأمصاها من الحضارة آثارا ، ومعظمها بتونس ، امتزجت بحضارة مصر ، وما ينقله المسافرون من عوائدها » •

وقال ابن سعيد المغربي في هذا المعنى : « ومدينة تونس بأفريقية قد انتقلت اليها السعادة التي كانت في مراكش بسلطان أفريقية أبي زكريا يحيى بن أبي محمد بن أبي حفص ، فصار فيها من المباني والبساتين والكروم ما شابهت به بلاد الأندلس ، وعرفاء صناعه من الأندلس ، وتمثيله التي بينى عليها ، فانما أكثرها من أوضاع الأندلسيين » •

(١) يغلب على الظن أنه ينتسب الى الحاج يعيش الملقب ، ويقول ابن الخطيب في الإحاطة حين يتعرض لنكر محمد الحاج الأشبيلي أن هذا المهندس يجيد الحيل الهندسية ، وكذلك الآية الحربية الجافة • وقد أقام بفاس الدولا ب الكبير •

وكان ابن سعيد يدرك تمام الادراك مدى الأثر الأندلسي في بلاط تونس ، لأنه خدم الأمير أبا عبد الله المستنصر ، خليفة أبي زكريا يحيى ، وهو أكبر بناء هذه الأسرة • وكان بلاطه يزخر بالأندلسيين الذين هاجروا الى جواره • وكان أبو زكريا هذا أقوى أمير في زمنه على افريقية ، وكان يفرض سلطانا مؤقتا على اثبيلية وبلنسية ومرسية وشرش وطريف •

وقد أقيم في عهد سلاطين بنى حفص كثير من القصور والمنقوشات : منها قصر رأس الطابية الذى أسس في عهد السلطان المستنصر الحفصي، ٦٤٧ — ٦٧٥ هـ (١٢٤٩ — ١٢٧٧ م) • وكانت بساكنة تتبع نظام بهو السباع بغرناطة • والى هذا السلطان تنسب جنة أبي شهر التى تبعد كيلو مترا واحدا عن جنوب تونس •

وتحتفظ تونس بأسواق العطور والمنسوجات التى ترجع الى هذا العصر • وأهم آثار بنى حفص التى يتجلى فيها التأثير الأندلسى بعض الزخارف التى تزين باب لالا ريحانة ، بجامع القيروان ، ومسجد باب الدرب بالمنستير الذى أقامه المستنصر الحفصي سنة ٦٥٨ هـ (١٢٦٠ م)

التأثيرات الأندلسية فى الجزائر

وفد كثير من فناني ومهندسي الأندلس الى تلمسان ، فى عهد بنى زيان الذين حكموا المغرب الأوسط أو الجزائر ، فى النصف الأول من القرن الثالث عشر ، حتى منتصف القرن الرابع عشر • وكانت تربط ميناء تلمسان بميناء المرية روابط وثيقة • ولقد طلب أبو حمو الأول سنة ٧٠٧ — ٧١٨ هـ (١٣٠٨ — ١٣١٨ م) وابنه أبو نائفين سنة ٧١٨ — ٧٣٧ هـ (١٣١٨ — ١٣٣٧ م) من السلطان أبي الوليد اسماعيل ملك غرناطة سنة ٧١٣ — ٧٢٥ هـ (١٣١٤ — ١٣٢٥ م) أن يبعث اليه عددا من صناع وفناني الأندلس لبناء القصور بحاضرتة تلمسان ، اذ أن هذه المدينة كانت

التأثيرات المعمارية بالاندلس

تحتفظ حتى ذلك الوقت بخشونة الحياة البدوية • وشرع في بناء هذه القصور في عهد أبي حمو ، وتم بناؤها في عهد خلفه أبي تاشفين • ولقد أرسل اليهما أبو الوليد اسماعيل ، أعظم مهندسى مملكته • وأمهرت نلمسان وقتئذ بالقصور والدور والحدائق والجنان التى لم يبين مثلها بعد ذلك ، ومن هذه الأبنية : دار الملك ، ودار السرور ، ودار أبي فهر • وساهم أبو تاشفين — وكان أميرا فنانا عالما بفن الرسم ، محبا للبناء والتعمير — أكثر من أى سلطان آخر في تجميل عاصمته ، وذلك ببناؤه القصور • كما شجع رجال قصره على بناء القصور ، وإنشاء الجنان ، وغرس البساتين • وفاق بذلك أباه فيما قام به في هذا السبيل • وللأسف لم يتبق شيء مما أقامه ، إذ أن السلطان المريني أبا العباس خربها ودمرها سنة ٧٨٦ هـ (١٣٤٨ م) •

وتصور المساجد التى أقامها بنو زيان الى أى حد تأثر فن العمارة الجزائرية بالعمارة الأندلسية • ويعد مسجد سيدى بل حسن ، الذى أقامه السلطان أبو سعيد عثمان سنة ١٢٩٦ ، صورة مماثلة لمسجد الحمراء ولقد نقل الى نلمسان كثير من العناصر الزخرفية من الأندلس ، منها الزليج الذى كان يزين مسجد المشوار بمدينة نلمسان •

وتصور واجهة مسجد العباد مدى تأثير العمارة الغرناطية في عمارة الجزائر ، في عهد السلطان أبي الحسن المريني ، إذ أن زخارف التوريقات والزخارف الهندسية ، التى تكسو الجدران جميعا موزعة في تقاسيم غاية في الروعة والجمال • كذلك يمكننا مقارنة مؤذنة المنصورة بمؤذنة جامع اشبيلية : لتشابه تقاسيمهما الزخرفية ، وتفصيلهما المعمارية ، وتشبيكاتهما القائمة على تقاطع العقود بنظائرها في الخير الدا •

التأثيرات الأندلسية في العمارة المصرية

يعد عصر المماليك العصر الذى تسربت فيه التأثيرات الفنية الأندلسية الى مصر • ذلك لأنه العصر الذى توثقت فيه عرى الصداقة بين مصر واسبانيا المسيحية والاسلامية معا • فما كادت تسقط بغداد في أيدي التتار سنة ١٢٥٨ حتى تألفت في القاهرة جبهة قوية لدفع خطر التتار المدمر • واستطاع الملك المظفر سيف الدين قطز أن يهزمهم هزيمة نكراء في واقعة عين جالوت في ٢٥ من رمضان سنة ٦٥٨ هـ (٣ سبتمبر سنة ١٢٦٠) • وبذلك تمكنت مصر من صد هذا السبيل الجارف الذى كان يهددها ويهدد دول أوروبا • وقدر لمصر أن تنقذ أوروبا من غزو محقق كاد بقضى قضاء مبرما على معالم حضارتها ، وارتفع بذلك شأن مصر ، وأخذ ملوك اسبانيا المسيحية يخطبون ود سلاطينها بالسفارات المنتابعة •

ولقد أتاحت لنا الوثائق العربية بمحفوظات مملكة أرغون أن نتتبع تاريخ هذه الصلات الودية تتبعاً تاريخياً ، منذ أن وقعت بين الملك الأشرف خليل بن السلطان المنصور قلاوون ، و « خايمي » الثانى ملك أرغون ، معاهدة الصداقة والسلم في ١٩ من صفر سنة ٦٩٢ هـ (٢٨ يناير سنة ١٢٩١ م) ، واشترك في هذه المعاهدة ملك قشتالة وليون وملك البرتغال • ولقد جددت هذه المعاهدة في عهد الملك الأشرف برسباي في ٣٠ مايو سنة ١٤٣٠ بينه وبين ألفونسو الخامس ملك أرغون • وكانت العلاقة طيبة للغاية بين سلاطين بنى الأحمر بغرناطة ، وسلاطين المماليك في مصر • ويمكننا أن نذكر على سبيل المثال السفارات المتبادلة بين ملك غرناطة محمد الخامس ، وملك مصر الأشرف شعبان في النصف الأخير من القرن الثامن الهجرى • كما أرسل الغالب بالله محمد بن محمد بن نصر سنة ١٤٤٠ عدة سفراء الى السلطان الظاهر جقمق ، (١٤٣٨ — ١٤٥٣) طالبا منه معونة يتقوى بها مسلمو الأندلس في الدفاع عن أنفسهم ضد جيرانهم المسيحيين في أسبانيا •

وكان من أثر هذه العلاقات الطيبة أن زار مصر عدد كبير من أهل

التأثيرات المعمارية بالأندلس

غرناطة سواء للتعليم أو التدريس ، وقد أقام فيها من طابت له الإقامة • وكانت حركة الاسترداد الأسباني قد أوشت أن تجهز على دولة الإسلام بالأندلس ، التي انكمشت رقعتها بعد موقعة سلاو ، فهاجر عدد كبير من أهل الأندلس الى مصر عند سقوط مدنها ، ووفد كثير من هؤلاء المهاجرين الى بلاط سلاطين المماليك يحثونهم على استرداد الأندلس ، وانقاذ مملكة غرناطة •

وليس من شك في أن من بين هؤلاء المهاجرين بعض الصناع وأرباب الحرف والعرفاء • ويدل على ذلك بعض قطع الزليج الأنديسى التي عثر عليها في حفائر الفسطاط ، مما يؤيد ما ذكره سفير السلطان الغرناطى الغالب بالله محمد ، الى السلطان جقمق ، في رسالته أنه هو وأصحابه قدموا بعض الهدايا الى اسطان الملوكي • ويقول هذا السفير : « وقد كنا قد قدمنا له شيئاً مما اصطحبناه من متاع الأنديس : كالفخار الملقى ، والنجار الغرناطى ، وشيء من ثياب الخز المنسوجة بها ، وغير ذلك » •

وكان لهذه العلاقات أثرها الكبير في نفاذ التأثيرات الأنديسية في العمارة المصرية في عصر المماليك • وتشهد ذلك في عقود الطابق الأعلى من مؤذنة المنصور قلاوون ، وفي تفاصيل الزخرفة الجصية بمؤذنة الناصر محمد بالبحاسين ، وعقود مسجد سنجر الجاولى

وهناك بعض عناصر معمارية أخرى تكشف عن تأثير أندلسى مباشر • فان أوجه الجزء المربع من مؤذنة جامع ابن طولون ، التي أعاد السلطان حسام الدين لاجين بناءها من الحجر ، بها أربع مجموعات من فتحات صماء ، تتكون كل مجموعة من عقدين متجاوزين توءمين ، يستندان في وسطهما على عمود صغير • ويخضع أسلوب هذه العقود للنوع المعروف في الأنديس • وقد قارن العالم الأثرى « فيلاسكت بوسكو » بين هذه النوافذ ونوافذ اسبانية بحثة موجودة في بعض الكنائس المستعربة ككتيستي : سان ميغل دى اسكالادا ، وسانتياجو دى بنيالبا • وقد قارنا كذلك بين نوافذ مؤذنة ابن طولون وبعض نوافذ قرطبة ومسجد المسلمين بطليطلة •

وتصل بين المسجد والمئذنة قنطرة من البناء ، يحملها عقدان متجاوران يمثلان العقود الأندلسية • كما أن عقد باب المدخل الى برج المئذنة على شكل حدوة الفرس • وتتفق جميع هذه العقود في نسبها ، ومواقع مراكزها ، مع العقود الأندلسية ذات الطابع الخلافي • وبأسفل القنطرة التي تربط الجامع بالمئذنة كوابيل من طراز كوابيل جامع قرطبة نفسها في عهد عبد الرحمن الناصر • وكل هذه العناصر المعمارية والزخرفية لا يمكن بأي حال من الأحوال أن تظهر في القاهرة في القرن التاسع الذي أنشئ فيه جامع أحمد بن طولون ••• اذ انها لم تظهر في الأندلس نفسها — وهى المصدر الذى وفدت منه الى جامع ابن طولون — الا في أواخر القرن العاشر ، مما يقطع بأن مئذنة ابن طولون بناء متأخر من عصر المماليك •

وفى القبوة التي تعلو أسطوانة المدخل بجامع الجاى اليوسفى ، وجامع المؤيد ، شيخ مقرنصات داخل جوفة صليبية الشكل ، ترجع الى تقاليد أندلسية • ونرى أصلها فى قبوات الموحدين بجامع اشبيلية ودير لاس أويلجاس ببرغش •

أثر العمارة الأندلسية فى العمارة المسيحية

كان ملوك المسيحية بأوربا يرسلون رسلهم الى خلفاء الأندلس ، رغبة فى كسب ودهم ، وخطب مرضاتهم • وقد ذكر المقرئ أن ملك القسطنطينية توفلس بعث الى الأمير عبد الرحمن الأوسط سنة ٢٢٥ هـ بهدية يطلب منه مواصلته ، ويرغبه فى ملك سلفه بالمشرق من أجل ما ضيق به المأمون والمعتصم • فكافاه عبد الرحمن على الهدية ، وأرسل اليه سفيره يحيى الغزال • ووفد الى قرطبة فى عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر ، رسل « صاحب القسطنطينية » ، ثم جاءه رسل من ملك الصقالبة دوقوه ، ورسول آخر من ملك الألمان ، ورسول ثالث من ملك الفرنجة وراء جبال البرانس • وفى سنة ٣٤٠ هـ جاءه رسول أردون يطلب السلم فعقد له •

التأثيرات المعمارية بالآندلس

وفي عهد الخليفة الحكم المستنصر وفد الى قرطبة أردون بن اذفونش ملك الجلالقة ، ووصلت رسل غرسية بن شانجة ملك البشكنس يسألونه الصلح ، ثم وفدت على الحكم أم لذريق بن بلاشك القومس * وأرسل بدور القاسى ملك غرناطة سفارة الى السلطان محمد الخامس يطلب منه فيها أن يبعث اليه بفنانين مسلمين لاقامة قصره باشبيلية ، فأرسل اليه السلطان المذكور طائفة من أمهر البنائين والصناع بغرناطة *

ولا شك أن هذه العلاقات الطيبة — بين ملوك أوربا وأمراء الأندلس — كانت سببا في تغلغل تأثيرات العمارة الأندلسية في العمائر المستعربة بشمالى أسبانيا ، والعمارة الرومانية باسبانيا وفرنسا *

ولقد بلغ تأثير الفن الخلافى بقرطبة أقصاه في كنائس أستورياس، حيث كان تأثير الرهبان منذ القرن الثامن الميلادى قويا للغاية * وتتمثل هذه التأثيرات في استخدام عقد حدوة الفرس والطرر المربعة المحيطة به أو النوافذ المزدوجة * كذلك نرى هذه التأثيرات الأندلسية في كنائس جليقية مثل : كنيسة سانتياجو دى بنيالبا ، وسان مارتينيودى باتو * وشهدت عمارة ليون فيضا من التأثيرات الأندلسية في كنائسها المستعربة أمثال : سان ميان دى لاجويا (٩٨٤) ، وسان ثبريان دى ماثوتى التى بناها القس القرطبى خوان سنة ٩٢١ ، وفي كنيسة سان باوديل دى برلانجا قبة صغيرة تتألف من أربعة عقود متقاطعة في زوجين ، فوق عقدين آخرين يتقاطعان في وسطهما ، بحيث تتألف منهما قبوة شبيهة بقبوات جامع الباب المردوم بطليطلة *

ونظام القباب الاسلامية أثر تأثيرا عميقا في القباب المسيحية ذات الأسلوب الرومانى ، مثل : قبة المزان بقشتالة ، وقبوة مصلى توريس دل ريو بنافارة ، وبرج دير موساك ، وبوابة كاتدرائية سان برتران دى كومنج ، وأولورون وأوسبيتال سان بليز بفرنسا *

فلقد أقيمت القبوة التي تغطي الغرفة العليا من برج دير موساك (١١١٥ — ١١٢٠) وخوذة هذه القبوة تتألف من أجزاء متصلة ، تتوسطها فتحة يتجه إليها ١٢ قوسا تنبت من أثني عشر عمودا ملتصقة بالجدران • أما قبة مستشفى سان بليز القائم في منطقة جبال البرانس ، بمر سومبور في طريق الحج الى شنت ياقب ، فتشبهه — الى حد كبير — إحدى قباب الباب المردوم بطليطلة •

ويتجلى التأثير الأندلسي في كثير من العناصر المعمارية بكنيسة مستشفى سان بليز ، وذلك في استعمال التشابكات المخرمة في النوافذ بدلا من الشمسيات الزجاجية الملونة ، واستخدام العقد المتعدد الفصوص فوق حنية الكنيسة • والقبة الوسطى بهذه الكنيسة تقوم على قاعدة مربعه تتحول الى مثنى عن طريق جوفات مقوسة في الأركان • وتنطلق من جوانب المثنى عقود تتقاطع فيما بينها مؤلفة شكلا نجميا وسطه أجوف ، شأنه في ذلك شأن قبتي جامع قرطبة المجاورتين للمحراب وتشبه هذه القبوة قبوات أخرى في كنيسة سان كروا بأولورون تقوم على الضلوع المتقاطعة •

ولقد كانت هناك مناطق فرنسية أخرى على علاقة وثيقة بإسبانيا في القرنين الحادي عشر والثاني عشر مثل : جاسكونيا ، ولانجدوك ، ومقاطعة أكيثانيا ، وانجو ونورماندى • اذ شوهدت بعمارة هذه المناطق محاولات كثيرة للقبوات ذات الضلوع تسبق التصليبات القوطية بعهد طويل ، ومنها استلهم المهندسون الفرنسيون الحل المعماري الفريد الذي تكشف عنه القبوات القوطية المصلبة ، بنورماندى وسانتونج وبواتو ولم تأخذ التصليبات القوطية مظهرها النهائي الا في اليوم الذي وحد فيه مبدأ الضلوع القرطبية مع القبوة المتقاطعة ، وذلك بدعم الأجزاء البارزة من هذه القبوة الأخيرة بادخال نظام العقود المتقاطعة • ثم استخدم هذا الابتكار في تغطية مسطحات واسعة بالكنائس ، عوضا عن تغطية أماكن ضيقة محصورة ، شأن القباب الأندلسية • واستغل هذا الابتداع ، الذي

التأثيرات المعمارية بالاندلس

اهتدى اليه مهندسو نورماندى وانجلترا فى كنيسة درهام سنة ١١٠٠ ،
فى التطور به بعد ذلك بفضل مهندسى ايل دى فرانس لخلق مظهر جمالى
لا مثيل له •

وبجانب التأثيرات الأندلسية ، فى القباب والقبوات ، كانت هناك
تأثيرات أخرى فى العمارة والزخرفة • ففى كنيسة نوتردام دى بوردى
كليرمو — التى تعتبر أقدم كنائس مقاطعة أوفرنى بفرنسا — استخدمت
الكوابيل التى ظهرت أول ما ظهرت فى جامع قرطبة ، منذ عهد عبد الرحمن
الأوسط ، ثم تطورت بعد ذلك فى عهد الأمير محمد ، والخليفة عبد الرحمن
الناصر ، وابنه الحكم المستنصر •

ومن الغريب أن كوابيل كليرمو تماثل نظائرها بقرطبة على حين
تختلف عن كوابيل الكنائس المستعربة باسبانيا ، مما يدل على أن الفنان
الفرنسى أخذ من جامع قرطبة مباشرة • ويدل على ذلك ما يزين الأفريز
بين الكوابيل من قبيبات مفصصة ، أشبه شىء بزهرات تتألف من ثمانى
ورقات ، تماثل نظائرها بقبة المحراب وجامع قرطبة •

ونشهد هذه الكوابيل أيضا فى بيريجيه ببرج فرون الذى يرجع الى
القرن الحادى عشر • كذلك انتشر العقد ذو الفصوص الثلاثة فى فرنسا
أكثر من انتشاره باسبانيا المسيحية ، فكان مركز انتشاره مدينة بوى •
ونراه ممثلا فى واجهة كاتدرائية نوتردام دى بوى ، التى أظهرت ولعا
كبيرا بهذا النوع من العقود ، بل اننا نرى ما هو أكثر تعقيدا : اذ ظهر
بها العقد المتعدد الفصوص ، وعقد حدود الفرس الذى تتناوب فيه
الألوان ، مما يكشف عن تأثير أندلسى مباشر من قرطبة • ونرى العقود
المفصصة كذلك فى دير كلونى ببورجنى بفرنسا ، وفى برج كنيسة
لاشاريتيه سير لوار •

وقد بحث الأستاذ الدكتور أحمد فكرى أصل العقود المفصصة ،

وذكر لها أمثلة كثيرة بفرنسا • وقام كذلك بدراسة العقود التي يتناوب فيها اللونان الأبيض والأسود بكاتدرائية نوتردام دي بوى ، وفي مقصورة سان ميشيل داجويل ، وفي واجهة كنيسة موناستييه وريوتار وبولينيك ، وفي كنيسة سان جوليان وفي كنائس فلای وكاتدرائية فالنس •

من هذا يبدو مدى ما أحدثه الفن الأندلسي الاسلامي من تأثير في الفن الفرنسي • وكان سبب وصول هذه التأثيرات الى قلب فرنسا ، هو أن الاتصالات بين فرنسا واسبانيا كانت قد توقفت منذ محاولة شارلمان غزو اسبانيا في عهد عبد الرحمن الداخل •

وكانت اسبانيا ، منذ القرن الحادي عشر ، في خاطر أساقفة كلوني دائما ، اذ كانوا يعتبرونها المركز الأمامي للمسيحية حيال العالم الاسلامي والحاجز المهدد الذي يجب الدفاع عنه • وكان أساقفة كلوني هم الذين نظموا الحج الى شنت ياقب Santiago de Compo Stela وكانوا هم اللذين أقاموا على طول الطرق الفرنسية المؤدية الى اسبانيا الأديرة الكلونية ، لتكون نزلا للحجاج • وما لبث أن أصبح هؤلاء الرهبان الكلونيون أبطال المسيحية ، اذ أنهم شاركوا الاسبان في حملاتهم الصليبية الموجهة الى قلب الأندلس • وكان الرهبان الفرنسيون يترددون كثيرا على الأديرة الكلونية في اسبانيا ، مثل سان خوان دي لابنيا ، وبرغش • ولا شك أن مهندسا كلونيا استطاع أن يرى في هذه المدن بعض المساجد التي هدمها النصارى فيما بعد •

وكان من أثر الحج الى « شنت ياقب » أن أقام الرهبان الفرنسيون الذين زاروا اسبانيا كنائسهم ، بحيث أودعوا في عناصرها المعمارية ما يذكر بأرض اسبانيا • ومنهم جوتسكال ، أسقف برى ، الذي حج الى اسبانيا في منتصف القرن العاشر ، وبنى كنيسة سان ميشيل ببوى على

التأثيرات المعمارية بالاندلس

أثر عودته • كما زار الأسقف بيير الثانى ، المعروف بمير كير ، كنيسة
شنت ياقب وكنيسة سان ايسدرو بليون • وهكذا كان الاتصال بين فرنسا
واسبانيا وثيقا للغاية ، مما يفسر ما تركه الاسلام في عمائر الفرنسيين من
تأثيرات عميقة تفصح عن فضل الحضارة الاسلامية على الحضارات
الأوربية ، وهو فضل كانوا يمجّدونه حتى عهد قريب •

سابعا — الفنون والصناعات بالأندلس

تبعث حركة الفتح الاسلامى للأندلس فترة من الركود الفنى والكساد الصناعى ، اذ توقف الصناع عن الانتاج نتيجة طبيعية للغزو • كذلك أحدث هذا الفتح هزة فى المجال الاقتصادى بسبب الغنائم الهائلة التى غنمها المسلمون فى المدن المفتوحة من تحف وروائع ، وترتب عليها تجريد اسبانيا القوطية من تراثها الفنى •

وكان عهد الولاة عهد اضطراب وعدم استقرار من الوجهتين السياسية والاقتصادية ، باعتباره فترة الانتقال من الحكم القوطى الى الحكم الخلافى • وما ان استقرت دعائم الاسلام فى اسبانيا ، بتأسيس الدولة الأموية ، حتى ازدهر الاقتصاد الأندلسى من جديد ، ونمت الفنون مع نمو المجتمع وترعرعت • ولما كان الفاتحون متأخرين فى ميدان الصناعة فانهم توسلوا بالعناصر المحلية ، فى هذا الميدان ، لبناء قصورهم ومساجدهم ، وصناعة ما تحتاج اليه البلاد •

والواقع أن العرب كانوا أبعد الناس عن الصناعات • والسبب فى ذلك — كما فسره ابن خلدون — أنهم أعرق فى البداوة ، وأبعد عن العمران الحضرى ، وما يدعوا اليه من الصناعات وغيرها • ويرى ابن خلدون أن رسوخ الصناعات فى الأمصار ، انما هو برسوخ وطول أمدها • ويتخذ من الأندلس مثلاً فيقول : « كالحال فى الأندلس لهذا العهد ، فاننا نجد فيها رسوم الصنائع قائمة ، وأحوالها مستحكمة راسخة فى جميع ماتدعو اليه عوائد أمصارها ، كالمباني والطبخ وأصناف الغناء ، واللهم من الآلات والأوتار والرقص •• وتنضيد الفرش فى القصور ، وحسن الترتيب والأوضاع فى البناء ، وصوغ الآنية من المعادن والخزف ••• وسائر الصنائع التى تدعو اليها الترف وعوائده ••• وما ذاك الا لما قدمناه من

الفنون والصناعات بالأندلس

رسوخ الحضارة فيهم برسوخ الدولة الأموية ، وما قبلها من دولة القوط ، وما بعدها من دولة الطوائف الى هلم جرا • فبلغت الحضارة فيها مبلغا لم تبلغه في قطر آخر » •

وهكذا احتضن العرب حضارة الشعب الاسباني ، وشملوا رجال الفن من أهل الذمة برعايتهم • وظل الصناع وأصحاب الحرف يسيرون في الطريق الذي كانوا يسيرون فيه من قبل ، مع تغيير طفيف هو تكييف منتجاتهم وفقا لما يقتضيه الوضع الجديد • وما لبث أن وجد هؤلاء الصناع وأصحاب الحرف أنفسهم مضطرين الى مشاركة المسلمين في حياتهم ، وأقبلوا على الثقافة العربية ، فتحققت بذلك النقلة في عهد الخلافة القرطبية في القرن العاشر الميلادي • وصيغ في ذلك العصر فن أندلسي اسلامي تدرج في التطور — شأنه في ذلك شأن فن العمارة والبناء — في عهد ملوك الطوائف وعصر دولتي المرابطين والموحدين ، ووصل الى أوج بهائه في عصر دولة بني نصر •

واذا تحدثنا عن الفنون الزخرفية والصناعية في الأندلس ، فإننا نعني ما كان يصنعه الأندلسيون من تحف خشبية ومعدنية وعاجية وخزفية ، ومنسوجات وجلود وزجاج وغير ذلك • وسنقوم بدراسة بعضها لنقف على ازدهار الصناعات في اسبانيا الاسلامية ، وكيف ذاعت شهرتها في كثير من بلاد أوروبا والمشرق الاسلامي •

فن النحت على الخشب

زودنا مؤرخو الأندلس بوصف رائع للتحف الأندلسية المصنوعة من الخشب ، مثل ذلك : منبر المسجد الجامع بقرطبة ومقصورته ، ومنبر مسجد الزهراء ، ومنبر جامع اشبيلية ومقصورته • ويوضح لنا هذا الوصف الدقيق مدى ما وصل اليه هذا الفن من تقدم في الأندلس في

العصر الاسلامى • وقد ذكر ابن غالب فى وصف منبر جامع قرطبة أنه « من الصندل الأحمر والأصفر والابنوس والعبود الرطب والمرجان ، وأوصاله وحشواته من الفضة المثبته المنيلة ، وارتفاعه تسع درجات وذراعه من الأبنوس » • ووصفه الادريسي بأنه المنبر الذى ليس بمعمور الأرض مثل صنعه • وذكر أبو حامد الغرناطى أنه أحكم عمله ونقشه فى سبع سنوات ، وكان يعمل فيه ثمانية صناع • ويضيف ابن بشكوال أنه كان مركبا من ستة وثلاثين ألف وصلة سميت بمسامير الذهب والفضة ، وفى بعضها نفيس الأحجار •

أما مقصورة الجامع فقد نصبت حول المحراب ، وكانت منقوشة الظاهر والباطن ، تتوجها شرفات • وكانت مزودة بثلاثة أبواب بدیعة الصنعة عجيبة النقش ، وكان بابها الرئيسى من الذهب ، وعضاداتها من الأبنوس •

أما منبر جامع اشبيلية ومقصورته فقد ذكرهما ابن صاحب الصلاة فى مدونته ، وفيهما يقول : « صنع المنبر من أغرب ما قدر عليه الفعلة من غرابة الصنعة ، واتخذ من أكرم الخشب مفصلا منقوشا مرقشا ، محكما بأنواع الصنعة والحكمة فى ذلك ، من غريب العمل وعجيب الشكل والمثل ، مرصعا بالصندل ، مجزعا بالعاج والأبنوس • • يتلأأ كالجمر بالاشعال وبصفائح من الذهب والفضة ، وأشكال فى عمله من الذهب الابريز يتألق نورا ، ويحسبها الناظر لها فى الليل البهيم بدورا • ثم أردفت له بالعمل المقصورة من أحسن الخشب ، مختصرة من قضبه ، وثيقة لحجبه » •

ولم يتبق للأسف من هذه التحف الخشبية آثار تذكر • ويمكننا أن نتخيل ما كان عليه منبر المسجد الجامع بقرطبة ، اذا شاهدنا منبر جامع الكتبية بمراكش الذى صنع فى قرطبة فى عهد الموحدين •

الفنون والصناعات بالاندلس

ومع ذلك فقد تبقى من جامع قرطبة بعض سماوات (١) وجوائز (٢) سقفه كما وصفها الادريسي بقوله : « وسقفه كله سماوات خشب مسمرة في جوائز سقفه • وجميع خشب هذا المسجد الجامع من عيدان الصنوبر الطرطوشي ، ارتفاع حد الجائزة شبر وافر في عرض شبر الا ثلاث أصابع ، في طول كل جائزة منها سبع وثلاثون شبرا ، وبين الجائزة والجائزة غلظ جائزة • والسماوات التي ذكرناها هي كلها من ضروب الصنائع المنشأة من الضروب المسدسة والمؤرّبي ، وهي صنع الفص وصنع الدوائر والمداهن : لا يشبه بعضها بعضها ، بل كل سماء منها مكنت بما فيه من صنائع • • • قد أحكم تزيينها ، وأبدع تلوينها بأنواع الحمرة الزنجفورية والبياض الاسفيداجي والزرقة اللازوردية والزرقون الباروقي والخضرة الزنجارية ولتكحيل النقسي ، تروق العيون ، وتستميل النفوس باتقان ترسيمها ومختلفات ألوانها وتقسيمها » •

وهذا الوصف الرائع ينطبق على بقايا القطع الخشبية التي نحتت عليها زخارف هندسية من دوائر ومضلعات وأقواس مفصصة متداخلة فيما بينهما ، ولون بعض هذه الزخارف بألوان خضراء وزرقاء وغيرها من الألوان التي ذكرها الادريسي • وقد أعاد السنيور فيلاسكت بوسكو تركيب بعض هذه اللوحات والكتل الخشبية في مواضعها من بلاط المحراب ، وما يحيطه من أروقة جانبية ، والبعض الآخر علق على جدران مجنبات المسجد ، وفي متحف الجامع •

وأروع ما تخلف من التحف الخشبية في الأندلس هو أسقف قاعات قصر الحمراء ، ودور غرناطة وأبنيتها العامة • وكلها أسقف على شكل هرم ناقص ، مزينة بالزخارف الهندسية الرائعة الملونة ، تمثل أشكالاً

نجمية بعضها محفور في الخشب بتشعع منها الخطوط وتقاطع ، فتتكرر !النجوم في شكل يجعل من هذه الأسقف متاحف غنية بالزخارف التي تروق العين ببديع تكوينها وروعة تحطيطها • ويحيط بهذه الأسقف من أدناها أزر خشبية عليها توريقات ملونة أ ومزينة بمقرنصات دقيقة •

واستخدم عرفاء بنى نصر الخشب كذلك في أغراض زخرفية : مثل الأعتاب، واخل المائلة فوق الأبواب ، وفي صاريح الابواب ، وفي النوافذ وفي التشبيكات •

وأروع التحف الخشبية الغرناطية تتمثل في الظلل التي تعلو الأبواب وتتكىء على كوابيل خشبية تندمج في الجدران • وكانت هذه الظلل تسمى عادة بزخرفة من التوريقات والكتابات النسخية أو الكوفية • أما مصاريع الأبواب فكانت تتألف من حشوات هندسية متداخلة ، بعضها مرصع بالعاج • وحفظ لنا من هذه الأبواب باب قاعة قمارش ، وهو مرصع بحشوات من العاج تحتشد فيها التوريقات •

فن صناعة علب العاج

يتمثل فن النحت الأندلسي أروع تمثيل في العلب المصنوعة من العاج ، التي كانت تصنع خصيصا لجواري الخلفاء وزوجاتهم ، لحفظ قنينات العطر ووضع المسك والعنبر أو لصيانة حليهن • وتحفظ أغلب هذه العلب بأسماء من صنعت له ، واسم الصانع ، والمدينة التي صنعت فيها ، وتاريخ صنعها ••• مما يزيد في قيمتها ، ويجعلها بحق من أصدق الوثائق التي تعيننا على دراسة الفن الأندلسي •

وتتخذ هذه العلب العاجية شكلين مختلفين : علب اسطوانية ذات غطاء مقبب ، وصناديق مستطيلة ذات أغطية على شكل هرم ناقص أو

الفنون والصناعات بالأنديس

مسطحة • ويقسمها خوسى فرانديس ، من حيث الزخرفة ، الى ثلاثة أنواع : الأول النوع الذى يشتمل على زخرفة من التوريقات التى تختلط أحيانا برسوم حيوانات • والثانى النوع الذى تنحصر زخارفه فى جمات مستديرة أو مفصصة ، تمثل رسوما آدمية أو حيوانية ، وأحيانا تصور مناظر للصيد أو الطرب • والثالث النوع الذى تمثله زخارف دقيقة لأشخاص أو حيوانات بين توريقات •

وأغلب الظن أن هذه الزخارف تقوم على تقاليد فارسية ، اذ تظهر فيها صور لحيوانات متقابلة مرة ومتدابرة مرة أخرى ، أو تبدو فيها أعناقها متصافرة أو تفصل بين كل زوج منها شجرة الحياة ، أو بعض حيوانات تفترس أخرى ، أو صور عنقاوات مجنحة • أما الصور الآدمية ، فتشمل عادة مجالس أنس أو طرب فى بلاطات الأمراء والخلفاء ، ويبدو فيها شخص يجلس أو يقف بين شخصين آخرين أو صور لصيادين أو بيازين ••• وغير ذلك من الموضوعات الشائعة فى الفن الفارسى •

ومن هذه التحف العاجية استنطعنا أن نلم بمركزين رئيسيين لصناعة العلب الأميرية أو الخلافية منها : أحدهما قرطبة ، والآخر طليطلة • ويغلب على الظن أن مصنع قرطبة كان قائما بمدينة الزهراء ، اذ نرى اسم مدينة الزهراء منقوشا فى بعض هذه العلب • ولعله دار الصناعة التى أسسها عبد الرحمن الناصر فى هذه المدينة الخلافية ، وفقا لما ذكره ابن خلدون •

وقد ازدهر فن صناعة علب العاج فى عهد الحكم المستنصر ، وأروع تحف هذا النوع : علبة من العاج صنعت فى مدينة الزهراء بأمر الحكم المستنصر ، لزوجته السيدة صبح ، على يدى درى الصغير الفتى الصقلى سنة ٣٥١ هـ ، وصندوقان آخران صنعا فى نفس هذا المصنع سنة ٣٥٥ هـ ، أمر به صنعهما الحكم للسيدة صبح أيضا •

ولما توفى الخليفة الحكم ، توقف النشاط الفنى لصناعة العاج •••

الى أن كانت أيام عبد الملك بن المنصور ، حاجب الخليفة هشام المؤيد .
فأحيا هذه الصناعة • ولدينا من انتاج هذا المصنع صندوق من العاج
غطاؤه على شكل هرم ناقص • وقد صنع هذا الصندوق للحاجب عبد
الملك بن المنصور بن أبي عامر سنة ٣٩٥ هـ (١٠٠٥ م) على يدى الفتى
نمير بن محمد العامرى ، واشترك فى عمله صانعان هما عبيدة وخير •
وزخارف هذا الصندوق تتألف من جامات مفصصة تتضمن مناظر لحياة
البلاط الأموى فى الأندلس ، وأخرى تمثل مناظر صيد ومبارزات •

ولما سقطت الخلافة الأموية بقرطبة ، هاجم البربر قصور المدينة ،
ودمروها ، ثم خربوا مدينة الزهراء ، وأحرقوا قصورها ومبانيها ،
وجعلوها أثرا بعد عين ••• وهكذا خربت دور صناعة تحف العاج بين
الأبنية التى خربها البربر ، وتوقفت هذه الصناعة بقرطبة •

ويغلب على الظن أن صناع قرطبة هاجروا الى بلاط ملك طليطلة :
المأمون بن ذى النون ، أقوى ملوك الطوائف ، حيث تلقوا من تشجيعه
ما حجب اليهم الإقامة فى ظله وتحت رعايته بمدينة قونكة ، إحدى مدن
مملكة طليطلة ، ونسنتج من علب وصناديق قونكة ، المصنوعة فى القرنين
الحادى عشر والثانى عشر ، أنها كانت علبا ثرية بزخارفها وطريقة صنعها
ولكنها لم تكن كذلك فى مادتها المصنوعة منها ••• فلم يكن من الميسور
الحصول على القطع العاجية الضخمة التى كان يجلبها خلفاء بنى أمية •
وأصبح استخدام العاج مقصورا على لوحة رقيقة تنفذ فيها الزخارف
حيث يمكننا أن نرى ما تحتها من أرضية خشبية •

وأقدم هذه التحف العاجية الطليطلية : صندوق من العاج محفوظ
فى متحف برغش ، عليه رسوم تمثل مناظر صيد وحيوانات تتصارع موزعة
فى ثلاثة صفوف أفقية وأعلى العلبة نقش كوفى نصة :

» ... باقية لصاحبه أطل الله بقاءه ، مما عمل بمدينة قونكة ،
سنة سبع عشرة وأربعمائة ، عمل محمد بن زيان عبده أعزه الله » .

وفي متحف الآثار بمدريد ، صندوق مشابه للصندوق المذكور ،
ويحمل جانباه الكبيران فراغا مستطيلا في الوسط تحتشد فيه توريقات •
ويحيط بهذا المستطيل شريط يشتمل على حيوانات وطيور متقابلة ، زوجين
زوجين ، تفصل بين كل زوجين أقواس مفصصة • وفي الجانبين الآخرين
مناظر للصيد والطعان • وتمتد الكتابة في شريط يتوج الصندوقين ونصها :

« بسم الله الرحمن الرحيم : بركة من الله ونعمة شاملة وعافية
باقية ، وغبطة طائلة وآلاء متتابعة ، وعز واقبال وانعام واتصال ، وبلوغ
آمال لصاحبه أطل الله بقاءه ... مما عمل بمدينة قونكة بأمر الحاجب
حسام الدين أبى محمد اسماعيل بن المأمون ذى المجدين ابن الظافر ذى
الرئاستين ابن محمد بن ذى النون ، أعزه الله ، في سنة احدى وأربعين
وأربعمائة • عمل عبد الرحمن بن زيان » • وتكرر اسم ابن زيان يدل
على أن هذا المصنع ينتمى الى أسرة واحدة من الصناع •

ونستنتج مما سبق أن فن صناعة العلب العاجية بقرطبة وقونكة كان
فنا خلافا خاصا بالأمرء والخلفاء • وقد اختفت هذه المصانع في القرن
الثاني عشر ، وغلبت صناعة العلب والصناديق الشعبية وفي هذه التحف
يغلب استخدام الخشب المغطى بصفيحة رقيقة من العاج ، أو المرصع
بقطع منه ، ولا نقرأ في هذه التحف أسماء الخلفاء أو الصناع ، وإنما
نلاحظ أن صنعتها كانت تجارية بحتة •

وأهم أمثلة هذا النوع : صندوق سان ايسيدرو بليون ، المحفوظ
اليوم بمتحف الآثار الأهلى بمدريد ، وصندوقا كاتدرائية طرطوشة ،
وثلاث علب خشبية رصعت بنقوش عاجية تمثل مناظر صيد وصور

حيوانات متقابلة • والصندوق الأول عليه نقش نسخى يتضمن اسم الصانع وهو محمد بن السراج ، واسم الشخص الذى صنع له وهو أبو الحسن • ويعتقد فراندیس أنها تحفة أندلسية من القرن الثانى عشر • أما الصندوقان المحفوظان بكتدرائية طرطوشة فهما متماثلان فى الصناعة، ولكن الزخارف تتألف من رسوم داخل دوائر ، ويتشابها مع التحف العاجية المصنوعة بقرطبة فى حصر الزخارف الحيوانية والآدمية داخل هذه الدوائر ، وفى موضوعات الزخرفة • ولم يستخدم العاج فى ترصيع زخرفة هذين الصندوقين ، وإنما استعمل العظم الملون •

ومما يثير الإعجاب فى هذه الصناديق العاجية مجموعة التصاوير التى بلغت ذروة الكمال الفنى فى الاتقان والدقة ... هذا الى جمال توريقاتها ، واتساق تكوينها • ونلمس فى الرسوم الحيوانية والآدمية رشاقة فى الحركات ، كما نلمح رقة فى رسوم الغزلان والطواويس • وهذه الصناديق الشعبية — رغم فقر المادة التى صنعت منها — فيها تعبير عن الحركات تتمثل فى الاهتزازات التى تدعم هذا التعبير •

فن صناعة التحف المعدنية

يتميز الفن الاسلامى بصفة تجريدية كانت سببا فى بروز الاتجاه الهندسى فى زخارفه ، كما ساد به بوجه عام ميل الى الابتعاد عن تصوير الكائنات الحية ، فعند الفنان المسلم الى تحويل التماثيل ، بعكس الفنان اليونانى أو الرومانى الذى كان يبحث عن المثل فيما حوله من الطبيعة • ومع ذلك فان كتب التاريخ تزخر بوصف رائع لما كانت تحويه قصور الخلفاء والملوك من تماثيل وصور حية ، كما تشهد بعض الآثار القائمة : كنافورة بهو السباع بقصر الحمراء ، وتصاوير قاعة القضاء ، وقصر البرطل من قصور الحمراء ، وبعض النقوش المحفورة فى أحواض الرخام وعلب العاج بالأندلس ، وبعض التحف المصنوعة من المعادن ... تشهد

الفنون والصناعات بالأندلس

كل هذه التحف بصدق وصف المؤرخين وعدم مبالغتهم فيه ، وتشهد في الوقت نفسه بأن الفن الأندلسي لم يقف جامدا أمام التوجيهات الدينية السلبية التي تأثر بها الفن الاسلامي عامة * ونعلل ذلك بأن لمعنى الشكلى تفوق عند الأندلسيين وغيرهم من الشعوب التي كانت تتصف بأن خيالها أقل تجريدا من خيال الشعوب العربية *

التمائيل

وتشير كتب التاريخ الأندلسي الى التماثيل المعدنية التي كانت تزين قصور الزهراء * ويذكر المقرئ أن عبد الرحمن الناصر نصب الحوض الصغير الأخضر المنقوش بتمائيل الانسان ، الذي جلبه أحمد اليوناني وربيع الأسقف من القسطنطينية ، في مجلسه الشرقي المعروف بالمؤنس ، وجعل عليه « اثني عشر تمثالا من الذهب الأحمر ، مرصعة بالدر النفيس الغالى ، مما عمل بدار الصناعة بقرطبة : صورة أسد بجانبه غزال ، الى جانبه تمساح ، وفيما يقابله ثعبان وعقاب وفيل ، وفي المجنبتين حمامة وشاهين وطاووس ودجاجة وديك وحداة ونسر ... كل ذلك من ذهب مرصع بالجواهر النفيس ، ويخرج الماء من أفواهها » *

ويذكر ابن بسام أن قصر الناعورة ، الذي بناه القادر بالله بن ذي النون بطليلة ، كان به بحيرتان « قد نصبت على أركانهما صور أسود مصنوعة من الذهب الابريز أحكم صياغة ، تتخيل لتأملها كالحة الوجوه ، فاغرة الشدوق ، ينساب من أفواها نحو البحرتين الماء هونا كرشيئش القطر أو سحالة اللجين » * وفي ذلك المنظر أنشد أبو محمد بن السيد :

والماء كاللازورد قد نظمت

فيه اللآلىء فواغر الأسد

وهكذا بالغ مؤرخو العرب في وصف روائع التماثيل المعدنية التي

تزين تلك القصور وصفا لا يمكن أن يصدقه العقل والمنطق • غير أنه وصل اليينا من هذه التماثيل اثنان أثبتا ، بصورة قاطعة ، صدق هذا الوصف : أحدهما تمثال لوعل أو غزال من البرنز فقد قرنية ، عثر عليه في الحفائر الأثرية التي أجريت بمدينة الزهراء ، وحفظ عدة سنوات بدير سان جيرونيمو المجاور لأطلال مدينة الزهراء ، ثم حمل الى متحف قرطبة الأهلى للآثار •

ولعل هذا الغزال هو الذى أشار اليه المقرئ عند ذكره للتماثيل الذهبية الحمراء التى كانت تزين قصر المؤنس ، وكان منصوبا مع التماثيل الأخرى — التى كانت تمج الماء من أفواهاها — حول الحوض المذكور فى ساحة من ساحات هذا القصر • ويبلغ ارتفاع هذا الغزال نحو أربعين سنتيمترا ، ويزدان جسمه بزخارف محزوزة من دوائر أو حلقات متصلة ، بداخل كل منها ورقة من أوراق الشجر • وكان المساء يجرى الى فمه من طريق قناة أو أنبوبة تمتد من وسط قاعدته ، ثم يصعد فى أرجله ورقبته •

والتمثال الآخر اكتشف فى قرطبة ، وهو لوعل يزدان بزخرفة من دوائر بين سيقان متوجة بصورة أكثر تفننا وتنوعا من وعل الزهراء • الا أن شكل وعل قرطبة غير متناسق لصغر أرجله وضياع أذنيه وقرونه • وكان الماء يتخلله من أنبوبة فى وسط بطنه •

وعثر فى مدينة مونثون دى كامبوس ، من إقليم بلنسية ، على فؤارة تمثل أسدا من البرنز ، محفوظة اليوم فى متحف اللوفر بباريس • وذيل هذا الأسد على شكل ساق نباتية تنتهى بورقتين : احدهما ملتفه الى أدنى ، ، والأخرى متجهة الى أعلى • وجسم الأسد مغطى كله بالتوريقات ولا يفترق هذا التمثال كثيرا عن تمثال العقاب المحفوظ بالكامبو سانتو فى مدينة بيزا ، وتمثال الحصان المزعوم المحفوظ فى متحف برجليو

بفلورنسا ، والوعل ذى القرون المحفوظ فى متحف بافارو بميونخ ،
والطاووس المحفوظ فى متحف اللوفر •

وجميع هذه التماثيل تذكرنا بالناحية التجريدية التى اتجه اليها
الفن الاسلامى ، والتى دفعت الفنان المسلم الى تحوير صور وتماثيل
الكائنات الحية وتجريدها من معانى الحياة • وتعزى هذه التحف الأخيرة
الى الفن الفاطمى بمصر أو الفن الصقلى دون دليل قاطع أو اثبات
صريح ، كما أنه ليس هناك من الدلائل ما يكفى لاثبات أنها أندلسية •
ولكننا نرجح انتسابها الى الأندلس عند مقارنتها بالوعلين القرطبيين
والأسد الذى عثر عليه فى أسبانيا •

الثريات البرنزية

ذكر مؤرخو العرب فى الأندلس أن جامع قرطبة كان يشتمل على
مائتين وثمانين ثريا من اللاطون (الصقر) ، عدد كنوسها يبلغ سبعة آلاف
وأربعمائة وخمسا وعشرين كأسا ، وقيل عشرة آلاف وثمانمائة وخميس
كنوس • منها أربع ثريات كبار معلقة فى البلاط الأوسط ، أكبرها الثريا
الضخمة المعلقة فى قبة المحراب ، وكانت تحمل ألفا وعشرين كأسا • ولم
يتبق لسوء الحظ أى ثريا من ثريات جامع قرطبة •

وكان جامع البيرة يحتوى على عدد كبير من الثريات احترقت عندما
أحرق البربر هذا الجامع سنة ١٠١٠ م • ولحسن الحظ عثر على ست
ثريات منها فى الحفائر التى أجريت بأرض المسجد ، أكبرها ثريا على
شكل طبق مستدير محزم فى شكل هندسى ، ويتألف محيطها من فراغات
مستديرة كانت توضع فيها الكنوس التى تضاء بالزيت • وكان هذا المحيط
مزودا بحلقات صغيرة تعلق منها السلاسل •

وفي متحف الآثار بمديرية ثريا رائعة من البرنز تنتمي الى جامع الحمراء ، وهى من أجمل التحف المعدنية الأندلسية . وفي محيطها الأدنى نقش كتابى نطالع فيه اسم السلطان محمد الثالث بن نصر الذى أسس هذا الجامع سنة ٧٠٥ هـ (١٣٠٥ م) ومحيطها العلوى أصغر كثيرا من محيطها الأدنى . وحول هذين المحيطين كسوة من البرنز محزمة بتوريقات رائعة ، وزخرفة من الكتابة النسخية التى نطالع فيها عبارة « لا غالب الا الله » . وتكرر هذه العبارة فى التفاحات الأربع المتراكمة فى السفود الذى تعلق منه الثريا .

التحف المصنوعة من البرنز

عثر فى مونثون دى كامبوس على مهراس كبير (هاون) محفوظ بمتحف فيلانوييا . وهذا المهراس مزود بحلقتين ونتوءات مثلثة على شكل مناقير طيور تدور ببذنه ، وتزينه زخارف محفورة من التوريقات والأسود والطواويس ، ونقش كتابى يتضمن كلمة « لصاحبه » . ويمكن أرجاعه الى عصر الخلافة .

وعثر فى غرناطة على مبخرة أسطوانية الشكل تقوم على ثلاث أرجل، وغطاؤها يكاد يكون مخروطى الشكل ، ومحزم على نحو يتجلى معه ما يشبه الورقات المزدوجة فى دوائر . ويعلو المبخرة طائر منقاره معقوف .

واحتفظ فى كنيسة سان سلفادور باشبيلية بضبتي باب من البرنز المذهب ، موضوعتين اليوم على أحد أبواب الكنيسة ، ولعلهما كانتا معلقتين فى باب المسجد الذى كان قائما فى موضع الكنيسة . وتتألف كل من الضبتين من حلقة سداسية الشكل ، سعتها ١٤ سم ، معلقة فى رأس أسد مركب فوق قرص مثنى الأضلاع جوانبه مقعرة . وتكسو الجميع توريقات فى غاية الروعة والجمال . وتشبه هاتان الضبتان حلقتين من اللاتون

ذكرهما المقرئ عندما تحدث عن أبواب قصر قرطبة ، اذ يقول : « وعلى هذا الباب باب حديد وفيه حلق لاطون قسد أثبتت في قواعدها ، وقد صورت صورة انسان فتح فمه » •

وفي متحف بلنسية سطل من النحاس على شكل هرم ناقص ، به زخارف قوامها أرنبان بريان في دوائر بين كتابات تتضمن عبارات المدح المعروفة •

وتكسو مصراعى باب جامع اشبيلية صفائح من البرنز ، مزينة بخطوط متقاطعة تؤلف أشكالا سدسة : تتناوب في وضع أفقى ورأسى ، وتقوم بينها أشكال نجمية ، في وسطها أشكال مثنىة • وتحشد في المسدسات الرأسية توريقات رائعة ، وتملأ المسدسات الأفقية كتابة كوفية مختلطة بالتوريقات ، نقرأ فيها عبارة « الملك لله • البقاء لله » ويحيط بالمصراعين افريز من الكتابة الكوفية المختلطة بالتوريقات •

وضبتا الباب من أروع التحف البرنزية في عهد الموحدين ، اذ تتخذ كل منهما شكل ورقة نباتية أطرافها على شكل حنيات متصلة ، وبداخلها أوراق صغيرة محزمة ، مزودة بأطراف مدببة وأخرى ملتفة • ويحيط بالضبتين كتابة نسخية نصها في الضبة اليمنى : « بسم الله الرحمن الرحيم • في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال ، رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وأقام الصلاة » • وفي الضبة اليسرى : « بسم الله الرحمن الرحيم • ادخلوها بسلام آمنين • ونزعنا ما في صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين • لا يمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين » • وترجع هاتان الضبتان الى عصر أبى يعقوب يوسف •

وفي متحف الآثار بمديرية سلطان من البرنز من عصر بنى نصر :

أحدهما مخروطى الشكل عليه زخرفة من كتابة نسخية وتوريقات بسيطة •
والزخرفة الكتابية نصها : « وبلوغ الأمل » ، ويعلوها افريز كتابى تتكرر
فيه عبارة « الغبطة المثقلة » • والآخر أسطوانى الشكل عليه زخارف
نباتية وكتابة كوفية •

السيوف

ذكر ابن سعيد المغربى أن من آلات الحرب فى الآندلس « التراس
والرماح والسروج والألجم والدروع والمغافر » • وأضاف قائلا : « أن
السيوف البرذليات (١) مشهورة بالجودة • والفولاذ الذى باشبيلية اليه
النهاية » • ولسوء الحظ لم تصل إلينا أى آثار للسيوف الآندلسية قبل
عصر بنى نصر • وتشير المدونة العامة لتاريخ اسبانيا — التى كتبها الملك
ألفونسو الحادى عشر — الى أن سلاطين غرناطة كانوا يهدون السيوف
الغرناطية الى ملوك المسيحية ، ومنها سيف مقبضة مكسو بصفائح الذهب ،
ومرصع بالزمرد والياقوت والعقيق •

وقد أهدي أبو الحجاج يوسف سنة ١٤٠٩ م سيوفا من الفضة
الخالصة الى دون خوان الثانى والأمير دون انريكي •

وينسب الى السلطان أبى عبد الله عدة سيوف محفوظة فى متحف
الجيش ، ولعلها سيوف السلطان التى انتزعها منه الملكان الكاثوليكيان ،
عندما أسراه فى احدى المواقع الحربية • ومنها سيف هو أروع السيوف
الاسلامية على الاطلاق ، ويعد تحفة فريدة فى صناعة الحلى الغرناطية،
ومقبضه من العاج ، تكسوه زخرفة دقيقة ، ويزدان غمده بنجوم وصلبان
بينها توريقات وكتابات • وفى متحف الجيش عدة سيوف مقابضها من
العاج وأغمادها من الفضة أو النحاس مغطاة جميعا بتوريقات رائعة
وكتابات • وفى متحف الآثار بغرناطة منجنيق صغير من الخشب عشر

الفنون والصناعات بالآندلس

عليه بمنطقة البشرات ، مرصع بالبرنز ، حفرت فيه زخرفة من التوريقات محزمة ومطعمة بالعاج •

التحف الفضية

وصلت إلينا تحفة واحدة من عصر الخلافة ، وهى صندوق كاتدرائية خيرونة • ولعل القطلانيين سلبوها من قرطبة بين ما سلبوه بعد خرابها سنة ١٠١٠ م • وهذا الصندوق عليه نقش كتابى يدل على أنه صنع بأمر الحكم المستنصر ، لابنه وخليفته هشام ، وأن ذلك تم على يدي جؤذر سنة ٩٧٠ م • ونص هذه الكتابة هو : « بسم الله • بركة من الله ويمن وسعادة وسرور دائم لعبد الله الحكم أمير المؤمنين المستنصر بالله ••• مما أمر بعمله لأبى الوليد هشام ولى عهد المسلمين • تم عمله على يد جؤذر فتاه » •

والصندوق مصنوع من الخشب ، ومغطى بصفائح من الفضة المزدانة بزخارف مطروقة ومذهبة • وقاعدته المستطيلة طولها ٣٩ سم ، وعرضها ٢٣ سم • ويزين الصندوق توريقات رائعة فى تكوينها • ويحتفظ الصندوق بمفصلتين دائرتين وقفل رائع الزخرفة •

صناعة المنسوجات

بصناعة الديباج والحرير والحلل النفيسة والسقلاطون والعتابى واشتهرت مالقة بصناعة الموشى المذهب ، كما اشتهرت غرناطة بصناعة واشترهت مالقة بصناعة الموشى المذهب ، كما اشتهرت غرناطة بصناعة الملبد المختم ذى الألوان العجيبة ، ومرسية بالوشى والبسط التنتلية •

ولا شك أن صناعة المنسوجات الأندلسية لم تكن الا تطورا للطرق الصناعية المعروفة فى المشرق منذ قديم الزمان • ولا بد أن نبحت دائما عن

أصولها وطريقة صناعتها ، وأسلوب زخارفها ، في الفن الساساني والفن البيزنطي والفن القبطي • ولقد استعان الفاتحون المسلمون منذ أن وطئت أقدامهم أرض الأندلس بالصناع المشرقيين ، واستحضر بنو أمية من الشام أسرار كاملة من صناع النسيج ، وأقاموا في الأندلس دار الطراز •

والطراز ، كما يقول بن خلدون : « علامات يرسمها السلاطين والملوك في طراز أثوابهم المعدة للباسهم ، من الحرير أو الديباج أو الابريسيم ••• تعتبر كتابة خطها في نسج الثوب الحاما وسدى بخيوط الذهب ، أو ما يخالف لون الثوب من الخيوط الملونة من غير الذهب ، على ما يحكمه الصناع في تقدير ذلك ، ووضعه في صناعة نسجهم ••• فتصير الثياب الملوكية معلمة بذلك الطراز ، قصد التنويه بلباسها من السلطان » •

وكان عبد الرحمن الأوسط أول من أنشأ دار الطراز بالأندلس (١)، وتبعه ملوك الطوائف • فلما كانت دولة الموحدين ، استغنوا عن لبس الحرير والذهب ، فأبطلوا دار الطراز • ولكنها أعيدت في عهد بني نصر •

ولقد أقام عبد الرحمن الناصر على دار الطراز بقرطبة فتاه خلف ، وجعله مشرفا على صناعة المنسوجات الخلافية • وكان بالأندلس دور أخرى ، موزعة في المرية ومالقة ومرسية وغيرها ، لصناعة المنسوجات • وكانت هذه المنسوجات موضع إعجاب الأوربيين لجودتها ورقتها •

ويتجلى في منسوجات الأندلس ، في عصر بني أمية ، تأثيران أساسيان : التأثير القبطي ، والتأثير الساساني • ولكن لم يتبق من إنتاج دار الطراز القرطبية سوى قطعة واحدة ، هي طراز هشام المؤيد • وقد

(١) في ذلك يقول ابن الخطيب في كتابه « أعمال الاعلام » : « وفي إيامه اتخذ الطراز الذي كان حديث الرفاق ، وطرفة أهل الأماق » •

عثر عليها في سان استبان دى غراماج ، وهى محفوظة اليوم في الأكاديمية التاريخية بمدريد ، ولعها كانت من بين ما انتهبه البربر عند تخريب قرطبة سنة ١٠١٠ م ، وحملت الى هناك •

وهذه القطعة لا تعدو أن تكون غشاء أصفر اللون، سداه رقيق للغاية ، مزود بشريط أبيض به بعض الاصفرار ، وفيه رسم دقيق يشف عن تقاليد قبطية ، يتألف من جامات مثمثة الشكل ، متصلة فيما بينها بأشكال نجمية ، وبداخلها صور آدمية وحيوانية في ألوان بيضاء وزرقاء وخضراء • ويحف بهذا الشريط الزخرفى من أعلى ومن أسفل سطر من الكتابة الكوفية ، تتجه رعوس السيقان في حروفها الى الداخل ، ونص هذه الكتابة ما يلى : « بسم الله الرحمن الرحيم ... البركة من الله واليمن والدوام للخليفة الامام عبد الله هشام المؤيد بالله أمير المؤمنين » •

وكانت هناك أنسجة تجلب من المشرق : من العراق وخراسان • وقد ذكر المقرئ ، نقلا عن ابن الفرضى ، أن من بين الهدايا التى قدمها الوزير أحمد بن شهيد الى الخليفة عبد الرحمن الناصر « ثلاثون شقة وخلج خاصة للباسه بيضاء وملونة ، وخمس ظهائر شعبية خاصة له ، وعشرة فراء من على الفئك : منها سبعة بيض خراسانية وثلاثة ملونة ، وستة مطارف عراقية خاصة له ، وثمان وأربعون ملحفة زهرية لكسوته ومائة ملحفة زهرية لرقاده » وزاد عليها ابن خلدون ستة من السراقات العراقية وثمانيا وأربعين من الملاحف البغدادية لزينة الخيل من الحرير والذهب •

ولقد وصات اينا قطعة من النسيج المعروف بنسيج الفيلة ، محفوظة بكنيسة سان ايسيدرو بليون ، وعليها كتابة كوفية نستدل منها على أنها عملت في بغداد • ولقد قلدت المنسوجات البغدادية في الأندلس تقليدا رائعا ، وذلك في المرية التى كانت تصنع بها — على حد قول الادريسي — الخمر العتابي ، والأصبهاني ، والجرجاني •

والعتابي نوع من الخمر ينسب الى بغداد ، وهي أقمشة تغطي بها النساء رؤوسهن • وقد عرف الايطاليون هذه الصناعة من طريق الأندلسيين ، كما عرفها الفرنسيون • وعرفت هذه الثياب في أوروبا باسم تابى Tolis ، وهو تحريف واضح من كلمة عتابى ، وكان يقصد بها الأقمشة الموجهة • والأصبهاني نوع من الأقمشة اشتهرت به مدينة أصبهان • أما الجرجاني فقد ذاعت شهرته في جرجان •

وكانت الزخارف تنسج غالبا في دوائر كبيرة ملتحمة فيما بينها ، وتحف بها الكتابة أفقيا أو حول الدوائر ، ولا تظهر الصور الآدمية الا نادرا • وأجمل مثال لذلك قطعة من القماش ، ترجع الى القرن الحادى عشر ، كان ملفوفا فيها جسد القديس برناردو كالفو • ومنها قطع محفوظة في متحف فيش باسبانيا ومتحف الفنون الزخرفية بباريس • وزخارف هذه القطعة تمثل صورة جلجامش يرفع بكلتا يديه أسدين في لون أزرق مخضر ووردي ، فوق أرضية فاتحة اللون • ويتوج القطعة سطر من الكتابة الكوفية نطالع فيها كلمة « اليمن » مكررة •

وأكثر أنواع الحيوانات شيوعا في المنسوجات المنسوبة للأندلس ، صور الحيوانات الخرافية ، والعنقاوات ترسم مزدوجة دائما : متقابلة أحيانا ، ومتدابرة أحيانا أخرى أو ترسم بينها ساق نباتية • وكلها من الموضوعات الشائعة في الفن الساسانى • ومن أجمل أمثلة هذا النوع : قطعة من الحرير الموشى بالذهب ، محفوظة بالكاتدرائية الجديدة بشلمنقة • وتمثل زخارفها جامات بداخلها صور طائرین جسماهما متدبران ، ورأساهما متقابلان • ويحف بكل جامة شريط به عمارة متكررة ، مكتوبة بالخط الكوفى ، نصها : « الملك لله » •

وكانت هذه القطعة تغطي بعض المستندات التى ترجع الى عصر « فرناندو » الثانى ملك ليون (١١٥٨ — ١١٨٨ م) • ويرى فيها ميجون

بعض التأثيرات الصينية • كذلك يرى هذه التأثيرات في القطعة المعروفة بالزرافات ، والمحفوظة في متحف برشلونة • وفيها نرى رسم طائر كاسر يحمل حيوانا يشبه الأسد •

وهناك نوع من المنسوجات يعرف بمنسوجات الفيلة ، حفظت منه بعض القطع في كنيسة سان ايسيدرو بليون ، وتظهر فيها دوائر بداخلها صور فيلين متقابلين بينهما شجرة الحياة • وفوق ظهر كل فيل منهما أسد يفترسه ، وفوق ظهر الأسد صقران جسماهما متقابلان ، ورأساهما متدبران • وتدور حول كل دائرة كتابة كوفية نصها : « البركة من الله واليمن • • لصاحبه أبى بكر مما عمل في بغداد » مكتوبة طردا وعكسا • وهناك قطع أخرى من هذا النوع من النسيج وجدت في اسبانيا ، كالقطعة الحريرية المحفوظة في متحف كونست جفرب (الفنون التطبيقية) ببرلين ، وتزدان بصورة فيل واحد داخل جامة تحف بها زخرفة مصفورة ، ويعلو الفيل شجرة •

وكثيرا ما نشاهد صور حيوانات خرافية كاملة كالعنقاوات • وتمثلها قطعة من الحرير محفوظة بمتحف فيش باسبانيا ولعلها أجمل قطعة أندلسية ، وفيها نشاهد التكوين الزخرفى على أرضية قرمزية اللون ، ويتوزع التكوين في صفوف أفقية يتناوب فيها موضوعان زخرفيان : أحدهما قوامه نسران طويلا العنق متقابلان ، بينهما شجرة الحياة • والآخر يزدان بصورة حيوان خرافى يمثل طائرين متقابلين جسما ورأسهما رأس أسد • ولقد تتبع بوتيبه أصل هذا الحيوان الخرافى بالدراسة ، فوجد أنه ظهر قبل الميلاد في سوريا وبابل • وأغلب الظن أن هذه المنسوجات من صناعة المرية التى كانت — خلال عهد طويل — أحد المراكز الأوربية العظمى في صناعة المنسوجات •

وقد تحولت صناعة المنسوجات ذات الصور الحيوانية ، في عصر

الموحدين ، الى منسوجات ذات زخارف هندسية من تشابكات ومربعات ووريدات وكتابات نسخية ، ومع ذلك فقد أتقنت صناعتها الى حد كبير .
وقد ذكر ابن خلدون أن دار الطراز أبطلت في عهد الموحدين ، ومع ذلك فقد وصلت الينا أمثلة كثيرة من صناعة المنسوجات في هذا العصر ، عثر عليها في مقابر المسيحيين : مثل أكفان دون رودريجو خيمينث دي رادا ، والأمير دون فيليب وزوجته ، وأنسجة كاتدرائية لاردة .

وكان أعيان قشتالة وأرغون يتخذون ثيابهم من الأقمشة الأندلسية الاسلامية . وأروع أمثلة المنسوجات الموحدية الأعلام الاسلامية التي غنمها المسيحيون في واقعة العقاب (لاس نافاس دي تولوز سنة ١٢١٢)
التي انهزم فيها الخليفة محمد الناصر . وأهم هذه الأعلام واحد محفوظ في دير لاس أوليجاس بمدينة برغش . ويغلب على الظن أنه صنع بالمغرب . وهذا العلم منسوج من الديباج المحلى بخيوط الذهب ، وألوانه حمراء وزرقاء وبيضاء وخضراء وصفراء . وتتألف زخارفه من جامعة مركزية ، بداخلها زخرفة هندسية من تشابكات تحيط بها طرز مربعة ، ويحيط بالعلم شريطان من الكتابة النسخية . وفي أدنى العلم شريط من دوائر متصلة . وقد قيل ان هذا العلم سجادة خيمة الناصر ، وهي تشبه الأعلام الاسلامية المعروفة .

ومن هذه الأعلام : علم محفوظ بكاتدرائية طليطلة ، كان من بين ماغنمه المسيحيون من جيش بنى مرين في موقعة سلاو (٧٤١ هـ) . وهو مصنوع من الديباج المحلى بخيوط الذهب ، ويزدان بكتابات كوفية وزخارف تتألف من دوائر متصلة ، بداخل كل دائرة : اما عبارة « لا اله الا الله » ، واما عبارة « محمد رسول الله » على التوالي . ويمتلئ الفراغ بين الدوائر بزخرفة من التوريقات . وبهذا العلم في أدناه كتابة نصها : « صنع هذا العلم المنصور للمقام الكريم السلطانى مقام سيدنا ومولانا الملك السلطان الخليفة الامام أمير المسلمين ، وخليفة رب العالمين ،

الفنون والصناعات بالأندلس

أبو سعيد عثمان العابد الزاهد المجاهد ، أمير المسلمين ، وناصر الدين أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق في قسبة فاس ، حرسها الله تعالى ، في شهر محرم مفتتح عام اثني عشر وبسبعمائة » ♦

ولقد ازدهرت صناعة المنسوجات في مملكة غرناطة النصرية ازدهارا لم تبلغه من قبل ، خاصة المنسوجات الحريرية ♦ وكانت المروة ومرسية ومالقة تشتهر بصناعة الوشى ، وهو نسيج من الحرير من مختلف الألوان تدخل في صناعته خيوط الذهب ♦ وكانت تنسج في مالقة الحلل الموشاة المرتفعة الأثمان ، والخاصة بالخلفاء وحاشيتهم ♦

وكانت ثياب الخز والمنسوجات الحريرية الرائعة تنسج في أندلش وناريجة ، وتبعث الى مراكش ومصر ، والى الأمراء المسيحيين بشبه الجزيرة ♦ ولقد شهدت المدونات المسيحية بكثرة إنتاج مالقة للديباج والوشى ، عندما أشارت الى زيادة عدة سفن قشتالة لمالقة سنة ١٤٠٤ م ، وعودتها محملة بالضيافة من منسوجات الحرير الموشى ♦

وكان تقدير اسبانيا المسيحية — في القرنين الثالث عشر والرابع عشر للمنسوجات الاسلامية بالأندلس عظيما وكان لاجابهم بها ، يلفون بها موتاهم ويحفظون وكانوا بداخلها مخلفاتهم الدينية ذات القيم الكبرى ♦ وكثيرا ما كان حكامهم يتشبهون في الزي بالمسلمين ، مثل روى ديلت دي روخاس ، قائد أنتقيرة ، الذي كان متعودا على ارتداء الثياب الاسلامية ♦

وقد ذكر المؤرخ الأسابنى « أنطونيو دى لالينج » أن فرناندو الكاثوليكي وفيليب الجميل كانا يرتديان سنة ١٥٠٢ الملابس الاسلامية ♦ وذكر هذا المؤرخ كذلك — عند زيارته لمدينة غرناطة — أن هذه المدينة تشتهر بصناعة الحرير الذى يباع في قيساريتهما ♦

واستمرت مصانع المنسوجات الحريرية الاسلامية باسبانيا المسيحية

تنتج المنسوجات الحريرية الغرناطية ، كالملاحف والمآرز والخمر المختلفة الألوان التي كانت تغطي بها النساء المسلمات •

ومنذ القرن الثالث عشر اختفت من المنسوجات رسوم الحيوانات التي كانت تنسج داخل دوائر ، واستبدلت بها تكوينات من المعينات وتشابكات الخطوط المنحنية والقائمة ، وأشكال متعددة الضلوع ونجمية • وكانت هذه العناصر الزخرفية تنظم عادة في مناطق متوازية ، وأخذت أشرطه الكتابة النسخية تكثر فيها •

وهكذا اتخذت المنسوجات الأندلسية ، في عصر بني نصر ، أسلوباً فنياً خاصاً عرفت به • ولعلها تأثرت بالزخارف الجصية التي كانت تكسو جدران قصر الحمراء ، والتي كانت تتوزع في مناطق أفقية تملؤها تشابكات هندسية ودوائر في ألوان متناسقة في توزيعها ، رائعة في حيويتها وبريقها ، وهي ألوان الأصفر الذهبي ، والأحمر ، والأزرق ، والأسود والأخضر • وهي الألوان التي كانت تلون بها الزخارف الجصية •

وتحتفظ كنيسة سان سباستيان دي أنتقيرة بحلة دينية ، تعرف بحلة ساننا أوفميا ، قيل أنها صنعت من علم غنم المسيحيون من الجيش الغرناطي في موقعة شابارال سنة ١٤٢٤ • وزخرفتها تتألف من مناطق ذهبية على أرضية حمراء وخضراء وزرقاء وفي إحدى المناطق نقراً هذه العبارة : « عز لمولانا السلطان » • ومن أروع هذه الأمثلة الغرناطية قطعة من الحرير — لعلها طراز سلطاني — محفوظة في متحف الفنون الزخرفية بباريس ، وأهم ما تتميز به منطقتان : أحدهما زخرفية ، الأخرى كتابية ، تفصل بينهما منطقة ضيقة من الزخرفة الهندسية المتشابكة • وقوام المنطقة الزخرفية توريقات نباتية وتشابكات هندسية • أما المنطقة الكتابية فيتكرر فيها هذا البيت الشرعري :

الفنون والصناعات بالاندلس

أنا للعز أهل وللعز أنا
ومن رآنى رأى سرورا وهنا

وفي متحف بلنسية دى دون خوان بمدير يد قطعة من النسيج
الغرناطى ، تزدان بزخرفة هندسية من المعنيات ، ويحيط بها أقواس
زخرفية تجاورها أقواس أخرى تضم كتابة كوفية تتكرر فيها كلمة
« اليمن » طردا وعكسا •

الحياة العلمية والأدبية بالأندلس

اعتمدت الأندلس بادئ ذي بدء على التراث الاسلامي بالمشرق ، وكان هذا الاعتماد اما من طريق استقدام العلماء المشاركة الى الأندلس ، وأما من طريق رحلة الأندلسيين الى المشرق للتزود بالعلم والتحصيل في مختلف أنواع العلوم والآداب . وكان أهل الأندلس أحرص الناس على التزود بالعلم . ويذكر المقرئ في كتابه « نفح الطيب » أن الجاهل الذي لم يوفقه الله للعلم في الأندلس ، كان يجهد نفسه ليمتيز بصنعة ، ويربأ بنفسه أن يرى عالة على الناس اذ أنهم كانوا يعدون ذلك في غاية القبح . والعالم عندهم معظم من الخاصة والعامة على السواء ، يشار اليه ويحال عليه ، وينبه قدره وذكره عند الناس .

✧ ولم تكن بالأندلس مدارس تعين على طلب العلم ، كما كان الحال في المشرق ، بل كان الطلبة يقرأون ويدرسون في المساجد ، مقابل أجر معلوم . ولم تظهر المدارس في الأندلس الا في عصر دولة بنى الأحمر . وكان اقبال الناس على شراء الكتب واقتنائها أمرا معروفا في الأندلس . وما نعرفه عن ولع الحكم المستنصر بجمع الكتب أكبر دليل على ذلك ، وقيل انه جمع ما لا يوصف كثرة ونفاسة ، حتى أن مكتبته بلغت نحواً من ٤٠٠ ألف مجلد ، وأنهم لما نقلوها أقاموا ستة أشهر في نقلها . وكان يستجلب المصنفات من الأقاليم والنواحي ، باذلاً فيها ما أمكن بذله من الأموال حتى ضاقت عنها خزائنه . ويذكر ابن بشكوال أنه قلما وجد كتاب من خزائنه الا وله فيه قراءة أو نظر في أي فن .

وكان حظ أهل الأندلس من العلوم والآداب كبيراً للغاية ، فتقدمت تقدماً ملموساً منذ العهد الأموي ، واشتغل منهم كثيرون في الطب والكيمياء والهندسة والعلوم الرياضية والفلك ، ونبغوا في الفلسفة والتصوف

الحياة العلمية والأدبية بالأندلس

والنحو والشعر • وكان أمراء بنى أمية وخلفاؤهم يكرمون العلماء ،
ويحيطونهم برعايتهم *** فازدهرت العلوم والآداب في هذا العصر ،
وبلغ هذا الازدهار أوجه في عصر الموحدين •

العلوم العقلية

* أول من اشتهر في الطب في الأندلس : أحمد بن إياس القرطبي في
عهد الأمير محمد • ونبغ بعده كثيرون في عهد بنى أمية ، منهم يحيى ابن
اسحق الذى كان طبيبا للأمير عبد الله بن محمد • وقد استوزره الخليفة
عبد الرحمن الناصر • وله في الطب مؤلفات كثيرة • وازدهر الطب في عهد
هذا الخليفة ، واشتهر به كثير من العلماء : منهم أبو عبد الله محمد بن
عبدون العذرى القرطبي ، الذى رحل الى مصر سنة ٣٣٧ هـ (٩٤٨ م) ،
ودبر مارستان مصر • والوزير أبو المطرف عبد الرحمن ابن شهيد ،
مصنف الأدوية المفردة • ويقول عنه المقرئ انه كان « آية الله تعالى في
الطب وغيره ، حتى أنه عانى جميع ما في كتابه من الأدوية المفردة ، وعرف
ترتيب قواها ودرجاتها • وكان لا يرى التداوى بالأدوية ما أمكن ، بل
بالأغذية أو ما يقرب منها • وإذا اضطر الى الأدوية ، فلا يرى التداوى
بالمركبة ما وجد سبيلا الى المفردة • وإذا اضطر الى المركب ، لم يكثر
التركيب ، بل يقتصر على أقل ما يمكنه • وله غرائب مشهورة في الإبراء
من الأمراض الصعبة ، والعلل المحوفة ، بأيسر علاج وأقربه » •

ولعه ابن وافد المشهور الذى ترجم له القاضى أبو القاسم صاعد ،
وذكر أنه « ألف كتابا جليلا لا نظير له ، جمع فيه ما تضمنه كتاب
ديسقوريدس وكتاب جالينوس المؤلفين في الأدوية المفردة ، ورتبه
أحسن ترتيب » •

واشتهر في عهد الحكم المستنصر الطبيب العالم أبو القاسم

الزهرأوى (من مدينة الزهراء) ، الذى اتخذته الحكم طبيا خاصا له •
 ونبغ فى عصره هشام المؤيد الطبيب أبو داود سليمان بن حسان ، المعروف
 بابن جلجل ، وقد شرح أسماء الأدوية المفردة من كتاب ديسقوريدس ،
 وأوضح ما غمض منها فى كتابه « تفسير أسماء الأدوية المفردة من كتاب
 ديسقوريدس » • وكتب ابن الهيثم فى الخواص والسموم والعقاقير عدة
 مؤلفات (٩٦٥ — ١٠٣٩) •

أما عصر الموحدين فهو العصر الذهبى لعلم الطب ، اذ نبغ فيه كثير
 من الأطباء فى الأندلس ، نخص بالذكر منهم : ابن البيطار ، وهو عبد الله
 بن أحمد الملقب ، الملقب بضياء الدين • وقد رحل الى مصر فى أيام الملك
 الكامل • وعين طبيا فى خدمته ، ثم طبيا للملك الصالح نجم الدين أيوب •
 وغنى بدراسة النبات والأعشاب فى مصر والشام ، وله عدة مصنفات فى
 الحشائش لم يسبق إليها ، منها كتاب « الجامع فى الأدوية المفردة » ،
 وكتاب « الأفعال الغريبة والخواص العجيبة » • وقد استفاد فى كتبه من
 تصانيف الأدوية المفردة ، ككتاب الغافقى وأبى الحسن الزهرأوى •
 وتوفى بدمشق سنة ٦٤٦ هـ ، اذ تجرع عقارا قاتلا فمات من ساعته •

واشتهر بنو زهر ، من أشرف اشبيلية ، بصناعة الطب التى
 توارثوها ابنا عن أب ، وكان جدهم الأكبر ، عبد الجبار بن أبى سلمة
 المقرشى الزهرى ، قد دخل الأندلس مع موسى بن نصير ، وكان على
 ميسرة معسكره ، ونزل باجة ثم بطليوس ، ثم استقر أعقابهم فى اشبيلية
 واشتهر منهم الوزير أبو مروان عبد الملك بن محمد بن مروان بن زهر ،
 الذى مال الى التفنن فى أنواع التعليم ، من الطب وغيره ، ورحل الى
 المشرق • ونشأ ابنه أبو العلاء زهر بن عبد الملك بشرق الأندلس ، ومال
 الى علم الأبدان ، ولم يزل مقيما بشرق الأندلس الى أن استترى يوسف
 بن تاشفين على الأندلس

وكان أبو العلاء زهر عالما فى الطب ، عارفا بالعلاجات ، مطلقا على

دقائقها • واستدعاه أمير المسلمين يوسف بن تاشفين اليه في مراكش
لعلاجه • ولابنه عبد الملك بن أبي العلاء كتاب « التيسير » وكتاب
« الأغذية » • كذلك ألف لخليفة الموحدين عبد المؤمن كتاب « الترياق
السبعيني » • وكان حفيده ، أبو بكر محمد بن أبي مروان عبد الملك ابن
زهر ، طبيب اشبيلية الأوحده ، واستوزره خليفة الموحدين أبو يوسف
يعقوب المنصور • وتوفي في سنة ٥٩٥ هـ (١١٩٨ م) ، وأمر أن يكتب
على قبره :

تأمل بفضلك يا واقفا
ولاحظ مكانا دفعنا اليه
تراب الضريح على صفحتي
كأنى لم أمش يوما عليه
أداوى الأنام حذار المنون
فها أنا قد صرت رهنا لديه

وذاع في الطب ، في عهد الموحدين ، أمر أبي محمد عبد الملك المشدوني ،
وأبي العباس بن الرومية الاشبيلي الذي ألف كتابا في الأدوية المفردة •

وقد استفاد الاوربيون من كتب الطب الاندلسية وترجموا أغلب
هذه الكتب الى اللاتينية واليونانية ، مثل كتاب (Viaticum Peregrinantis)
الذي ألفه الطبيب ابن الجزار المتوفى سنة ١٠٠٩ ، والذي ترجمه
كنستنتينو الأفريقي ، وكتاب (Liber Servitoris) لأبي القاسم الزهراوى
المعروف باسم (Alsaharavius) وقد ترجمه جيراردو دى كريمونا الى
اللاتينية • وترجم جيدو دى كاوليك سنة ١٤٧٩ كتاب الزهراوى عن
الجراحة الى اللاتينية تحت عنوان (Chirurgia parva)

وعرف أبو مروان بن زهر في الأوساط العلمية الأوربية باسم

(Avenzoar) ، وترجم كتابه التيسير الى اللاتينية عام ١٤٩٦ ، وظلت هذه الترجمة سارية المفعول في الطب الايطالى حتى القرن السابع عشر، وكذلك ترجم كتاب الكليات لابن رشد الى اللاتينية تحت عنوان (Colliget) وساهمت مدرسة الترجمة بطليطلة ، في القرن الثانى عشر ، بنصيب وافر في ترجمة كتب الطب الأندلسية التى تجاوزت شهرتها آفاق أوروبا ، ودرست علوم الطب في باريس على اساس التواليف الاسلامية .

أما علم الكيمياء ، الذى ينظر في المادة التى تتم بها صياغة الذهب والفضة (١) فينسب الى جابر بن حيان . . . حتى أنه يعرف أحيانا بعلم جابر ، وله فيه سبعون رسالة . وقد اشتغل أهل الأندلس بالكيمياء ، واشتهر منهم أبو القاسم مسلمة بن أحمد المجريطى (من مدريد) المتوفى سنة ٣٩٨ هـ (١٠٠٧ م) شيخ الأندلس في علم الكيمياء في عهد بنى أمية . وقد ألف كتابا في علم الكيمياء سماه « رتبة الحكيم » ، وجعله قرينا

(١) علم الكيمياء — كما فسره ابن خلدون — « علم ينظر في المادة التى يتم بها كون الذهب والفضة بالصناعة ، ويشرح العمل الذى يوصل الى ذلك ، فيصفحون الكونات كلها ، بعد معرفة أمزجتها وقواها ، لعلمهم يعثرون على المادة المستعدة لذلك . . . حتى من الفضلات الحيوانية ، كالعظام والريش والبيض والعذرات ، فضلا عن المعادن . ثم يشرح الاعمال التى تخرج بها تلك المادة من القوة الى الفعل : مثل حل الاجسام الى اجزائها الطبيعية بالتصعيد والتقطير ، ومن الذائب منها بالكبس ، وأمهاء الصلب بالصهر والأصلابة وأمثال ذلك . وفي زعمهم أنه يخرج بهذه الصناعات كلها جسم طبيعى يسمونه الأكسير ، وأنه يلقى منه على الجسم المعدنى ، المستعد لقبول صورة الذهب أو الفضة ، بالاستعداد القريب من الفعل — مثل الرصاص والقصدير والنجاس — بعد أن يحوى النار ، فيعود ذهباً ابريزاً » .

لكتابة الآخر في السحر والطلسمات الذي سماه « غاية الحكيم » • ومن كبار تلاميذه أبو بكر بن بشرون •

ونبغ في علم الكيمياء ، في عهد الأمير محمد ، العالم أبو القاسم عباس بن فرناس (٨٥٨ — ٨٨٦) ، أول من استنبط بالاندلس صناعة الزجاج من الحجارة •

واشتهر عباس بن فرناس المذكور بصناعة العدد والآلات ، فصنع الآلة المعروفة بالمنقلة ، ليعرف الأوقات على غير رسم ومثال ، واحتال في تطيير جثمانه ، وكسا نفسه بالريش ، ومد له جناحين ، وطار في الجو مسافة بعيدة ••• ولكنه لم يحسن الاحتياال في وقوعه ، فأصيب في مؤخره ولم يدر أن الطائر انما يقع على زمكة • وقد صنع في بيته قبة تشبه السماء ، وزودها بالآلات الخفية التي تحدث البروق والرعود ، وجعل في أعلاها نجوما وغيوما تبدو للناظر حقيقة •

وأول من اشتهر في الأندلس بعلم الحساب والنجوم : أبو عبيدة مسلم بن أحمد المعروف بصاحب القبلة ، لأنه كان يشرق في صلاته ، وكان عالما بحركات الكواكب وأحكامها • وكان يحيى ابن يحيى ، المعروف بابن السمينه القرطبي ، بصيرا بالحساب والنجوم • وبرع أبو القاسم أصبغ بن السمح في علم النجوم والهندسة ، وله عدة تواليف منها : « كتاب المدخل الى الهندسة في تفسير اقليدس » ، وكتاب كبير في الهندسة ، وكتابان في الاسطرلاب • ونبغ أبو الحسن الزهراوى في العدد والهندسة ، وله كتاب في الهندسة عنوانه « المقابلات عن طريق البرهان » واشتهر أبو الحكم عمرو بن عبد الرحمن الكرمانى القرطبي ، في بلاط ابن هود بسرقسطة ، في علم العدد والهندسة • ورحل الى المشرق ، واشتغل بحران ، وهو أول من أدخل رسائل اخوان الصفا الى الأندلس ، وتوفى سنة ٤٥٨ هـ (١٠٦٥ م) •

✓ ومن علماء الأندلس في الهندسة والنجوم أبو مسلم بن خلدون ، من أشرف أشبيلية ، وتلاميذه ابن برغوث ، وكان عالما في الرياضيات ، وأبو الحسن مختار الرعيني ، وعبد الله بن أحمد السرقسطي ، وكان متعمقا في علم الهندسة والعدد والنجوم ، ومحمد بن الليث ، وكان بارعا في العدد والهندسة وحركات الكواكب ، وابن الوقشي الطليطلي ، وكان عارفا بالهندسة والمنطق . ومن أشهر علماء الفلك : إبراهيم بن يحيى النقاش ، المعروف بابن الزرقيا ، الذي ابتدع كثيرا من الآلات الخاصة بالنجوم . وكان من مآثر بني هود ملوك سرقسطة عنايتهم بالعلم ، وكان المقتدر بن هود عالما في الرياضة والهندسة والنجوم ، وله فيها تأليف .

ويعد عصر الموحدين العصر الذي تقدمت فيه علوم الهندسة والآلات العجيبة . ومن أمثلة ذلك : التابوت الذي صنعه بعض المهندسين لحفظ مصحف عثمان ، إذ كان له باب يفتح من تلقاء نفسه ، فيخرج الكرسي الحامل للمصحف ، فإذا خرج بأكمله أغلق الباب من تلقاء نفسه . وكذلك المقصورة التي تنصب في أثناء الصلاة ، وتختفي في باطن الأرض بعد الصلاة .

✓ كذلك برع أهل الأندلس في صناعة الآلات الفلكية كالاسطرلابات . واشتهر في عهد بني الأحمر : يحيى بن هذيل ، وكان بارعا في الهندسة والرياضيات .

✓ وقد ترجمت الى اللاتينية بعض المؤلفات الأندلسية في الهندسة والنجوم ، مثل كتاب مسلمة المجريطي عن الكواكب لبطليموس ، ترجمة رودولفو دي بروخاس في النصف الأول من القرن الثاني عشر . وانتفع ألفونسو العاشر بمؤلفات ابن زرقيا في الفلك والنجوم .

أما الفلسفة فلم يكن للأندلسيين في العصر الأموي حظ كبير فيها ، فقد كان جل اهتمامهم منصرا الى العلوم الدينية واللغوية . وكانت

الحياة العلمية والادبية بالأندلس

الفلسفة موضع نفور واضطهاد • ويذكر المقرئ ، في كتابه نفح الطيب ، أن كل العلوم كان لها عند الأندلسيين حظ كبير واعتناء ، إلا الفلسفة والتنجيم « فأن لهما حظا عظيما عند خواصهم ، ولا يتظاهر بهما خوف العامة ... فإنه كلما قيل فلان يقرأ الفلسفة أو يشتغل بالتنجيم ، أطلق عليه اسم زنديق ، وقيدت عليه أنفاسه • فأن زل في شبهة ، رجموه بالحجارة ، وأحرقوه قبل أن يصل أمره للسلطان ، أو يقتله السلطان تقريبا لقلوب العامة • وكثيرا ما يأمر ملوكهم بأحراق كتب هذا الشأن اذا وجدت » •

وذكر ابن سعيد « أن الفلسفة علم ممقوت بالأندلس لا يستطيع صاحبه اظهاره ، فلذلك تخفى تصانيفه » • ولقد أحرق الخليفة عبد الرحمن الناصر كتب ابن مسرة ، فيلسوف قرطبة الأول • وأحرق المنصور ابن أبى عامر — أول قيامه بالحجابه — كتب الفلسفة ليتقرب الى الفقهاء • ومع ذلك فقد كان في الأندلس فلاسفة في العصر الأموي ، منهم محمد بن عبد الله بن مسرة الباطني القرطبي ٢٦٩ — ٣١٩ هـ (٨٨١ — ٩٣١ م) (١) • وعيوننا مؤلفة لسعيد بن فتحون السرقسطي المعروف بالحمار ، دالة على تمكنه من هذه الصناعة ، ورسائل لأبى عبد الله بن الحسن المذحجي •

وازدهرت الفلسفة في عصر الموحدين — وعلى الأخص في عهد أبى

(١) قال عنه الفتح بن خاتمان في المطمح : « كانت له اشارات غامضة ، وعبارة عن منازل الملحدن غير داحضة ، ووجدت له مقالات رديية واستنباطات مردية ، نسب بها اليه رهق ، وظهر له فيها مزحل عن الرشيد ومزهرق .. فتنبعت مصنفاته بالحرق ، واتسع في استباحتها الخرق ، وغدت مهجورة ، على التالين محجورة » .

يعقوب يوسف بن عبد المؤمن — ازدهار منقطع النظير ، وبرز فيها فيلسوفان من أشهر مفكرى الأندلس ، وأعظم فلاسفة الاسلام هما : ابن طفيل ، وابن رشد . وكان أبو يعقوب يوسف محبا للفلسفة ، مقبلا عليها ، فجمع كثيرا من مؤلفاتها . فأجتمع له — على حد قول عبد الواحد المراكشى — ما يقرب من كتب الحكم المستنصر بالله ، وكان يحيط نفسه بعظام الفلاسفة والمفكرين : أمثال أبى بكر محمد بن طفيل ، وأبى الوليد بن رشد . الا أن انحراف ابنه ، وأبى يوسف يعقوب المنصور ، عن علم الفلسفة ، وسجنه لابن رشد ، وقتل أبى العلاء المأمون لابن حبيب الفيلسوف ... أدى الى خمول حركة الفلسفة ، فتوارى كثيرون ممن كانوا يشتغلون بها .

وكان أبو بكر محمد بن عبد الملك بن طفيل العنسى الوادى آتى ، من أعظم فلاسفة المسلمين . وكان متحقيقا بجميع أنواع الفلسفة ، قرأ على جماعة من العلماء والفلاسفة ، منهم أبو بكر محمد ابن يحيى الصائغ — المعروف بابن باجة — الذى أشار فى فلسفته الى فكرة اتصال العقل بالانسان (١) وهى الفكرة التى كانت أساسا لوحدة الوجود الصوفية عند ابن طفيل .

ولابن طفيل هذا عدة تصانيف فى أنواع الفلسفة : من الطبيعيات والالهيات ، وغير ذلك . فمن رسائله فى الطبيعيات رسالة سماها « رسالة حى بن يقظان » ، قصد منها بيان الصلة بين العقل والدين . والأساس الفلسفى لهذه الرسالة هو الطريق الذى سار عليه فلاسفة المسلمين على مذهب الأفلاطونية الحديثة . وكان ابن طفيل قد صرف عنايته ، فى نهاية عمره ، الى الالهيات . وكان حريصا على الجمع بين الحكمة والشريعة ، وله تصانيف فى هذا الفرع من الفلسفة .

(١) فى هذه الفكرة كتابان ، هما : « تدبير الموحد » ، و « كتاب النفس » .

وكان أبو يعقوب يوسف متعلقاً به ، محباً له • وكان ابن طفيل يقدم اليه العلماء والفلاسفة من جميع الأقطار ، ويعرفه بهم • ومن هؤلاء الفلاسفة الذين قدمهم اليه : أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد القرطبي ويعيد ابن رشد من أجل فلاسفة الاسلام ، وأعظم ملخصي فلسفة « أرسطوطاليس » وشارحيها (١) • وكان أبو يوسف يعقوب المنصور يقربه اليه ، ثم نقم عليه • ونالت ابن رشد على يديه محنة شديدة •

وذكر عبد الواحد المراكشي سبب هذه المحنة بقوله : « وكان لها سببان جلي وخفي • فأما سببها الخفي — وهو أكبر أسبابها — فإن الحكيم أبا الوليد ، رحمه الله ، أخذ في شرح كتاب الحيوان لأرسطوطاليس ، صاحب كتاب المنطق ، فهدبه وبسط أغراضه ، وزاد فيه ما رآه لايقاً به • فقال في هذا الكتاب — عند ذكره الزرافة ، وكيف تتولد ، وبأى أرض تنثأ — : « وقد رأيتها عند ملك البربر » ، جارياً في ذلك على طريقة العلماء في الاخبار عن ملوك الأمم وأسماء الأقاليم ، غير ملتفت الى ما يتعاطاه خدمة الملوك ومتحילו الكتاب ، من الاطراء والتقريظ وما جانس هذه الطرق ••• فكان هذا مما أحنتهم عليه ، غير أنهم لم يظهروا ذلك • وفي الجملة فأنها كانت من أبى الوليد غفلة • واستمر الأمر على ذلك الى أن استحكم ما في النفوس •••

« ثم أن قوما ممن يناوئونه من أهل قرطبة ، ويدعون معه الكفاءة في البيت وشرف السلف ، سعوا به عند أبى يوسف ، ووجدوا الى ذلك

(١) لخص ابن رشد جميع كتب أرسطو وهي « سمع الكيان » وكتاب « السماء والعالم » و « رسالة الكون والفساد » و « كتاب الآثار العلوية » و « كتاب الحس والمحسوس » ••• لخصها جميعاً في جزء واحد من مائة وخمسين ورقة تحت عنوان « كتاب الجوامع » ثم استفاض في رحها في كتاب مسوط يقع في أربعة أجزاء •

طريقا بأن أخذوا بعض تلك التلاخيص التى كان يكتبها ، فوجدوا فيها بخطه — حاكيا عن بعض قدماء الفلاسفة بعد كلام تقدم — « فقد ظهر أن الزهرة أحد الآلهة ... » ، فأوقفوا أبنا يوسف على هذه الكلمة . فاستدعاه — بعد أن جمع له الرؤساء والأعيان من كل طبقة ، وهم بمدينة قرطبة — فلما حضر أبو الوليد ، رحمه الله ، قال له بعد أن نبذ اليه الأوراق : « أخطك هذا ؟ » فأنكر . فقال أمير المؤمنين : « لعن الله كاتب هذا الحظ » . وأمر الحاضرين بلعنه » .

وأبعده الخليفة من حضرته وسجنه ، وأحرق جميع كتبه فى الفلسفة . غير أنه ما لبث أن عفا عنه ، واستدعاه الى مراكن بجواره ، وأحسن اليه . ولكن الموت لم يمهل ابن رشد فتوفى عام ٤٩٤ هـ (١١٩٧ م) . وقد تناولت فلسفة ابن رشد عدة مسائل : تتدرج من أصل الكائنات الى اتصال الكون بالخالق ، وعلاقة الانسان به ، ثم المادة وخلق العالم . وقد أثرت فلسفة ابن رشد فى الفلسفة الأوربية فى العصور الوسطى ، وترجمت كتبه الى اللاتينية ، وتغلغل أفكاره فى أوربا . وعنها أخذ كثيرون من الفلاسفة الايطاليين فى أواخر العصر الوسيط .

الشعر الأندلسي

كان أهل الأندلس يفتتنون بالمنثور والمنظوم ، لم تضق لهم فى ذلك ساحة . وكانوا أشعر الناس وأرقهم ، اذ تأثروا بطبيعة بلادهم : بما فيها من رياض نضرة ، وأنهار جارية . وشعر ابن خفاجة البلنسى خير مثل للرقعة . وأعانهم على هذا التفوق فى الشعر أنسابهم العربية ، وهمهم الأبية . وكان القرن الرابع الهجرى هو العصر الذهبى للشعر ، اذ برز كثير من الشعراء : منهم أحمد بن محمد بن دراج القسطللى الذى يقارن ببشار بن برد والمتنبى . ومن قوله فى وصف أسطول ابن أبى عامر :

الحياة العلمية والادبية بالاندلس

تحمل منه البحر بحرا من القنا
 يروع بها أمواجه ويهول
 بكل ممالات الشراع كأنها
 وقد حملت أسد الحقائق غبل
 اذا سابقت شأو الرياح تخيلت
 خيولا مدى فرسانهن خيول
 سحائب تزجيه الرياح ، فان وفيت
 أطاقت بأجنياد النعام فيول
 أراقم تحوى ناقع السم مالها
 بما حملت دون العداة مقييل

ومنهم : جعفر بن عثمان الحاجب ، وأحمد بن عبد الملك بن مروان ،
 وأغلب بن شعيب ، وأحمد بن فرج ، وابن عبد ربه — صاحب العقد
 الفريد — وأبو اسحق الأليبري ، وابن أبي زمنين ، وابن فرج الجياني ،
 وأبو عبد الله محمد بن شفيص * واشتهر منهم أبو عمر يوسف بن هرون
 الكندي ، المعروف بالرمادي القرطبي ، المتوفى في عام ٤٠٣ هـ (١٠١٢ م) *

وكان الرمادي رقيقا في شعره * وكان كثير من شيوخ الأدب في
 عصره يقولون : فتح الشعر بكندة ، وختم بكندة * ويعنون أمراً القيس
 والمتنبى والرمادي * وقال عنه الفتح في المطمح : « أنه شاعر مفلق ،
 انفرج له من الصناعة المخلق ، وومض له بريقها المؤتلق ، وسال بها طبعه
 كالماء المندفق *** ، فأجمع على تفضيله المختلف والمتفق : فتارة يحزن ،
 وأخرى يسهل ، وفي كلتيهما بالبديع يعل وينهل * فاشتهر عند الخاصة
 والعامة بانطباعه في الفريقين ، وابداعه في الطريقين » * وأورد من
 محاسن شعره قوله :

شطت نواهم بشمس في هواجهم
 لولا تلالؤها في ليلهن عشوا

شكت محاسنها عيني ، وقد عذرت ،
لأنها بضمير القلب تنخمش

وكان قد أنشد شعرا أوغر عليه صدر الخليفة ، فسجنه • فاستعطفه
الرمادى فى سجنه بقوله :

على كمدى تهمل السحاب وتذرف
ومن جزعى تبكى الحمام وتهتف
كأن السحاب الواكفات غواسلى
وتلك على فقدى نوائح هتف

ولما سقطت الخلافة الأموية ، وقامت دول الطوائف ، تنافس الملوك
فى اجتذاب الشعراء اليهم • فتألق هن الشعر ، وتبارى الشعراء فى نظم
القصائد • وكان لكل ملك من ملوك الطوائف شعراؤه • فمن شعراء المعتمد
بن عباد ملك اشبيلية : ابن عمار ، وابن اللبانية ، وابن زيدون • ومن
شعراء المعتصم بن حمادح : ابن الحداد ، وأبو الوليد النحلى ، وأبو
الفضل بن شرف • وكان بعض ملوك الطوائف ينظم الشعر أمثال : المعتمد
بن عباد ، والمعتصم بن حمادح ، وأبى مروان عبد الملك بن رزين ، ومحمد
بن طاهر •

فمن قول المعتمد بن عباد وهو فى منفاه :

غريب بأرض المغربين أسير
سبيكى عليه منبر وسرير
وتندبه البيض الصوارم والقنا
وينهل دمع بينهن غزير

ومن أرق شعراء الطوائف : الشاعر الوزير أبو الوليد أحمد بن عبد
الله بن زيدون • وقد سجل بأشعاره كثيرا من أحداث حياته : فى سراحه

الحيلة العلمية والادبية بالاندلس.

واعتقاله ، ومقامة وانتقاله • وكان يحب ولادة بنت المستكفى ، فأنشد فيها أشعارا رائعة • منها القصيدة المشهورة التى كتبها اليها ، بعد أن يئس من لقائها يستديم عهدا ، ويؤكد ودها ، ويعتذر من فراقها بالخطب الذى ألم به ، ويعلمها أنه ما سلاعنها بخمر ، ولا خبا ما بين ضلوعه لها من ملتهب جمر • وتبدأ هذه القصيدة بقوله :

أضحى التئائى بديلا من تدانينا
وناب عن طيب لقيانا تجافينا
بنقم وبنا : فما ابتلت جوانحنا
شوقا اليكم ، ولا جفت مآقينا
يكاد ، حين تناجيكم ضمائرنا ،
يقضى علينا الأسى • • لولا تأسينا
حالت لفقدكم أيامنا فعدت
سودا ، وكانت بكم بيضا ليالينا
اذ جانب العيش طلق من تكلفنا
ومورد اللهو صاف من تصافينا
واذ هصرنا غصون الأنس دانية
قطوفها فجئينا منه ما شنا

ثم يبلغها أنه ما يزال باقيا على الوفاء مهما يطل به الفراق ، فيقول :

لم يعتقد بعدكم الا الوفاء لكم
رأيا ، ولم تتقلد غيره دنيا
لا تحسبوا نأيكم عنا بغيرنا
أن طال ما غير النأى المحبيننا
ويسألها أن تبقى على العهد مثله ، فيقول :
دومى على العهد ما دمنا محافظة
فالحر من دان انصافا كما دينا

وقال في قصيدة أخرى يخاطب بها ولادة ، ويطلب منها الوفاء
بالعهد ، ويذكر لها أرقه وسهده :

ما جال بعدك لحظى في سنا القمر
الا ذكرك ذكر العين بالأثر
ولا استطلت ذماء النفس من أسف
الا على ليلة سرت مع القصر

ومن قول ابن اللبانة الشاعر في وداع آل عباد ، بعد أن أسرهم
المرابطون ، ونفوهم بأغصات في المغرب :

تبكى السماء بمزن رائح غاد
على البهاليل من أبناء عباد
على الجبال التي هدت قواعدها
وكانت الأرض منهم ذات أوتاد
حان الوداع ، فضجت كل صارخة
وصارخ من مفداة ومن فاد
سارت سفائنهم والنوح يصحبها
كأنها ابل يحدو بها الحادى

واشتهر في عصر المرابطين شعراء الوصف والتشبيهات أمثال : ابن
خفاجة ، وابن الزقاق ، وابن عائشة • وظهر في عهد الموحدين شعراء
عظام أمثال : أبو عبد الله محمد بن غالب الرصافى ، وأبو العباس أحمد
بن سعيد الملقب باللص ، وأبراهيم ابن سهل الاسرائيلى ، وأبو بكر محمد
بن أحمد ابن الصابونى الاشبيلى ، وأبو بكر محمد بن أحمد ابن حجاج
الغافقى الاشبيلى ، وأبو العباس أحمد بن حنون ، وأبو الحسن على بن
يوسف بن خروف القرطبي وغيرهم •

ومن روائع أشعار ابن سهل قوله:

الحياة العلمية والادبية بالاندلس

وألمى ، بقلبي منه جمر مؤجج
تراه على خديه يندى ويبرد
يسألتني : من أى دين ؟ مداعبا
وشمل اعتقادي في هواه مبدد
فؤادي حنيفي ، ولكن مقلتي
مجوسية من خده النار تعبد

وينتسم شعر ابن سهل الاسرائيلي بالرقعة والسلاسة • سئل بعض
المغاربة عن السبب في رقة نظمه فقال : « لأنه أجمع فيه ذلان : ذل
العشق ، وذل اليهودية » • وتوفي ابن سهل غريقا سنة ٦٤٩ هـ •

كان هؤلاء الشعراء آخر شعراء مجيدين أنجبتهم الاندلس في عصر
الموحدين • ولم نعد نسمع في عصر دولة بني الأحمر الا عن شاعرين
نابغين هما : ابن الخطيب ، وتلميذه ابن زمرك الذي سجل أشعاره على
جدران قصر الحمراء بغرناطة •

وكانت في الاندلس شاعرات مجيدات : نبغت منهن في عصر بني
أمية الشاعرة حسناء التميمية • ومن روائع شعرها قصيدة مدحت فيها
الأمير عبد الرحمن الأوسط ، وشكت اليه من جور عامله بالبيرة « جابر
بن لبيد » • ومنها :

الى ذى الندى والمجد سارت ركائبي
على شحط تصلى بنار الهواجر
ليجير صدعى ، انه خير جابر
ويمنعى من ذى الظلامة « جابر »
فانى وأيتسامى بقبضة كفه
كذى ريش أضحى في مخالبا كاسر

ومنهن الشاعرة أم العلاء بنت يوسف الحجازية (من مدينة وادي

الحجارة) ، التى ظهرت فى المائة الخامسة ، والشاعرة أم الكرام بنت المعتصم بن صمادح ، والشاعرة الغسانية البجائية (من شاعرات القرن الرابع الهجرى) ، وحفصة بنت حمدون الحجازية ، وزينب المرية ، وغاية المنى الشاعرة ، ومهجة القرطبية ، وأسماء العامرية الاشبيلية ، وبثينة بنت المعتمد بن عباد ، والعبادية جاريته * وكلهن شاعرات من عصر ملوك الطوائف ، وأشهرهن الشاعرة ولادة بنت المستكفى بالله محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله بن الناصر ، وكتبت بالذهب على طراز ثوبها :

أنا والله أصلح للمعالى
وأمشى مشيتى وأتته تبيها
وأمكن عاشقى من لثم خدى
وأعطى قبلتى من يشتهيها

ومع ذلك فقد كانت مشهورة بالعفة والطهارة : وفيها أنشد ابن زيدون أروع قصائده * ومن شعرها أبيات ودعت بها ابن زيدون :

ودع الصبر محب ودعك
ذائع من سره ما استودعك

يقرع السن على أن لم يكن
زاد فى تلك الخطأ اذ شيعك

يا أبا البدر سناء وسنا
حفظ الله زمانا أطلعك

ان يطل بعدك ليلى فلكم
بت أشكو قصر الليل معك

وكانت ولادة شاعرة القول رقيقه ، وكانت تساجل الشعراء ، وتناضل الأدباء ، وعمرت طويلا ، وماتت عذراء سنة ٤٨٠ هـ

ومن أشهرهن حمدونة بنت زياد الوادى آشية ، وكانت تسمى بخنساء
المغرب بالأندلس • ومن أروع أشعارها قولها :
ولما أبى الواشون الا فراقنا
ومالهم عندى وعندك من ثار
وشنوا على أسماعنا كل غارة
وقل حماتى عند ذاك وأنصارى
غزوتهم من مقلتيك وأدمعى

وقولها فى وصف وادى « نهر » ••• منقسم الجداول بين الرياض :

ومن نفسى : بالسيف والسييل والثار
وقانا لفحة الرمضاء واد
سقاء مضاعف الغيث العميم
حللنا دوحه فحنا علينا
حنو المرضعات على الفطيم
وأرشفنا على ظمأ زلالا
ألذ من المدامة للنسيم
يصد الشمس أنى واجهتنا
فيحجبها ويأذن للنسيم
يروع حصاء حالية العذارى
فتلمس جانب العقد النظيم

الموشحات

استحدث الأندلسيون نوعا من الشعر العربى يسمى الموشحات ،
يستند على أصل شعبي هو الأغنية الشعبية ، وينظم أسماطا وأغصانا ،
ويعرف المقطع الأخير من الموشحة بالخرجة ، وهى أساس الصلة الوثيقة
التي تربط بين الموشحة والاغنية الشعبية • وغالبا ما كانت هذه الخرجة

تتضمن ألفاظا رومانسية ، وهى ألفاظ شائعة فى العامية • وتختلف الموشحة فى تركيبها عن القصيدة ، اذ تتعدد القوافى فى الموشحة ، وتسمى الأبيات التى تختلف قوافيها بالأغصان ، والذى تتفق قوافيها بالاسمات أو الأقفال • أما الخرجة فهى أهم جزء فى الموشحة •

وقد فسر ابن بسام فى « الذخيرة » أصل الموشحات وتطوره ، وذكر أن أول من صنع أوزان هذه الموشحات فى الأندلس هو محمد بن محمود القبرى الضرير ، وأنه كان يصنعها على أشطار الأشعار ، وأنه كان يأخذ اللفظ العامى والعجمى ويسميه المركز ، ويضع عليه الموشحة دون تضمين فيها ولا أغصان •

ثم أخذ ابن عبد ربه عن موشحات مقدم بن معافى ••• الا أن أول من برع فى هذا النوع من الأشعار عبادة القراز ، شاعر المعتصم بن صمادح ، وكان عبادة هذا أسبق وشاحى معاصريه • ومن أمثلة توشيحاته الموشحة التى يبدأ مطلعها كالاتى :

من مورد التسنيم ، من سلك فلج •••

ويمضى الوشاح فى ايراد الأغصان والاقفال،حتى ينتهى الى الغصن الأخير فيقول :

وغادة لم تزل	تشكو لمن لا يتصف
ياويح من يتصل	بحبل من لايسعف
لما رآته بطل	وهى غراما تكلف
غنت وما للأمل	الا اليه المصرف

ويختتم الموشحة بالخرجة الآتية :

ميو سيدى ابراهيم ، يانوا من دلج

فأنت ميب ، دى نخت
أن نون شنون كارنش ، يريم تيب
عرفى أوب ، لغرت

والخرجة كما ترى تتضمن ألفاظا رومانسية ، أى لاتينية حديثة
مكتوبة بالعربية •

وازدهرت صناعة الموشحات فى عصر المرابطين • فبرز كثير من
الوشاحين أمثال : أبى العباس أعمى تطيلة ، وابن بقى ، وأبى بكر الأبيض
والحكيم أبى بكر بن باحة صاحب التلاحين • وظهرت بدائع الوشاحين
فى عصر الموحدين ، فظهر أبو بكر بن زهر ، وابن سهل الاسرائيلى ،
ومحمد بن أبى الفضل بن شرق ، وابن حنون ، وابن جرمون ، وأبو
الحسن بن مالك ، وأبو بكر بن الصابونى •

ومن أجمل موشحات ابن زهر قوله :

أيها الساقى اليك المشتكى
كم دعوناك وان لم تسمع
ونديم همت فى غرته
وسقانى الراح من راحته
كلما استيقظ من سكرته
جذب الزق اليه واتكى
وسقانى أربعا فى أربع

الأزجال

يقول ابن خلدون انه لما شاع فن التوشيح فى الأندلس ، وأخذ به
الناس لسلاسته وتنميق كلامه وترصيع أجزاءه ، نسجت العامة على
منواله ، ونظموا فى طريقته بلغتهم الحضرية من غير أن يلتزموا فيها

اعرابا ، واستحدثوا فنا سموه بالزجل والتزموا النظم فيه على مناحيهم،

وأول من ابتكر الأزجال أبو بكر بن قزمان القرطبي في عهد المرابطين
ويعد ابن قزمان أمام الزجالين على الإطلاق • واشتهرت أزجاله في
الآفاق ، وانتقلت الى بغداد والشام ومصر • وذكر الحجارى أنه كان في
أول شأنه مشغولا بالنظم المعرب فرأى نفسه تقصر عن أفراد عصره ، كابن
خفاجة وغيره ، فعمد الى طريقة لا يمازجه فيها أحد منهم ، فصار أمام
أهل الزجل المنظوم بكلام عامة الأندلس • وذكر لسان الدين ابن الخطيب
أن هذه الطريقة الزجلية بديعة ••• تنفسح لكثير مما ضاق على الشاعر
سلوكه ••• وبلغ فيها أبو بكر بن قزمان مبلغا عظيما ، فهو آيتها المعجزة،
وحجتها البالغة ، وفارسها المعلم ، والمبتدىء فيها والمتمم •

وخلفه في هذه الصناعة مدغليس الزجال • وكان أهل الأندلس
يقولون : ابن قزمان في الزجالين بمنزلة المتنبي في الشعراء ، ومدغليس
بمنزلة أبى تمام بالنظر الى الانطباع والصناعة ، فابن قزمان يهتم بالمعنى،
ومدغليس باللفظ • ومن أروع أزجال مدغليس :

ورذاذ دق ينزل
وشعاع الشمس يضرب
فترى الواحد يفضض
وترى الآخر يذهب
والنبات يشرب ويسكر
والغصون ترقص وتطرب
وتريد تجى الينا
ثم تستحى وتهرب

ثم ظهر أبو الحسن على بن جحدر ، وأبو الحسن سهل بن مالك ،

ثم جاء بعدهما الوزير أبو عبد الله ابن الخطيب • واشتهر في عصر بني الأحمر الزجال أبو عبد الله الألوشى •

ولقد انتشرت أشعار الموشحات والأزجال الأندلسية في أوروبا نفسها • وليس أدل على ذلك من وجود صلة وثيقة بين تركيب الأزجال والموشحات وقصائد بروفانس ولنجدوك المنسوبة للشعراء المداحين ، المعروفين بالتروبادور ، أمثال ماركابرو ، وجيوم التاسع دوق أكيثانيا ، والأغاني القشتالية التي تطابق الأزجال في تكوينها ، أمثال أغاني كنيثو نيو دى بايينا • ووجدت في اللغة القشتالية مرادفات للاصطلاحات المستخدمة في الموشحات — مثل كلمة (Estribillo) وتعنى المركز ، وكلمة (Mudanza) وتعنى الأغصان ، وكلمة (Vuelta) وتعنى السمط •

تأثير الثقافة الأندلسية في إسبانيا وأوروبا

أصبحت إسبانيا — بانتصار المسلمين على الملكية القوطية في وادي لكة — نقطة التقاء حضارتين متضادتين ، قام بينهما صراع مرير طال أمده ، وانتهى بتفوق احدهما على الأخرى ، في نهاية القرن الخامس عشر ، عندما تغلب الملك الكاثوليكيان على غرناطة ، وأطفت بذلك آخر جذوة لحضارة الاسلام في الأندلس . وعلى هذا الأساس كانت إسبانيا تنقسم — في العصور الوسطى — الى شطرين متعادين منفصلين ، جغرافيا وعنصريا .

وليس معنى هذا أنه لم يكن هناك اتصال بينهما سوى قرعات السلاح ، بل كانت هناك اتصالات أخرى ، وتقاليد مشتركة بينهما بطبيعة الحال إذ كانت التأثيرات تتسرب من أكثر هذين الشطرين تقدما في الحضارة الى أشدهما تأخرا — كالماء يندفع من أعلى المناطق الى أشدها انخفاضا — وذلك عن طريق المستعربين والمسلمة في إسبانيا الاسلامية ، والمذنبين ومتنصره العرب أو الموريثيين في إسبانيا المسيحية .

ومثل ذلك أن قرطبة لما أصبحت ، في عهد الخلافة ، الحاضرة الكبرى لإسبانيا ، وحلية الدنيا ومفخرة العالم . وبلغت في هذا العهد تطورا عمرانيا لا مثيل له في دول العالم المعاصرة ، وأحست بتفوق ثقافتها على سائر الثقافات في الولايات المسيحية بإسبانيا فرضت هذه الثقافة على قشتالة في عهد فرنان جنثال ، ونافارة في عهد سانشو البدين ، وتغلغلت التأثيرات الاسلامية في كيان إسبانيا تغلغلا عميقا بحيث تجلت مظاهرها في الحياة العامة والتقاليد واللغة والآداب والفنون والفلسفة .

ولم يكن لسقوط الخلافة بقرطبة ، وتفتت الوحدة السياسية للإسلام في الأندلس — بقيام دول ملوك الطوائف — أدنى أثر في اعاقة مجرى هذا السيل من التأثيرات ، بل أنه على العكس من ذلك قد أعان

تأثير الثقافة الأندلسية في إسبانيا وأوروبا

على تقويتها • ولا يخفى علينا أن إسبانيا الإسلامية لم تعد — حتى انتصر المرابطون على نصارى إسبانيا في الزلافة عام ١٠٨٦ م ، والموحدين في الأرك عام ١١٩٥ — كما كانت في عهد الخلافة القرطبية صلبة قوية ••• اذ أخذت رقعة الأندلس تتقلص شيئاً فشيئاً ، منذ عهد الطوائف ، أمام الدفع السريع للاسترداد المسيحى •

وكان المظن أن تمحى الآثار العميقة التى تركتها الحضارة الإسلامية في إسبانيا بزوال سلطان الإسلام السياسى وسقوط مدنه الكبرى • ولكننا نشهد نقيض ذلك ، اذ تألفت في هذه المدن مراكز ثقافية إسلامية ، قوامها العناصر المدجنة أو المسلمون الذين خضعوا للإسبان بعد سقوط مدنها في أيديهم • وكانت طليطلة — أولى المدن الإسلامية الكبرى التى سقطت في أيدي القشتاليين — أهم مراكز المدجنين • فقد ظل القشتاليون ، منذ انتزاعهم لها من أيدي المسلمين حتى طليعة القرن الثالث عشر الميلادى ، يستخدمون اللغة العربية في معاملاتهم التجارية ووصاياهم ومنحهم ، أو كانوا يستخدمون أسماء عربية ولاينية في آن واحد •

وكانت طليطلة على هذا النحو نقطة الالتقاء بين الحضارة الإسلامية في الأندلس ، والحضارة المسيحية التى حملها الإسبان معهم من شمال إسبانيا • فمن طليطلة ، في القرن الثانى عشر ، انتشرت العلوم التى تلقاها الإسبان باللغة العربية الى أنحاء أوروبا من طريق الكتب التى قام بترجمتها إسبان وافدون • وظلت طليطلة مركزاً للثقافة الإسبانية في عهد ألفونسو الحكيم ، الذى وضع العلوم والثقافات العربية — وبخاصة الفلسفة والمنطق والطب والكيمياء والفلك — تحت م تناول أيدي علماء العالم الأوروبى ، وأحاط نفسه بكبار العلماء من المسلمين واليهود •

وقد اشتغل بعض العلماء في طليطلة بترجمة الكتب العلمية العربية الى اللاتينية ، أمثال دومنجو جنثالث وخوان إسبالنسى • وكان أحدهما يقوم بترجمة هذه الكتب الى لغة دراجة فينقلها الآخر الى اللاتينية

المدرسية • وقام بالترجمة أيضا في طليطلة أجنب ممن جذبهم شهرة كنوزها العلمية وأمضى هؤلاء العلماء سنوات طويلة في ترجمة النصوص العربية ، ونخص بالذكر منهم جيراردو دي كريمونا الايطالى — وكان أعظم المترجمين انتاجا — وأديلازودو دي باث الانجليزى ، وهرمان الألمانى •

وتابع بعض علماء اليهود ترجمة الكتب العربية الى اللاتينية في القرن الثالث عشر ، نذكر منهم : يعقوب بن أبامارى ، وليفى بن خرسون • وانتقلت هذه الترجمات الى الثقافات الأوربية • وهكذا أصبحت الحضارة الأندلسية حلقة الاتصال بين الشرق الاسلامى والغرب المسيحى •

تأثير الازجال الأندلسية فى الشعر الغنائى الأوربى

يتجلى أهم مظاهر التأثيرات الاسلامية الاسبانية فى الشعر الشعبى الشعبى الممثل فى الموشحات والأزجال • وقد بينا ، عند حديثنا عن الموشحات ، أن أصل هذا النوع من الشعر يتمثل فى الأغنية الشعبية التى كانت شائعة فى الأندلس ، وأهم عنصر فيها هو « الخرجة » ، وهى بيتان تنتهى بهما الأغنية ، وكان الموشحون يصوغونها فى لغة دارجة أو فى ألفاظ رومانسية •

وأول من تنبه الى وجود تماثل فى تركيب الأبيات وتعاقب القوافى بين الشعر الشعبى الأندلسى وأغانى التروبادور الأكيثانية والبروفنسية ، فى العصور الوسطى ، هو المستشرق الاسبانى « دون خوليان ريبيرا » • وعلى هذا الأساس أقام نظريته فى أن تركيب الشعر الغنائى ، الذى ابتدعه أعمى قبيرة وصورة ابن قزمان ، يزودنا بمفتاح السر الذى يفسر تركيب الصور الشعرية فى مختلف النظم الشعرية الغنائية التى عرفها العالم المتحضر فى العصور الوسطى ، الا أنه لم يستطع اثبات نظريته

تأثير الثقافة الأندلسية في اسبانيا وأوروبا

اثباتا أكيدا ، فكان ذلك مثار للجدل بين الباحثين : فذهب فريق الى تأييدها ودحضها فريق آخر •

ومن هذا الفريق الثانى ، العالم البرتغالى « رودريجيس لوبا » ، الذى حاول فى كتابه عن « أصول الشعر الغنائى فى البرتغال » اثبات أن التركيبات العروضية كانت معروفة فى أوروبا قبل عهد الزجال القرطبى ابن قزمان • وساق لاثبات ذلك أمثلة لأبيات متحدة القافية تتألف من ثلاثة أجزاء وجدها فى شعر القرن الثانى عشر الملائنى •

وهناك فريق وقف موقفا معتدلا بين الفريقين • وعلى رأس هذا الفريق عالمان من أجل العلماء فى الدراسات البروفنسية ، هما : « أبيل » الألمانى و « جاتروى » الفرنسى • ويرأس فريق المؤيدين لنظرية التأثير الأندلسى فى الشعر البروفنسى المؤرخ الاسبانى الكبير « دون رامون منندث بيدال » الذى شرح نظريته فى كتابه « الشعر العربى والشعر الأوروبى » ، ونقص بها حجج خصومة ، واستشهد بأمثلة للشعر العربى موجودة فى الشعر الجليقى يتضمنها كتاب « الأثربرست دى هيتا » المعروف بكتاب (Buen amor)

ويعتقد « منندث بيدال » أن الزجل الأندلسى انتشر فى الغرب الأوروبى بالسرعة نفسها التى انتشر بها فى الشرق العربى • ويستند فى ذلك الى أن أول شاعر غنائى معروف ، كتب بلغة رومانسية ، هو جيوم التاسع دوق أكيثانيا ، متبعا فى شعره التركيب العروضى للزجل الأندلسى •

وهناك ناحية جديدة بالذكر هى أن الموشاحين المسلمين فى الأندلس ، والتروبادور فى أكيثانيا وبروفنس ، يتفقون فى الموضوعات التى تقوم عليها أغانيهم • فكانت تقوم أما على الحب العذرى وأما على الحب الحسى والمدح • • • فأزجال ابن قزمان تتماثل فى هذا مع بعض أشعار التروبادور ماركابرو • وفى أغنيات التروبادور والزجالين تتكرر ألفاظ

متماثلة ، كلفظ الرقيب والنمام والحاسد والعاذل ، وفيها وصف لما يلقاه العاشق من آلام • ويشترك ابن قزمان مع ماركابرو وجوفري روديل في التغنى بالمدح ••• كل هذا يدل على مدى تأثير الشعر الغنائي البروفنسي بالأزجال والموشحات الأندلسية • ويؤيد ذلك ما يذهب اليه بعض الباحثين من أن كلمة تروبادور مشتقة من الكلمة العربية « طرب » •

أما كيف انتقلت هذه التأثيرات الاسلامية ، فيعزوه « ليفي بروفنسال » الى أن « جيوم » التاسع — أقدم شعراء التروبادور الفرنسيين — كان على اتصال وثيق باسبانيا المسيحية : فقد زار اسبانيا ، وساعد ألفونسو المحارب ، ملك أرغون ، في معركة كتندة عام ١١٢٠ م ، وأنه تزوج ابنة « راميرو » الراهب ملك أرغون ، وقتل في « شنت ياقب » عام ١١٣٧ م •

ولا يشك « ليفي بروفنسال » في أن التروبادور ماركوبرو رحل الى قشتالة ، واشترك مع ألفونسو السابع في احدى حملاته على اسبانيا الاسلامية ولاشك أن هؤلاء الشعراء الفرنسيين تأثروا بالشعر الشعبي الأندلسي الذي كان شائعاً في اسبانيا المسيحية • وهكذا تغلغل الشعر الشعبي الأندلسي في الشعر الغنائي البروفنسي ، فظهر منذ نهاية القرن الحادي عشر الميلادي في جنوب فرنسا ووسطها ، ثم انتشر في شمال شبه جزيرة ايبيريا وايطاليا بعد ذلك •

القصة العربية في الادب الأوربي

تعد اسبانيا الاسلامية الجسر الذي عبر منه كثير من المظاهر الأدبية الأندلسية الى أوروبا في العصور الوسطى • ويتفق مؤرخو الأدب أوربي عامة على التأثير الحاسم الذي أحدثه الأدب الأندلسي في تطور القصة الأوروبية في العصر الوسيط •

تأثير الثقافة الأندلسية في إسبانيا وأورها

ولقد تلقى الأدب العربى كثيرا من القصص الشرقية من الهند وفارس ، ونقلها بدوره الى الأدب الأوروبى • وكان « بدرو ألفونسو » — فى طليعة القرن الثانى عشر — أول من نشر فى العالم المسيحى عددا كبيرا من المجموعات القصصية التى تقوم موضوعاتها حول الأمثال والحكم والمواعظ ، وجعل عنوانها (Disciplina Clericales) ، أى « أدب العلماء » •

ويدل على ما أثارته هذه القصص من اهتمام فى العصور الوسطى وجود أكثر من ٦٣ مخطوطا من هذا الكتاب محفوظة اليوم ، وكلها مكتوبة بلغات أوروبية مختلفة ، كالألمانية والفرنسية والعبرية والإيطالية والقطالانية والقشتالية • كما أن موضوع هذه القصص عولج فى أكثر من ٦٠ كتابا فى العصر الوسيط ، وعصر النهضة ، لمؤلفين مشهورين : أمثال « بوفيه » و « دون خوان مانويل » و « بوكاشيو » و « بوزون » و « شوسر » و « جيرالدى » و « ثرستس » • ويتمثل فى تأليف هؤلاء الأدباء كثير من الموضوعات القصصية التى أوردها « بدرو ألفونسو » •

وانتشرت بعد ذلك بعهد قصير المجموعة القصصية التى يتضمنها كتاب « كليله ودمنة » ، الذى ترجمه ابن المقفع عام ٧٥٧ من البهلوية الى العربية • ولقد ترجم هذا الكتاب الى القشتالية عام ١٢٦١ بأمر الملك ألفونسو الحكيم ، ثم ترجم الى العبرية فى القرن الثالث عشر ، ونقله « خوان دى كابوا » بعد ذلك الى اللاتينية • وعرف هذا الكتاب ، من هذه الترجمة اللاتينية ، فى لغات مختلفة كالألمانية والدنمركية والإيطالية والإسبانية •

أما الترجمة القشتالية ، فهى أدق من ترجمة « خوان دى كابوا » ، إذ أنها نقلت مباشرة من العربية بدلا من اللاتينية • وأصبح هذا الكتاب

أساساً لما كتب بعد ذلك من قصص في الشرق والغرب ، في أكثر من أربعين لغة ، اشتملت على حكم وأمثال تقال على السنة الطير والحيوان ويكفى أن نذكر الكتب الآتية لبيان أثر كتاب كليله ودمنة في الآداب الأوروبية : كتاب (Odo de Cheriton) والقصص الأخلاقية التي كتبها « نيكولاس

• بوزون »

وكتاب (Speculum Sapientiae beati Cyrelli)

وكتاب (Thetobnla sive animalium de regis praeceptis con.)

• للكتاب « دبرافيسوس »

وكتاب (Les fables nouvelles) للكتاب « ريشيه »

وكتاب (Le Delices) للكتاب « فربوكيه »

وكتاب (Les fables) للكتاب « لاهونتين »

وكتاب « الحيوان » للكتاب « رايموندو لوليو » •

وهناك كتاب آخر لقي من الشهرة والانتشار ما لقيه كتاب « كليله ودمنة » ، هو كتاب « السندباد » • وقد ترجم هذا الكتاب الى اللغة القشتالية بأمر الأمير « دون فديريكي » شقيق الملك « ألفونسو » العاشر عام ١٢٥١ ، وجعل عنوانه « خدع النساء وكيدهن » • وقد وصل هذا الكتاب الى أوروبا من طريقين : أحدهما الترجمة القشتالية التي ترجمت عنها عدة ترجمات ، والآخر طريق « التاريخ الفارسي » المعروف بكتاب الوزراء العشرة ، ومنه كانت الترجمة اللاتينية (Clamoles y Clarimunda) أو كتاب « العلماء السبعة » الذي ترجم بدوره الى الفرنسية والإيطالية والقطانية والانجليزية والألمانية والهولندية والهنجارية •

وعرفت إسبانيا المسيحية كتاب « ألف ليلة وليلة » من طريق الأندلس • فقد وردت بعض قصصه في « المدونة العامة لتاريخ إسبانيا » التي وضعها « ألفونسو الحكيم » ، منها قصة « تيودورة الحناء » التي أخذ منها المسرحي الأسباني « لوبي دي فيجا » في إحدى مسرحياته

تأثير الثقافة الأندلسية في اسبانيا وأوروبا

الكوميديّة • وتنعكس في مسرحية « كلدرون دى لابركا » ، قصة « النائم اليقظ » • ويمكننا أن نشاهد قصة « الحصان المسحور » في مسرحية (Liber Septem Sapientium) وقصة « قمر الزمان » في الرواية الشعبية (Pierres de Provenza y la Linda Magalona) ويذهب « منندث بيلايو الى أن هاتين القصتين الأخيرتين نقلتا الى الأدب الأوروبى شفاها أيام الحروب الصليبية ، وأن كان وجود مخطوطات اسبانية تشتمل على قصة « قمر الزمان » تدحض هذه النظرية •

ومما يدل على أن كتاب « ألف ليلة وليلة » كان شائعاً في الأندلس في العصر الاسلامى ، أن الموريسكين سجلوا بعض قصصه باللغة الخيمادو التى كانوا يكتبون بها ، ومن هذه القصص قصة « قصر الذهب » ، و « مدينة اللاطون » ••• كما يمكننا اليوم أن نتعقب بعض قصص من نوع قصص شهر زاد في اللغة الاسبانية ، ففي قصة « الغيور المعجوز » التى كتبها « ثرمنطس » نجد الموضوع نفسه الذى نسجت حوله قصة « القاضي وابنة التاجر » • وفي الأسطورة الشعبية التى أوحى الى « ثوريليا » بذكرياته في مدينة بلد الوليد ، شبه كبير بقصة تدور حول عدالة السماء •

وليس الأمر وقفا على القصص الاسبانية ، وانما نرى لكتاب « ألف ليلة وليلة » صدى في القصص الأوربية تسبق الترجمة الفرنسية التى قام بها « جايان » في بداية القرن الثامن عشر • ففي « رحلة براندان للبحث عن الجنة » نطالع قصة الجزيرة المتحركة التى ظهر أنها حوت ضخماً ، وقصة الطيور الضخمة التى تشبه الرخ • وفي قصة شميد الألمانية ، المعروفة باسم (Das Schloss in der Hutt xa-xa) وقائع مماثلة لقصة « علاء الدين والمصباح السحري » •

وكان للقصص العربية أثر كبير في ذبوع كثير من القصص في الأدب الأوروبى ، مثل : مجموعة « ألف قصة وقصة » ، و « أساطير عربية » التى نشرها « رينيه باسيه » ، وتشتمل على خمسة وستين موضوعاً قصصياً •

وانتشر في أوروبا ، في العصر الوسيط ، نوع من القصص التاريخية تختلط فيه الحقيقة بالخيال على نحو ما جمعه « هيرودوت » عن مصر • وقد ترجم في هذا الصدد كثير من القصص العربية عن « الاسكندر ذي القرنين » •

المحمة وأصلها الأندلسي

قام المستشرق « دون خوليان ريبيرا » ، عام ١٩٤٣ ، بشرح نظريته التي ذهب فيها الى أنه ظهرت في كتب التاريخ الأندلسي القديمة « آثار ملاحم رومانسية ، لعلها ازدهرت في الأندلس في القرنين التاسع والعاشر » وذكر أنه وجد في بعض القصائد الأندلسية في الوصف ، وفي بعض المدونات العربية ، كثيرا من الأساطير والقصص الشعبية ، كتب بعضها باللاتينية ، وبعضها الآخر يؤلف جزءا من التراث القومي الذي كان سائعا بين الاسبان بالرومانسية • فقصة « أرتباس » ، وأسطورة « ازراق بن منتيل » — اللتان ذكرهما ابن القوطية في كتابه « تاريخ افتتاح الأندلس » — هما قصتان تنطبقان على حقيقة واقعة ، تنشأ منها أسطورة شعرية ، تضمنتها المدونات التاريخية بعد ذلك مع بعض التغيير •

وتتميز هذه الملاحم بأنها تروى حوادث قريبة العهد نسبيا ، فهي لا تزال تحتفظ بحرارة الصراع الذي كثيرا ما ينشأ بين أبطالها ، كما تستخدم شخصيات تاريخية ، وتحتشد فيها أخبار في الفروسية ، كالمبارزة بين بطلين مثلا • وملحمة « السيد الكنبيطور » تصور مغامرات السيد تصويرا تاريخيا ، على نحو السير التاريخية ، منذ غادر قريته وحارب في صف المستعين ، ملك سرقسطة ، من ١٠٨١ الى ١٠٨٧ م • ومن المعالم العربية في هذه الملحمة : كلمة (Mio Cid) المشتقة من الكلمة العربية « سيدي » ، وزجر السيد للطير — وهي عادة عربية — والألفاظ العربية الكثيرة المتكررة •

تأثير الثقافة الأندلسية في إسبانيا وأوروبا

وملحمة « أبناء لارا السبعة » مثل آخر من أمثلة التداخل بين الحياة المسيحية والاسلامية في الأندلس . فالبطل فيها عربى أبوه مسيحي ، وأمه مسلمة ، زعمت القصة أنها أخت المنصور بن أبى عامر .

وشاع بين الموريثيين نوع من القصص يدور حول بعض الشخصيات الغرناطية في بلاط ملوك بنى الأحمر . مثل قصة « زفرة العربى الأخيرة » ، وقصة « ابن سراج وشريفة الجميلة » وفيها يتنافس المعسكران المسيحي والمسلم في ابداء الكرم ، واطهار روح الفروسية النبيلة . وقد وضع « بيرث دى هيتا » كتابا عن هذا الموضوع سماه « الحروب الأهلية في غرناطة » ، وصاغه في أسلوب قصصى روى فيه أخبارا ووقائع تاريخية تتخللها أشعار رومانسية . وقد ترجم هذا الكتاب إلى الفرنسية في النصف الثانى من القرن السابع عشر ، واتخذ كثير من الكتاب الفرنسيين من بعض الشخصيات الغرناطية المذكورة فيه أبطالاً لقصص ومسرحيات : مثل قصة سانتويريان عن « آخر بنى سراج » ، وقصص « وشنطن ارهنج » عن أساطير قصر الحمراء .

أثر الفلسفة الأندلسية في الفكر الأوروبى

ذكرنا من قبل — عند حديثنا عن الحياة العقلية في الأندلس — كيف ترجمت كتب ابن مسرة وابن طفيل وابن رشد وابن باجة إلى اللاتينية . وذكرنا أن مراكز الترجمة كانت تنحصر في مدرسة قطلونية في القرن العاشر ، وأشهر مترجميها الراهب « جربرتو » ، ومدرسة طليطلة ابتداء من القرن الثانى عشر ، ومن أشهر مترجميها « دومنجو جنثالث » ، المعروف بدمنيكوس جندسالفى و « خوان هسبالنسى » . وانضم إلى هذه المدرسة كثير من المترجمين الأوربيين الذين وصلت إلى أسماعهم ما تزخر به طليطلة من فرائد الكتب العربية في العلوم والفلسفة ، ومن هؤلاء « خيراردو دى كريمونا » الايطالى و « اديلاردو دى باث » وغيرهما .

وهكذا بدأ اتصال الفكر الغربى الأوروبى بالفلسفة العربية منذ القرن الثالث عشر • من طريق هذه الترجمات • وفى هذا القرن امتزجت نظريات الفلسفة الاغريقية بالفلسفة الاسلامية والعقائد المسيحية • وكان لشروح ابن رشد وتعليقاته أكبر الفضل فى اتصال المدرسين بالفلسفة الاغريقية • كما عرف المدرسيون كتب ابن باجه وابن طفيل وغيرها ممن يغلب عليهم مذهب الأفلاطونية الحديثة •

وقد تجلّى هذا الآثر فى كتاب «الفريدوس انجليكوس» (De Mout Cordis) وفيه تظهر بعض الاتجاهات النفسية العربية • كذلك عرف « اليخاندرو دى هالس » علم « الميتافيزيقا » عند الغزالي وابن سينا • وكان « جيرمو دى أفرينا » يعرف كثيرا عن الفلسفة الاسلامية ، اذ قرأ عن الفارابى وابن رشد ، وجعل من ابن رشد « أنبل وأعظم مثال للفلاسفة » •

وكان « البرتو ماجنو » أول من أدخل العلوم العربية فى فلسفة المدرسين • ويشير فى موسوعته الفلسفية الى المامه بأراء فلاسفة المسلمين • وكان كثير الاعجاب بهم ، وذكر أن كتب الفلك الاسلامية ليس فيها ما يناقض العقائد الكاثوليكية على عكس ما يذهب اليه من لم يطالعها • وقد بلغ به التأثير بطريقة ابن رشد أن كتب تعليقات على كتاب أرسطوطاليس فى السياسة • فليس عجيبا اذن أن يلم تلميذه « سانتو توماس دى اكينو » (توما الأكوينى) بالفلسفة الاسلامية الماما تاما •

وكان حظ ابن رشد عظيما فى أوروبا المسيحية ، لكثرة ما نشر من مؤلفاته باللاتينية ، وفقا لما ذكره رينان • وظلت آراؤه تضىء الفكر الانسانى حتى نهاية القرن السادس عشر • وظهر الى جانبها مذهب جديد ، يعرف بالمذهب الرشدى ، وهو مذهب أخذت به المدرسة الفرنسيسكانية ، ودافعت عنه ، وعلى رأسها « روجر بيكون » و « سيجر دى برافانت » فى جامعة باريس • ويقوم المذهب الرشدى على نظريتين أساسيتين : احدهما نظرية المخادعين الثلاثة ، وفيها يهاجم الأديان الثلاثة اليهودية

والمسيحية والاسلام • والثانية نظرية الحقيقتين ، وهى نظرية لاهوتية فلسفية ، لعلها اشتقت من آراء محيي الدين بن عربى •

وترتبط آراء محيي الدين بن عربى ، ومذهبه الفلسفى ، ارتباطا وثيقا بآراء علمين من أعلام الفكر الانسانى فى القرن الرابع عشر : أحدهما « دانتي » فى كتابه « الكوميديا الالهية » وكتابه « الحياة الجديدة » •

وقد استوحى « دانتي » ، فى كثير من العناصر التى تؤلف قصيدته الخالدة ، قصة الاسراء والمعراج • والآخر « ولوليو » فى كتابه « أسماء الله المائة » ، وكتابه عن الحيوان ، وكتاب « الصاحب والمحبوب » ، وكلها كتب يتجلى فيها أثر التصوف والفلسفة الاسلامية •

تأثر اللغة العربية فى اللغة الاسبانية

كان لابد أن تتأثر اللغة الاسبانية باللغة العربية فى أثناء العهد الاسلامى الطويل ، الذى تفوقت فيه ، من حيث الاستعمال ، على سائر اللغات الاسبانية • ويتجلى هذا التأثير بأوضح صورة فى آلاف الألفاظ العربية التى يزر بها قاموس اللغة الاسبانية ، والتى تشهد بما كان بين المسلمين والمسيحيين من صلات وثيقة ، فى جميع نواحي الحياة ، نتيجة طبيعية لمعاشرة المستعربين للمسلمين والمذجنين للمسيحيين •

ولا تقتصر هذه الألفاظ على العلوم التى ذكرناها آنفا — كالطب والفلسفة والرياضة والفلك والكيمياء والموسيقى — وانما تتجاوز ذلك الى الحياة الاجتماعية والسياسية ، والتقاليد العسكرية ، ونظم الزراعة والتجارة والصناعة والعمارة وال عمران • وهى أبلغ سجل خلدت فيه الحضارة الأندلسية •

أسماء الانهار والمواقع :

Guadalquivir	الوادي الكبير
Guadalaviar	وادي الأبيار
Guadalajara	وادي الحجارة
Alcala	القلعة
Alcolea	القلعة
Alcala de Guadaira	قلعة وادي أيره
Calatayud	قلعة أيوب
Calatrava	قلعة رباح
Algeciras	الجزيرة الخضراء
Alcira	شقر (جزيرة)
Tarifa	طريف (جزيرة)
Ibiza	يابسة (جزيرة)
Baza	بسطة (مدينة)
Almodovar	المدور (مدينة)
Albacete	البسيط (مدينة)
Aldovera	الدويرة
Aznalcazar	حصن القصر
Aznalfarache	حصن الفرع
Medina Azzahra	مدينة الزهراء
Medinaceli	مدينة سالم
Belda	بلدة
Valladolid	بلد الوليد
Almaden	المعدن (مدين)
Calahorra	قلعة الحرة
Zonaica	جبل طارق

Gibralfare	جبل فارو
Gibraléon	جبل العيون
Aljarafe	الشرف (منطقة)
Algarve	الغرب (منطقة)
Almeria	المرية (مدينة)
Alhama	الحامة (مدينة)
Alejar	الحجار (مدينة)
Alcaccer do sal	قصر أبى دانس (مدينة)
Arrecife	الرصيف (بمدينة قرطبة)
Benamexir	بنى بشير (حصن)
Zafarraya	فحص رعين
Alqueria	قرية
Jerica	سارقة (مدينة)
Zoco	سوق
Zocodover	سوق الدواب
Alhambra	الحمراء (اسم قصر)
Alhandega	الخنديق (اسم موضع)
Ajarquia	فحصن
Vega	الحوز
Alfoz	الشرقية (اسم حى من قرطبة)
Aldca (Daya)	ضبيعة
Arrabal	ربض
Adarve	درب
Aceite	زنيقة

الألفاظ الخاصة بالزراعة والرى :

Acequia	ساقية
Noria	ناعورة
Aljibe	الجب
Munya	منية
Rauda	الروضة
Alberca	البركة
Azud	السد
Generalife	جنة العريف (موضع)
Arriate	الرياض

أسماء الزهور والفواكه :

Jazmin	الياسمين
Arrayan	الريحان
Albaricoque	البرقوق
Azucena	سوسنة
Alhucema	الخزامى
Naranjo	النارنج

أسماء المأكولات والبقول :

Arroz	الأرز
Berenjenas	الباذنجان
Altramuce :	القرمس
Almojabanas	المجبنات
Gibraltar	الزيت

Alubia	اللوبيا
Azafrán	الزعفران
Algarroba	الخروب
Azucar	السكر
Aceituna	الزيتون

أسماء المؤسسات الاقتصادية والدينية :

Atahona	الطاحونة
Atarazana	دار الصناعة
Almacen	المخزن
Alcaiceria	القيسارية
Alhondiga	الفندق
Aluana	الديوان الجمركي
Moderza	مدرسة
Rabita	رباط
Mezquita	مسجد

الألفاظ الشائعة في العمارة والزخرفة :

Albanil	البناء
Alarife	العريف
Alcoba	القبة
Adobe	الطوب
Alminarete	المنارة
Alminar	المنار
Zaqui Zami	سقف سماء
Atalaya	بنيقة العقدة

Albanega	تربية العقد
Atarabea	الربع المحيط بالعقد
Arrabe	الازار الزخرفى
Alizar	الافريز الزخرفى
Aafiz	البربخانة
Barbacana	البكرة (فى الأبراج)
Albacara	الستارة (الحائطية)
Citara	برج الطليعة
Albarrana	برج النيرانى
Algorfa	الغرفة
Mazaria	الغرفة العليا (المصرية)
Ataurique	التوريق
Ataujia	التوشية
Ataracea :	الترصيع
Azotea	السطح
Almocarabe	المقربص
Azaguan	أسطوان الدار
Jacena	جائزة السقف
Aldaba	ضبة الباب
Azarcon	زرقون
Nacela	نزلة (فى الزخرفة)
Tabique	تشبيكة
Alecrim	اكليل زخرفى
Azacaya	سقاية
Ajimez	شماسة

Alcantara

قنطرية

المنسوجات والمفروشات :

Albornos

البيرنس

Alizar

الازار

Almaizer

المئزر

Acitara

الستارة

Algodon

القطن

Almohada

المخدة

Alfombra

الحمرة (سجادة)

Chupa

الجبة

Zaragtielles

السراويل

Alifafes

الخفاف

آلات الطرب :

Alatù

العود

Tambore

الطنبور

Adufe

الذف

Atabale

الطبل

Alboque

البوق

Guitarra

القيثارة

ادوات المطبخ :

Almirez

المهراس (الهاون)

Acetre

السيطل (الدلو)

Arrope

الربع (كيل الزيت)

النظم السياسية بالاندلس

الخلافة :

كان بنو أمية يتلقبون بالامارة ، منذ أن استقر أمر عبد الرحمن بن معاوية بالاندلس عام ١٣٨ هـ ، حتى تولى الأمير عبد الرحمن بن محمد في عام ٣٠٠ هـ . ولم يقدم الأمراء من بنى أمية ، خلال هذه الفترة ، على التلقب بلقب الخلافة : لاحتساسهم بأن الخلافة وحدة لا تتجزأ ، وأنه لايجوز أن يلقب بها الا من يكون الحجاز في حوزته .

فلما تولى الأمير عبد الرحمن بن محمد امارة قرطبة ، واستقرت دعائم امارته ، ورأى ماوصلت اليه الخلافة العباسية بالمشرق من ضعف وانحلال ، واستبداد القواد الأتراك — في عهد المقتدر العباسي — وعيبتهم بالخلفاء بالعزل والقتل . ورأى أن أئمة لفاطمين قد تلقبوا بالخلافة ، وأصبحوا يهددون الاندلس ، ويعدون العدة لضمها اليهم ، وأنه لايقبل عنهم كمالات في القوة والمنعة ، وأثرا في الدفاع عن الاسلام ، وفي المناصرة والجهاد ...

لما رأى عبد الرحمن ذلك كله ، أمر في ٢٨ من ذى القعدة عام ٣١٦ هـ ، أن تكون الدعوة له في مخاطباته ، والدعاء له على المنابر بأمر المؤمنين ، « لما استحقه من هذا الاسم الذى هو له بالحقيقة ، ولغيره بالانتحال والاستعارة . فلبس هذا الاسم ، في هذا الوقت ، حلة لائقة بمنصبه ، وتراثا راجعا اليه » . وتلقب عبد الرحمن بالناصر لدين الله أمير المؤمنين ، وأصدر منشورا وزعه عماله في النواحي المختلفة ، وقد جاء في المنشور ما يلى :

« بسم الله الرحمن الرحيم . صلى الله على نبيه محمد الكريم . أما بعد : فان أحق من استوفى حقه ، وأجدر من استكمل حظه ، ولبس

النظم السياسية بالاندلس

من كرامة الله تعالى ما ألبسه ... فنحن : للذي فضلنا الله به ، وأظهر
أثرتنا فيه ، ورفع سلطاننا اليه ، ويسر على أيدينا دركه ، وسهل بدولتنا
مراجه ... وللذي أشاد في الآفاق من ذكرنا ، وأعلى في البلاد من أمرنا ،
واعلق من رجاء العالمين بنا ، وأعاد من انحرافهم إلينا ، واستبشارهم
بما أظلم من دولتنا ... ان شاء الله . فالحمد لله ، ولى الانعام بما
أنعم به ، وأهل الفضل بما تفضل علينا فيه ...

« وقد رأينا أن تكون الدعوة لنا بأمر المؤمنين ، وخروج الكتب
عنا وورودها علينا كذلك . اذ كل مدعو بهذا الاسم غيرنا منتحل له ،
ودخيل فيه ، ومتسم بما لا يستحقه منه . وعلمنا أن التماذى على ترك
الواجب لنا من ذلك ، حق لنا أضعناه ، واسم ثابت أسقطناه . فمر
الخطيب بموضعك أن يقول به وأجر مخاطبتك لنا عليه ، ان شاء الله » .

وفي أول ذي الحجة شرع الخطيب بقرطبة في دعائه للناصر لدين
الله بأمر المؤمنين . فكانت أول خطبة تسمى فيها عبد الرحمن بن محمد
بهذا الاسم . وهكذا تحولت الامارة في الأندلس الى خلافة ، واستمر
هذا اللقب في ذرية عبد الرحمن الناصر حتى سقطت الدولة الأموية .
فعندما تطرق إليها الضعف ، في عهد هشام المؤيد بالله ، تولى محمد بن
أبى عامر الحجابة ، وأصبح الحاكم الحقيقي في الأندلس . أما الخليفة
فقد انزوى في قصره ، ولم يبق له من الخلافة سوى الاسم .

ولما سقطت دولة ابن أبى عامر ، تولى الخلافة أمراء من بنى أمية ،
قتل منهم من قتل ، وعزل من عزل ... حتى انقرضت الخلافة الأموية من
الأندلس . واستقل كثير من الولاة في مدنهم ، وقامت دويلات الطوائف ،
وتلقب ملوكها بألقاب الخلافة وتوزعوها : فمنهم من تلقب بالناصر
والمنصور والمقتدر والمعتضد ، ومنهم من تلقب بالمعتصم والمظفر والمتوكل
والمعتد . وفي ذلك يقول ابن شرف الشاعر :

النظم السياسية بالأندلس

مما يزهدي في أرض أندلس
أسماء معتمد فيها ومعتمد
ألقاب مملكة في غير موضعها
كالهر يحكى انتفاخ صورة الأسد

أما ملوك المرابطين فقد اكتفوا بلقب « أمير المسلمين » — وهو دون الخلافة — في حين تلقب ملوك الموحدين — منذ عهد عبد المؤمن بن علي — بلقب « أمير المؤمنين » ، وتسموا بالأئمة المعصومين ، إشارة إلى مذهبهم في عصمة الامام وتنزهه عند أتباعه • واتخذ ملوك بنى نصر لقب « سلطان » ، وكان نظام الحكم في عهدهم مطلقا •

الوزارة :

كانت قاعدة الوزارة في الأندلس ، في عهد بنى أمية ، مشتركة في جماعة يعينهم الخليفة لاعنته ومشاورته في شئون الدولة • ولم يكن إطلاق لفظ الوزير ، في بداية الدولة الأموية ، شائعا كما كان الحال في الدولة العباسية في المشرق ، والدولة الفاطمية في مصر • اذ كان خلفاء بنى أمية يأنفون من اسم الوزير في مدلوله • ثم قسموا خطته أقساما ، وأفردوا لكل قسم وزيرا : فجعلوا لحسبان المال وزيرا ، وللترسيل وزيرا ، ولللنظر في حوائج المتظلمين وزيرا ، ولللنظر في أحوال أهل الثغور وزيرا •

وكان الأمير عبد الرحمن الأوسط أول من اتخذ للوزراء في قصره دارا للوزارة ، ورتب اختلافهم اليه في كل يوم : يستدعيهم معه أو من يختص منهم ، أو يخاطبهم برقاع فيما يراه من أمور الدولة • • • كل فيما جعل له • وأفرد للتردد بينه وبينهم واحدا منهم : ارتفع عنهم بمباشرة الأمير أو الخليفة في كل وقت ، فارفع مجلسه عن مجالسهم ، وخصوه باسم الحاجب حينئذ ، وذى الوزارتين حينئذ آخر • وكان :

النظم السياسية بالاندلس

الحاجب — على هذا النحو — نائباً عن الوزراء لدى الخليفة ، أو رئيساً لهم ، كما هو الحال في وقتنا الحاضر • وكانت هذه الوظيفة اعظم ما تنوفس فيه في عهد بنى أمية • وكان الخليفة عبد الرحمن الناصر اول من طبق لقب ذى الوزارتين على وزيره أحمد بن عبد الملك ابن شهيد ، باعتباره جامعاً بين خطتى السيف والقلم •

ولما كانت دولة الموحدين ، خص الخلفاء منهم لقب الوزارة للكاتب المتصرف المشارك للسلطان في خاص أمره : كابن عطية ، وعبد السلام الكومى • وكان للوزير مع ذلك النظر في الحساب والأشغال المالية ، ثم صار بعد ذلك اسم الوزير لأهل نسب الدولة من الموحدين •

وفي عهد بنى نصر أصبحت الوزارة تسند عادة الى كبار الكتاب ، امثال أبى الخطيب وابن زمرك • وكان الوزير يشرف على جميع شئون السلطنة ، ويوجه سياستها الداخلية والخارجية على السواء ويذكر ابن خلدون أن بنى نصر أنشأوا وظيفة جديدة : هى وظيفة وكيل السلطان ، ويختص بحسبان المال وتنفيذ أوامر السلطان •

الحجابة :

كان اختصاص الحاجب في عهد بنى أمية واسعا ، يشتمل على الشئون المدنية والعسكرية • وكان — بالاضافة الى هذه الوظيفة — واسطة بين الخليفة ووزرائه يقوم بملازمة الأمير ومباشرته ••• لذلك كانت هذه الخطة أعظم الخطط قدرا ، وغاية ما يرجوه كل وزير •

ثم ارتفع شأن الحاجب في أواخر عهد بنى أمية ، وأخذ يستبد شيئا فشيئا بأمور المملكة ••• فبرز من الحجاب : الحاجب جعفر بن عثمان المصحفى ، الذى ارتقى الى هذا المنصب الكبير زمن الحكم المستنصر ، وقام بتدبير شئون الدولة الأندلسية • وفيه يقول الفتح بن

خاقان في المطمح : « تجرد للعليا ، وتمرد في طلب الدنيا ، حتى بلغ المنى ،
وتسوغ ذلك الجنى ، ووصل الى المنتهى ، وحصل على ما اشتهى . . .
دون مجد تفرع من دوحته ، ولا فخر نشأ بين مغداه وروحته : فبما دون
سابقة ، ورمى الى رتبة لم تكن لنفسه مطابقة » فبلغ بنفسه ، ونزع عن
جنسه . . . واستوزره المستنصر ، وعنه قد كان يسمع وبه يبصر . وحجب
الامام ، وأسكب برأيه ذلك الغمام . . . »

ثم ظهر المنصور محمد بن أبى عامر الحاجب ، وارتفع شأنه واستبد
بشئون الخليفة هشام المؤيد ، فمنع الوزراء من الوصول اليه ، الا في
النادر من الأيام ، يسلمون وينصرفون . وأورث ابن أبى عامر الحجابة
لأولاده ، من بعده ، حتى سقطت الدولة العامية عام ١٠٠٨ م .

فلما كان عهد ملوك الطوائف ، انتحلوا لقب الحجابة الى جانب
القباب الخلافة . وكانوا يعدون لقب الحجابة شرفا لهم . وكان لابد من
ذكر لقب الحاجب وذى الوزارتين قبل ذكر أسمائهم : ومن أمثال هؤلاء
الملوك : الحاجب ذو الرياستين أبو مروان عبد الملك بن رزين ملك السهلة ،
وذو الرياستين المنصور بالله أبو الوليد محمد بن جهور ملك قرطبة .

خطة القضاء :

كانت خطة القضاء في الأندلس أعظم الخطط عند الخاصة والعامية ،
لتعلقها بأمور الدين ، واستقلالها عن الخلافة . ولا يقوم بأعباء هذه
الخطة الا من ولى القضاء الشرعى في المدن الكبرى . وكان القضاء
ينقسم الى شرعى ومدنى :

(١) القضاء الشرعى : كان القاضى الشرعى يختار من بين أفاضل

الناس ، وأحسنهم سيره ، وأوسعهم علما ، وأرجحهم عقلا وذكاء . وكان
قاضى الجماعة ينظر في المواريث والوصايا والتخجير والأحباس ، كما كان
يقوم بأمامة الناس في صلاة الجماعة .

وكان قاضى الجماعة لا يقضى الا فى قرطبة ، وكان ينيب عنه فى الأقاليم قضاة آخريين ، فى حين كانت لقاضى الجماعة ، فى الدولة العباسية الرئاسة على القضاة جميعا • وظل منصب قاضى الجماعة أرفع مناصب القضاء فى الدولة الأندلسية ، منذ عهد بنى أمية حتى عصر دولة بنى نصر • وكان قاضى الجماعة فى غرناطة ، فى عهد بنى نصر ، يجمع بين وظيفته فى القضاء الشرعى وبين أمانة المسلمين فى الصلاة والخطبة •

(ب) القضاء المدنى : وكان يشتمل على أربع خطط : صاحب الشرطة ، وصاحب المدينة ، وصاحب المظالم ، والمحتسب •

صاحب الشرطة :

كانت المسائل السياسية والجرائم وغيرها تسند لصاحب الشرطة • فكان من اختصاصه حفظ الأمن ، وتنفيذ الأحكام التى يصدرها القاضى والتى يصدرها هو • ولم يكن منفذا لهذه الأحكام فحسب ، بل كان يتولى الاتهام والتحقيق ، ويقيم الحد دون أن يتدخل القاضى فى أحكامه • ويشبه فى ذلك قاضى الجنايات الشخصية فى عصرنا الحاضر • وكان صاحب الشرطة يعرف عند العامة بصاحب الليل ، لمحافظة على الامن فى العاصمة والأقاليم ، ومطاردته المجرمين وأهل الفساد • وكانت خطته تسمى أيضا خطة الطواف بالليل ، لأنه كان يبعث العسس والدرايين فى الأزقة والشوارع والدروب للقبض على اللصوص ومنتهكى القوانين •

صاحب المدينة :

وكان يجمع بين يديه سلطة كبرى عند غياب الخليفة ، وسلطته فى هذه الحالة تعد سلطة مطلقة • واختصاص صاحب المدينة فيه غموض ، إذ أنه قد يجمع أحيانا بين وظيفته ووظيفة الشرطة • ويشبه صاحب المدينة المحافظ فى وقتنا الحاضر •

صاحب المظالم :

هى وظيفة ممتزجة من سطوة السلطنة ونصفة القضاء ، وتحتاج الى علو يد وعظيم رهبة : فهى تقمع الظالم من الخصمين وترجر المعتدين • وكان صاحب المظالم يمضى ما عجز القضاء عن امضائه ، لان سلطته تفوق سلطة القاضى • وتتقابل وظيفة صاحب المظالم ووظيفة قاضى الاستئناف فى أيامنا هذه • وكان صاحب المظالم يختار من أفاضل الناس ، وأغلاهم مكانة فى المجتمع • وكان يحيط به حماة وأعوان وفقهاء وكتاب وعدول •

المحتسب :

هى وظيفة ملحقة بالقضاء لأن فيها حكما • وكان المحتسب يسير بنفسه فى الأسواق ، ومعه أعوانه يحملون الموازين والأكيال الصحيحة ، فيدس المحتسب أحد أعوانه على البائعين ، ويختبر وزن السلعة أو كيلها ••••• فان وجد به نقصا ، جرس البائع ، وضربه بالسياط فى الأسواق ،

وكان اختصاص المحتسب يتجاوز المبيعات الى جميع شئون المجتمع الأندلسى • اذ كان يأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ويحث على عدم الغش والتدليس ، ويحمل الناس على اتباع الخير • وكان يمنع الناس من تحميل الحيوانات ما لا تطيق ، ويمنع معلمى الصبيان فى المكاتب من ضرب الأولاد ، ويحكم على أصحاب المباني المتداعية ، ويمنع التسبب بصورة المعروفة ••••• اذ أن فى ذلك كسلا عن الكد ، والكسل مستقبح فى الأندلس • وكان يشترط فيمن يتولى وظيفة الحسبة أن يكون من المشهورين بالعلم والمعرفة والذكاء ، فيختار من بين القضاة لأن عمله مرتبط بالقضاء •

الجيش :

كان الجيش الأندلسى ينقسم الى فرق ، على كل منها أمير يحمل

النظم السياسية بالأندلس

راية • وكانت الفرق تنقسم بدورها الى كتائب ، على كل منها قائد يحمل علما ، وتنقسم الكتائب الى أقسام أخرى فرعية • وكان ينقسم ، من حيث الأسلحة ، ثلاثة أقسام : مشاة ويتسلحون بالرمح الطويلة والتراس والسيوف ، ورماة ويحملون القسي والسهام ، وفرسان ويتملحون بالمزاريق والسيوف ويلبسون الذروع • وكان الجنود يلبسون على رؤوسهم مغافر تشبه الخوذات أو البيضات الصقلبية • وكان الفرسان أهم ما في الجيش من قوة ، اذ كانوا يؤلفون القوة الضاربة السريعة الحركة التي تقوم بالحصار والتطويق ، ومن فرسان الأندلس المشهورين : أبو عبد الله بن مردنيش ، ومما اشتهر به أنه كان يدفع في مواكب النصرى ، ويشقها يميناً ويساراً منشداً :

أكر على الكتيبة لا أبالى

اختفى كان فيها أم سواها

وكان أكثر الجيش الأندلسى ، فى عهد بنى أمية ، من المغرب والصقلية والجنود المرتقة • فلما جاء المنصور بن أبى عامر ، استكثر من البربر والصقلية وأضعف من العرب ••• لأنه رأى ألا يعتمد على العنصر العربى •

وكانت قيادة الجيش من أهم المناصب فى الأندلس بسبب الصراع الطويل الأمد بين المسلمين والمسيحيين ، منذ الفتح الإسلامى للأندلس حتى سقوط دولة الاسلام فيها • وقد برز من قواد الأندلس فى عهد الولاة : السمح بن مالك الخولانى الذى استشهد فى سبتمانيا عام ١٠٣ هـ وعنبسة ابن سحيم الكلبى الذى استشهد فى أرض فرنسا عام ١٠٧ هـ ، وعبد الرحمن الغافقى الذى قتل فى موقعة بلاط الشهداء على بعد ٧٠ كيلو مترا جنوبى باريس ، وهى الموقعة الحاسمة التى تحدد بها ملك المسلمين حتى جبال البرانس •

وكان من أعظم قواد بنى أمية : عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث، وأخوه عبد الكريم بن الواحد في عهد هشام بن عبد الرحمن ، والحكم ابن هشام ، والأمير عبد الرحمن الأوسط • ومنهم القائد أبو العباس أحمد بن أبي عبدة في عهد الناصر لدين الله ، وغالب الناصري مولى الحكم ، وأحمد بن يعلى ، ويحيى بن محمد التجيبي ، وقاسم بن مطرف بن ذى النون في عهد الحكم المستنصر •

أما المنصور بن أبي عامر فقد تولى قيادة الجيش الأندلسي بنفسه، وجدد في تنظيم الجيش ، فأدخل فيه فرقاً من الجنود المرتزقة من كل جنس حتى يضمن زوال العصبيات والتناحر الجنسي بين مختلف عناصره وصار يغزو في كل عام غزوتين : واحد في الشتاء ، والأخرى في الصيف، طوال سنى حكمه ، كما كان يفعل عبد الرحمن من قبل حين كان يبعث البعوث والصوائف كل عام في قلب اسبانيا المسيحية ، فيهدم حصونها ، ويدمر قلاعها وينسف سهولها • وقيل أن المنصور غزا اثنتين وخمسين غزوة ، لم تنكس له فيها راية ، ولم ينكب في حرب شهرها ، وما انصرف عن موطن الا قاهرا غالبا •

وكان من أعظم قواد المرابطين في الأندلس : سدير ابن أبي بكر ، والأمير يحيى بن واسنو ، ومحمد ابن سعد بن مردنيش • ومن مشاهير قواد الموحدين أبو حفص عمر الهنتاتي ، وأبو سعيد عثمان بن عبد المؤمن ، والقائد شقاف • وكان خلفاء الموحدين يؤثرون قيادة الجيوش بأنفسهم • وقد قتل الخليفة الموحدي ، أبو يعقوب يوسف ، في إحدى معاركه مع البرتغاليين في شنترين •

وذاعت في عصر بنى مرين شهرة كثير من قواد المسلمين : أمثال الشغري ، وابن العلاء ، وموسى ابن عتار ، وأبو عبد الله الزغل •
الاسطول :

النظم السياسية بالأندلس

كان لابد للمسلمين في الأندلس من اصطناع سياسة بحرية ، رضوا أم كرهوا ، لأن اسبانيا شبه جزيرة لها سواحل ممتدة طويلة تشرف على البحر الأبيض والمحيط الأطلسي • وكان المسلمون يعتمدون في صناعة سفنهم على دور الصناعة القوطية باشبيلية والجزيرة الخضراء وغيرها • غير أن هذه الدور سرعان ما أصابها الفساد بمرور الزمن فتعطلت •

فلما هاجم النورمانديون سواحل الأندلس ، في عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط ، رأى الأمير ضرورة بناء دار للصناعة ، وتكوين أسطول أندلسي يدافع عن سواحلها • وقد أقيمت أول دار لصناعة الأسطول في اشبيلية ، ولحققتها دور أخرى لصناعة الأسطول في المرية ومالقة وطركونه ولقنت وميورقة وأشبونة • وتكون أسطول ضخم استطاع أن يهزم النورمانديين •

وكان لقيام الدولة الفاطمية بشمال افريقيا ، ومنافستها للدولة الأموية بالأندلس ، وامتلاكها لاسطول ضخم تهدد به سواحل الأندلس ، أثر كبير في دعم حركة بناء الأسطول في الأندلس في عهد عبد الرحمن الناصر • وقد كان لهذا الاسطول الفضل الاول في تحويل هجوم الفاطميين على مصر بدلا من الأندلس •

وقد تقدمت صناعة الأسطول في عهد الموحدين ، ونبغ في قيادته قواد عظام ، أمثال : ابن الرمامس ، وأبى عبد الله بن ميمون • وكان الأسطول الأندلسي يتسلح بقاذفات اللهب ، وهى عبارة عن آلات يندفع منها نפט يحرق ما يصادفه • وكان لهذا النفط أثر كبير في اختراع بنى نصر لمدافع البارود • وكانت السفن الحربية تعرف في الأندلس باسم الشوانى والأجفان • أما السفن العادية ، الخاصة بالنقل ، فتسمى بالغراب •

شخصيات اندلسية

موسى بن نصير

موسى بن نصير أحد أبطال الاسلام ، ومن أشهر قواده العظام الذين ساهموا بنصيب وافر في الفتوح العربية الكبرى ، ويقترن اسمه بفتح بلاد المغرب والأندلس .

ولد موسى بن نصير سنة ١٩ هـ (٦٤٠ م) في خلافة عمر بن الخطاب بوادى القرى . وكان أبوه نصير قائما في حرس معاوية بن أبى سفيان . وقيل أنه كان وصيفا لعبد العزيز بن مروان ، فأعتقه ، وأصبح موسى بن نصير مولى لعبد العزيز بن مروان . وعينه الخليفة عبد الملك بن مروان عاملا على العراق مع بشر بن مروان ، ثم أخذت عليه بعض مأخذ ، وعتب عليه عبد الملك بن مروان وأراد قتله ، فافتداه منه عبد العزيز بن مروان والى مصر بمال ، وأجاره ، وجعله في قصره لما شاهده من لباقتة وحسن تصرفه وحكمته .

وكانت بلاد المغرب قد تم فتح أغلبها بفضل جهود عقبة بن نافع الفهري وأبى المهاجر دينار وزهير بن قيس البلوى وحسان بن النعمان الغساني ، ولم يبق منها سوى المغرب الأقصى . فلما توفي حسان بن النعمان ٧٨ هـ (٦٩٧ م) ، ولى عبد العزيز بن مروان موسى بن نصير على إفريقية (تونس) ، وما يليها سنة ٧٩ هـ (٦٩٨ م) . ف توجه إليها على رأس جيش من وجوه العرب ، وجند من أهلها من يقصف بالقوة والجلد ، وجعل في مقدمتهم طارق بن زياد . فأخذ يقاتل البربر ، ويفتح بلادهم ومدائنهم ، ويبعث بغنائمه الى عبد العزيز بن مروان والخليفة عبد الملك . . . حتى زال ما كان يحمله الخليفة عليه في نفسه من ضغائن وأحقاد . فلما توفي عبد الملك بن مروان سنة ٨٦ هـ (٧٠٥ م) ولى الخلافة بعده ابنه الوليد ، وبلغه ماتم من فتوح في المغرب على يدى موسى بن نصير ، فعظمت منزلة موسى عنده ، واشتد عجبه به .

ولم يزل موسى يفتتح مدن المغرب الأقصى ، حتى بلغ طنجة -
 قصبة بلاد المغرب وأعظم مدنه - فحاصرها حتى اهتتحتها ، وأقام عليها
 قنائد جيشه طارق بن زياد . واستعصت عليه مدينة سبتة لمناعتها ووصول
 الامدادات اليها من اسبانيا القوطية عن طريق البحر ، وكان يحكمها من
 قبل البيزنطيين حاكم اسمه جوليان ، ويسميه العرب يوليان .

ترك موسى قنائه طارق على حصار سبتة برا ، وعاد هو الى مدينة
 القيروان ، قاعدة المسلمين بالمغرب ، وأخذ ينظم البلاد ، ويعمل على نشر
 الاسلام بين البربر فنجح في ذلك نجاحا كبيرا . وأصبح الفتح
 العربى للمغرب فتحا عسكريا ومعنويا في آن واحد ، إذ ضمن انتقال أمة
 البربر الى الدولة العربية من طريق الاستعراب واعتناق الدين
 الاسلامى .

ثم حدث أمر لم يكن في الحسبان ، اذ قام بين الكونت جوليان و
 « رودريجو » (١) ، ملك اسبانيا القوطية ، عدااء دفع جوليان الى تحريض
 العرب على غزو اسبانيا . وقيل ان سبب نقمة جوليان على رودريجو
 ملك القوط فعلة شنيعة فعلها بابنته فلورندا فقد كانت العادة وقتئذ
 أن يرسل الأمراء بناتهم الى بلاط الملك بطليطلة للتأديب والتعذيب وتعلم
 آداب الملوك . وكان جوليان قد بعث ابنته فلورندا الى بلاط رودريجو
 وفقا للعادة المتبعة . وكانت فلورندا بارعة الجمال ، فوقعتم موقعا حسنا
 في عين رودريجو ، فاستدرجها اليه واستنكرها .

وعلم جوليان بما حدث لابنته ، فغضب لذلك أشد الغضب ، وأقسم
 على الانتقام من رودريجو انتقاما رهيبا . فأجاز الى اسبانيا ، وأثر
 أن يكتم ما بنفسه حتى يسترد ابنته . وذكروا أن رودريجو أنكر عليه
 مجيئه في ذلك الوقت ، فتعلل جوليان بقصة ابتكرها من وحى خياله :

(١) يسميه العرب « لذريق » .

فقد ادعى أن زوجته في أشد حالات المرض ، وأنها تتلف لرؤية ابنتها ، ونلح في ذلك الحاحا متواصلا قبل أن يدركها الموت . فتأثر رودريجو لما حدث ، ووافق على طلب جوليان استعادة ابنته .

وقيل انه لما ودعه قال له رودريجو : اذا قدمت علينا ، فاستفرد لنا من الشذائعات (١) التي لم تزل تطرفنا بها ، فانها آثر جوارحنا لدينا . فاجابه جوليان : أيها الملك ، وحق المسيح لئن بقيت لأدخلن عليك شذائعات ما دخل عليك مثلها قط وعرض له بما كان يضره في نفسه من السعى في ادخال العرب اسبانيا .

فما كاد يصل الى سبتة حتى مضى من فوراه الى موسى بن نصير سنة ٩٠ هـ (٧٠٨ م) ، وأخذ يصف له حسن الأندلس ومزاياها ، وما جمعت من صنوف المنافع والمرافق وطيب المزارع وتعدد الثمار وكثرة الأنهار ، ويكشف له عن عوراتها ومواضع الضعف فيها ، ويحرضه على فتحها ، ويذلل له الصعوبات ، ويهون عليه أمر فتحها وعاهده أن ينضم اليه هو وعدد كبير من النبلاء ، أصحاب الحق الشرعى في ملك اسبانيا اذى اغتصبه رودريجو .

وكانت لهذه المقابلة آثارها في نفس موسى بن نصير ، وأطمأن الى جوليان ، ووثق بصدق ماحدثه به . فبادر بالكتابة الى الوليد يستأذنه في فتح اسبانيا ، فرد عليه الوليد قائلاً : « خضها بالسر يا حتى ترى وتختبر شأنها ، ولا تغرر بالمسلمين في بحر شديد الأهوال » . فعاد موسى الى مكاتبه الخليفة ، وذكر له « أنه ليس ببحر زخار » ، وإنما هو زقاق يستبين للناظر ما وراءه . فنصح الوليد بأن يختبرها بالسر يا قبل مغامرته .

عندئذ بعث موسى سرية مؤلفة من أربعمائة فارس من البربر ، وأقام

(١) الشذائعات : جمع شذوق أو شواذق ، وتعنى الصقور .

موسى بن نصير

عليهم مولى من مواليه البربر اسمه طريف بن مالك المعافري ، ويكنى أبا زرعة • ووضع جوليان سفنه في خدمة موسى ، فعبر طريف الزقاق في أربع سفن ، ونزل بجزيرة يقال لها جزيرة طريف — وتسمى اليوم برأس طريف — وأغار طريف على الجزيرة ، فأصاب غنائم وسبيا لا مثيل له •

فلما عاين موسى مدى نجاح الطليعة ، استجد عزمًا لفتح الأندلس ، وأعد جيشًا مؤلفًا من سبعة آلاف فارس منهم ثلاثمائة من العرب ، وبقيتهم من البربر • وقيل اثني عشر ألف فارس •

وألقى موسى أمر قيادة هذا الجيش الى مولاه طارق بن زياد ، فهيا جوليان له السفن اللازمة ومضى معهم • وعبرت السفن الزقاق في رجب سنة ٩٢ هـ (٧١١ م) •

تقدمت الجيوش الاسلامية في داخل الأندلس ، وتوالت غاراتهم على الجزيرة الخضراء • وكان رودريجو مشغولًا وقتئذٍ بقمع ثورة بينبلونة قام بها حزب الملك المخلوع • فلما بلغه الخبر عظم عليه الأمر ، وبادر الى ملاقاته العرب في جيش عرمرم ، تبلغ عدته نحو مائة ألف من ذوى العدة والعدد • فكتب طارق الى موسى يستمده ، ويخبره بفتح الجزيرة الخضراء واستيلائه على منطقة البحيرة ، وأن رودريجو زحف اليه بما لا قبل له به • فبعث اليه موسى مددًا مؤلفًا من خمسة آلاف فارس تقوى به جيش طارق •

ولما نجحت حملة طارق الى حد بعيد ، رأى موسى بثاقب فكرة ضرورة ضم مدن غرب الأندلس ، والاستيلاء على حصونها ، خشية أن يقطع القوط خط الرجعة على طارق • فعزم على أن يقوم بهذه المهمة بنفسه ، وجاز الزقاق في شهر رمضان سنة ٩٣ هـ على رأس جيش مؤلف من ثمانية عشر ألفًا • وقيل انه رغب في أن ينال نصيبًا من شرف الغزو ، فأقدم على ذلك بدافع من الغيرة والحسد ، مما أصابه طارق من نجاح •

ونزل موسى فى جبل يعرف بجبل موسى ، ودخل الجزيرة الخضراء وأتم فتح المدن التى لم يتيسر لطارق فتحها ، مثل قرمونة ، وكانت من أحسن مدن الأندلس . ثم مضى الى اشبيلية ، فامتنعت عليه أشهراً . ثم فتحها ، واتجه بعدها الى ماردة فافتتحها صلحا سنة ٩٤ هـ . وفتح لبله والتقى مع طارق فى طلبيرة ، وتعاونوا معا على فتح بقية شبه الجزيرة . فارتقيا الثغر الأعلى ، وافتتحا سرقسطة وبرشلونة ، وأوغلا فى البلاد حتى تم لهما فتح بقية اسبانيا معا : فافتتحا حصن بارو وحصن لك ، وبنا السرايا حتى بلغا صخرة بلاى على البحر الأخضر ، وأشرفا من هناك على الأرض الكبيرة (فرنسا) .

وخطر لموسى أن يعود الى المشرق من ناحية القسطنطينية» ويتجاوز الى الشام ودروبه ودروب الأندلس ، ويحوص اليه ما ما بينهما من أهم الأعاجم النصرانية ، مجاهدا فيهم مستلحما لهم ، الى أن يلحق بدار الخلافة » . ونمى الخبر الى الوليد فبعث اليه رسولا يأمره بالكف عن التوسع ، ويستدعيه اليه هو وطارق . فخاب أمل موسى فى اختراق ما بقى من بلاد افرنجة ، واقتحام الأرض الكبيرة ، حتى يصل الى الشام . وقفلا عائدين الى المشرق . وفى طريقهما مرا على اشبيلية ، فاستخلف موسى ابنه عبد العزيز على الأندلس ، واختار له اشبيلية مقرا له لاتصالها بالبحر ، نظرا لقربه من مكاره المجاز . واستخلف موسى على طنجة وما يليها من بلاد المغرب ابنه الآخر عبد الملك . واستخلف بأفريقية (تونس) أكبر أولاده عبد الله .

ويغلب على الظن أن نزاعا حدث بين موسى وطارق بشأن « مائدة سليمان » التى غنمها طارق من طليطلة ، وأنه تخاصم مع مغيث الرومى ، رسول الخليفة الوليد اليه ، اذ طلب منه مغيث أن يسلمه حاكم قرطبة القوطى الذى أسره مغيث عند فتحه لقرطبة ، فامتنع موسى وقتل الأمير القوطى . واتفق طارق ومغيث على الوشاية لموسى بن نصير عند الخليفة .

أدرك موسى دمشق ، وقدم على الوليد قبل وفاته ، وسلمه الطرائف
التي غنمها المسلمون ، من الدر والياقوت والزبرجد والتيجان المكلفة بالدر
والياقوت واجوهر ، فأمر الوليد بضمها الى بيت المال (١) ، وما لبث أن
مات . وآلت الخلافة الى سليمان ، فشكا اليه مغيث وطارق من
موسى ، وكيف قتل الأمير القوطى . وبالح طارق فى وصف ماغنمه موسى
من الجواهر ، وقال : « انه قد غل جوهرًا عظيم أصابه ، ولم تحو الملوك
من بعد فتح فارس مثله » . فزاد ذلك من حقد سليمان على موسى ،
وابتغى منه أمابه ، وعنفه وقال له : « والله لأفلن غربك ، ولأفرقن
جمعك ، ولأضعن من قدرك » . فقال له موسى : « أما قولك تغل من
غربي وتخفص من حالي ، فان ذلك بيد الله ، والى الله لا اليك ، وبه
أستعين عليك » . فأمر به سليمان أن يقف فى يوم صائف شديد الحر —
وكان موسى رجلاً بدينا — فوقف حتى سقط مغشياً عليه ، وأغرمه أموالاً
لا طاقة له بسدادها ، فافتداه يزيد بن المهلب بألف ألف دينار . ولم يكتف
سليمان بذلك ، بل أراد أن يشفى غله من موسى ، فدس الى أهل
الأندلس من قتل عبد العزيز بن موسى وهو يؤدى الصلاة فى جامع ربيانة
سنة ٩٥ هـ ، وأحضر رأسه وطرح أمام أبيه .

وآلت حال موسى أن كان يطاف به ليسأل من أحياء العرب ، ليسد
رمقه ، ومات وهو من أفقر الناس وأذلهم بوادى القرى سنة ٩٧ هـ .

(١) كان الوليد قد مرض مرضه الذى مات منه ، وكتب الى موسى يأمره أن
يتعجل فى قدومه ليدركه قبيل الموت ، وكتب اليه سليمان ، أخو الوليد ،
يأمره أن يبطل فى سيره . وذكر له سليمان أن الوليد فى نزعه الأخير ،
ومن الخير أن ينتظر موسى وفاته حتى يقوم الى سليمان الغنائم والاحتف
الاندلسية . فعجل موسى بكتاب الوليد ، وجد فى سيره مغضب سليمان ،
واقدم على الانتقام من موسى أشد انتقام .

طارق بن زياد

هو طارق بن زياد ، وقيل طارق بن عمرو ، مولى موسى بن نصير عامل بلاد المغرب من قبل الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك ، وقائد جيوش البربر التي افتتحت شبه جزيرة أيبيريا .

وقد اختلف مؤرخو العرب في أصله : فذهب بعضهم الى أنه كان فارسيا همذانيا ، وذهب فريق آخر — ومنهم الحميدى صاحب جذوة المقتبس — الى أنه كان بربريا من افريقية ومن قبيلة نقزة البربرية ، وذهب فريق ثالث الى أنه لم يكن مولى لموسى بن نصير ، وأنه لم يكن بربرى الأصل ، وانما كان ينتسب الى الصدف . وأرجح هذه الآراء جميعا لدينا رأى القائل بأنه كان بربرى الأصل . فقد قيل انه كان طويل القامة ، ضخم الهامة ، أشقر اللون . وتنطبق هذه الصفات على عنصر البربر

ولسنا نعرف شيئا عن نشأة طارق بن زياد ، ولكننا نسمع عن اشتراكه في مقاتلة البربر في أثناء ولاية زهير بن قيس على افريقية . فلما قتل زهير في طبرق ، عام ٧٦ هـ ، عين طارق أميرا على برقة غير أنه لم يلبث طويلا في هذا المنصب ، إذ أنه سرعان ما اختير قائد لجيش موسى بن نصير ، فأبلى بلاء حسنا في خروبه . وظهرت لدى موسى قدرته في اقتحام المعارك ، ومهارته في قيادة الجيش ، فولاه على مقدمة جيوشه بالمغرب .

والواقع أن موسى أثبت ، بأختياره لطارق ، درايته بتميز العناصر الصالحة في قيادة الجيش . وكان موسى يتبع سياسة تقوم على تولية العناصر الوطنية المخلصة للمناصب الكبرى في هذه البلاد ، فاعتمد على البربر اعتمادا تاما لاخلاصهم له ، وصدق اسلامهم . وكان من الطبيعي

طارق بن زياد

أن يقود جيشه — وكان أكثره من البربر — رجل من أهل البلاد حتى يستميل اليه قلوب الجند ، فلا يثوروا عليه ، كما حدث في عهد عقبة بن نافع وحسان بن النعمان من قبل •

وهكذا أتيح لطارق بن زياد أن يتولى قيادة جيوش موسى ، ويشترك معه في فتح بقية بلاد المغرب ، والسيطرة على حصون المغرب الأقصى حتى المحيط الأطلسي • وما زال يقاتل البربر ، ويفتح مدائنهم حتى بلغ مدينة طنجة — وهي قصبة بلادهم ، وأم مدائنهم — فحاصرها حتى افتتحها ، وأسلم أهلها • ولم يمض على ولاية موسى للمغرب عدة أعوام حتى خضع له المغرب بأسره ، ولم تستعص عليه سوى مدينة « سبتة » ، لمناعتها وشدة تحصنها • وكان يتولى إمارتها حاكم من قبل الدولة البيزنطية ، يعرف بالكونت « جوليان » ، ويسميه مؤرخو العرب « يليان النصراني » أو « وليان » أو « اليان » •

وكان يليان هذا — برغم تبعيته للدولة البيزنطية — يتوجه في طلب المعونة الى مملكة القوط بأسبانيا ، فتمده الحكومة القوطية بالمؤن والأقوات عن طريق البحر • وقاتله موسى وطارق فألفياه في نجده وقوة وعدة ، فلم يمكنهما التغلب عليه ، فرجعا الى مدينة طنجة ، ومن هناك أخذوا يغيرون على ماحول سبتة ، ويضيقان عليها الخناق دون جدوى ، إذ كانت سفن القوط تختلف الى سبتة بالميرة والأداد •

فلما يئس موسى من فتح سبتة ، أقام قائده طارقا بن زياد واليا على مدينة طنجة ، حتى يتاح له فرصة مراقبة سبتة عن كثب ، وترك تحت تصرف طارق تسعة عشر ألفا من البربر بأسلحتهم وعددهم الكاملة ، مع نفر قليل من العرب ليعلموهم القرآن وفرائض الاسلام • أما موسى فقد عاد الى القيروان •

آثر طارق أن يكتسب صداقة عدوه « يليان » ما دام قد عجز عن فتح مدينته الحصينة • ويذكر المؤرخ المصرى ، عبد الرحمن بن عبد الحكم ، أن طارقا كان يرأس « يليان » ويلاطفه حتى تهاديا • ثم حدث فى الجانب الآخر من الزقاق (الأندلس) أمر لم يكن فى الحسبان : ذلك أن « رودريجو » (لذريق) — أحد قواد الجيش القوطى — وثب على العرش ، وخلع الملك غيطشة ، وتولى مكانه • ولم يكن لذريق هذا من بيت الملك ، ولا من بين طبقة النبلاء ، وإنما نال العرش عن طريق التسور والاعتصاب • وقد أدى هذا الى خلق معارضة قوية من أنصار الملك المخلوع •

ويذكر المؤرخ الاسبانى « ادواردو سافدرا » أن « يليان » كان يمت بصلة القرابة والنسب الى أسرة الملك غيطشة ، وأن هؤلاء اتصلوا سرا بيليان يطلبون منه الاستعانة بجيش طارق حاكم مدينة طنجة ، غير أن يليان تردد فى تحقيق رغبتهم خوفا أن يفتح المسلمون اسبانيا ولا يردوها لأصحابها • وفى أثناء ذلك وقع حادث كان سببا مباشرا فى اقدام « يليان » بطلب الاستعانة بالجيش الاسلامى • فقد كانت ليليان ابنة على حظ كبير من الجمال ، اسمها « فلورندا » • وكان قد بعثها — شأنها فى ذلك شأن غيرها من بنات النبلاء — الى بلاط الملك « رودريجو » بطليطلة للتأدب بأداب الملوك ، ف وقعت فى عينى الملك موقعا حسنا ، ويقال أنه اغتصبها • وبلغ ذلك « يليان » فعزم على الانتقام من لذريق • وفى ذلك يقول ابن عبد الحكم : « فقال يليان : لا أرى له عقوبة ولا مكافأة ، الا أن أدخل عليه العرب • فبعث الى طارق : انى مدخلك الأندلس » •

وكان طارق يتوقع من « يليان » كل شيء ما عدا قدومه اليه بنفسه يطلب منه مساعدته فى ادخاله الأندلس • ولم يتردد طارق فى الاتصال فورا بمولاه موسى بن نصير — وكان وقتئذ بالقيروان — فأبلغه ما كان

من أمر « يليان » •

الا أن موسى — رغم تلهفه على افتتاح الأندلس — لم يثق بيليان، وخاف أن يقحم جيش المسلمين في مغامرة لا يعلم نتائجها الا الله ، فعزم على استشارة الخليفة الوليد بن عبد الملك في ذلك الأمر ، فكتب من قوره الى الخليفة ، وروى له تطوع « يليان » بمساعدته في فتح الأندلس بكل ما يملك • فأجابه الخليفة بالألا يغمر بالمسلمين في بحر كثير الأهوال ، ونصحه بالألا يطمئن الى يليان قبل أن يبعث سرية للاستكشاف •

وعمل موسى بنصيحته فأرسل سرية مؤلفة من خمسمائة مقاتل ، على رأسهم مولاة أبو زرعة ، طريف بن مالك المعافري ، فنزل طريف في رمضان عام ٩١ هـ في جزيرة ، سميت منذ ذلك الحين بجزيرة طريف ، وكان نزوله بها بفضل معونة يليان له ، ومدده بالعيون من أنصاره • وعادت سرية طريف الى طنجة سالمة تجر وراءها غنائم طائلة • فأنس موسى الى يليان ، وازداد اقداما على الفتح • ثم استدعى مولاة طارقا ، وأمره على سبعة آلاف من البربر وثلاثمائة من العرب • وأبحرت الحملة من طنجة في ٥ من رجب عام ٩٢ هـ (ابريل ٧١١ م) ، في أربع سفن أعدها له يليان ، وما زالت هذه السفن تنقل جنود طارق الى جبل كالبى (Calpe) الذى عرف بعد ذلك بجبل طارق (Gibraltar) حتى كمل نقلهم وتوافوا جميعهم لديه •

وقيل ان طارقا كان نائما في السفينة ، فرأى النبی صلى الله عليه وسلم والخلفاء الأربعة أصحابه يمشون على الماء حتى مروا به ، فبشره النبی بالفتح ، وأمره بالرفق بالمسلمين ، والوفاء بالعهد • وقيل أنه لما ركب البحر غلبته سنة من النوم فرأى النبی يحف به المهاجرون والانصار : قد تقلدوا بالسيوف ، وتنكبوا القسي أمامه ، فيقول له رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا طارق ، تقدم لشأنك • ونظر اليه والى

أصحابه قد دخلوا الأندلس أمامه • فذهب طارق من نومه مستبشرا ،
وبشر أصحابه ، وثابت اليه نفسه ثقة ببشراه : فقويت نفسه ، واشتد
عزمه ، ولم يشك في الظفر •

فلما رست سفينته بالجبل ، خرج على رأس فرقة من جيشه ،
واقترحم بسيط قرية تقع أدنى هذا الجبل تعرف بقرطاجنة (Carteya) •
وشن الغارات على هذا البسيط ، واستولى على القرية • ثم انتقل منها
غربا ، وأقام قاعدة لقواته لتكون حصنا يتحصن فيه حالة التراجع •
وكانت هذه القاعدة تقابل جزيرة صغيرة ، سماها بالجزيرة الخضراء ،
تقع في نفس الموضع الذي أقيمت عليه بعد ذلك مدينة الجزيرة (Algeciras)

أما الكونت يليان وأصحابه فتخلفوا في هذه الجزيرة لحراسة
قاعدة الجبل والدفاع عنها في حالة الانسحاب •

وقيل أن طارقا أصاب عجوزا من أهل الجزيرة ، فقالت له : أنه
كان لها زوج عالم بالحدثان ، فكان يحدثهم عن أمير يدخل الى بلادهم
هذا ، فيغلب عليه ، ويصف من نعمته أنه ضخم الهامة • • • فأنت كذلك ،
وأن في كتفه الأيسر شامة عليها شعر ، فان كانت فيك فأنت هو • فكشف
ثوبه فاذا بالشامة في كتفه على ما ذكرت ، فاستبشر بذلك هو ومن معه •

هذه روايات وأساطير وضعها المؤرخون ، وتواترت على مر الأزمان ،
لتنجعل من طارق بطل الاسلام الذي كتب له أن يتم فتح الأندلس على
يديه • وقد يكون هؤلاء المؤرخون قد تعمدوا تقليل عدد جنود طارق حتى
يعظموا الفتح الاسلامي للأندلس • • •

ومهما يكن حظ هذه الروايات من الحقيقة والصدق ، فقد كانت

الظروف السياسية في الأندلس في جانب طارق وجيشه * فقد كان « لذريق » مشغولا وقتئذ بأخماد ثورة قام بها البشكنس في مقاطعة بنبلونة ، كما كان كثير من أهل الأندلس ساخطين على حكم القوط ، فوقفوا موقفا سلبيا من الغزو الاسلامي *

وقع على « لذريق » خبر اقتحام المسلمين ساحل الأندلس الجنوبي ، واستيلائهم على الجزيرة الخضراء ، وقوع الصاعقة ، فانزعج وكر راجعا الى جنوب اسبانيا ، وزحف الى قرطبة في جيش جرار بلغت عدته - وفقا للروايات العربية - نحو مائة ألف * فكتب طارق الى موسى يستمده ، ويخبره أنه فتح الجزيرة الخضراء ، وملك المجاز الى الأندلس ، واستولى على بعض أعمالها حتى البحيرة ، وأن « لذريق » زحف اليه بما لا قبل له به * فأرسل موسى اليه مددا مؤلفا من خمسة آلاف من المسلمين ، كملت بهم عدة من معه اثني عشر ألفا *

وأقبلت في الوقت نفسه جيوش « لذريق » حتى عسكرت غربى طريف ، بالقرب من بحيرة خندة (Janda) ، على طول نهر برباط (Barbate) الذي يصب في البحر الذي سماه العرب « وادي لكة » ، تحريفا للكلمة الاسبانية (Lago) وتعنى البحيرة *

فلما علم طارق بأقتراب الحرب ، أمر باحراق سفنه حتى يفقد رجاله أمل العودة الى المغرب ، فيحاربوا في صدق ، ويقاتلوا أعداءهم فتال الموت والاستشهاد * ثم خطب طارق في جنوده خطبته المشهورة التي تعد من أروع أمثلة الخطب الحماسية ، وأعظمها أثر في الهاب المشاعر والحث على الجهاد :

« أيها الناس : أين المفر ؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم ، وليس لكم والله الا الصدق والصبر * واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من

الأيتام في مأدبة اللثام • وقد استقبلكم عدوكم بجيشه وأسلحته ، وأقواته موفورة ، وأنتم لا وزر لكم الا سيوفكم ، ولا أقوات لكم الا ما تستخلصونه من أيدي عدوكم • وان امتدت بكم الأيام ، على افتقاركم ، ولم تنجزوا لكم أمرا ••• ذهبت ريحكم ، وتعوضت القلوب من رعبها منكم الجراءة عليكم • فأدفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة هذا الطاغية ، فقد ألفت به اليكم مدينته الحصينة • وان انتهاز الفرصة فيه لممكن ، ان سمحتم لأنفسكم بالموت • واني لم أحذرکم أمرا أنا عنه بنجوة ، ولا حملتكم على خطة أرخص متاع فيها النفوس ••• الا وأنا أبداً بنفسى • واعلموا أنكم ان صبرتم على الأثق قليلا ، استمتعتم بالأرفه الألد طويلا ••• فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسى ، فما حظكم فيه بأوفى من حظى •••

» وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان ، من بنات اليونان الرافلات في الدر والمرجان ، أو الحلل المنسوجة بالعقيان ، المقصورات في قصور الملوك ذوى التيجان • وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين من الأبطال عربانا ، ورضيكم للملك هذه الجزيرة أصهارا وأختانا ••• ثقة منه بارتياحكم للطعان ، واستماحكم بمجالدة الأبطال والفرسان ، ليكون حظكم منكم ثواب الله على اعلاء كلمته ، وإظهار دينه بهذه الجزيرة ، وليكون مغنمها خالصة لكم من دونه ومن دون المؤمنين سواكم • والله تعالى ولى انجادكم على ما يكون لكم ذكرا في الدارين •••

» واعلموا أنى أول مجيب الى ما دعوتكم اليه • واني عند ملتقى الجمعين حامل بنفسى على طاغية القوم لذريق ، فقاتله أن شاء الله تعالى • فاحملوا معى : فان هلك بعدى ، فقد كفيتكم أمره ، ولم يعوزكم بطل عاقل تستندون أموركم اليه • وان هلك قبل وصولى اليه ، فاخلفونى فى عزيمنى هذه ، واحملوا بأنفسكم عليه ، وأكثفوا لهم من فتح هذه

الجزيرة بقتله ، فأنهم بعده يخذلون ا » .

فلما انتهى طارق من خطبته التى أشعلت المسلمين حماسة وقوة ، أقبل فى جنوده : وعليهم الزرد (الدروع) ، ومن فوق رؤوسهم العمام البيضاء ، وبأيديهم القسي العربية ، وقد تقلدوا السيوف واعتقلوا الرماح .

فلما رأهم لذريق كذلك ذهل ، وادخله منهم الرعب (١) . ولكنه كان واثقا من النصر لكثرة عدد جنوده ، فولى ميمنة جيشة وميسرته ابنى الملك المخلوع . وكانا قد أجمعا على الانتقام من « لذريق » الذى اغتصب العرش ، وحرهما من ضياع أبيهما الملك فانحازا مع عساكرهما الى

(١) ذكر مؤرخو العرب أنه قال حين شاهد المسلمين وعلى رؤوسهم العمام البيضاء : ان هذه الصور هى التى رأيناها ببيت الحكمة ببلدنا . وفسروا ذلك بأن ملوك القوط أقاموا بطليلة ، عاصمة مملكتهم ، دارا لبيت الحكمة ، وضعوا فيها طلسمات يتقون به غزو بربر أفريقيا لبلاد الاندلس ويحصنونها منهم ، وأغلق أبوابهم باب هذه الدار . وكلما تولى منهم العرش ملك وضع على بابها قفلا حتى كمل عدد الاقفال ستة وعشرين قفلا . وكان لذريق هو السابع والعشرين من ملوكهم . فلما اقتعد أريكة الملك قال لوزرائه وخوادم دولته : وقد وقع نفسى من أمر هذا البيت الذى عليه ستة وعشرون قفلا ، وأريد أن افتحه لانظر ما فيه ، لانهم لم يعمل عبثا . فقالوا له : أيها الملك صدقت ، انه لم يصنع عبثا ولم يفتل سدى ، والرأى والمصلحة أن تطفى أنت أيضا عليه قفلا أسوة بمن تقدمك من الملوك . فماذا كان أبواؤك وأجدادك قد جروا على ذلك فلا تهمله ، وسر سرهم . فظن لذريق أن بداخله كنزا ، وأصر على فتح الاقفال ومضها ، ففتحت ودخل فأصابها فارغة لاشيء فيها الا تابوت عليه قفل . فأبر يفتحه فالتقاء فارغا كذلك ، ليس فيه الا رقى قد صورت عليه صور تمثل فرسانا من العرب معتمدين على ذواب جعد ، متقلدين السيوف والرماح . وفى أعلاه كتابة نصها : « اذا كسرت الاقفال عن هذا البيت ، وفتح هذا التابوت فظهر ما فيه من هذه الصور فان هذه الأمة المصورة فى هذه الشقطة تدخل الاندلس فتغلب عليها وتملكها » . فوجم لذريق ، ونتم على ما فعل وعظم غمه وتحقق انقراض دولته . فلم يلبث الا قليلا حتى سمع بنزول العرب على جبل كالبى .

طارق مقابل أن يعيد اليهما ما اغتصبه « لذريق » من ضياع أبيهما .
كذلك تأمر عدد كبير من قواد جيش لذريق عليه لاسقاطه ، وكانوا يظنون
أن هؤلاء المسلمين قد وفدوا الى الأندلس بغية ملء أيديهم من الغنائم ،
ثم يعودون من حيث أتوا ، فيجلسون على العرش من يستحقه . . .
وهكذا أضمو في أنفسهم خذلان « لذريق » في الموقعة الحاسمة .

والتقى الجيشان في ٢٨ من رمضان عام ٩٢ هـ (١٩ من يوليو عام
٧١١ م) ، وتراجع جناح جيش لذريق وفقا للخطة الموضوعة ، ونكس
عدد كبير من قواد لذريق ، فأنكشف قلب جيشه ، وانهار خط دفاعه من
أساسه . واضطر لذريق الى التراجع أمام دفع جيش طارق ومن انضم
اليه من أصحاب « يليان » وأنصاره ، وأعمل فيهم السيف وأذرع في
جيش لذريق القتل على ضفاف البحيرة . وهلك لذريق ، وقيل أنه مات
غريقا بالبحيرة ، اذ عثر المسلمون على فرسه الأشهب غاطسا في طين
البحيرة ، وعليه سرج مكلل بالياقوت والزبرجد ، كما وجدوا أحد خفيه .
وهكذا حسمت موقعة البحيرة مصير اسبانيا في العصر الوسيط .

وكان موبى قد أمر طارقا أن يتوقف في الفتح عند هذا الحد ، فلا
يوغل في تقدمه الى أكثر من ذلك . ويغلب على الظن أنه كان يود أن
يلحق به لينال نصيبا من شرف الفتح . الا أن طارقا لم يصبر على
البقاء ، خاصة بعد أن تفتحت له أبواب الأندلس على مصاريعها . ونسى
في نشوة النصر ، وبين مظاهر الحماسة التي فاضت في نفوس جنوده ،
تعليمات مولاه ورئيسه موسى بن نصير ، فرأى أن يستغل هزيمة القوط،
فيطاردهم ويفتتح معاقلهم قبل أن يتجمع شملهم من جديد . فعزم على
الاستمرار في الفتح ، وتقدم الى مدينة شذونة فافتتحها عنوة ، وغنم
غنائم لا يدركها الحصر . ثم استولى على مدور وقرمونة ، وسار في
هجج ، عرف باسم فج طارق .

طارق بن زياد

وما زال طارق يوغل في البلاد - وقد ملأ الخوف قلوب القوط ،
و « يليان » يكشف له العورات والشعرات - حتى أدرك قرطبة أعظم
مدن الأندلس . فنصح « يليان » أن يوزع جيوشه الى سائر أنحاء
الأندلس ، وأن يتقدم هو الى طليطلة دار ملك القوط . فوزع طارق
جيوشه كما نصحه « يليان » : فبعث مغيثا الرومي ، مولى الوليد ، الى
قرطبة في سبعمائه فارس ، وبعث جيشا آخر الى استجة ، وثالثا الى
مالقة ، ورابعا الى البيرة . . . أما هو فسلك طريقه الى جيان فافتتحها ،
ثم تقدم منها في قلب اسبانيا يريد طليطلة . فلما انتهى اليها ألفاها
خالية ، قد فر عنها « سندر د » رئيس الكنيسة الاسبانية الى رومة ، كما
فر أهلها عنها . فتركها ليطارد فلول الحجارة حتى بلغ مدينة المائدة خلف
الجبل .

وبلغت موسى أخبار الفتح ، فغضب لعصيان طارق لأوامره . وقيل
انه خاف أن يقطع القوط على طارق خط الرجعة فهنض من القيروان في
أنه خاف أن يقطع القوط على طارق خط الرجعة ، فهنض من القيروان في
عام ٩٣ هـ ، واستخلف عليها ولده عبد الله ، وعبر المجاز في عسكر ضخم
سنة ٩٣ هـ ، وسلك في حملته طريقا آخر غير طريق طارق ، فاستولى في
طريقه على اشبيلية ولبله وماردة وباجة . وكتب الى طارق يأمره بمقابلته
في طلبيرة .

وقيل انه وافى طارقا بمدينة استرقة . فلما رآه طارق ، نزل عن
فرسه اجلالا له وتعظيما . فأهانته وغض من قدره أمام عساكره . وزعموا
أنه وبخه على استبداده عليه ، ومخالفته لرايه ، وضربه بالسوط . وقيل
أنه شد وثاقه وحبس ، وهم بقتله . . . غير أن هذه المزاعم والأقوال
لا يمكن أن تصدر من موسى بن نصير التابعي ، وقد تكون قد لفقت
لتبرير ما لقيه موسى بن نصير من عقاب سليمان بن عبد الملك له بعد

ذلك • والأرجح أنه عاتبه في رفق على تسرعه في اقتحام الأندلس من وسطها دون السيطرة على شرقيها وغربيها •

وذكر المؤرخون أن موسى طالبه برد ما غنمه من ذخائر وتحف • • • خاصة المائدة المعروفة بمائدة سليمان ، وكانت مصوغة من الذهب الخالص ، مرصعة بروائع الدر والياقوت والزمرد • فأتاح طارق بها ، بعد أن خلع من أرجلها رجلا وخباها لديه • فسأله موسى عنها ، فتظاهر بالجهل ، واحتج بأنه أصابها كذلك • فأمر موسى بأن تصنع لها رجل من الذهب تختلف عن سائر أرجلها •

وأقام موسى بعض الوقت في طليطلة ، وبعث الى الوليد رسولين من قبله : هما مغيث الرومي ، وعلى بن رباح التابعي ، يخبرانه بما ظفر به جيش المسلمين من نصر وفتح • وذكر ابن حيان أن موسى اصطلاح مع طارق ، وأظهر الرضا عنه ، وأمره على مقدمته ، وأمره بالتقدم أمامه في جيشه ، ثم تبعه موسى بجيشه • فارتقى طارق الى الثغر الأعلى ، وافتتح سرقسطة عام ٩٦ هـ (٧١٤ م) وأوغل في البلاد ، وغنم غنائم ضخمة • ثم اتجه نحو لاردة متبعا الطريق الرومانى الذى يربط سرقسطة ببرشلونة ، ثم تصل بعد ذلك بالطريق المؤدى الى أربونة على ساحل البحر الأبيض •

وأشرف القائدان على الأرض الكبيرة ، وبعثا السرايا الى بلاد افرنجة ، فاستولت على برشلونة وأربونة وصخرة اينيون وحصن لودون على وادى ردونة (نهر الزون) وخطر لموسى أن يعود الى المشرق عن طريق أوربا من جهة القسطنطينية • وفي هذا الوقت ، الذى خطرت فيه لموسى متابعة فتوحه في قلب أوربا ، وصل مغيث رسول الخليفة اليه يأمره بالكف عن الفتح والقفل اليه في صحبة طارق بن زياد • فلاطف موسى مغيثا ، وسأله أمهاله بعض الوقت حتى يتيسر له فتح جليقية التى لم

طارق بن زياد

بيق سواها من أراضى اسبانيا لم تطرقه جيوش المسلمين • فوافقه
مغيث على ذلك •

وعهد موسى الى طارق بمتابعة الطريق الرومانى الذى يصعد من
سرقسطة الى وادى نهر ابرو ، واختار هو طريقا آخر يؤدى الى جليقية
ونجح طارق فى الاستيلاء على ولاية أرغون ، وخضع له أمير هذه
المقاطعة ، ويعرف بفرتون جد أسرة بنى قسى ، حكام تطيلة والشعر الأعلى
فى عهد أمراء بنى أمية • واعتنق فرتون الاسلام حتى يحتفظ بأمواله
وأمواله • وتقدم طارق الى الشمال الغربى واستولى على أماية وليون
واستقرقة •

أما موسى فاتبع الضفة اليمنى لنهر ابرو ، ثم انحرف نحو منطقة
سوريا وأعلى نهر دويرة • ثم اندفع شمالا فى بلاد أشتوريش نحو
خيخون وأوفييدو ، واستولى على حصن بارو وحصن لك ، وبث السرايا
حتى أدرك صخرة «بلاى» التى لاذ بها «بلايو» (Polayo) قائد القوط •

وبينما موسى يظهر هذه المنطقة الجبلية من المقاومة القوطية ، اذ
قدم عليه رسول آخر من قبل الخليفة — يكنى أبا نصر — أردف به
الوليد مغيثا عندما استبطأ موسى فى العودة الى الشام • وكتب اليه
يونجه ، ويأمره بالخروج • فخرج موسى على الفج المعروف باسمه ،
ووافاه طارق فى الطريق ، منصرفا من الشعر الأعلى ، فمضيا معا عائدين
الى اشبيلية ، فاستخلف فيها ابنه عبد العزيز على امارة الأندلس •

وعبر القائدان المجاز الى افريقية يحملان معهما الغنائم ، ويجبران
خلفهما موكبا من قواد المسلمين ورؤساء القوط المغلوبين ، حتى وصلا

الى الشام بعد وفاة الوليد وخلافة سليمان • وكان سليمان غاضبا عليه لتعجله في الوصول الى الشام ، وتسليمه الغنائم العظيمة التي غنمها المسلمون في الأندلس للوليد قبل وفاته مباشرة •

وقيل أن طارقا سبق موسى الى سليمان ، ورماه بالخيانة فلما مثل موسى بين يدي سليمان ، سأله عن مائدة سليمان ، فأحضرها ، فقال له : زعم طارق أنه الذي أصابها دونك • قال : لا ، وما رأيها قط الا عندي فقال طارق : فليسأله أمير المؤمنين عن الرجل التي تنقصها فسأله ، فقال : هكذا أصبتها ، وعوضتها برجل صنعتها لها • فحول طارق يده الى قبائله فأخرج الرجل فعلم سليمان بصدق طارق وكذب موسى ، فعزله عن جميع أعماله ، وأقصاه وأغرمه مالا كثيرا • ومات موسى بوادي القرى بعد أن قضى أيامه الأخيرة في أسوأ حال •

أما طارق بن زياد ، فقد انقطع خبره بعد ذلك ، ولم نعد نعرف من أمره شيئا ، اذ صممت المراجع العربية عن تزويدنا بأخبار عنه منذ وصوله الى الشام • وما زال الغموض التام يكتنف هذا الفصل الأخير من حياته • ولكننا نرجع أنه أقام في بلاط سليمان بعد أن غمره بالجوائز لبشايته بموسى • ولكن اسمه ما زال يطلق حتى اليوم على مدينة أقيمت على سفح جبل الفتح تعرف اليوم بمدينة جبل طارق •

الحكم الرضى

الحكم الرضى

(ولد عام ١٥٤ ، ومات عام ٢٠٦ للهجرة)

هو أبو العاصى الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل ، ثالث أمراء بنى أمية في الأندلس . ولد عام ١٥٤ هـ (٧٧٠ م) . وكانت أمه « زخرف » أم ولد اسبانية الأصل . ولما مات أبوه هشام في ٣ من صفر عام ١٨٠ هـ (١٧ من ابريل عام ٧٩٦ م) ، بعد أن حكم ما يقرب من سبعة أعوام ، تولى الامارة ثانى أبنائه ، أبو العاصى الحكم ، وهو في السادسة والعشرين من عمره ، بدلا من ابنه الأكبر عبد الملك اذ كان هشام قد اختاره وليا لعهد . وتمت بيعته في ١٤ من صفر عام ١٨٠ هـ .

وافتح الحكم عهده بمحاربة عميه : عبد الله وسليمان اللذين تنازعا من قبل مع أبيه هشام عند توليه الامارة (١) ، وكانا قد خرجا الى بر العدو من بلاد المغرب ، واستقر سليمان بطنجة ، في حين آثر عبد الله التنقل في بلاد المغرب ، وزار ابراهيم ابن الأغلب في القيروان ، وعبد الوهاب بن رستم الخارجى في تاهرت .

ثم علم عبد الله - وهو في بلاط المستميين - بوفاة أخيه هشام الرضا ، فكر راجعا الى الأندلس ، قبل أن يعبر اليها أخوه سليمان ، واتجه الى الشجر الأعلى حيث علم ما يضمره الأهالى هناك من كراهية للأمير الحكم بن هشام الا أنه لم يجد هناك من يؤيده في عزل الحكم وتوليته مكانه . وباعت جهوده بالفشل ، فرحل مع ابنه : عبيد الله وعبد الملك ، عام ١٨١ هـ (٧٩٧ م) ، الى بلاد افرنجة (فرنسا) ، وقابل قارله (شارلمان) في اكس لاشابل ، وحثه على مهاجمة الأندلس ، ثم

عاد الى الأندلس ، واستولى على حصن وشقة عام ١٨٤ هـ (٨٠٠) ولكن بهلول بن مرزوق أنزله عنه .

ووجد عبد الله تأييدا له عند أهالى بلنسية ، فأقام بها شبة مستقل عن قرطبة ، بعد أن عفا عنه الحكم ، وصالحة مقابل بقاءه طول حياته ببلنسية . وبالفعل قضى عبد الله بن عبد الرحمن الداخل بقية حياته فى بلنسية ، حتى أنه عرف بعبد الله البلنسى . وهو الذى أقام ربض الرصافة ببلنسية .

وظل عبد الله قائما بمملكة بلنسية ، موفيا لشروط الحكم ، حتى مات عام ٢٠٨ هـ (٨٢٣ — ٨٢٤ م) . وكان قد بعث بابنيه الى الأمير مبالغة منه فى الوفاء بعهد ، فزوجهما الحكم ابنتيه عزيزة وأم سلمة ، وولى الحكم ابن أخيه عبيد الله قائدا لجيشه ، وصاحب الصوائف فيه ، فتوجه الى برشلونة ، وانتصر على جيوش القطلانيين انتصارا اختال له الاسلام فى الأندلس .

أما سليمان بن عبد الرحمن الداخل ، فقد جاز الى الأندلس فى العام التالى لتولى الحكم بن هشام الامارة ، ونهض فور وصوله الى قرطبة ، بعد أن جمع فرقة من الجنود المرتزقة فى أثناء سيره اليها ، وتقابل جيشه مع جيش الحكم عدة مرات ، وفى كل مرة كان لا يلقى سوى الهزيمة . . . ولما حاول سليمان اثارة أهالى ماردة على الحكم ، هزمه حاكم هذه

(١) لما علم سليمان بولايته عام ١٧٢ هـ — وكان بطليطلة — حشد الجنود ، وقصد قرطبة — وبرز اليه هشام — وكان اللقاء قرب جيان — فانهمز سليمان ، ولكنه عاود الاشتباك ، فتكررت هزيمته ، فعاد الى طليطلة وفى الوقت نفسه لحق به اخوه عبد الله . وبجاول هشام منازلتهما ، ولكنه أثر الصلح معهما ، فصالحهما بستين ألف دينار . . . على أن يخرجاهما بهلهما وأولادهما عن الأندلس الى عدوة المغرب .

الحكم الرضى

المدينة — وهو أصبغ بن ونسوس البربرى — هزيمة نكراء ، وانكب به فرسه ، وسبق أسيرا • وجاء رسول من الحكم بقتله ، فقتل وشهر رأسه فى ثوارع قرطبة ، ثم أمر الحكم بدفنه فى روضة القصر بالقرب من قبر أبيه عبد الرحمن الداخل •

وهكذا كان الحكم ملكا شديدا الحزم ، ماضى العزيمة ، عظيم الصولة ، حسن التدبير • وكان أفحل أمراء بنى أمية ، وأشدهم اقدا ما ونجدة وصرامة وأنفة وأبهة وعزة • وهو أول من اتخذ الممالك من الصقالبة ، وكان يسميهم الخرس لعجمتهم • وبلغ عدد ممالكه خمسة آلاف مملوك • وكان يشبه بأبى جعفر المنصور فى شدة البأس ، وتوطيد الدولة ، وقمع الأعداء • ومع ذلك كله كان الحكم عادلا بين رعيته ، متخيرا لحكامه وعماله ، مثاغرا فى سبيل الله • واستطاع بفضل هذه الصفات جميعا أن يطفىء نيران الفتن بالأندلس ، ويقضى على ثورات المولدين فيها •

ويذكر المؤرخون أنه كانت له ألفا فرس ، مرتبطة على ضفة الوادى الكبير بجانب قصره ، « يجمعها داران ، على كل دار عشرة عرفاء ، تحت يد كل عريف مائة فرس ... فالعرفاء يشرفون عليها وتعلف على أيديهم » ، ويجعلونها على أهبة الاستعداد للرحيل والاغارة • وكان له عيون يطالعونه بأحوال الناس ، فاذا أنمى اليه البريد خبرا بقيام ثورة ضده ، عاجل الثوار قبل أن يعدوا عدتهم ، وفاجأهم بالمحاربة والقتل حتى يقضى على الثورة فى مهدها •

وعلى هذا النحو استطاع الحكم أن يقضى على ثورتين كبيرتين كادتتا تطيحان بامارته : الأولى هى ثورة المولدين بطليطلة التى حدثت عام ١٨١ هـ (٧٩٧ م) ••• وذلك أنهم كانوا يستخفون بولاتهم ،

الحكم الرضى

ويميلون الى الثورة على أمراء بنى أمية ، والانفصال عن سلطان قرطبة .
وعرف الحكم كيف يوقع بهم ، اذ استقدم عمروس المولد من وشقة ،
وولاه على طليطلة حتى يطمئن اليه سكانها المولدون .

وأخذ عمروس هذا يتظاهر أمامهم بكرهه للامير ، وبغضه له
حتى أنسوا اليه ، وأمنوا جانبه ، فبنى قصبة في وسط طليطلة ، وأقام
فيها حفلا دعا اليه وجوه طليطلة وزعماءها وكبار رجالها فحضروا ،
وأوهمهم أنهم اذا انتهوا من تناول الطعام والشراب ، انصرفوا من باب
غير الباب الذى دخلوا منه ، ووقف السيفيون على شفير حفرة بداخل
القصبة ، وأخذوا يتلقون كل من دخل منهم فيضربون عنقه ، حتى قتل
خمسة آلاف وثلاثمائة فلانت بعد ذلك شوكة طليطلة طوال عهده وعهد
ابنه عبد الرحمن الأوسط من بعده .

والثورة الثانية : هى ثورة أهل الرضى بقرطبة عام ٢٠٢ هـ
(٨١٧ م) . وكانت السبب فى تلقيه بالحكم الرضى ذلك أن أباه هشام
كان تقياً زاهداً ، وكان يذهب بسيرته مذهب عمر بن عبد العزيز فى
صلاحه وورعه ، وانصرافه عن الدنيا لصلاح رعيته وخيرها . وكان من
الطبيعى أن يرتفع شأن الفقهاء ورجال الدين فى عهده ، فأحاط الأمير
نفسه بهم ، واستسلم لهم فعظم نفوذهم وقوى شأنهم ، واستولوا
على أعظم مناصب الدولة ، وتجاوزوا حدودهم .

فلما تولى الحكم الامارة ، حاول أن ينتزع منهم سلطتهم ، ويسلبهم
ما كانوا يتمتعون به فى عهد أبيه ، ويكف أيديهم عن التدخل فى شئون
دولته فانقلبوا عليه ، وسخطوا من تصرفاته ، واستغلوا نفوذهم الروضى
فى اثاره الناس على الأمير .

الحكمم الرضى

وبلغ من استخفاف أهل الرضى بقرطبة بالحكم ، أنهم كانوا ينادونه ليلا من أعالى صوامعهم : « الصلاة الصلاة يامخمور » ، وكانوا يعرضون به فى الصوامع أثناء الليل بقولهم : « يا أيها المسرف المتماذى فى طغيانه ، المصر على كبره ، المتهاون بأمر ربه : أفق من سكرتك ، وتنبه من غفلتك . وتحت تحريض الفقهاء ، أنكر الناس على الأمير أشياء كثيرة ، وأرادوا خلعه ، وقصدوا الى ابن عم له ، يعرف بابن الشماس ، من ولد منذر بن عبد الرحمن — وقيل محمد بن قاسم — وتفاوضوا معه فى ذلك ، وأرادوا تقديمه وخلع الحكم فأظهر لهم القبول ، وعرف منهم كل تفاصيل المؤامرة وأعضاءها ، وأبلغ ذلك الى الأمير . . . فقبض الأمير على ٧٢ من كبار المتآمرين ، وصلبهم عام ١٨٩ هـ . وكان من بينهم الفقيه يحيى بن مضر اليحصبى ، وموسى بن سالم الخولانى وولده . . .

وكان الجو وقتئذ مشبعا بالسخط على الأمير ينذر بالخطر وازداد هذا الشعور بالسخط بفضل تحريض الفقهاء الناس على الثورة . ومن بين هؤلاء الفقهاء : يحيى بن يحيى الليثى ، وطالوت بن عبد الجبار ، وعيسى بن دينار . وأنكر الناس على الأمير اطلاقه يد ربيع القومس . متولى المعاهدين بالأندلس من النصارى ، وكان حظيا فى رجاله ، سوغه فرض المغارم على المسلمين .

وحدث فى ١٣ من رمضان عام ٢٠٢ هـ (٢٥ من مارس عام ٨١٨ م) حادث بسيط ، أشعل — كالشرارة التى تحدث أشد الحرائق — نار الفتنة بين سكان الرضى بقرطبة . فقد قتل أحد ممالك الأمير غلاما : فغلت مراحل غضبهم ، وانفجرت براكين أحقادهم على الأمير وكأنما كانوا يرتقبون هذا الحادث ، فهبوا مرة واحدة ، وتجمعوا على مملوك الأمير فقتلوه ، وخرجوا يهتفون بخلع الأمير . وأول من شوى السلاح ضده أهل الرضى القبلى بعدوة النهر ، ثم ثار أهل المذينة والأرباض . وتحصن الأمويون وأتباعهم فى القصر ، وتولى الدفاع عن القصر الأميرى قائدان

عظيما هما : عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث ، وفطيس بن سليمان •
وارتقى الحكم السطح ، وأظهر شجاعة نادرة فى مثل هذا الموقف •••
فقد دعا — والقتال يدق أسفل قصره — بقارورة من العطر ، فجاءه بها
الخدم ، فافرغها على رأسه ، فلم يملك الخادم نفسه أن يسأله : « وأية
ساعة طيب هذه ؟ » فقال له الحكم : « اسكت لا أم لك ! ومن أين يعرف
قاتل الحكم رأسه من رأس غيره ؟ » •

وكان لابد للحكم أن يلجأ الى ذكائه ودهائه ، فبعث رجلين من
رجاله الذين يثق بهم ، هما : صاحب الصوائف عبيد الله بن عبد الله
البلنسى ، واسحق بن المنذر ، على رأس فرقة من الفرسان الى الربض
لاشعال النار فى مساكن الثائرين ، وأبقى لحمايته بالقصر فرقة أخرى
من جيشه • ونجح عبيد الله فى عبور النهر دون علم الثوار ، والالتفاف
حولهم من جهة الربض ، واشعال النار فى بيوتهم • فلما شاهد الثوار
ما حدث لبيوتهم ، بادروا بالعودة لانقاذ أولادهم ونسائهم ••• وبينما
هم يعبرون قنطرة قرطبة ، دهمتهم الخيل من أمامهم ، وتلقاهم حرس
القصر من خلفهم • وانقضوا عليهم يفتكون بهم ، فقتل منهم عدد كبير •
واستطاع الحكم أن يقبض على نحو ٣٠٠ منهم صلبهم على النهر
واستطاع بعض الفقهاء الفرار الى طليطلة ، أمثال يحيى بن يحيى ،
وطالوت بن عبد الجبار • ولما كان اليوم التالى ، أمر الحكم بهدم الربض
القبلى ، وذلك حتى صار مزرعة ••• ولم يعمر طول مدة بنى أمية ،
وتتبع دور الثوار بالهدم والاحراق •

وبعد ثلاثة أيام ، أمر برفع القتل والأمان ، على أن يخرج أهل
الربض من قرطبة •• فذهب فريق منهم الى بلاد المغرب ، ونزلوا بمدينة
فاس التى كان قد أسسها ادريس بن عبد الله بن الحسن ، وأقاموا بالحي
المعروف اليوم بحى الأندلسيين • أما الفريق الآخر — ويقرب عدده من

الحكم الرضى

١٥ ألفا — فقد اتجهوا بحرا الى الاسكندرية ، واستولوا عليها فزحف اليهم عبد الله بن طاهر بن الحسين ، والى مصر من قبل المأمون ، واتفق معهم على الجلاء عنها ، وأعانهم بسفنه على المجاز الى جزيرة اقريطش فاستولوا عليها ، وأقاموا فيها دولة عرفت بالدولة الكلبية .

وهكذا أذعنت له الأندلس بالطاعة ، بعد أن قضى سنين طويلة فى اخماد الثورات والفتن ، مما أتاح الفرصة للممالك المسيحية بشمال اسبانيا أن تعيث فى ثغور المسلمين . وفى عام ١٩٢ هـ (٨٠٧ م) جمع لذريق بن قارلة ، ملك الفرنجة ، جيوشه ، وسار الى حصار طرطوشة . فبعث الحكم ابنه عبد الرحمن فى عسكره ، فهزمه ، وعاد جيش الحكم ظافرا . وفى عام ٢٠٠ هـ (٨١٥ م) ، أرسل حملة بقيادة عبد الكريم بن عبد الواحد الى جليقية : فهدم الحصون ، وانتسف المعقل ، وعاد جيشه الى قرطبة منتصرا .

وكان الحكم الرضى رغم فخلاظته وقسوته ، وسفكه للدماء ، شاعرا مطبوعا . فمن قوله بعد موقعة الرضى :

رأبت صدوع الأرض بالسيف راقعا

وقدما لأمت الشعب مذ كنت يافعا

فَسائل ثغورى : هل بها اليوم ثغرة

أبادرها مستنضى السيف دارعا

وشافه ، على الأرض الفضاء ، جماجما

كأقحاف شريان الهبيد لواسعا

تتبيك أنى لم أكن فى قراعهم

الحكم الرضى

بوان ، وأنى كنت بالسيف قارعا
 وأنى اذا ما حادوا سراعا عن الردى
 فما كنت ذا حيد عن الموت جازعا
 حميت ذمارى فاستبجت ذمارهم
 ومن لا يحامى ظل نخزيان خسارعا !
 فهذى بلادى *** اننى قد تركتها
 مهادا ، ولم أترك عليها منازعا
 وقال فى جوار كان مغرما بهن :

ظل من فرط حبه مملوكا
 ولقد كان قبل ذاك مليكا
 ان بكى أو شكا الهوى زيد ظلما
 وبعادا يدنى حماما وشيكا
 وقال يتغزل :

قضب من البان ماست فوق كئيبان
 ولين عنى ، وقد أزمعن هجرانى
 من لى بمغتصبات الروح من بدنى
 يغصببنى فى الهوى عزى وسلطانى ؟

ومرض الحكم الرضى فى أواخر أيامه ، ومات فى أواخر عام ٨٢٠٦ هـ

(٨٢١ م)

عبد الرحمن الأوسط

عبد الرحمن الأوسط

(ولد عام ١٧٦ ، ومات عام ٢٣٨ للهجرة) •

هو أبو المطرف عبد الرحمن ، الابن الأكبر للحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل • ولد بيطليطة في شعبان سنة ١٧٦ هـ • وذكر ابن حزم في « نطق العروس » أن أباه عنى بتعليمه وتخرجه في العلوم الحديثة والقديمة ، وعهد إليه بولاية العهد باعتباره أكبر أولاده ، ثم لأخيه المغيرة من بعده ، فلما توفي الحكم عام ٢٠٦ هـ (٨٢١ م) قام بالأمر بعده الأمير عبد الرحمن ، وهو في سن الثلاثين •

واكتسب عبد الرحمن كثيراً من صفات أبيه وجده ، فكان وسطاً بين العنف واللين • وقد أثرت نشأته وتربيته الأولى في تكوين شخصيته : فكان رجلاً على مستوى عال من الثقافة والعلم ، وكان عالماً متبحراً في علوم الشريعة والفلسفة • وكان عهده عهد سلم ورخاء : اهتم فيه العلماء ورجال الفن والأدباء ، وأقام القصور والمنترحات ، وأجرى إليها المياه من الجبال ، وبنى الجسور ، وشيّد المساجد في جميع أنحاء الأندلس ، وأسس مدناً إسلامية كمريسية والمرية ، ورتب رسوم المملكة ، واتخذ للوزراء قسراً داخل قصره ، وكان يجتمع بهم متى أراد ذلك •

وعبد الرحمن الأوسط أول من فخم السلطنة بالأندلس ، وهو أول من أحدث بقرطبة دار السكة ، وضرب النقود باسمه ، ولم يكن فيها ذلك منذ افتتحها العرب ، وعرفت أيامه بأيام العروس لكثرة الخيرات • • وهكذا سمت الحياة في الأندلس وارتقت الحضارة ، وأصبحت الأندلس في عداد الدول العظمى في العالم •

ويتسم عصر عبد الرحمن بتقدم الحركة العلمية في البلاد : اذ كان مكرما للعلماء ، محسنا اليهم • وكان يرحب بمقدم العلماء المشاركة ، وأهل الأدب والفن ممن ضاق المشرق بمواهبهم • واستجلب الى الأندلس روائع التحف التي كانت في قصور بغداد عند خلع الأمين : مثل عقد الشفاء ، وأعلاق زبيدة بنت جعفر • وكان ذلك سببا في تحول المجتمع الأندلسي ، القائم على أخلاط بشرية غير منظمة ، الى مجتمع منظم مظهره ، مصقولة صورته • واتخذت الحضارة الأندلسية طابعا أندلسيا تميزت به بعد أن كانت صورة خليطا من حضارات متباينة •

وتألفت في عهده عدة شخصيات كان لها أثر كبير في التقدم الحضاري الذي أصابته الأندلس على يديه • وأولى هذه الشخصيات البارزة : شخصية الفقيه المحدث يحيى بن يحيى الليثي • ويقال أن أصله من بربر مصودة •

وكان أهل الأندلس ، منذ الفتح الاسلامي ، على مذهب الامام الفقيه الأوزاعي الشامي *** حتى عهد الحكم الربضي بن هشام : اذ انتقلت الفتوى الى رأي مالك بن أنس ، فانتشر مذهب مالك في المغرب والأندلس على يد زياد بن عبد الرحمن اللخمي ، المعروف بشبظون ، المتوفى عام ٢٠٤ هـ (٨١٩ م) ، أول من أدخل مذهب مالك في الأندلس • فروى يحيى بن يحيى الموطأ للملكي بقرطبة عن زياد ، وسمع من يحيى بن مضر القيبي الأندلسي • ثم رحل الى الحجاز ، وهو في سن الثامنة والعشرين ، فسمع من مالك بن أنس بالمدينة ، وسمع بمصر عن الامام الليث بن سعد •

ولما عاد الى قرطبة ، في عهد الأمير هشام ، تولى الرياسة في الفقه والقضاء ، وروى عنه كثيرون • ونال يحيى مكانة سامية لدى الأمير وأصبح أمام عصره ، بيده تعيين القضاة في مدن الأندلس • ويقول ابن

عبد الرحمن الأوسط

حزم : انه كان لا يشير في اختيار أحد الا من كان على مذهبه « والناس سراع الى الدنيا ، فأقبلوا على ما يرجون بلوغ أغراضهم به » . وأصبح للفقهاء مكانة عظيمة في الأندلس في عهد هشام ، اذ استسلم لهم الأمير . وقد بلغ من نفوذهم أنهم ثاروا على الأمير الحكم الربضي عندما أراد أن يحد من هذا النفوذ . وكان يحيى بين من اتهم باثارة الناس على الحكم في وقعة الربض المشهورة (رمضان عام ٢٠٢ هـ) ، ففر الى طليطلة ، ثم استامن فكتب له الأمير الحكم أمانا ، وبذلك عاد الى قرطبة .

وتمكن يحيى من استعادة نفوذه في عهد عبد الرحمن الأوسط ، واستبد بالأمير . ومن الأمثلة التي تدل على ذلك أن الأمير عبد الرحمن أحب جاريه في شهر رمضان ، ثم ندم على ذلك أشد الندم ، فجمع الفقهاء في قصره وسألهم في التوبة والكفارة ، فقال يحيى : « تكفر بصوم شهرين متتابعين » . فلما بادر يحيى بهذه الفتوى سكت الفقهاء ، حتى خرجوا فقال بعضهم له : « لم لم تفت بمذهب مالك في التخيير ؟ » فقال : « لو فتحنا له هذا الباب ، سهل عليه أن يطأ كل يوم ويعتق رقبة ، ولكنني حملته على أصعب الأمور حتى لا يعود الى ذلك » .

وتوفى يحيى في رجب سنة ٢٣٤ هـ (٨٤٨ م) . وتلى شخصية يحيى بن يحيى ، من حيث المكانة ، شخصية أخرى معروفة : وهي شخصية المغنى الحسن بن على بن نافع ، المعروف بزياب ، وهو من أعظم شخصيات هذا العصر وأجلها قدرا . وقد ترجمنا له عند حديثنا عن فن الغناء والموسيقى في الأندلس .

قدم الى الأندلس سنة ٢٠٦ هـ (٨٢١ م) من العراق ، وركب الأمير عبد الرحمن الأوسط بنفسه لاستقباله وتلقيه ، وبالح في اكرامه ، وفتح له في قصره بابا خاصا يستدعيه منه متى أراد . وقد أحدث زريات ثورة

كبرى في تاريخ الموسيقى الأندلسية : اذ ابتكر وتراخامسا في العود ،
وجدد في الألحان تجديدا لم يسبقه فيه أحد ، وابتكر مضربا للعود من
قوادم النسر ، وأدخل لأول مرة نظام المجموعات المنشدة في الغناء
(الكورس) •

ولم تشمل ثورة زرياب الموسيقى فحسب ، بل امتدت الى كل ما
يتصل بالحياة الاجتماعية في الأندلس : من ذلك أنه عود أهل الأندلس
على استخدام أنية الزجاج الرقيقة بدلا من أنية الذهب والفضة ،
واتخاذ فرش أنطاع الأديم اللينة الناعمة على ملاحف الكتان ، وارتداء
أنواع شتى من الملابس تبعا لفصول السنة • ثم أنه ربتكر نوعا من
المأكولات يسمى النقايا ، وابتدع طرقا غريبة في طهو الطعام ما زال
بعضها مستخدما اليوم في الأندلس • واستحدث وسائل جديدة في تصفيف
الشعر : فقد كان الرجل والمرأة ، قبل قدومه ، يرسل جمته مفروقا وسط
الجبين عاما للصدغين والحاجبين ، فعمد هو الى تهذيب شعره وشعر بناته
وزوجاته ، وتقصيره دون الجباه ، وتنسويته مع الحواجب ، ثم استدارته
الى الآذان واسداله الى الأصداغ ••• فلما عين الناس منه ذلك
استحسنوا طريقته وقلدوه •

وجمع زرياب الى ما سبق من خصال : لطف المعاشرة ، وفنون
الأدب وكان مجيدا لأداب المجالسة والمحادثة ، ماهرا في خدمة الملوك ،
حتى أن أمراء الأندلس اتخذوه قدوة فيما سنة لهم من آداب •

والشخصية الثالثة التي كان لها أثر كبير في عصر عبد الرحمن
الأوسط ، هي شخصية يحيى ابن حكم البكرى الملقب بالغزال ، يرتفع
نسبه الى بكر بن وائل ، فهو ينتسب الى أعظم البيوتات العربية • وكان
يحيى أحد شعراء الأندلس المطبوعين الذين اتخذوا من نظم الشعر فنا :
لا لكسب قوته ، وإنما لاشباع هوايته ، فكان لا يتردد في أن يقول رأيه

عن الناس صراحة ، حتى سبب لنفسه من جراء ذلك متاعب جمة •

وكان الغزال — الى جانب ما انتصف به من شرف النسب ، وقدرته على نظم الشعر — فتى جميل الوجه ، أنيق المظهر ، لطيف المعشر • كما كان يتصف برقة الحديث ، وفصاحة اللسان ••• حتى انهم لقبوه بالغزال لكمال قوامه ، ورشاقة جسمه • وكان ذلك سببا في اختيار الأمير عبد الرحمن له سفيرا عنه الى الملوك • وبعثه في سفارة كبرى الى ملك القسطنطينية ، نوفلس الذى أرسل الى عبد الرحمن سنة ٢٢٥ هـ (٨٤٠ م) بهدية يطلب مواصلته • كما بعثه سنة ٢٣١ هـ (٨٤٥ م) في سفارة الى «تورجابوس» ملك النورمانديين بايرلندا ، الذى كان قد أرسل سفارة الى الأمير عبد الرحمن اثر هزيمة النورمانديين في اشبيلية يطلب فيها ماهدنته • وقد اظهر يحيى الغزال من سعة علمه وكياسته وحججه ما أثار اعجاب الملك والملكة • واستغرقت سفارته لدى ملك النورمانديين شهرين ، ثم عاد بعدها الى قرطبة •

ونختتم هذه الشخصيات بشخصية هامة في بلاط الأمير عبد الرحمن الأوسط ، هي شخصية « طروب » جاريته وأم ولديه : محمد ، الذى تولى الامارة بعده ، وعبد الله الذى وليها بعد المنذر • وكلف بها عبد الرحمن وأحبها حبا ملك عليه نفسه •

و« طروب » هذه واحدة من جاريات شماليات كثيرات أحبهن عبد الرحمن ، مثل « مدثر » و« الشفاء » و« فلة » ••• وأغلبهن صقلييات أو بشكنسيات • وكان اتخاذ بنى أمية للجاريات الشماليات أمرا شائعا لجمالهن وشقرتن ، مثل ذلك أن السيدة « صبح » البشكنسية ، أم الخليفة هشام المؤيد ، كانت جارية للحكم المستنصر •

وكانت « طروب » تطمع في ولاية ابنها محمد الامارة بعد أبيه ، من بين أخوته من أبيه الذين يبلغ عددهم مائة وخمسين • وكانت تسعى من أجل ذلك الى المال حتى تستميل الناس اليها • أما الأمير عبد الرحمن فكان يعمل على ارضائها واکرامها ، ولكنها كانت تهجره وتصدده عنها ، بل لم تتردد في تدبير مؤامرة لقتله ، مستعينة في ذلك بفتاه نصر الصقلي • وانكشفت المؤامرة ، وقتل فيها نصر ••• ومع ذلك فقد كان الأمير يهيم بها وجدا ، ولا يحتمل أن تغيب عنه !

وقد روى بعض المؤرخين أن الأمير عبد الرحمن أغضبها مرة ، فهجرتها ولزمت مقصورتها • فاشتاق لرؤيتها ، وجهد أن يترضاها ، فأعياه ذلك ، فأرسل من فتيانه من يكرها على الوصول اليه • فأغلقت باب مجلسها في وجوههم ، وآلت ألا تخرج اليهم طائفة ولو أدى ذلك الى قتلها • فانصرفوا وأعملوه بقولها ، واستأذنوه في كسر الباب عليها • فنهاهم وأمرهم بسد الباب عليها من خارجه ببدر الدراهم ••• ففعلوا ، وبنوا عليها بالبذر • وأقبل حتى وقف بالباب ، وكلما مسترضيا راغبا في المراجعة ، على أن يعطيها جميع ما سد به الباب ، فأجابت وفتحت الباب ، فانهالت البدر في بيتها ، وأكبت على رجله تقبلها !

ومن الأحداث الشهيرة ، في عصر عبد الرحمن الأوسط ، غارات النورمانديين على سواحل الأندلس • وكانوا يقبلون في سفن ذات أشعة سوداء ، ويرسون بها على الشواطئ ، فيقسمون رجالهم قسمين : قسما يعسكر على الشاطئ ، وقسما يغير على المدينة ، وينهب ما استطاع ويهدم كل شيء • وكان أول ظهورهم في بسط الأشبونة ، وبتدموا من هناك حتى مصب نهر الوادي الكبير ، وأغاروا على اشبيلية ، ففر الناس منها الى قرمونة • ثم أغار النورمانديون على فريش ولقنت وقرطبة ومورور ، ولم يجسر أحد من أهل الغرب على مقاتلتهم واستطاع عبد

عبد الرحمن الأوسط

الرحمن — بفضل جهود موسى بن قسي ، والى الثغر الأعلى — أن يهزمهم ،
وأجلاهم عن اشبيلية •

وقد نبهت غارات النورمانديين الأمير عبد الرحمن الى ضرورة
اصطناع سياسة بحرية • فأمر باقامة دار الصناعة باشبيلية ، وأنشأ
المراكب ، واستعد برجال من سواحل الأندلس ، فألحقهم ووسع عليهم ،
واستعد بالآلات والنفط • فلما أغار الجوس على اشبيلة عام ٢٤٤ في
أيام الأمير محمد ، تلقاهم أسطول الأندلس ، وهزمهم وأحرق مراكبهم •
وكانت دار صناعة اشبيلية نواة لدور الصناعة الأندلسية بطركونة والمرية
والجزيرة الخضراء ومالقة وميورقة ولقنت وشلب •

ومع أن عصر عبد الرحمن الأوسط كان يتسم بالهدوء والسلام ،
فانه لم يتردد في محاربة الممالك المسيحية بشمال اسبانيا • ففي سنة
٢٠٨ هـ أغزى حاجبه عبد الكريم عبد الواحد الى ألبية والقلاع ، فحرب
كثيرا من حصونها • وفي سنة ٢٢٤ هـ بعث عبد الله بن البلسني ، على
رأس جيش ، الى ألبية فهزمه ملكها • وفي سنة ٢٣٠ هـ بعث جيشه الى
جليقية : فحاصر مدينة ليون ، ورمها بالمجانيق • فهرب أهلها عنها
وتركوها ، فغنم المسلمون ما فيها وأحرقوها •

وتوفي عبد الرحمن الأوسط في ربيع الآخر سنة ٢٣٨ هـ (٨٥٢ م)
وكان من أعظم أمراء بني أمية في الأندلس الذين وضعوا الأسس الاولى
في النهوض بالحضارة الأندلسية • وكان عصره عصر ارتقاء وتقدم في
الثقافة والفن ظهرت آثاره في العصور التالية •

عبد الرحمن الناصر

(ولد عام ٣٠٠ ، ومات عام ٣٥٠ للهجرة)

هو أبو المطرف : عبد الرحمن الناصر لدين الله بن محمد بن عبد الله بن محمد بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل . تولى إمارة قرطبة وعمره اثنان وعشرون عاما ، عقب وفاة جده الأمير عبد الله بن محمد (٢٧٥ - ٣٠٠ هـ / ٨٨٨ - ٩١٢ م) .

أما أبوه ، محمد بن عبد الله ، فقد اتهم بالاشتراك في مؤامرة ضد أبيه عبد الله ، فزج به أبوه في السجن ، وهناك مات مقتولا بيد أخيه المطرف بن عبد الله . وقد نال المطرف جزاء جريمته ، اذ قتلته أبوه عبد الله ، واحتضن حفيده اليتيم عبد الرحمن بن محمد ، وخصه بمحبته ورعايته ، وكان طفلا في المهد لا يتجاوز عمره عشرين يوما .

ويغلب على الظن أن الأمير عبد الله كان يستشعر الندم لتسببه في قتل ابنه محمد ، أفضل أبنائه عنده ، وآثرهم لديه وكانما أراد أن يكفر عن خطيئته في حق ابنه القتل ، فكرس حياته لتنشئة حفيده اليتيم ، وأشرف على تربيته بنفسه ، وجعل له حجرة في قصره . وكان يؤثره من دون بنيه ، ويومئ إليه ، ويرشحه لأمره ، ويقعده في الأعياد والمناسم مقعده ، ويأمر بالسلام عليه ، وكان ذلك أبلغ دليل على اختياره وليا لعهد على الأندلس .

فلما مات الأمير عبد الله في أول ربيع الأول عام ٣٠٠ هـ ، ظفر حفيده عبد الرحمن بن محمد بالامارة دون أعمامه وأعمام أبيه ، وكانوا أحق منه بالامارة شرعا ، ولكنهم تخلوا له عنها ، زاهدين فيها لما يحيط بها من أخطار . فقد كانت الأندلس اذ ذاك تجتاز مرحلة من أدق مراحل

عبد الرحمن الناهض

تاريخها الاسلامي . وكثر المنقرون على السلطة المركزية ، فتفككت الوحدة السياسية وتمزقت . ورفع كثير من الثائرين من البربر والمولدين على أمير قرطبة راية الاستقلال في كثير من المدن ، مثل : جيان التي استقل بها موسى بن ذي النون ، وببشتر معقل أسرة ابن حفصون المولسدة . واشبيلية مقر حكومة بني خلدون وبني حجاج ، وبطليوس التي تحصن فيها عبد الرحمن بن مروان الجليقي ، وباجة قلعة عبد الرحمن بن سعيد بن مالك .

وكان اعتلاء الامارة بقرطبة ، لذلك كله ، أمرا محفوفًا بالمكاره والإخطار . وكان الظن آن مصيرها سيؤول حتما الى الزوال ، فزهد فيها من هم أحق بها من بيت بني أمية . وتعلقت آمالهم بهذا الشاب اليتيم الذي كان يندفع شبابا ، ويشغل قومية ، ويتوقد حماسة ، في توطيد دولة الاسلام بالأندلس . وهكذا تهيأت لهذا الفتى الامارة من حيث لا يدري . واصبح أمير قرطبة بلا منازع .

وكان أول من بايعه أعمامه من أولاد الأمير عبد الله ، وهم : أبان والعاصي ، وعبد الرحمن ، ومحمد ، وأحمد . . فقد وصلوا اليه وعليهم الأردية والظواهر البيض بزي الحزن ، وتلاههم اخوة جده ، وهم : العاصي ، وسليمان ، وسعيد ، وأحمد . وناب عنهم أحمد في الكلام . فلما بايعه أثنى عليه ، ثم قال : « والله لقد اختارك الله على علم للخاص منا والعام . ولقد كنت أنتظر هذا من نعمة الله علينا ، ويظهر لنا صيانا . نأسأل الله ايزاع اشكر ، وتمام النعمة ، والهام الحمد » .

وقتابع بعد أهل الخلافة جماهير قريش ووجوههم ، ثم الموالي ، ثم رجال أهل قرطبة من فقهاءها ووجوهها وأعيانها ، وأهل البيوتات فيها ، فتمت لهبيعة الخاضعة في ذلك اليوم ، ثم صلى الأمير عبد الرحمن على

عبد الرحمن الناصر

جده وواراه في مدفنه ، من روضة الخلفاء بقرطبة ، ومعه الوزراء ووجوه الدولة • ثم أعد الوزير صاحب المدينة موسى بن محمد بن حدير ، والقاضي أحمد بن زياد اللخمي ، وصاحب الشرطة العليا قاسم بن وليد الكلبى ، وصاحب الشرطة الصغرى أحمد بن محمد بن حدير ، وصاحب أحكام السوق محمد بن محمد ابن أبى زيد ••• أعد هؤلاء جميعا العدة لأخذ بيعة العامة في المسجد الجامع بقرطبة ، فتمت في اليوم نفسه •

وهكذا ولى عبد الرحمن بن محمد الأمانة بقرطبة ، والأندلس جمرة تحتدم ونار تضطر •

لقد رجد الأمير الشاب أرض الأندلس مضطربة بالثائرين ، مضطربة بنيران المتغلبين ••• فعمد ، قبل كل شيء ، الى اطفاء هذه النيران ، واستنزال أهل العصيان • وكانت سياسته ترمى أولا الى تركيز السلطة في يده ، وتوحيد الأندلس الى مثل ما كانت عليه في عهد أمراء بنى أمية الأقوياء • وعند ذلك يمكنه أن يقضى على مظاهر الفوضى والاضطراب التى شملت جميع أنحاء الأندلس ، ويعيد الأمن الى البلاد ، والاقتصاد الأندلسى الى سابق ازدهاره •

وكان لزاما عليه — في مثل هذه الحالة — أن يصطنع سياسة تقوم على الترهيب والترغيب ، أو على الشدة واللين • وشرع الأمير الشاب في تنفيذ خطته في عزم وتصميم ، فأنقذ الكتب الى العمال في جميع كور الأندلس بطلب الطاعة والاستسلام ، فكان أول رد ورد عليه بذلك هو رد سعيد ابن السليم عامل حصن مارتش من كورة جيان • ثم أرسل الأمير عبد الرحمن أمناءه الى البلاد لأخذ البيعة ، فبعث الى الثغرين الأدنى والأقصى الفقيه أبا مروان عبيد الله بن يحيى ومحمد بن عبد الله بن نصر • والى كور الغرب : حفص بن عبد الرحمن ، وأحمد بن عبد الملك ، ومحمد بن بكر •

عبد الرحمن الناصر

وكان محمد بن عبد الرحمن التجيبي ، صاحب مرقسطة ، أول من بايعه من أصحاب الأطراف ، وتتابعَت البيعة والاستسلام لعبد الرحمن من جميع مدن الأندلس . واستبشر الناس بهذا الأمير الذي دخلت محبته في نفوسهم ، لما أبداه من مسامحته للخارجين على الأندلس ممن بايعوه بالامارة ، وقبلوا دعوته الى الوحدة . وقد أكرمهم عبد الرحمن ، ورضى عنهم ، وأتاح لهم سبيل العيش في أمن وعزة تحت رعايته .

فلما مضى شهر من توليه الامارة ، ولم يستسلم له الا عدد قليل من الخارجين على سلطته ، أعد حملة قصد منها قهر هؤلاء الخارجين على القاء السلاح والخضوع ، وخرج على رأس جيشه ، ولما يُمض على توليه الإمارة أربعون يوما ، وتسمى هذه الصائفة بغزوة المنتلون ، افتتح فيها سبعين حصنا عظيما منها : حصن المنتلون ، وحصن الشمنتان ، وحصون بنى هابل ، وحصن قاشترة ، وحصن بشيرة ، وحصن أملين . واشتبك عبد الرحمن مع أنصار ابن حفصون الذين كانوا يملكون حصونا كثيرة بكورة البيرة ، فهازلها حصنا حصنا ، وافتتح حصن شبيلس ، وحصن فروة . . . حتى تم له فتح ما يقرب من ثلاثمائة حصن . وعاد عبد الرحمن الى قرطبة منتصرا .

وفي هذه الصائفة يقول الشاعر أحمد بن محمد ابن عبد ربه :

في نصف شهر تركت الأرض ساكنة

من بعد ما كان فيها الطير قد ماجا

وجدت في الخبر المأثور منصلتا

من الخلائف خراجا وولاجا

وفي قصيدة أخرى يقول :

فى غزوة مائتا حصن ظفرت بها
فى كل حصن غزاة للعناجيج
ما كاد منك سليمان ليدركه
والمبتنى سد ياجوج وما جوج

ومع ذلك كله كان الأمير الشاب يتطلع الى القضاء ، قبل كل شىء ،
على رأس الأفعى : عمر ابن حفصون وولده جعفر • وكان عمر بن
حفصون هذا قد تحصن بمدينة ببشتر ، من كورة رية ، وأطاعته أكبر
مدن وسط الأندلس ، الواقعة بين رية والجزيرة الخضراء من جهة والبيرة
وأحواز قرطبة من جهة أخرى • وقد حاول الأمير المنذر بن محمد أن
يقضى على حركته ، ولكنه مات وهو يحاصر مدينته ببشتر •

وعظم أمر ابن حفصون فى عهد الأمير عبد الله ابن محمد ، واشتدت
شوكته ، وجرت بينه وبين الأمير مناوشات لم تؤد الى نتيجة • ثم
استفحل أمره ، واشتد خطره ، فأغار على مورور وشذونة وقرمونة ،
واتسعت رقعة مملكته • ثم ارتد عن الاسلام ، واعتنق الدين المسيحى ،
حتى ينجذب اليه الطوائف المستعربة فى اسبانيا الاسلامية •

فلما عاين المسلمون ما فعله عمر بن حفصون ، استنبحوا ذلك منه ،
وانفضوا من جوله • وكان ذلك بداية نهايته ، وضعف أمره ، وتظاهر
بالخضوع للأمير عبد الرحمن • وقيل أنه اشترك معه فى غزواته ضد
اسبانيا المسيحية بعد أن صفح عنه الأمير • وتوفى عمر بن حفصون فى
عام ٣٠٣ هـ (٩١٥ م) ، وزعموا أنه مات على الدين المسيحى ••• اذ
أن قبره نبش عند سقوط مدينة ببشتر عام ٣١٦ هـ (٩٢٨ م) :
« فأنكشفت دفينة جثته الخبيثة على سنة النصرانية من غير شك ، لأنه
أصيب مستقبلاً بوجهه المشرق ، ذراعه على صدره » •

عبد الرحمن الناصر

وخلفه ابنه جعفر الذى ذهب مذهب أبيه فى العناد والفساد ، فسير اليه عبد الرحمن بن محمد عام ٣٠٦ هـ (٩١٨ م) جيشا استولى على حصن بلدة من حصون رية • وفى عام ٣٠٧ هـ (٩١٩ م) افتتح عبد الرحمن حصن طرش خشين ، من أعمال ابن حفصون ، واستأن صاحبها ، عبد الرحمن بن عمر بن حفصون ، الى الأمير عبد الرحمن فأمنه ، وسلم له الحصن ، وقدم الى قرطبة فأكرمه بها الأمير •

وفى جمادى الآخرة عام ٣٠٨ هـ (٩٢٠ م) ، قتل جعفر بن عمر بن حفصون داخل ببشتر غيلة ، فدخلها أخوه سليمان ، واستأن الى الأمير عبد الرحمن •

وتظاهر سليمان بن حفصون ، بطاعة الأمير ، فسأله الأمير ... حتى اذا ما قوى أمره ، عاد الى نذت عهده ، وشن الغارات على مملكة قرطبة ، وعاث فى الأرض فسادا ••• فدخل مدينة المنكب عنوة ، وقتل جميع سكانها ، وسبى نساءها • وما زال كذلك فى عذره ونكثه ، حتى توالى عليه الوقائع ، وضيق عليه جيوش الأمير ، وأوقعت به الهزيمة فى أحواز شنت بجنت ••• فحاول الفرار ، ولكن فرسه كبا به ، فسقط عنه ، وحز رأسه عام ٣١٤ هـ (٩٢٦ م) ، وبعث به من جنته الى قرطبة فصلب على باب السدة •

وخلفه أخوه حفص بقلعة ببشتر • وخرج اليه الأمير عام ٣١٥ هـ (٩٢٧ م) ، فاستولى على حصن الجش ، وأمر بهدمه بعد أن أمن أهله • ثم وصل الأمير سيره حتى وصل الى قلعة ببشتر ، فحاصرها ، وضيق عليها الحصار • وأمر قائده « سعيد بن المنذر » ببنيان حصن طلجيرة بجوار القلعة ، مبالغة منه فى التضيق عليها ، حتى يئس حفص بن عمر ابن حفصون ، فأدغى الى السلم • وافتتحت ببشتر فى هذه السنة بالأمان ، ودخلها الوزير أحمد بن محمد بن حدير ، بعد أن سلمها له

حفص وأتباعه ، ورفعت الأعلام الأميرية على أسوارها في أول ذي الحجة عام ٣١٥ هـ • وعاد ابن حدير الى قرطبة ومعه حفص بن عمر بن حفصون وأهل بيته ، فأحسن الأمير عبد الرحمن مثواهم ، وتوسع في أكرامهم •

وهكذا انقضى أمر بنى حفصون • وقضى الأمير عبد الرحمن على أخطر الخارجين عليه • وأمر بإخراج جثة عمر بن حفصون ، ورفعها على باب السدة بقرطبة في أعلى الجذوع ، لتكون عبرة لمن تجرأ على مخالفة الأمير والثورة عليه • وأقيمت الدعوة لعبد الرحمن بجامع ببشتير ، وعمرت فيها المساجد المهجورة ، وهدمت بها الكنائس المعمورة •

أما بنو حجاج باشبيلية ، فقد استطاع الأمير عبد الرحمن أن يجتذب أحمد بن محمد بن مسلمة ابن حجاج اليه ، وسلم اليه اشبيلية في عام ٣٠١ هـ (٩١٣ م) • ثم أذن له محمد بن ابراهيم بن حجاج صاحب قرمونة ، ووصل الى قرطبة في رجاله وقوته ، وأجرى الأمير عليه ، وقربه من نفسه ، وولاه الوزارة منوها به رفيع القدر •

وفي عام ٣١٧ هـ (٩٢٩ م) ، توجه عبد الرحمن الناصر الى مدينة بطليوس لمحاربة عبد الرحمن ابن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الجليقي فيها ، فحاصرتها جيوشه ، وضيق عليها الخناق حتى افتتحها • ثم أتجه الى باحة لمحاربة عبد الرحمن بن سعيد الثائر بها فحاصرها ، ونصب عليها المجانيق حتى نال أهلها العطش ، فاستأمنوا ولاذوا بعفو الناصر ، فأمنهم وتزلوا على حكمه ، وأمن عبد الرحمن بن سعيد وأهله •

وما كاد الأمير عبد الرحمن ينتهي من القضاء على أعداء الوحدة في داخل الأندلس ، ويعيد اسبانيا الاسلامية الى سابق وحدتها ••• حتى تفرغ بعد ذلك للأخطار خطر الدولة الفاطمية الفتية الناشئة ، التي ظهرت حديثا في بلاد المغرب ، والتي كانت تتأهب لغزو الأندلس ، وأرسل

عبد الرحمن الناصر

خلفاؤها دعائهم الى هذه البلاد تمهيدا لفتحها • فعمد عبد الرحمن بن محمد الى ثلاث وسائل لمواجهة خطر الفاطميين :

١ — تلقب باللقاب الخلافة عام ٣١٧ هـ (٩٢٩ م) ليوطد مركزه في داخل الأندلس وخارجه ، ويفرض هيئته في النفوس •

٢ — بث بذور الفتنة بين قبائل البربر في بلاد المغرب ، واستولى على معبرى الأندلس — وهما مدينتا : سبتة ، وطنجة — عام ٣١٧ هـ ، وأطاعة بنو ادريس أمراء العدو وملوك زناتة والبربر ، وأجاز اليه الكثيرون منهم •

٣ — اهتم بتقوية البحرية الأندلسية ، فعمل على تكوين أسطول أندلسي ضخم ، ينازع به سلطان الفاطميين في البحر المتوسط ، ويدافع عن سواحل الأندلس ضد غاراتهم •

وقد أدت سياسة الخليفة عبد الرحمن الناصر الحازمة الى انصراف الفاطميين عن فتح الأندلس الى فتح مصر (١) •

وواجه الخليفة عبد الرحمن الناصر بعد ذلك خطر آخر ، هو خطر الممالك المسيحية بشمال اسبانيا • فقد ازداد خطر « اردون » ملك ليون (أردونيو الثاني بن ألفونسو الثالث Ordonio II) ٩١٤ — ٩٢٤ م ، و « شانجة » (سانشوجارث Sancho Graces I) ملك برة (Navarra)

(١) كان الفاطميون يرمنون بفتح مصر الى جعلها قاعدة لفتحهم في المشرق الاسلامي • لقربها من الحجاز وبلاد الشام والعراق • وكان فتح مصر أجدى عندهم من فتح الأندلس •

حتى أن « أردون » الثانى ، ملك ليون وجليقية ، حشد جيوشه فى عام ٣٠١ هـ (٩١٣ م) ، وقصد مدينة يابرة (Evora) ، فدخلها عنوة ، وقتل عددا كبيرا من رجالها ، وأسر كثيرا من نساءها وأطفالها ، واستشهد فى هذه الواقعة مروان بن عبد الملك عامل المدينة . وقيل انه لم تدر بالأندلس دائرة على الاسلام من قبل العدو أثنى من هذه الدائرة ولا أقطع .

وفى عام ٣٠٥ هـ (٩١٧ م) التحمت جيوش المسلمين ، بقيادة أحمد بن محمد بن أبى عبدة ، مع جيوش القشتاليين فى واقعة قرب « شنت » اشتب « انهزم فيها المسلمون ، واستشهد القائد وأحسن عبد الرحمن الناصر تطور الموقف الى جانب نصارى الشمال ، فقام بنفسه فى عام ٣٠٨ هـ (٩٢٠ م) على رأس جيش متجها الى جليقية ونبرة ، فهدم حصن قناشتر مورش ، وما والاه من المعقل والأبراج والبيع . وكان « أردون » ملك ليون وجليقية و « شانجة » ملك نبرة ، قد استنجدوا بمن جاورهما من ملوك المسيحية . فلما التقت الجيوش ، انتصر المسلمون انتصارا ساحقا ، وافتتحوا حصن مويش (Muez) ، وهدموه .

ولما مات « أردون » الثانى عام ٣١٢ هـ (٩٢٤ م) خلفه أخوه « فلوية » (فرويلة الثانى (Fruele II) ٩٢٤ - ٩٢٥ م ، ومات بعد عام واحد . فولى مكانه أخوه « اذفونش » (ألفونسو الرابع (Alfonso IV المعروف بألفونسو الراهب) ٩٢٥ - ٩٣١ م . وقد تنازل ألفونسو هذا لأخيه « ردميره » (راميرو الثانى (Ramiro II) ٩٣١ - ٩٥١ م . وكان « ردميره » ملكا شجاعا شديد الصلابة ، استمرت الحرب بينه وبين الناصر دائرة عهد طويلا . وكانت أهم المواقع التى حدثت بينهما موقعة الخندق الشهيرة (Alhandega) ، التى انهزم فيها الخليفة عبد الرحمن الناصر هزيمة شنعاء فى عام ٣٢٧ هـ (٩٣٨ م) قرب مدينة « شنت »

مانكش (Simancas) وفيها ألجأ الليونيون بقيادة ردميره ، والنافاريون — وعلى رأسهم الملكة « طوطة » (Dona Toda) — المسلمين الى خندق بعيد المهوى ، فتساقط فيه الجنود ، وقتل منهم عدد كبير • وانكشف معسكر الناصر فهاجمه « ردميره » ، فتقهقر الخليفة بعد أن فقد أغلبية جيشه •

ومنذ هذه الهزيمة ، لم يعد الناصر يباشر الغزو بنفسه ، وأخذ — بعد هذا الدرس القاسي — يحتاط في حروبه ، وسجلت له الوقائع التالية بينه وبين جيوش ليون ونبرة انتصارات هائلة ، اكتسح بعدها هاتين المملكتين ، حتى أذعن به أعداؤه بالطاعة ، وهادنوه ، وبعثوا اليه السفارات والهدايا طالبين الصلح ••• ففى عام ٣٤٤ هـ (٩٥٥ م) ، قدم اليه بقرطبة رسول الملك أردون بن ردميره ، يطلب السلم فعقد له •

• وفى عام ٣٤٧ هـ (٩٥٨ م) وفدت الملكة « طوطة » (Toda) وحفيدها الملك شانجة المعروف « بسانشو السمين (Sancho el Grueso) الى قرطبة ••• ذلك أن موت « ردميره » الثانى فى عام ٩٥١ م ، أحدث انقساماً كبيراً بين أبنائه ، وقام نزاع كبير حول العرش بين « أردون » الثالث ٩٥١ — ٩٥٦ م ، الذى خلف أباه ردميره ، وبين أخيه شانجة السمين ، وكانت تؤازره جدته الملكة طوطة وقومس قشتيلة فردلند (Fernan Gonzalez, Conde de Castilla)

• فلما مات أردون الثالث فى عام ٩٥٦ م ، تولى شانجة الأول (٩٥٦ — ٩٦٦ م) ، وسمى بالسمين لبدانته وسمنته المفرطة • ولكسن نبلاء ليون وقشتالة مالبثوا أن عزلوه عن عرشه ، وولوا عرش نبرة وليون مكانة (عام ٩٥٨) أردون الرابع ، المعروف بأوردينو الشرير لانحطاط خلقه • وقد أيدته قومس قشتيلة ، وزوجه ابنته أراكة (Urraca) أرملة أردون الثالث •

عبد الرحمن: الناصر

ولجأ شانجة السمين الى مدينة بنبلونة ليكون بجوار جدته الملكة طوطة ، وبعث الى الخليفة عبد الرحمن الناصر يطلب منه أن يرسل اليه طبيباً لمعالجته من سمته المفرطة ، فأرسل اليه الناصر طبيباً الخاص الذى نجح فى ازالة سمته الملك المخلوع . وكان لذلك أطيب الأثر فى نفس الملكة طوطة وحفيدها . فقدموا الى قرطبة ، على رأس سفارة كبرى، يلتمسان من الخليفة عبد الرحمن الناصر أن يساعد شانجة فى استرجاع عرشه .

وفى ذلك يقول المقرئ : « وكان غرسية بن شانجة حافداً لطوطة مائة البشكنس ، فامتعضت لحافدها غرسية ، ووفدت على الناصر سنة سبع وأربعين ، ملقية بنفسها فى عقد السلم لها ولولدها شانجة ابن ردمير الملك ، واعانة حافدها غرسية بن شانجة على ملكه ، ونصره من عدوه ... وجاء الملكان معها ، فاحتفل الناصر لقدمهم ، وعقد الصلح لشانجة وأمه » .

وأكرم الناصر وفادة الملكة وحفيدها ، وكان من نتائج هذه السفارة أن عقدت محالفة ، كسب الناصر من ورائها حصونا من مملكة شانجة ، مقابل مؤازرته لشانجة ، وعمله على استرجاع عرشه . ونفذ الناصر وعده ، فبعث جيشاً هائلاً استطاع أن يعيد به شانجة الى عرشه عام ٩٦٠ م ، فأرسل شانجة الى الناصر يشكره على ذلك . ولكن شانجة مالبث أن نكث بوعوده للناصر ، مما حمل الناصر ، وابنه الحكم المستنصر من بعده ، على محاربته . وقد أدى ذلك الى قيام النبلاء عليه فى جليقية، ونجح أحدهم — ويعرف بجونثالو — فى قتله بالسهم عام ٩٦٦ .

واشتدت الفوضى ، وشملت البلاد بعد وفاته ، وزاد الاضطراب بتولى راميرو الثالث ابن شانجة ، العرش بعد أبيه (٩٦٦ — ٩٨٢ م) ، وكان صبياً فى الخامسة من عمره . وسفرى أن الحكم المستنصر يتدخل لحل هذه الازمة ، كما تدخل أبوه الناصر من قبل .

وقدم الى الناصر بقرطبة سفراء ملك برشلونة وطركونة راغبين في عقد الصلح معه ، فأجابه الناصر • كذلك قدم اليه رسول من صاحب رومة يخطب مودته •

وأعظم السفارات التى تدل على ضخامة ملك الناصر ورفعة شأنه ، سفارة امبراطور بيزنطة ... فانه هاداه ، ورغب فى موادعته ، وذلك بأن أرسل اليه سفارة كبرى وصلت قرطبة فى صفر عام ٣٣٨ هـ (٩٤٩م) •

وفى هذه السفارة يقول المقرئ عن ابن حيان : « تأهب الناصر لورودهم ، وأمر أن يتلقوا أعظم تلق وأفخمه ، وأحسن قبول وأكرمه ، وأخرج الى لقائهم ببجاية يحيى بن محمد بن الليث وغيره لخدمة أسباب الطريق فلما صاروا بأقرب المحلات من قرطبة ، خرج الى لقائهم القواد فى العدد والعدة والتعبية ، فتلقوهم قائدا بعد قائد • وكمل اختصاصهم بعد ذلك بأن أخرج اليهم الفتيين الكبيرين الخصيين ياسرا وتاما ، ابلاغا فى الاحتفال بهم ، فلقياهم بعد القواد • فاستبان لهم بخروج الفتيين اليهم بسط الناصر واکرامه ... لأن الفتيان هم عظماء الدولة وأصحاب الخطوة مع الناصر وحرمه ، وبيدهم القصر السلطانى • وأنزلوا بمنية ولى العهد الحكم المنسوبة الى نصير بعدوة قرطبة فى الرىض ، ومنعوا من لقاء الخاصة والعامة جملة ، ومن ملابسة الناس طرا ، ورتب لحجابهم رجال تخيروا من الموالى ووجوه الحشم ، فصيروا على باب قصر هذه المنية ستة عشر رجلا لأربع دول ، لكل دولة أربعة منهم ... »

« ورحل الناصر لدين الله من قصر الزهراء الى قصر قرطبة ، لدخول وفود الروم عليه • فقعد لهم يوم السبت لاهدى عشرة ليلة خلت من ربيع الأول من السنة المذكورة ، فى بهو المجلس الزاهر ، قعودا حسنا نبلا • وقعد عن يمينه ولى العهد من بنيہ : الحكم ، ثم عبد الله ، ثم عبد العزيز ، ثم الاصبغ ثم مروان • وقعد عن يساره : المنذر ، ثم

عبد الجبار ، ثم سليمان • وتخلف عبد الملك لأنه كان عيلاً لم يطق الحضور • وحضر الوزراء على مراتبهم يميناً وشمالاً ، ووقف الحجاب من أهل الخدمة من أبناء الوزراء والموالي والوكلاء وغيرهم • وقد بسط صحن الدار أجمع بعثاق البسط وكرائم الدرائك ، وظللت أبواب الدار وحناياها بظلل الديباج ورفيع الستور • فوصل رسل ملك الروم حائرين مما رأوه من بهجة الملك وفخامة السلطان • ودفعوا كتاب ملكهم صاحب القسطنطينية العظمى : قسطنطين بن ليون • • • » •



وتوفي الناصر في عام ٣٥٠ هـ (٩٦١ م) ، بعد حكم طويل تجاوز الخمسين عاماً ، قضاه كله في جهاد متواصل وعمل مرير • • • حتى أنه وجد بخطه أن أيام السرور التي صفت له ، في هذه المدة الطويلة ، لم تتجاوز أربعة عشر يوماً •

وكان عصر عبد الرحمن الناصر عصر ازدهار في الحضارة الأندلسية، بل إنه العصر الذهبي الذي بلغت فيه الحضارة الإسلامية بالأندلس أوج عظمتها • • • كان الناصر عظيماً في سياسته : إذ عرف كيف يعيد الأندلس إلى سابق وحدتها ، فيقضي على التأثيرين بسياسة هي مزيج من اللين والعنف • وكان ماهراً في قيادته للجيش : إذ أنه جارب أعداءه من ملوك إسبانيا المسيحية بنفسه ، واستطاع أن يجعل منهم أتباعاً له يلتمسون عونه ونجده ، وتدخل في منازعاتهم الداخلية ، وأعاد بعضهم إلى عرشه • وكان قوياً في شخصيته ، إذ أمكنه أن ينقذ الأندلس من خطر الفاطميين ، بأن جعل للأندلس أسطولاً قوياً يدفع عنها الأعداء ، وأن يقيم لنفسه قاعدة في العدو تواجه الفاطميين في المغرب ، وأن يحول الامارة القرطبية إلى خلافة ليتسلح بلقب مهيب أمام شعبه وأمام أعدائه •

وكان الناصر محباً للفنون ، يدل على ذلك هدية الوزير أحمد بن

عبد الملك بن شهيد اليه ، وهى هدية عظيمة الشأن ، اتفق أنه لم يهاد
أحد من ملوك الأندلس بمثلها ، وتدل هذه الهدية على ضخامة الخلافة
الأموية وثراء الأندلس فى عهده .

وكان الناصر كلفا بالعمارة والبناء ، فقسم أموال جبايته ثلاثة
أقسام : قسم للجند والحروب ، وقسم للبنيان ، وقسم ينفق منه فى غير
هذين من المصالح ، ويخزن باقيه ذخيرة . فشيد المعازل والحصون ،
وأقام مدينة الزهراء ، وأضاف الى جامع قرطبة مؤذنته الشهيرة .

وفى أعماله المعمارية يقول وزيره عبيد الله ابن ادريس :

سيشهد ما شيدت انك لم تكن

مضيعة ، وقد مكنت للدين والدنيا

فبالجامع المعمور للعلم والتقى

وبالزهرة الزهراء للملك والعليا

وتشهد آثار الناصر فى قرطبة ، وآثار قصوره الضالدة بمدينة
الزهراء ، بما بلغت الحضارة الأندلسية من سمو وازدهار ، وتعبير أصدق
تعبير عن الناصر نفسه .

همم الملوك اذا أرادوا ذكرها

من بعدهم فبالسن البنيان

أو ما ترى الهرمين كم بقيا ، وكم

ملك محاه حوادث الأزمان ؟

ان البناء اذا تعاظم قدره

أضحى يدل على عظيم الشأن

الحكم المستنصر بالله

الحكم المستنصر بالله

(ولد عام ٣٠٢ ، ومات عام ٣٦٦ للهجرة)

هو أكبر أبناء الخليفة عبد الرحمن بن محمد الملقب بالناصر لدين
الله . ولد في غرة رجب سنة ٣٠٢ هـ وفي ولادته يقول الشاعر أحمد بن
محمد ابن عبد ربه مهنتاً :

هلال نماء المجد واختاره الفخر
تلقته به شمس وأنجبه بدر
على وجهه سيماء المكارم والعلی
فضاءت به الآمال وابتهج الشعر
سلالة أملاك ربيب خلائف
أكفهم بر ونائلهم غمر
بدا لصلاة الظهر نجم مكارم
تحف به العليا ويكنفه الفخر
فلا زال محفوفا بأكناف نعمة
يطير له ذكر ويسمو به قدر
هنيئاً أمام المسلمين عطية
حباك بها رب له الحمد والشكر

وكان أبوه قد عهد اليه بولاية الأمر من بعده وهو طفل لا يتجاوز
الثامنة من عمره ، بحيث لو هلك الناصر في ذلك الوقت لنصب الحكم
بعده حسبما اقتضاه ما أخذه على الناس من العهد بذلك ، واقتضاه من

الحكم المستنصر بالله

الأيمان المغلظة المحرجة ، شأن من يأخذ العهد لولده من الملوك • الا أن عمره امتد بعد ذلك الى سن الكهولة • فالحكم ممن بويح قبل الاحتلام من ملوك الاسلام •

وكان أبوه الناصر يشركه معه في القيام بكثير من أعباء الحكم ، فقد أخرجته معه في إحدى غزواته سنة ٣١٥ هـ وكان الحكم طفلاً لا يزيد عمره على الثالثة عشرة ، ثم قلده الاشراف على أعمال البناء بمدينة الزهراء عام ٣٢٥ هـ •

فلما مات الناصر في ٢ رمضان عام ٣٥٠ هـ بويح الحكم تجديدا لعهد في اليوم التالي ، أى في ٣ من رمضان سنة ٣٥٠ هـ ، وقام بأعباء الحزم خير قيام ، وأنفذ الكتب الى جميع أنحاء الأندلس بتمام الأمر له ، ودعا الناس الى بيعته واستقبل من يومه النظر في تمهيد سلطانه ، وثقيف مملكته وضبط قصوره ، وثرثيب أجناده • وأول من بايعه فتيان الصقالبة ، وعلى رأسهم جعفر صاحب الخيل والطراز ، ثم تبعهم الكتاب والوصفاء والمقدمون والعرفاء • فلما تمت بيعة أهل القصر له في مدينة الزهراء أقبل عليه اخوته ، فنزلوا في مراتبهم بفصلان القصر ، وجلسوا في المجلسين الشرقي والغربي •

وجلس المستنصر بالله على سرير الملك ، في البهو الأوسط من الأبهاء المذهبة القبلية ، في السطح المرد من قصر الزهراء ، فبايعه اخوته والتزموا الأيمان المنصوصه بكل ما انعقد فيها ، ثم بايعه بعدهم الوزراء وأبناؤهم وذوو قرابتهم ، ثم أصحاب الشرطة وطبقات أهل الخدمة ، وجلس اخوته ووزراؤه ووجوه دولته الى يمينه ويساره ، وظل وزيره عيسى بن فطيس قائماً يأخذ البيعة على الناس ، واصطف حولهم أكابر الفتیان الصقالبة حتى منتهى البهو ، وهم مرتدون الظواهر البيض شعار الحزن على وفاة الناصر ، قد تقلدوا فوقها السيوف ، وتلاههم الفتیان

الوصفاء عليهم الدروع السابغة والسيوف الحالية ، وقد وقفوا في صفين ،
وثأرهم في الفصائل الطبقات الدنيا من الصقالية بأيديهم السيوف أو
متنخبين القسى • واتصل بهم الجنود وعليهم الجواشن والأقبية البيضاء ،
وعلى رؤوسهم البيضات الصقلية ، وبأيديهم التراس الملونة والأسلحة
المزينة ••• كل هؤلاء في صفوف منتظمة حتى باب المدينة • فلما تمت
البيعة ، أذن الحكم للحاضرين بالانصراف ، ما عدا اخوته ووزراءه ،
فقد مكثوا في قصر الزهراء حتى حمل جسد الناصر الى قصر قرطبة
للدفن في مقبرة الخلفاء •

وأهدى الحكم يوم توليه الخلافة هدية ، ذكر ابن حيان منها : مائة
مملوك من الافرنج كاملة الشكة والأسلحة من السيوف والرماح والدرق
والتراس والقلائس ، وثلاثمائة ونيف وعشرون درعا مختلفة الأجناس ،
وثلاثمائة خوذة وغير ذلك من آلات الحرب والعدد •

وكان الحكم المستنصر بطبيعته رجلا سلم وعلم ، فكان حسن
السيرة جامعا للعلوم • محبا لها ، مكرما لأهلها ، جماعا للكتب في أنواعها
وأقام للعلم والعلماء سوقا نافقة جابت إليها بضائعه من كل قطر • فكان
يستجلب المصنفات والمؤلفات من الأقاليم والنواحي ، باذلا فيها ما أمكن
من الأموال حتى ضاقت عنها خزائنه • وكان ذا غرام بها ، قد أثر ذلك
على لذات الملوك ، فاستوسع علمه ، ودق نظره ، وجمت استفادته • وقال
عنه ابن الأبار : « كان في المعرفة بالرجال والأخبار والانساب أحوذيا
نسيج وحده ، وكان ثقة فيما ينقله » • وأضاف قائلا : « قلما يوجد
كتاب في خزائنه الا وله فيه قراءة أو نظر ، في أي فن كان ، ويكتب فيه
نسب المؤلف ومولده ووفاته ، ويأتى من بعد ذلك بغرائب لا تكاد توجد
الا عنده لعنايته بهذا الشأن » •

ومن أمثلة ولعه بالكتب أنه بعث يطلب كتاب الأغاني من مؤلفه أبي

الحكم المستنصر بالله

الفرج الأصفهاني ، وأرسل اليه فيه ألف دينار من الذهب العين ، وقد بعث أبيه أبو الفرج بنسجة منه قبل أن يخرج في العراق (١) . وكذلك فعل مع القاضي أبي بكر الأبهري المالكي في شرحه لمختصر ابن عبد الحكم . . وقيل انه جمع بداره الحذاق في صناعة النسخ والمهرة في الضبط والاجادة في التجليد . وفيه يقول ابن الخطيب في كتابه أعمال الأعلام : « وكان رحمه الله عالما فقيها بالمذاهب ، اماما في معرفة الأنساب ، حافظا للتاريخ ، جماعا للكتب ، مميذا للرجال من كل عالم وجيل ، وفي كل مصر وأوان ، تجرد لذلك وتهتم به ، فكان فيه حجة وقودة وأصلا يوقف عنده » .

واجتمعت بالأندلس في عصره خزائن من الكتب لم تكن لأحد من قبله ولا من بعده الا ما يذكر عن الناصر العباسي . ولم تنزل هذه الكتب بقصر قرطبة حتى أخرجهما الحاجب واضح من موالى المنصور بن أبي عامر ، وقيل أن اخراجها استلزم ستة أشهر . وذكر ابن حيان أن عدد الكتب التي كانت بمكتبته بلغ نحو ٤٠٠ ألف مجلد . وذكر ابن حزم أن عدد الفهارس التي كانت تضم أسماء كتبه بلغ أربعة وأربعين فهرسا ، في كل فهرس عشرون ورقة .

ومع ذلك كله فان اهتمام الحكم بكتبه ، وانصرافه الى علومه ، واستغراقه في دورسه ، لم ينسه ما كان يحيط بدولته من أخطار خارجية . فاننا نراه صلبا أمام الممالك المسيحية بشمال اسبانيا . فما كساد يتولى الخلافة حتى طمع الجلالة في الثغور ، ولكنه وقف منهم موقفا صارما . فقد كان الناصر قد ساعد قبل وفاته شانجة بن أردون الثالث على استرجاع عرشه سنة ٩٦٠ م ، واضطر منافسه أردون الرابع الى اللجوء الى استوريش ثم انتقل منها الى برغش . وفي ذلك الوقت هاجم

(١) ذكر ابن حيان أن ابا عثي الثغالي طرز باسم الحكم كتابه « الاماني » .

البشكنس فردلند (فرنان جنثالث) قومس قشتالة وأسروه • وكان شانجة قد وعد الناصر أن يتنازل له عن عشرة حصون من مملكته مقابل مؤازرته له ، ولكنه لم يوف بوعده بعد أن استعاد عرشه ونكث بعهده عندما تولى الحكم المستنصر •

كذلك كان الحكم يتوقع من غرسية ، ملك بنبلونة ، أن يسلمه قومس قشتالة الأسير ، غير أن غرسية وشانجة ظنا أن الخليفة الجديد ، باقباله على العلوم وعكوفه على الكتب ، كان رجلا مسالما غير ميال للحروب • فأفرج غرسية عن قومس قشتالة الذي أسرع الى برغش حيث اجتمع بأردون الرابع وأخذا يغيران بقواتهما على أراضى الاسلام •

عندئذ عزم الحكم على وضع حد لذلك ، فأمر بإرسال حملة لذلك الغرض في عام ٣٥١ هـ (٩٦٢ م) فخشى أردون الرابع أن تكون تلك الحملة سببا في القضاء عليه ، ففكر في مداينة الحكم والوفود الى قرطبة ليستنجد به على ابن عمه شانجة • فأسرع أردون الى مدينة سالم ، وهناك التمس من غالب الناصري قائد الحكم أن يسمح له بالذهاب الى قرطبة لمقابلة الحكم والاستعانة به •

فلما علم الحكم بذلك بعث في طلبه • وفي ذلك يقول ابن حيان :
« وفي آخر صفر من سنة احدى وخمسين ، أخرج الخليفة الحكم المستنصر بالله مولاييه محمدا وزيدا ابني أفلح الناصري بكتيبه من الحشم لتلقى غالب الناصري ، صاحب مدينة سالم ، المورد للطاغية أردون بن أذفنش الخبيث في الدولة ، الممتلك على طوائف من أهم الجلالقة ، والمنازع لابن عمه الملك قبله شانجة بن ردمير ، وتبرع هذا اللعين أردون بالمسير الى باب المستنصر من ذاته ، غير طالب اذن ولا مستظهر بعهده ، وذلك عندما بلغه اعتزلم الحكم المستنصر بالله في عامه ذلك على الغزو اليه ، وأخذه في التأهب له ••• فاحتال في تأميل المستنصر

الحكم المستنصر بالله

بالله والارتقاء عليه ، وخرج ، قبل أمان يعقد له أو ذمة تعصمه ، في عشرين رجلا من وجوه أصحابه ، تكتفهم غالب الناصري الذي خرجوا اليه ، فجاء به نحو مولاة الحكم ، وتلقاهم ابنا أفلح بالجيش المذكور فأنزلاهم ، ثم تحركا بهم ثانی يوم نزولهم الى قرطبة ، فأخرج المستنصر بالله اليهم هشاما المصحفي في جيش عظيم كامل التعبئة ، وتقدموا الى باب قرطبة ، فمروا بباب قصرها • فلما انتهى أردون الى ما بين باب السدة وباب الجنان سأل عن مكان رمس الناصر لدين الله ، فأشير الى ما يوازي موضعه من داخل القصر في الروضة ، فخلع قلنسوته ، وخضع نجو مكان القبر ودعا ، ثم رد قلنسوته الى رأسه • وأمر المستنصر بانزال أردون في دار الناعورة ، وقد كان تقدم في فرشها بضروب الغطاء والوطاء ، وانتهى من ذلك الى الغاية وتوسع له في الكرامة ولأصحابه •

وأذن الحكم له بالمثل بين يديه في مدينة الزهراء ، واحتفل بذلك اليوم أجل احتفال ، ثم استدعى مترجمه وليد بن حيزون قاضي الناصري بقرطبة ، ليقوم بالترجمة بين الحكم وأردون • ووعد الحكم بمساعدته واعادته الى عرشه الذي اغتصبه شانجة الأول مقابل تعهده له بالمحافظة على علاقات المودة بينهما ، وعاقده على موالاة الاسلام ومقاطعة فردلند القومس ، وعدم التضامن معه ضد الاسلام • واثباتا لحسن نيته رهن ولده غرسية عند الحكم ، وانصرف معه وجوه نصارى الذمة ، وهم وليد بن حيزون وأصبغ بن عبد الله بن نبيل وأسقف اشبيلية عبيد الله بن قاسم ، ليوطدوا له الطاعة رعيته ، ويتسلموا رهنه •

فلما علم ابن عمه شانجة بن رذمير بذلك خاف على ملكه ، وبادر بارسال سفارة الى الخليفة • فبعث ببيعته وطاعته مع قوامس أهل جليقية وسمورة وأساقفتهم ، يرغب في قبوله ، ويعاهده أن ينفذ اتفاقيته مع أبيه الناصر •

ويرى ليفى بروفنسال أن قرطبة تحولت فجأة ضد أردون الرابع، فلم تحفل بوجوده • ويرجح أنه لم يرحل قط عنها ، بل انه مات موته يكتنفها الغموض في نهاية سنة ٩٦٢ م • وقد بدد موته المبكر مخاوف ملك ليون ، فوجد في ذلك فرصة للتراجع والنكت بوعده للحكم ، فبادر بعقد حلف مع قومس قشتالة وملك نابارة وقومس برشونة وبوريل وميرون • فلم يجد الحكم بدا من اعلان الحرب على شانجة ، بعد أن شاهد بنفسه مدى نكته بوعده وتحالفه مع ملوك المسيحية ضده وصمم على منازلة كل منهم على حدة • وخرج بنفسه غازيا ، في صيف سنة ٣٥٢ هـ (٩٦٣ م) ، وقصد بادىء ذي بدء مهاجمة قشتالة • غير أن معلوماتنا عن هذه الصائفة قليلة للغاية ، ولانعرف أكثر من أنه اقتحم بلاد فردلند بن غند شلب (فرنان جنثالث) ، فنازل شنت اشتبين دى غراماج الواقعة على نهر دويرة ، وافتتحها عنوة واستباحها فبادر فردلند الى عقد السلم معه • غير أن فردلند ما لبث أن نقض هذا الصلح ، فبعث الحكم مولاه غالبا لغزو بلاد جليقية ، فهزم فردلند ، واستباح بلاده •

وكان غرسية ملك البشكنس قد انتقض على الحكم ، فأغراه الحكم حاكمه على سرقسطة يحيى بن محمد التجيبى فهزمه • ثم أغزى الحكم أحمد بن يعلى ويحيى بن محمد التجيبى الى بلاد برشلونة فعاشت جيوشه في نواحيها • ثم أغزى هذيل بن هاشم ومولاه غالبا الى بلاد القومس فردلند ، فعاثا فيها وقفلا • وعظمت فتوحات الحكم وقواد الثغور في كل ناحية • وكان من أعظمها فتح قلهرة من بلاد البشكنس على يدى غالب ، فعمرها الحكم •

وفي سنة ٣٥٤ هـ (٩٦٥ م) ، سار غالب الى بلدة البة • ومعه يحيى بن محمد التجيبى ، وقاسم ابن مطرف بن ذى النون ، فابتنى حصن غراماج ودوخ بلادهم • وهكذا كان للتفوق الحربى لجيش الحكم أثره

الحكم المستنصر بالله

الكبير في إعادة الأمن الى ثغور الأندلس بعد مضي سنوات قليلة من تولية الخلافة .

وحالفه الحظ اذ توفي شانجة الاول سنة ٩٦٦ م مسموما ، سمه القومس جنثالو ، فخلفه ابنه ردمير الثالث ٩٦٦ — ٩٨٢ م . وكان لايتجاوز الخامسة من عمره ، فتولت عمته دينا البيرة الوصاية عليه . وكان تولى هذا الملك الصغير سببا في انتشار الفوضى ، وخروج كثير من الأمراء عليه . وانقسمت مملكة ليون الى امارات صغيرة أخذ كل أمير من أمرائها يتوجه الى قرطبة للاستعانة بخليفتها ضد خصومة (١) . وتوالى السفارات المسيحية على بلاط الحكم المستنصر منذ سنة ٩٦٦ م وفي سنة ٩٧٠ توفي قومس قشتالة ، وتبعه غرسية ملك نابارة والبشكنس في السنة نفسها .

لم يقتصر نشاط الحكم السياسي والحربي على هذا الحد ، بل تجاوزه الى الجنوب حيث قامت دولة فتية أخذت تناوىء الدولة الأموية في الأندلس هي الدولة الفاطمية . وكان الناصر قد بث الفتن بين قبائل البربر حتى يتمكن من مواجهة الفاطميين ، كذلك استطاع أن يكتسب اليه قبيلة زناتة ، ويضم الى أملاكه معبرى الأندلس : سبتة وطنجة . فلما تولى الحكم المستنصر الخلافة سار على سياسة أبيه في مصانعة بربر العدو ، مودهم بالأموال . وتلقى دعوتهم ملوك زناتة من مغراوة ومكناسة ، فبثوها في أعمالهم ، وخطبوا بها على منابرهم ، وزاحموا بها دعوة الشيعة فيما بينهم ، ووفد عليه كثير من زعماء زناتة الى الأندلس فأكرم وفادتهم .

(١) من بين هذه السفارات : سفارة غرسية بن شانجة ملك البشكنس التي تمثلت في جماعة من الاساقفة والقوامس يسألون الصلح ، ووفود أم لاذريق بن بلاشك القومس .

وفي سنة ٣٦٣ هـ (٩٧٤ م) ، وطئت جيوشه أرض العدو ، واستطاع غالب أن يفتتح مدينة البصره من أحواز آصिला ، وأن يقضى على دولة الأدارسة الذين طمعوا في الاستقلال بفاس ، بعد انتقال الفاطميين الى مصر *** قضى غالب على دولتهم ، واستنزلهم من ملكهم ، وأجازهم الى قرطبة .

وظهر في عهد الحكم خطر آخر من جهة البحر ، هو خطر غارات النورمانديين على سواحل الأندلس . ونزل النورمانديون بالمرية ، وحاصروا حصن القبضة من حصونها ، فزحف اليهم الحكم وأوقع بهم . كما ظهر فريق آخر منهم من جهة الغرب ، قدموا من البحر الكبير (المحيط الأطلسي) ، واحتلوا بسائط أشبونة . فناشبههم الناس القتال ، وألزموهم الرجوع الى مراكبهم . فأمر الحكم قواده بحراسة السواحل ، كما أمر قائد البحر عبد الرحمن بن رماحس بتعجيل حركة الأسطول لمطاردة النورمانديين . وقيل ان عدد مراكب أسطوله بلغ ستمائة جفن من غزوى وغيره .

وكان نصيب الفن والبناء من اهتمام الحكم المستنصر أعظم من نصيب الكتب والأدب . فقد بلغ الفن الأموى في عصره ذروة نضوجه وبهائه ، كما بلغت العمارة درجة سامية من الكمال ، وظهرت فيها ابتكارات معمارية كان لها أثر كبير في فنون العمارة المسيحية بإسبانيا وفرنسا *** اذ نجح مهندسو الحكم في ابتداع نوع جديد من القباب القائمة على الضلوع البارزة المتقاطعة فيما بينها . وقد نقل المهندسون الفرنسيون هذه الفكرة ، وطبقوها على قبواتهم ، فنشأت القبوات القوطية الفرنسية التي أحدثت ثورة كبرى في تاريخ العمارة الأوروبية ، وما زالت زيادة الحكم بجامع قرطبة وآثار قصوره بمدينة الزهراء تشهد بعظمة الزخرفة وروعة البناء ، وتقطع في صورة لا تقبل الشك بما كانت تنعم به الأندلس في أيامه من ثراء ورخاء .

الحكم المستنصر بالله

وما زال اسم الحكم المستنصر منقوشا على الكسوة الرخامية
بمحراب جامع قرطبة ، وتقرأ في هذا النقش « بسم الله الرحمن
الرحيم ... حافظوا على الصلوات والصلوة الوسطى وقوموا لله
قانتين . أمر الامام المستنصر بالله عبد الله الحكم أمير المؤمنين ، أصلحه
الله ، بعد عون الله فيما شيده من هذا المحراب ، بكسوته بالرخام رغبة
في جزيل الثواب وكريم المآب ... » ونطالع اسمه منقوشا على منكبى
المحراب ، ونقرأ منقوشا في الفسيفاء بقاعدة القبة الكبرى . ونقرأ
منقوشا على فتحة الباب الجانبي المجاوز للمحراب بمناسبة اقامته
للمشروع المؤدى الى مصلاه ، ونقرأ في عقد المحراب مسجلا تنزيله
للفسيفاء .

وكان الحكم ، بالاضافة الى اهتمامه بالفنون والعمارة ، شاعرا
يجيد النظم فمن قوله :

الى الله أشكو من شمائل مسرف
على ظلوم لا يدين بما دنت
نأت عنه دارى فاستزاد صدوده
وانى على وجدى القديم كما كنت
ولو كنت أدري أن شوقى بالغ
من الوجد ما بلغت لم أكن بنت

ومرض الحكم المستنصر في أواخر أيامه مرضا شديدا ، وأصيب
بالفالج فلزم الفراش ، وتوفى بقصر قرطبة في ٢ من صفر سنة ٣٦٦ هـ
(٩٧٦ م) .

السلطان أبو عبد الله

(ولد عام ٨٨٧ ، وتوفي عام ٨٩٨ للهجرة)

تاريخ حياة السلطان أبي عبد الله محمد بن أبي الحسن على ، هو تاريخ الاسلام في الأندلس في دور الاحتضار ، أو تاريخ بناء شامخ قدم عليه العهد ثم سقطت آخر دعامة من دعائمه وشرع في الانهيار . وهو تاريخ يثير الحزن والأسى في نفس كل عربى .

لقد كانت شمس الأندلس تتحدر رويدا رويدا نحو مقرها الأخير بعد وفاة محمد الخامس الغنى بالله سنة ١٣٩١ م . وآن لأشعتها الباهتة

أن تذوب في أفق أدمته ضربات الاسبان المتتالية ، ومزقته الفتن الرهيبة بين أفراد بيت السلطنة ، وطعناته الحروب الأهلية والثورات الداخلية تأييدا لأحد السلاطين على الآخر . . . في الوقت الذى اتحدث فيه مملكتنا قشتالة وأرغون بعد زواج فرناندو الرابع بايزابيلا أخت هنرى الرابع ملك قشتالة .

بدأ هذا البناء الضخم في الانهيار ، في عهد أبي الحسن على بن سعد بن اسماعيل بن نصر الذى وثب على السلطنة في أغسطس سنة ١٤٦٤ ، بعد أن تأمر على أبيه وخلعه بمساعدة بنى سراج . وكان أبو الحسن رجلا لاهيا ، أقبل على الترف ، واستغرق — خاصة في أواخر أيامه — في حياة اللذة واللهو . وفيه يقول المقرئ : « وكان صاحب غرناطة السلطان أبو الحسن قد استقرسل في اللذات ، وركن الى الراحة ، وأضاع الأجناد ، وأسند الأمر الى بعض وزرائه ، واحتجب عن الناس ، ورفض الجهاد والنظر في الملك ، ليقتضى الله تعالى ما شاء » .

وكان أبو الحسن متعسفا ، أساء الى أهل مملكته وقادته ، وكثرت المظالم والمغارم على يديه . فأنكر الخاصة والعامة منه ذلك ، واستاءوا

السلطان أبو عبد الله

من تصرفاته ، وقتل عددا من قواده مما أثار عليه أخاه أبا عبد الله محمد المعروف بالزغل الذي انتزى عليه بمالقة ، واستقل بهذه المدينة وما يحيط بها من مدن صغيرة . كما أثار عليه أهل غرناطة بسبب استسلامه لزوجته المسيحية ثريا الرومية ، المعروفة في المدونات الاسبانية باسم زريدة .

وآثر أبو الحسن أن يصلح أعداءه القشتاليين حتى يتفرغ لشئون دولته ، وتم عقد معاهدة صلح في يناير سنة ١٤٧٨ أثناء إقامة الملكين الكاثوليكين في اشبيلية . وقد نشر المؤرخ الاسباني خوان ماتا كاريثو نص هذه المعاهدة (في مجلة Al-Andalus المجلد التاسع عشر ، العدد الثاني ص ٣٦٥ - ٣٦٧) .

وكان السلطان أبو الحسن قد تزوج منذ اعتقاله سلطنة غرناطة بالأميرة فاطمة ، ابنة السلطان أبي عبد الله محمد الأعسر بن السلطان نصر وابنه السلطنة زهر الرياض بنت القائد أبي السرور مفرج (١) ، وهي المعروفة بفاطمة الحرة سلطنة غرناطة التي أصبح اسمها يمثل أحد الموضوعات القصصية العالمية منذ القرن السادس عشر حتى وقتنا هذا . ورزق منها مولاي أبو الحسن بولدين أكبرهما أبو عبد الله محمد

(١) كان الرأي القديم السائد لدى المؤرخين هو ان زوجة أبي الحسن وأم أبي عبد الله محمد هي عائشة الحرة ، ابنة السلطان أبي عبد الله محمد الأيسر بن يوسف ، حتى نشر المؤرخ الاسباني المعاصر دون لويس سكو دي لويثينا مقالا بحث فيه عن السلطنة أم أبي عبد الله (ظهر هذا المقال في مجلة (Al Andalus) سنة ١٩٤٧ العدد الثاني صفحة ٣٥٩ - ٣٩١) . واعتد فيه على وثيقتين عربيتين نصتا على أن سلطنة غرناطة سنة ١٤٩٤ كانت تعرف باسم فاطمة الحرة .

ويؤكد دون لويس سكو ان هذا الاسم ينطبق بلا شك على أم السلطان أبي عبد الله آخر ملوك غرناطة ، ولا ينطبق على زوجته لان زوجته التي كانت تعرف باسم مريم ، حسب إحدى الروايات ، وأم الفتح حسب رواية أخرى - كانت قد توفيت في أغسطس ١٤٩٣ . أما عائشة الحرة التي ذكرها المؤرخون فهو اسم أخت السلطان أبي عبد الله واسم أخت فاطمة الحرة ابنتي أبي عبد الله محمد بن نصر .

والأصغر أبو الحجاج يوسف ، كما أنجب منها بنتا واحدة هي الأميرة حائشة •

وكان من الطبيعي أن ينصب أبو عبد الله محمد وليا للعهد سلطنة غرناطة ، لولا أن أحب أبو الحسن فتاة مسيحية بارعة اسمها ايزابيل دى سوليس ، كان قد أسرها في إحدى معاركه ، وألحقها في قصر حريمه • فلما اعتنقت الاسلام تسمت بثريا ، وعرفت في المصادر العربية بثريا الرومية ، ثم وقعت ثريا موقعا حسنا لدى السلطان أبي الحسن فتزوجها ، وأثرها على زوجته فاطمة التي عرفت منذ ذلك الحين بالحرّة ، باعتبارها الزوجة الشرعية التي أنجبت ولي العهد •

وأنجبت له ثريا ولدين : هما سعد ونصر ، ونالت لدى السلطان حظوة خبرى ، وأصبح لها المكان الأول عند السلطان لجمالها ونضارة متبابها وفتنتها ، وما لبثت أن سيطرت عليه سيطرة تامة • ووقع السلطان - وكان شيخا - تحت إرادتها ، وأسلم لها كل أموره ، وأصبح أداة سهلة بين يديها • وهكذا استأثرت ثريا بالسلطان ، فأخذت تعمل على استغلال ما أصابته من نفوذ وحظوة في النيل من غريمها فاطمة الحرّة ، وأخذت تبذل كل جهودها في سبيل إقصائها هي ولديها ، حتى يمكنها بعد ذلك أن تحول ولاية العهد من أبي عبد الله إلى أحد ولديها سعد ونصر • وخضع السلطان لأغرائها وسحر جمالها ، فأقصى فاطمة الحرّة سلبية سلاطين غرناطة وابنيها عنه ، وحرّمهم من عطفه ورعايته •

ولم تكتف ثريا بذلك ، بل أمعنت في الكيد للزوجة المنكوبة ، وما زالت بالسلطان تغريه بكافة الطرق والوسائل حتى أمر بحبس السلطانية فاطمة بولديها في أحد أبراج قصر الحمراء • وكان هذا العمل الأخرق من جانب السلطان كفيلا بإغصاب كبار رجال الدولة ممن يؤيدون ولي العهد وأمه ، وعلى رأسهم بنو سراج • ويذكر المقرئ ميل الناس إلى

أولاد الحرة بقوله : « وكان قد اصطفى على أمهما رومية كان لها منه بعض ذرية ، وكانت حظية عنده مقدمة في كل قضية ، فخير أن يقدم أولاد الرومية على أولاد بنت عمه السنية ، وحدث بين خدام الدولة التنافر والتعصب ليل بعضهم الى أولاد الحرة ، وبعضهم الى أولاد الرومية » .

واستمرت ثريا في طغيانها واستبدادها ، وأصبح السلطان الشيخ العوبة سهل بين يديها تفعل به كما تشاء ، فخرضته على الفتك بولديه . وكان السلطان غائبا عن قصره في إحدى غزواته ضد القشتاليين حين دبر بنو سراج لفاطمة الحرة ولولديها سبيل الفرار من أسرهم في يوليو سنة ١٤٨٣ . ويذكر هرناندو البياس أنهم تدلوا من إحدى نوافذ البرج ، وهبطوا الى الأرض مستعينين ببعض الأغصان والكسوات ، وزودهم المتآمرون بالسلاح اللازم .

ويقول المقرئ بهذه المناسبة : « وفي السابع والعشرين من جمادى الأولى ، هرب الأميران أبو عبد الله محمد وأبو الحجاج يوسف خوفا من أبيهما أن يفتك بهما بإشارة حظيته الرومية ثريا ، واستقرا بوادي آش وقامت بدعوتهم أما الأمير أبو الحجاج يوسف فقد دس له أبوه من قتله في المرية ، وأما أبو عبد الله محمد فقد نجح في الفرار في وادي آش » .

كان أبو عبد الله محمد لا يتجاوز العشرين عاما ، حين أعلن الثورة على أبيه في وادي آش ، وبايعته المرية وبسطة وقرنطة ، واجتمع لديه الأنصار والمؤيدون من سائر مملكة قرنطة ، وانضم اليه أكثر أهلها فما كاد السلطان أبو الحسن يعود من حملته مظفرا ، حتى كانت الثورة ضده قد اشتعلت في قرنطة ، ففر الى مالقة التي كان يحكمها أخوه أبو عبد الله محمد الزغل . ونصب أهل قرنطة ابنه أبا عبد الله محمد سلطانا مكان أبيه في أواخر سنة ١٤٨٣ .

وانتهز الملك الكاثوليكيان فرصة انقسام مملكة غرناطة على نفسها وشننا هجوما عنيفا على قرى مالقة وبلش في جيش تبلغ عدته نحو ثمانية آلاف جندي ، على رأسه صاحب اشبيلية وشريش وصاحب استجة وصاحب أنتفيرة . واشتبك الجيش الاسلامي ، وعلى رأسه الأمير أبو عبد الله الزغل ، مع جيش قشتالة ، ونجح الزغل في هزيمة القشتاليين في مارس سنة ١٤٨٣ ، وتعرف هذه الموقعة التي انتصر فيها المسلمون بالشرقية لوقوع مكانها الى الشرق من مالقة ، « وقتل من النصارى في هذه الموقعة نحو ثلاثة آلاف ، وأسر نحو ألفين من الأكابر ، وغنم المسلمون غنيمة وافرة من الأنفس والأموال والعدة والذهب والفضة » .

ولما سمع السلطان أبو عبد الله ، صاحب غرناطة ، بأن عمه بمالقة قد تغلب على القشتاليين ، أراد أن يثبت شجاعته هو الآخر وينال نصيبه من شرف الانتصار ، فخرج على رأس جيش مؤلف من أهل غرناطة والشرقية ، في ابريل سنة ١٤٨٣ الى أن بلغ نواحي لشانة (Lucena) ، وحاز بعض الانتصارات على القوات القشتالية . غير أنهم ما لبثوا أن تجمعوا عليه من سائر النواحي ، وقطعوا عليه خط الرجعة ، وحالوا بين المسلمين وبلادهم في جبال وأوعار . فانكسر جيش المسلمين وأسر منهم عدد كبير ، وكان في جملة الأسرى السلطان نفسه « فلما علم به صاحب لشانة ، أراد صاحب قبيرة أن يأخذه منه فهرب به ليلا وبلغه الى صاحب قشتالة » . وقاده القائد الكونت دي قبره ذليلا يرسف في الأغلال والقيود الى أحد الحصون حيث أقيمت عليه الحراسة الشديدة . وأبلغ النبأ الى الملك الكاثوليكيين فاغتبوا بأسره أشد الاغتيال ، وأنعموا على الكونت دي قبيرة ، وفكروا في الاستفادة من أسره .

وعادت فلول جيش أبي عبد الله الى غرناطة وقد نكست ما تبقى لديها من أعلام لم تسلب ، وساد الحزن أهل غرناطة ، وعقد رؤساء المدينة وكبار قادتها اجتماعا كبيرا ، وقرروا استدعاء السلطان المخلوع

السلطان أبو عبد الله

أبى الحسن ليتولى السلطنة ، وأرسلوا وفدا لذلك الغرض ، وأتى الوفد به الى غرناطة ، وبايعوه رغم ما أصابه من المرض والصراع الى أن ذهب بصره ، ولم يطل العهد بأبى الحسن فقد تعذر عليه القيام بأعباء الحكم ، فتنازل لأخيه أبى عبد الله ، وعاد هو الى المنكب ليقضى فيها أيامه الأخيرة حتى مات سنة ١٤٨٥ •

وفي تلك الأثناء أخذ جيش قشتالة يجرد مملكة غرناطة من حصونها الكبرى واحدا تلو الآخر ، حتى يخلو أمامه الطريق الى العاصمة ، فزحف الى رندة وحاصرها وقذفها بالأنفاس • وأمام هذا السلاح الجديد لم تقو حامية المدينة على الدفاع عنها ، فاستسلمت المدينة في ابريل سنة ١٤٨٥ ، وتبع ذلك سقوط عدد كبير من القلاع والحصون الواقعة حول رندة • وتأهب الملكان الكاثوليكيان للانقضاض على مالقة ، ولكنهما كانا ينتظران الفرصة المواتية لتسديد الضربة التالية •

وفي الاستيلاء على رندة يقول المقرئ : « وفي شهر ربيع الآخر من سنة تسعين وثمانمائة خرج العدو في قوة الى نواحي مالقة ، بعد أن كان في السنة قبلها استولى على حصون ، فاستولى هذه السنة على بعض الحصون ، وقصد ذكوان فهد أسوارها ، وكان بها جملة من أهل الغربية ورندة • ودخل ألف مدرع ذكوان عنوة ، فأظفر الله بهم أهل ذكوان فقتلواهم جميعا ، ثم طلبوا الأمان وخرجوا • ثم انتقل في جمادى الأولى الى رندة وحاصرها ، وكان أهلها خرجوا الى نصرة ذكوان وسواها ، فحاصر رندة ، وهه أسوارها وخرج أهلها على الأمان ، وطاعت له جميع تلك البلاد ، ولم يبق بغربى مالقة الا من دخل في طاعة الكافر وتحت ذمته ، وضيق بمالقة وفرق جيشه على بعض الحصون ليحاصروا مالقة » •

وحدث أن قامت فتنة في غرناطة أذكاه فريق من أنصار السلطان الأسير ، واشتغل الزغل بأخماد هذه الفتنة • وهنا أطلق فرناندو سراح

أبى عبد الله محمد ، وعقد معه معاهدة لمدة عامين اشترط فيها فرناندو أن يتعهد السلطان بالدخول في طاعته ، وأن يقدم اليه جزية سنوية مقابل أن يمدد فرناندو اذا شاء بالسلاح والمال والرجال . وفي ذلك تقول الرواية العربية : « فبعث الى السلطان أبى عبد الله الذى تحت أسرهم ، وكساه ووعده بكل ما يتمناه ، وصرفه لشرقى بسطة وأعطاه المال والرجال ، ووعده أن من دخل تحت حكمه من المسلمين ، وبأيعه من أهل البلاد ، فانه في الهدنة والصلح والعهد والميثاق الواقع بين السلاطين ... »

وهكذا عاد السلطان الأسير الى منطقة الشرقية يدعو لنفسه ضد عمه الزغل ، ويطلب من المسلمين الدخول في طاعته فيؤمنهم من الأعداء ، وخرج لبلش فأطاعه أهلها ودخلت بلش في طاعته ، ونودى في الأسواق ، « وصرخت به في تلك البلاد الشياطين ، وسرى هذا الأمر حتى بلغ أرض البيازين من غرناطة ، وكانوا من التعصب وحمية الجاهلية والجهل بالمقام الذى لا يخفى ، وتبعهم بعض المفسدين المحبين تفريق كلمة المسلمين . وممن مال الى الصلح عامة غرناطة لضعف الدولة . ووسوس للناس شياطين الفتنة وسماستها بتقبيح وتحسين ، الى أن قام ربض البيازين بدعوة السلطان الذى كان مأسورا عند المشركين ، ووقعت فتنة عظيمة في غرناطة نفسها بين المسلمين لما أراد الله تعالى من استيلاء العدو على تلك الأقطار » .

وفي هذه الأثناء هاجم القشتاليون مدينة لوشة ، وكان فيها السلطان أبو عبد الله ، وضيق جيش قشتالة الحصار عليها ، فلم يجد أهل لوشة بدا من طلب الأمان في أموالهم وأنفسهم وأرواحهم ، فوفى لهم فرناندو بذلك ودخل المدينة في مايو سنة ١٤٨٦ وقيل ان السلطان بقى بعد سقوط المدينة ، فاشاع عند أهل غرناطة وقتئذ « أنه ما جاء للوشة الا ليدخل اليها العدو الكافر ، ويجعلها فداء له » وقيل انه سرح له حينئذ ابنه اذ كان رهونا للفداء ... » .

السلطان أبو عبد الله

واستتبع سقوط لوثة في أيدي القشتاليين سقوط عدة حصون ،
فاستولى القشتاليون على حصن البيرة على مقربة من مالقة وخرج أهلها
الى غرناطة ، ثم سقط حصن مكين وحصن قلنبيرة دون قتال ، والتجأ أهله
الى غرناطة ثم استقر تقدم القشتاليين في هذه المنطقة ، فاستولوا على
منتفريو ورموها بالحرقات وغيرها ، فطلب أهلها الأمان والتجأوا الى
غرناطة ، وأخذ العدو يلتهم سائر الحصون المجاورة فاستولى على المصخرة ،
وحصن هذه القلاع جميعا وحشد فيها رجاله وأعد العدة لمحاصرة غرناطة .

وشغل السلطان الزغل باخماد فتنة غرناطة عن الدفاع عن مدنه ،
ثم ظهر أبو عبد الله فجأة في البيازين ، فزادت النار اشتعالا ، وانقسمت
غرناطة الى فريقين : فريق يؤيد الزغل ، وعلى رأسه أهل غرناطة نفسها ،
وفريق يؤيد أبا عبد الله محمد وعلى رأسه أهل البيازين (١) . واشتد
أمر الفتنة ، وحين تأهب الزغل لآخمادها جاءت الأنباء بمحاصرة جيش
مرناندو لمدينة بلش — حصن مالقة الأيمن — في مارس سنة ١٤٨٧ .

وأدرك الزغل خطورة الموقف وأشار عليه أنصاره بالمسير لاغاثة
بلش ، فأسرع اليها محاولا انقاذها ، وانتهاز أبو عبد الله فرصة رحيل
عمه ، واستولى على زمام الأمور في غرناطة مكانة ، أما الزغل فقد انضم
مع بعض رجاله من البشرات ووصل بلش ، فوجد الأعداء محاصرين
أبا برا وبحرا ، واستمات أهلها في الدفاع عنها ولكن ذلك لم يغير من

(١) يقول المقرئ : « فأتى على حين غفلة ، ولم يكن يظن بنفسه ، فأتى
البيازين ودخلها ونادى في أسواقها بالصلح التام الصحيح ، فلم يقبل
ذلك منه أهل غرناطة ، وقالوا : ما يعهد لوثة من قديم . ودخل ربح
البيازين بالرجال سادس شوال سنة إحدى وتسعين وثمانمائة ، وعمه
بالحمراء ، وانتقل للقلعة ، واشتد أمر الفتنة . ثم أن صاحب قشتالة
أمد صاحب البيازين بالرجال والعدة والمال والقمح والبارود وغيرها ،
واشتد أمره بذلك ، وعظمت أسباب الفتنة ، وفشا في الناس القتل
والنهب » .

مسيرها المحتوم فسقطت في ابريل سنة ١٤٨٧ ، وفر الزغل مع من بقى من رجاله عائدا الى غرناطة ، ولكنه علم باغتيال ابن أخيه للسلطنة ، فلاذ بوادي آس وامتنع فيها بقواته ، وانصوى تحت لوائه بعض المدن الشرقية والجنوبية . وهكذا انقسم ما يمكن أن نسميه بمملكة غرناطة الى شطرين متنازعين مما هيا المجال لسيادة القشتاليين .

ورأى ملك قشتالة أنه لابد أن يسدد ضربته القالية الى اقليم وادي آس ومالقة حتى يتفرغ بعد ذلك لمواجهة تابعه أبى عبد الله محمد ، فزحف الى مالقة وحاصرها برا وبحرا ، وقاتله أهلها قتالا عظيما بمدافعهم وعدتهم وخيلهم ورجالهم ، وطال الحصار عليها حتى أدار القشتاليون على مالقة من البر الخنادق ، والصور والأجفان من البحر ، ومنعوا الداخل اليها ، وقربوا المدافع ودخلوا الأرباض ، وضيقوا على السكان الحصار حتى فنى ما عندهم من الطعام ، فأكلوا المواشى والخيل والحمر ، وبعثوا يستجدون بملوك المغرب وسلطين مصر والقسطنطينية (١) .

وأرسلوا آخر صيحة للاستغاثة الى السلطان الأشرف قايتباي ممثلة في سفارة أندلسية وصلت مصر في نوفمبر سنة ١٤٨٧ ، ولكن السلطان لم يفعل أكثر من إرساله سفارة مصرية الى البابا والملكين الكاثوليكين يطلب منهم الكف عن الاعتداء على المسلمين ، والرحيل عن أراضيهم والا فسيضطر الى التتكيل برعايا المسيحيين في بيت المقدس .

ولما وصلت السفارة المصرية الى فرناندو في سنة ١٤٨٩ كانت مالقة قد سقطت منذ عامين (في أواخر شعبان سنة ٨٩٢ هـ - أغسطس سنة ١٤٨٧ م) ، كما سقط غيرها من المدن مثل بلش والشرقية .

وكان فرناندو ، وقت وصول السفارة المصرية ، يحاصر مدينة

(١) قول المشرى في ذلك : « وبعثوا اكتب لاعدوتين — وهم طامعون في الاغائة — فلم يأت اليهم أحد » .

السلطان أبو عبد الله

بسطة ، ويقذفها بالمدافع والآلات من الأسوار • واستقبل فرناندو أعضاء السفارة في حفاوة بالغة ، وكتب الى السلطان قايتباي : « أنه لا يفرق بين معاملة الرعايا المسلمين والمسيحيين ، وأن عمله هو استرداد أرض أجداده من الغرباء » •

ويغلب على الظن أن سلطان مصر قنع بهذا الجواب بعض الوقت ، ولم يقدم على أية خطوة حاسمة في سبيل انقاذ غرناطة لانشغاله بشئون مصر الداخلية • وقد أرسل الملك الكاثوليكيان الى سلطان مصر سفارة سنة ١٥٠٢ لمراضاته ، وكان سفيرهما عليها « بدرو مارتير دى انجليريا »

وما كاد جيش قشتالة يستولى على مالقة حتى أخذ يضم ما حولها من حصون استعدادا لالتهايم المرية والمنكب ، وهما الثغران الكبيران الباقيان في حوزة المسلمين ، وكانا حلقة لاتصال بين الأندلس وبلاد المغرب التي كانت تبث مجاهديها اليه لانقاذه • وما لبث فرناندو أن تقدم بجيوشه الى المنكب فسقطت في يده سنة ١٤٨٩ ثم تبعتها المرية في فبراير سنة ١٤٩٠ • وهكذا انكسر الجسر الذي كان يعبره الغزاة والمجاهدون من المغرب الى الأندلس ، وأحدثت قشتالة بغيرناطة من سائر الجهات كما يحدث بالريوة السيل • وكانت بسطة قد سقطت في يده في ديسمبر سنة ١٤٨٩ •

فلما رأى الزغل سقوط بسطة والمنكب والمرية وتقدم جيوش قشتالة نحو وادي آش حاضرة اقليمه، وعرف أنه لامناص من تسليمها هي الأخرى سلم مدينة وادي آش للنصارى في يناير سنة ١٤٩٠ مقابل أن يمنحه فرناندو حكم أراضيها باسمه ويبقى تحت حمايته • غير أن الزغل ما لبث من المال ثم جاز الى المغرب الأدنى ، ونزل في وهران ، ثم انتقل الى تلمسان • وهناك قضى ما بقى من حياته نادما • ويذكر المقرئ أن بتلمسان نسله الى وقتته ويعرفون ببنى سلطان الأندلس •

لم يبق أمام فرناندو وإيزابيلا سوى غرناطة ، وعلى رأسها أبو عبد الله الذى لقباه بالملك الصغير (El Rey Chico). لضعف شخصيته وحداثته ، فتوجهوا اليه بطلب تسليم قصر الحمراء ، مقر الحكومة ، على أن يظل السلطان حاكما لغرناطة تحت حمايتهما .

ويبدو أن السلطان الصغير قد أدرك وقتئذ أنهما خدعاه ، كما أدرك أنه تخلى عن أكبر نصير له وهو الزغل. بمخالفة الملوكين الغادرين ، معاونتتهما على بنى جنسة . ولا يعقل ما يتهمه به مؤرخو العرب من أنه كان على اتفاق مع ملك قشتالة كما تقول الرواية العربية : « ثم يبعث فى السنة نفسها رسلا لصاحب غرناطة أن يمكنه من الحمراء كما يمكنه عمه من القلاع والحصون ، ويكون تحت إيايته ويعطيه مالا جزيلا على ذلك ، وأى بلاد شاء من الأندلس يكون فيها تحت حكمه . قتلوا : وأطمعه صاحب غرناطة فى ذلك ، فخرج العدو فى حملاته لقبض الحمراء والاستيلاء على غرناطة ، وهذا فى سر بين السلطانين » .

ولاشك أن السلطان أبا عبد الله لم يرض بذلك الوضع ، وأنه لم يكن على اتفاق مع ملك قشتالة ، كما تزعم الرواية العربية ، بدليل أن الرواية نفسها تضيف بعد ذلك أن السلطان اجتمع بكبراء مملكته لدراسة الموقف ، وأنهم أجمعوا على القتال حتى الموت دفاعا عن وطنهم وحرية دينهم ودينهم وقوميتهم ، فتقول الرواية : « فجمع صاحب غرناطة الأعيان والكبراء والأجناد والفقهاء والخاصة والعامة ، وأخبرهم بما طلب منه العدو ، وأن عمه أفسد عليه الصلح الذى كان بينه وبين صاحب قشتالة بدخوله تحت حكمه ، وليس لنا إلا إحدى خصلتين : الدخول فى طاعته أو القتال . فاتفق الوأى على الجهاد والوفاء بما عقده من صلح » .

التهبت قلوب أهل غرناطة حماسة بفضل من تدفق إليها من اللاجئين المسلمين ، ودوت صيحات الجهاد فى كل مكان . فاضطر فرناندو الى الزحف على غرناطة . وفى سنة ١٤٩٠ م خرج فرناندو على رأس جيشه

السلطان أبو عبد الله

يدمر كل ما يحيط بغرناطة من بسائط ومروج ، وعاث فسادا في هذه المواضع ، وحاصر المدينة غير أنه ما لبث أن رحل عنها . . . وانتهاز السلطان هذه الفرصة ، وحصن أسوار المدينة وما يتقدمها من قلاع ، وحشد فيها جنوده ورجاله استعدادا للجولة القادمة .

وفي السنة نفسها عزم السلطان أبو عبد الله على اختراق الحصار الذي فرضه القشتاليون حول غرناطة ، وإعادة الاتصال بينه وبين المنكب حتى يتمكن المجاهدون المغاربة من اتدفق الى غرناطة ، فاستولى على أندرش . . . وخشى فرناندو أن يكون ذلك مقدمة لاسترداد المسلمين لميناء المنكب . وعزم على وضع حد لذلك ، ورأى أن غرناطة هي أصل البلاء ولا بد من استئصالها ، فخرج في سنة ١٤٩١ بجيوش كثيفة بلغ عددها ما يتجاوز خمسين ألف مقاتل مسلحة بالمدافع والعدد ، وأشرف على فحص غرناطة في ابريل سنة ١٤٩١ ، وانتصف في طريقه مزارع غرناطة ومروجها ، وضرب الحصار حولها ، وصمم على فتحها فأنشأ مدينة تجاهها سماها « سانتافي » Santafé وتعرف لدى العرب بشنتفى ، وصرف همهته الى الإقامة على الحصار صيفا وشتاء وصار يضيق على غرناطة كل يوم . ودام القتال سبعة أشهر ، واشتد الحصار بالمسلمين . غير أن الطريق بين غرناطة والبشرات كان متصلا أثناء الصيف ، وكانت الأقوات ترد على غرناطة من ناحية جبل ثلير (سيرا نفادا) الى أن تمكن فصل الشتاء ، وكتب البرد ، ونزل الثلج ، فانسد باب المرافق ، وانقطع الجالب وقل الطعام واشتد الغلاء وعظم البلاء .

واستولى القشتاليون على أكثر الأماكن خارج غرناطة ، ومنع المسلمون من الحرث والسبب ، وضاق الحال ، وبان الاختلال ، وعظم الخطب .

ولم يقف المسلمون مكتوفي الأيدي كالشاه تنتظر ذبحها ، وإنما كانوا يخرجون مرارا يهاجمون محلات العدو ، ويبدون ضربا فائقة

من الشجاعة والاستماتة والبأس ... غير أن الجوع اشتد بالناس ، وأصبح من المستحيل أن يصروا على الحصار ، فدب اليأس في قلوبهم ، وهرعوا الى السلطان يسألونه التسليم .

وتقول الرواية العربية : « وطمع العدو في الاستيلاء على غرناطة بسبب الجوع والغلاء 'دون الحرب ، ففر ناس كثيرون من الجوع الى البشرات ، ثم اشتد الأمر في شهر صفر من السنة ، وقل الطعام ، وتفاقم الخطب ، فأجتمع ناس مع من يشار اليه من أهل العلم وقالوا : انظروا في أنفسكم ، وتكلموا مع سلطانكم ، فأحضر السلطان أهل الدولة وأرباب المشورة ، وتكلموا في هذا المعنى ، وأن العدو يزداد مدده كل يوم ونحن لا مدد لنا ، وكان ظننا أنه يقلع عنا في فصل الشتاء ، فخاب الظن ، وبنى وأسس وأقام وقرب منا ... فانظروا لأنفسكم وأولادكم . فاتفق الرأي على ارتكاب أخف الضررين . وشاع أن الكلام وقع بين النصارى ورؤساء الأجناد قبل ذلك في اسلام البلد خوفا على نفوسهم وعلى الناس » .

اتفق السلطان مع كبار رجاله وقواده على مفاوضة فرناندو في التسليم بشروط ، واختير وفد المفاوضة . وتذكر الرواية العربية أن ملك قشتالة منح أعضاء هذا الوفد كثيرا من العطايا والمنح ، ووافق على جميع الشروط في ٢٥ نوفمبر سنة ١٤٩١ ، وقد بلغ عدد هذه الشروط سبعة وستين شرطا ، منها تأمين الصغير والكبير في النفس والأهل والمال ، وابقاء الناس في أماكنهم ودورهم ورباعهم وعقارهم ، ومنها اقامة شريعتهم على ما كانت عليه ، ولا يحكم على أحد منهم الا بشريعتهم ، وأن تبقى المساجد كما كانت ، وألا يدخل النصارى دار مسلم ولا يغصبوا أحدا ، وألا يولى على المسلمين نصرانى أو يهودى ممن يتولى عليهم من قبل سلطانهم ، وأن يطلق سراح جميع أسرى المسلمين في غرناطة ، وخصوصا بعض الأعيان نص عليهم . ومن أراد الجواز للعدوة لايمنع،

ويحدد للجواز وقت معين ، وأن يضع ملك قشتالة تحت تصرفهم ما يلزمهم من سفن تكري لهم ، فإذا تجاوز الوقت المحدد ، وأراد بعضهم العبور دفع عشر ما يحمله من مال بالإضافة الى الكراء ، وألا يؤخذ أحد بذنب غيره ، وألا يقهر مسلم على التنصر ، وأن تنصر من المسلمين يوقف أياما حتى يقرر بنفسه ، ويعلن ذلك أمام حاكم من المسلمين وآخر من النصرى . ولا يعاتب من قتل من قتل نصرانيا أيام الحرب ، ولا يؤخذ منه ما سلب من النصرى أيام العداء ، وألا يكلف المسلم بضيافة أجناد النصرى ، وألا تفرض على المسلمين ضرائب جديدة ، وأن ترفع عنهم جميع المظالم والمغارم المحدثه ، وأن يسير المسلم في بلاد النصرى آمنا في نفسه وماله ، ولا تجعل للمسلمين علامة كما هو الحال مع اليهود وأهل الدجن ، ولا يمنع مؤذن ولا مصل ولا صائم ولا غيره من أمور دينه ، ومن ضحك من النصرى استهزاء يعاقب ، وأن يوافق على كل هذه الشروط صاحب رومة ويوقع عليها بيده (١) .

أما الشروط الخاصة بسلطان غرناطة فهي أن يغادر غرناطة الى منطقة البشرات ، ويجعل مقره في أندرش على أن يخضع ملك قشتالة . واشترط ملك قشتالة قبل أن يدخل غرناطة أن يقدم اليه أهلها ٥٠٠ من أعيان المدينة بمثابة رهينة ، خشية أن يغدروا بجيشه ويثبوا على رجاله .

وتلقت شروط معاهدة التسليم في غرناطة ، فعم الحزن واليأس قلوب الناس ، وضجوا بالبكاء والنحيب . واتفق السلطان المنكوب مع ملك قشتالة على تسليم المدينة في ١٢ ربيع الأول سنة ٨٩٧ هـ (٢ يناير

(١) نكث القشتاليون هذه الشروط بعد سنوات من سقوط قشتالة ، وحبسوا المسلمين على التنصر بقوة السلاح وكل وسائل الإرهاب والتعذيب ، فتنصر من المسلمين عدد كبير يعرفون باسم المورسكيين . . . وثار عدد آخر بقوا على دينهم ، وامتنعوا عن التنصر ، فحشدت لهم الجيوش واستؤصوا قتلًا وسبياً .

سنة ١٤٩٢ م) • وفي ذلك اليوم دخلت جيوش قشتالة حمراء غرناطة يتقدمها موكب ديني ، وشهد أهل غرناطة بقلوب تتمزق حسرة صليبا فضيا يرتفع بأعلى برج المراقبة بين علم قشتالة وعلم شنت ياقب ، وسمعوا ، ودموعهم تسيل ، صوت الأجراس والنواقيس معلنة بسقوط غرناطة في أيدي المسيحيين ، وانتهاء دولة الاسلام بالأندلس •

ويقول صاحب أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر : « وأقبل ملك الروم بجيوشه حتى قرب من البلد ، وبعث جناحا من جيشه فدخلوا مدينة الحمراء ، وأقام هو ببقية الجيوش خارج البلد ... لأنه كان يخاف من الغدر ، وكان طلب من أهل البلد ، حين وقع الاتفاق على ما ذكر ، رهونا من أهل البلد ليطمئن بذلك • فلما إطمأن من أهل البلد ، ولم ير منهم غدرا ، سرح جنوده لدخول البلد والحمراء ، فدخل منهم خلق كثير وبقي هو خارج البلد ... ثم أن ملك الروم سرح الناس الذين كانوا عنده مرتين ومؤمنين في أموالهم وأنفسهم مكرمين ، وأقبل في جيوشه حين إطمأن ، فدخل مدينة الحمراء في بعض خواصه • وأمر فرناندو بتحسين الحمراء ، وتجديد بناء قصورها ، وإصلاح سورها ، وصار يختلف الى الحمراء نهارا ويبيت بمحلتها ليلا حتى إطمأن الى أهل المدينة ، فدخلها وأقام فيها •

وهكذا انطوت بسقوط غرناطة آخر صفحة من تاريخ الأندلس المجيد ، ولكن مأساة أبي عبد الله لم تنته الى هذا الحد ، فقد كتب عليه أن يغادر قصره ومدينته الحبيبة منفيا الى أندلس ، وخرج هذا السلطان المنكود ، هو وأفراد أسرته ومن تبقى من حاشيته ممن أخلص له ، في موكب صامت حزين صبيحة يوم ٢ يناير سنة ١٤٩٢ ، وقد نكسوا الرؤوس وأرسلوا الدموع • ونظر السلطان المفجوع قبل أن يغادر باب المدينة نظرة أخيرة شاملة ثم ضج بالبكاء •

السلطان أبو عبد الله

وتبدأ القصيدة باستجارة أبي عبد الله بسلطان فارس فيقول :
حتى أدرك الركب معسكر ملك قشتالة ، فسلم اليه أبو عبد الله مفاتيح
الحمراء ، ومضى في طريقه الى أندرش • وهناك أدرك مدى ما تردى فيه
من هوان وذلة ، واستحالت عليه الإقامة على هذا النحو تحت حماية
النصارى ، فقرّر الهجرة الى أرض المغرب ، وتنازل عن ولايته للبشرات
مقابل قدر من المال ، وجاز البحر من المرية في سنة ١٤٩٣ ، ونزل في
مليلة ، ثم انتقل منها الى فاس واستوطنها مع أهله وأولاده •

وكان قد كتب الى سلطان فاس أبي عبد الله محمد الشيخ ، زعيم
بنى وطاس ، مستجيّرا به معتذرا عما أصاب الاسلام على يديه ، ودافع
عن نفسه في رسالة تعد من أرفع وأروع الصور الأدبية • وتعتبر هذه
الرسالة عن عظم مسئولية أبي عبد الله أمام شعبه الأندلسي ، وأمام
المسلمين جميعا • وأمام التاريخ • والرسالة من انشاء الكاتب البليغ أبي
عبد الله محمد بن عبد العربي العقيلي ، سماها بالروض العاطر الأنفاس
في التوسل الى المولى الامام سلطان فاس • واهتمتها بقصيدة تعد أبلغ
ما نظم في التوسل ، وقد تجاوزت هذه القصيدة مائة وعشرين بيتا ،
نشرها المقرئ في كتابيه نفح الطيب وأزهار الرياض •

وتبدأ القصيدة باستجارة أبي عبد الله بسلطان فارس فيقول :

مولى الملوك ملوك العرب والعجم

رعيّا لما مثله يرعى من الذمم

بك استجرنا وأنت نعم الجار لمن

جار الزمان عليه جور منتقم

حتى غدا ملكه بالرغم مستلبا

وأفطع الخطب ما يأتى على الرغم

٤٠٧

السلطان أبو عبد الله

ثم يذكره بأنه كان ملكا في بلد فجع بفقده وضياعه فيقول :

كنا ملوكا لنا في أرضنا دول

نمنا بها تحت أفنان من النعم

فأيقظتنا سهام للردى صيب

يرمى بأفجع جثف من بهن رمى

ويمضي الى موضوعه الأساسي من الرسالة ، وهو محاولة اقناع
سلطان فاس بأن سقوط غرناطة كان قضاء وقدرًا ، وأنه لم يتوان عن
الدفاع عنها أو يقصر في دفع العدا ، فيقول :

وابسط لنا الخلق المرجو باسطه

واعطف ولا تتحرف واعذر ولا تلم

لا تأخذونا بأقوال الوشاه ولم

نذنب ولو كثرت أقوال ذى الوخم

فما أطقنا دفاعا للقضاء ولا

أراد أنفسنا ما حل من نقم

ولاتعاتب على أشياء قد قدرت

وخط مسطورها في اللوح بالقلم

وعد عما مضى اذ لا ارتجاع له

وعد أحرارنا في جملة الخدم

ايه ١٠٠ حنانيك يا ابن الأكرمين على

ضيف ألم بفاس غير محتشم

السلطان أبو عبد الله

فأنت أنت ولولا أنت ما نهضت
 بنا إليها خطا الوقادة الرسم
 فكم مواقف صدق في الجهاد لنا
 والخييل عالكة الأشداء للجم
 والسيف يخضب بالحممر من علق
 ما أبيض من سبل واسود من لم
 حتى دهينا بدهيا لا اقتدار بها
 سوى على الصون للأطفال والحرم
 تالله ما أضمرت غشا ضمائرنا
 ولا طوت صحة منها على سقم

ثم يمدح سلطان فاس ، ويذكر له علاقة أجداده بنى مرين قديما
 بأجداده من ملوك الأندلس ، وكيف كانوا يجاهدون ويثاغرون ، فيقول:

سلالة الأمراء ، الجلة الكبرا
 ، العلية الطهراء ، القادة البهم
 بنو مرين ليوث في عرين أبوا
 رؤيا قرين لهم في الناس والكرم

وينتهي من قصيدته الطويلة ويشرع في رسالته التي يودعها دفاعا
 مجيدا عن أخطائه ، ويعترف بهذه الأخطاء في التفريط بدولة الاسلام .
 ومما ورد في هذه الرسالة قوله : « ماذا الذي يقول من وجهة خجل ،
 وفؤاده وجل ، وقضيته المقضية من التنصل والاعتذار تجل ... بيد أني

أقول لكم ما أقوله لربي ، واجترأى عليه أكثر ، واجترأى اليه أكبر :
 اللهم لا برىء غاعتر ، ولا قوى فأنقصر ، لكنى مستقيل مستعقب
 مستغفر • وما أبرىء نفسى ، ان النفس لأماراة بالسوء •• هذا على طريق
 التنزل والانصاف بما يقتضيه الحال ممن يتحيز الى حيز الانصاف •••
 على أنى لا أنكر عيوبى فأنا معدن العيوب ، ولا أجحد ذنوبى فأنا جبل
 الذنوب ، الى الله أشكو عجرى وبحرى وسقطائى وغطائى ••• » •

ثم يعزى نفسه فى سقوط غرناطة ، ويضرب الأمثلة بضياى بغداد
 كبرى عواصم الاسلام ، التى دخلها التتار ، وأطاحوا بمعالم حضارتها ،
 ومحووا رسوم خلافتها ، فيقول :

« وكيفما كان الحال ، وان ساء رأى والانتحال ، ووقعنا فى
 أوجال وأوحال : فثل عرشنا ، وطويت فرشنا ، ونكس لوانا ، وملك
 مثنوانا ، فنحن أمثل من سوانا ••• فتلك بغداد السلام ، ومتبوا
 الاسلام ، المحفوف بفرسان السيوف والأقلام ، مثابة الخلافة العباسية ،
 ومقر العلماء والفضلاء ، أولى السير الأويسية والعقول الايسية ، وقد
 نوزلت بالجيوش ونزلت ، وزوولت بالزحوف وزلزلت ، وتحيف جوانبها
 الحيف ، ودخلها كفار التتار بالسيف ••• » •

ثم يذكر أنه رفض دعوة بعض دول الشرق له للاقامة بأرضها ، وأنه
 أثر الاستيطان بالمغرب لما يربطه ببلاده من روابط تاريخية وعنصرية ، كما
 رفض أن يعيش تحت حماية ملك قشتالة اباء للذلة فيقول : « ولقد
 عرض علينا صاحب قشتالة مواضع معتبرة خير فيها ، وأعطى من أمانه
 المؤكد فيه خطه بايمانه ما يقنع النفوس ويكفيها ، فلم نر — ونحن من
 سلالة الأحمر — مجاورة الصفر ، ولا سوغ لنا الايمان الاقامة بين
 ظهرانى الكفر ••• ووصلت أيضا من الشرق الينا كتب كريمة المقاصد
 لدينا تستدعى الانحياز الى تلك الجنبات ، وتتضمن ما لا مزيد عليه من

السلطان ابو عبد الله

المرغبات ، فلم نحتر الا دارنا التي كانت دار آبائنا من قبلنا ، ولم تقبل
الانضواء الا لمن بحبله وصل حبلنا » •

* • *

وهكذا قدر لأبي عبد الله أن يكون ضياع الأندلس على يديه ،
ويقيم هذا الرجل الشقي في فاس في ظل سلطانها من بنى وطاس • وشيد
لنفسه قصورا على طراز قصوره بالحمراء ، وعاش على الذكريات بعيدا
عن وطنه ومسقط رأسه حتى مات بفاس سنة ٩٤٠ هـ (١٥٣٣ م) ، ودفن
بازاء المصلى خارج باب الشريعة • وخلف ولدين أحدهما يوسف والآخر
أحمد • ثم عدت على أحفاده وذريته عوادي الدهر ، فعاشوا يستجدون
الناس !



موضوعات الكتاب

صفحة

مقدمة أ - ب

— تمهيد : عرض موجز لتاريخ الأندلس

منذ الفتح الإسلامي حتى سقوط مملكة غرناطة ١ - ٢٦

الباب الأول

أشهر قواعد الأندلس في العصر الإسلامي

٢٩	قرطبة
٤٥	مدينة الزهراء
٥١	طليطلة
٦١	المرية
٧٣	مرسية
٧٩	ماردة
٨٣	سرقسطة
٨٩	بلنسية
٩٥	قاضرش
١٠١	بطليوس
١٠٧	أشبونة
١٠٩	أشبيلية
١٢٣	الجزر الشرقية
١٢٧	مالقة
١٣٥	غرناطة

الباب الثاني

الفنون الإسلامية بالأندلس

أولا — فن الغناء والموسيقى ١٤٧

صفحة

١٥٩	ثانيا - العمارة الدينية بالأندلس
١٦١	أ - المساجد
١٦١	(١) المسجد الجامع بقرطبة
(١٦٦)	(٢) جامع عمر بن عبدس باشبيلية
١٦٨	(٣) مسجد الباب المردوم بطليطلة
١٧٠	(٤) المسجد الجامع بالمرية
(١٧١)	(٥) جامع الموحدين باشبيلية
١٧٤	(٦) المسجد الأعظم بقصر الحمراء
١٧٥	(٧) المسجد المدجنين بطليطلة
١٧٦	ب - الكنائس
١٨٠	ج - البيعة اليهودية (الكنيس)
١٨٣	ثالثا - العمارة المدنية بالأندلس

١ - القصر

١٨٩	قصور قرطبة في عهد بني أمية
١٩٤	القصور في عصر الطوائف
١٩٤	أ - قصور المعتمد بن عباد
١٩٧	ب - قصر الجعفرية بسرقسطة
٢٠٠	ج - قصر بني حمود بقصبة مالقة

قصور الموحدين في الاندلس

٢٠١	أ - قصر أبي يحيى بقرطبة
		ب - قصر البحيرة خارج باب
٢٠٢	جهور باشبيلية
(٢٠٣)	ج - قصر اشبيلية
٢٠٤	قصور الحمراء بغرناطة

صفحة

٢٠٨	٢ - الحمامات	
٢١٤	أ - حمامات طليطلة	
٢١٤	ب - حمام غرناطة	
٢١٥	ج - حمام بلنسية	
٢١٥	٣ - الفنصادق	
٢١٧	٤ - القيساريات	
٢٢٠	٥ - دور الصناعة	
٢٢٢	٦ - جسور المياه	
٢٢٤	٧ - القناطر	
٢٢٧	رابعاً - العمارة الحربية بالأندلس	
٢٢٧	١ - الأسوار	
٢٢٨	أسوار قرطبة	
٢٣١	• أسوار اشبيلية	
٢٣٦	٢ - القلاع والقصاب	
٢٣٧	• حصن القصر باشبيلية	
٢٣٨	حصن فارو بمالقة	
٢٣٨	حصن المدور	
٢٣٨	قلعة جابر أو قلعة وادي ايره	
٢٤١	قصبه بطليوس	
٢٤٢	قصبه مالقه	
٢٤٣	خامساً - التأثيرات المعمارية في الأندلس	
٢٤٣	(١) التأثيرات الأندلسية في عمارة المغرب الاقصى	
٢٤٨	(٢) التأثيرات الأندلسية في تونس	
٢٤٩	(٣) التأثيرات الأندلسية في الجزائر	
٢٥٣	(٤) أثر العمارة الأندلسية في العمارة المسيحية	
٢٥٩	سادساً - الفنون والصناعات في الأندلس	

صفحة

٢٦٠	(١) فن النحت على الخشب
٢٦٣	(٢) فن صناعة علب العاج
٢٦٧	(٣) فن صناعة التحف المعدنية
٢٦٨	التمثيل
٢٧٠	الثريات البرونزية
٢٧١	التحف المصنوعة من البرونز
٢٧٣	السيوف
٢٧٤	التحف الفضية
٢٧٤	(٤) صناعة المنسوجات

الباب الثالث

الحياة العلمية والأدبية بالأندلس

٢٨٤	(١) العلوم العقلية
٢٩٣	(٢) الشعر الأندلسي
٣٠٥	(٣) تأثير الثقافة الأندلسية في اسبانيا وأوروبا
٣٠٧	١ - تأثير الازجال الأندلسي في الشعر الغنائي الأوروبي
٣٠٩	ب - القصة العربية في الأدب الأوروبي
٣١٣	ج - الملحمة وأصلها الأندلسي
٣١٤	د - أثر الفلسفة الأندلسية في الفكر الأوروبي
٣١٦	هـ - تأثير اللغة العربية في اللغة الاسبانية

الباب الرابع

النظم السياسية بالأندلس

٣٢٣	(١) الخلافة
-----	---------	-------------

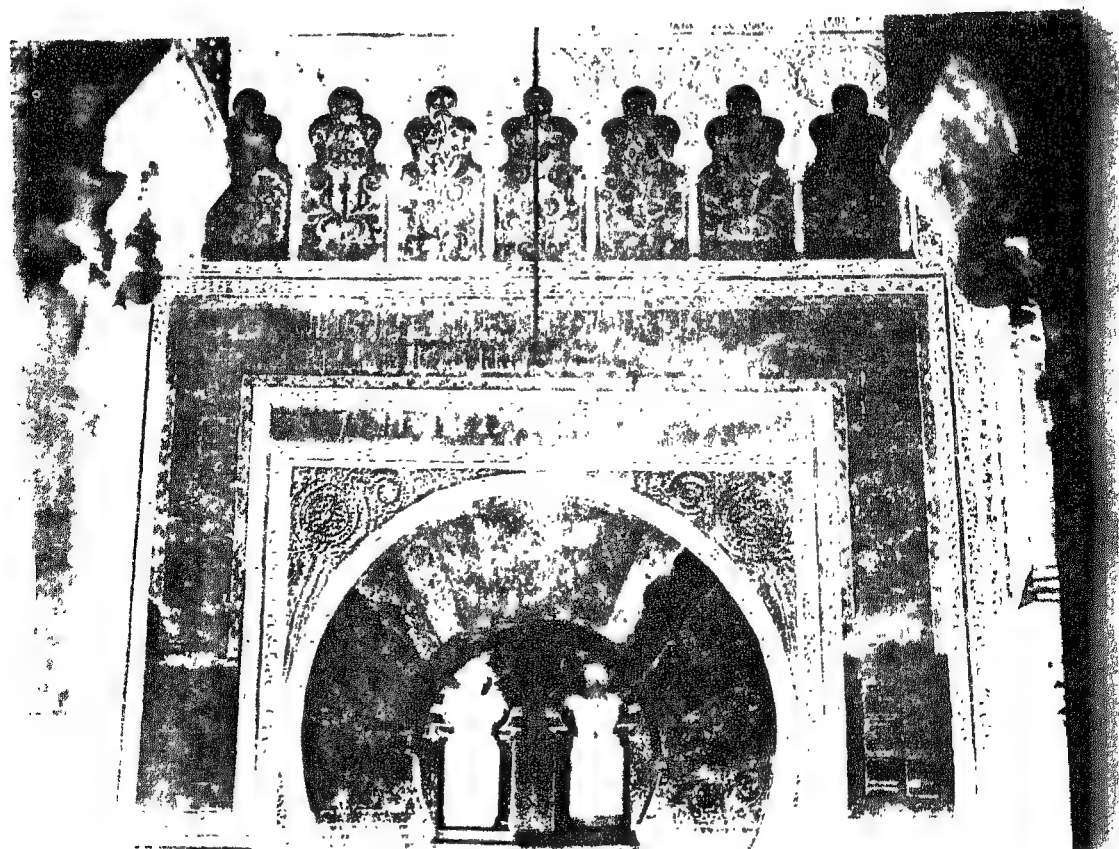
صفحة

٣٢٥	(٢) الوزارة
٣٢٦	(٣) الحجاب
٣٢٧	(٤) القضاء
٣٢٨	صاحب الشرطة
٣٢٨	صاحب المدينة
٣٢٨	صاحب المظالم
٣٢٩	المحتسب
٣٢٩	(٥) الجيش
٣٣١	(٦) الأسطول

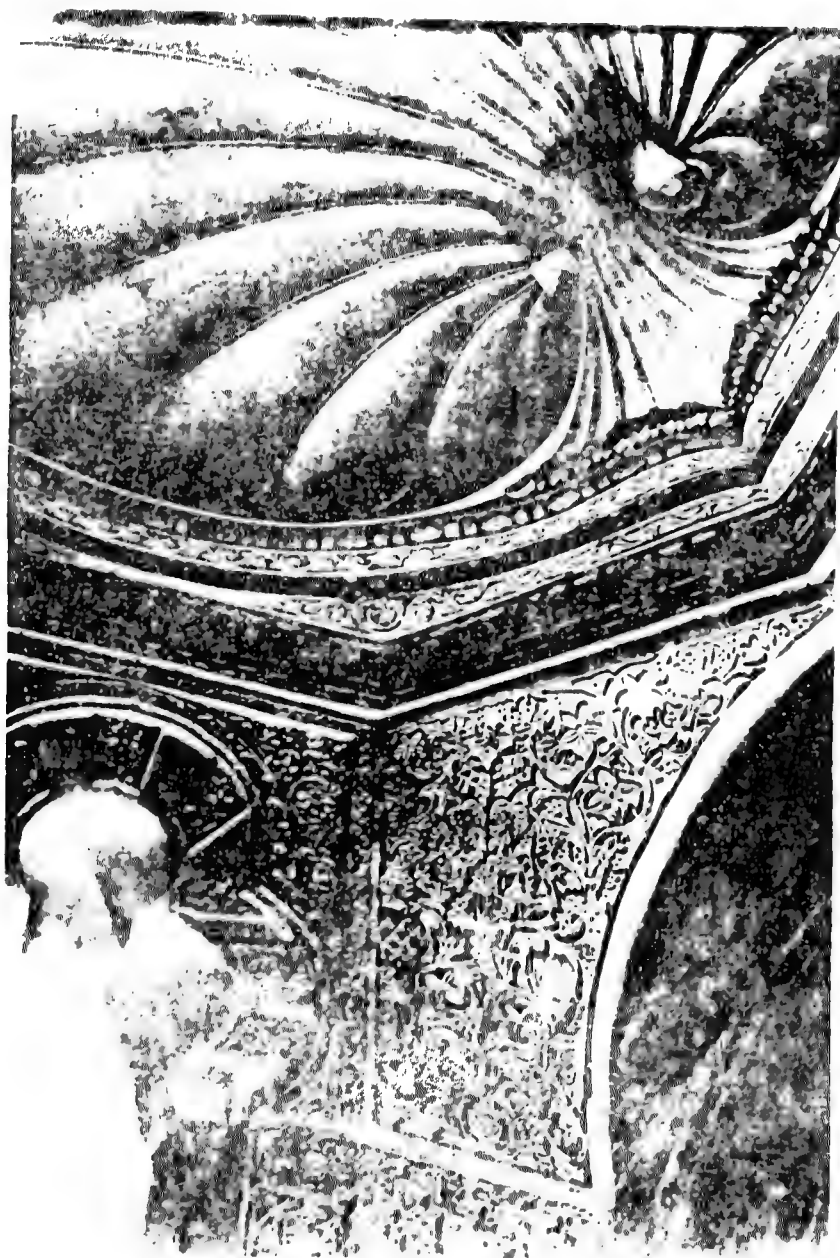
الباب الخامس
شخصيات أندلسية

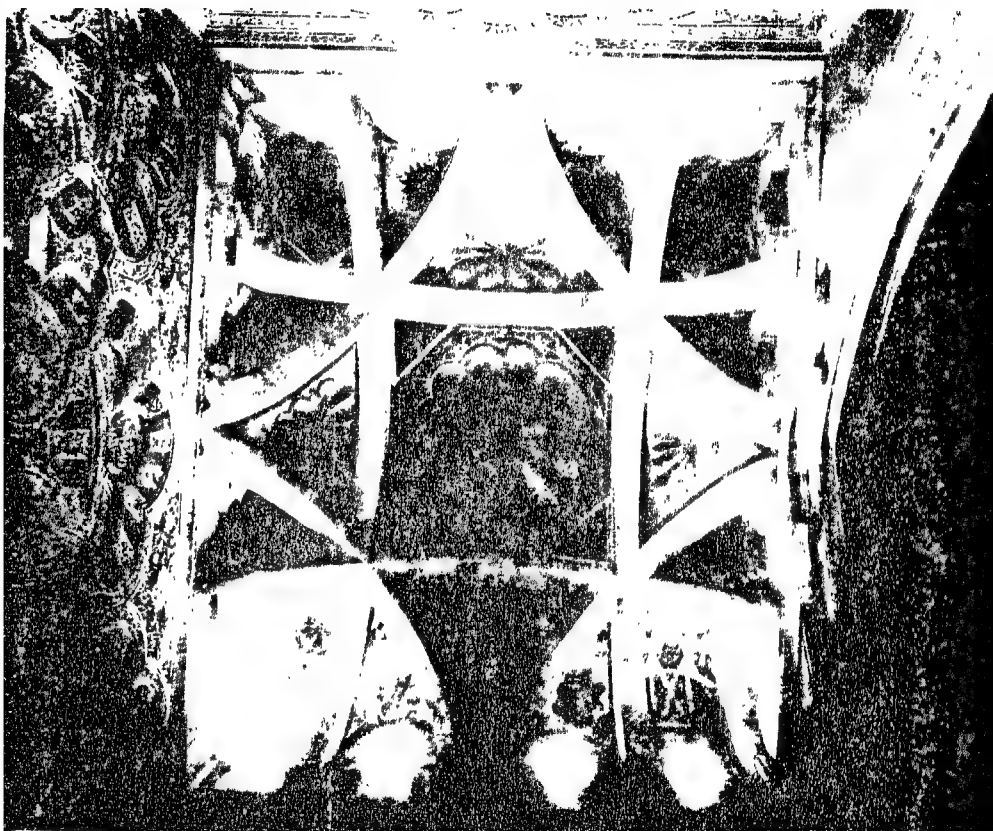
٣٣٣	موسى بن نصير
٣٣٩	طارق بن زياد
٣٥١	الحكم الربضى
٣٦٠	عبد الرحمن الأوسط
٣٦٧	عبد الرحمن الناصر
٣٨١	الحكم المستنصر بالله
٣٩١	السلطان أبو عبد الله

رقم الايداع ٨٤/٤٢٠٢



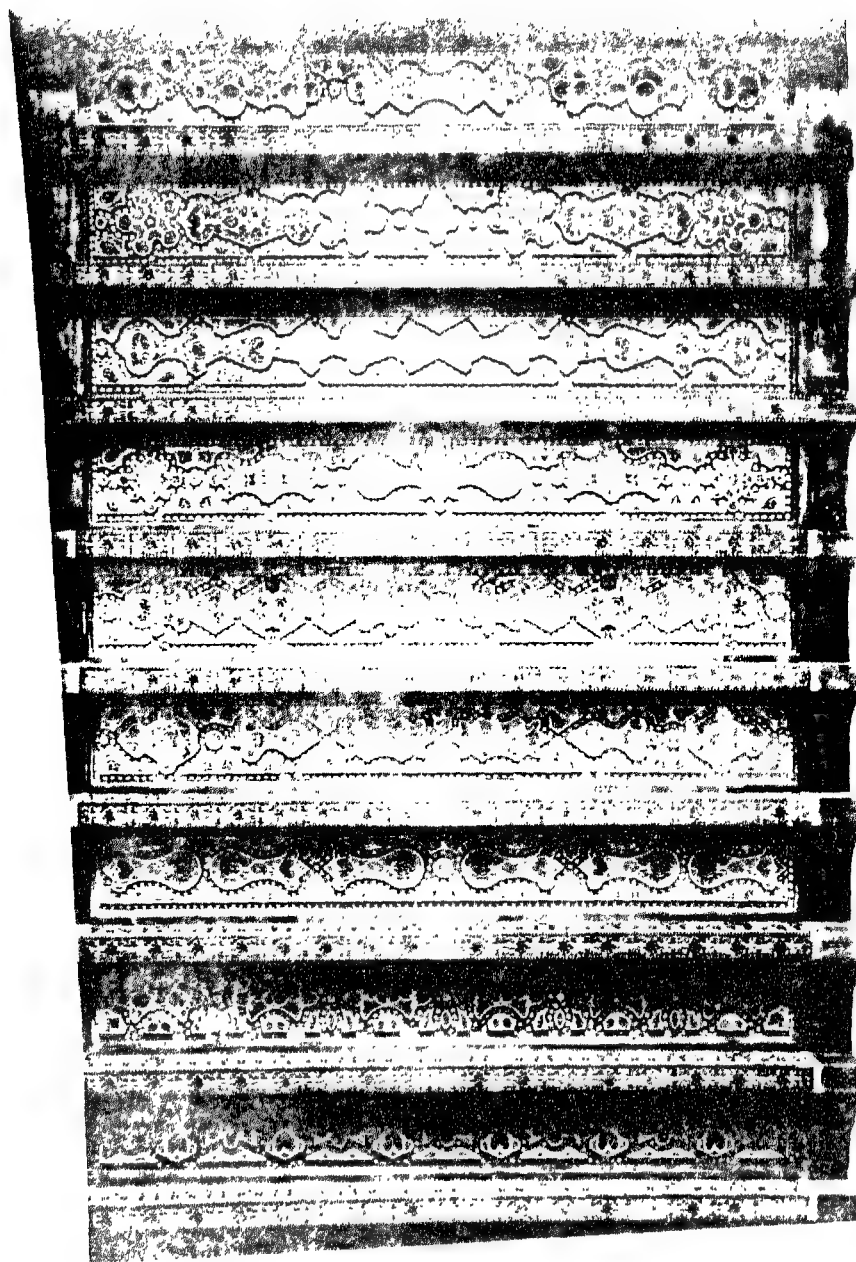
شكل ١ - واجهة مدخل المسجد الجامع، دمشق.





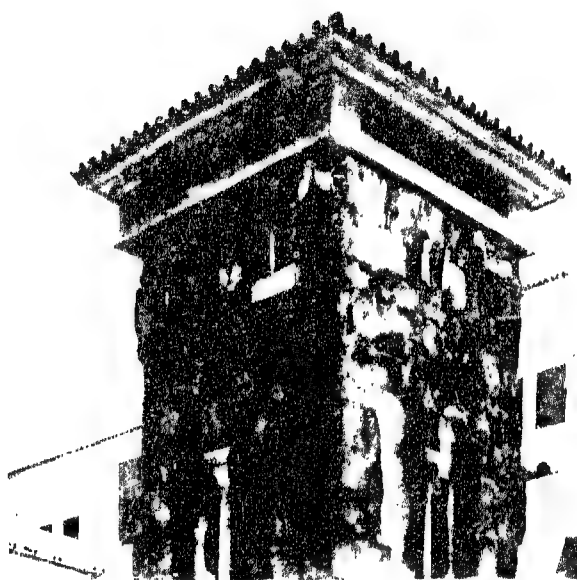


12, 13, 14, 15, 16, 17, 18, 19, 20, 21, 22, 23, 24, 25, 26, 27, 28, 29, 30, 31, 32, 33, 34, 35, 36, 37, 38, 39, 40, 41, 42, 43, 44, 45, 46, 47, 48, 49, 50, 51, 52, 53, 54, 55, 56, 57, 58, 59, 60, 61, 62, 63, 64, 65, 66, 67, 68, 69, 70, 71, 72, 73, 74, 75, 76, 77, 78, 79, 80, 81, 82, 83, 84, 85, 86, 87, 88, 89, 90, 91, 92, 93, 94, 95, 96, 97, 98, 99, 100



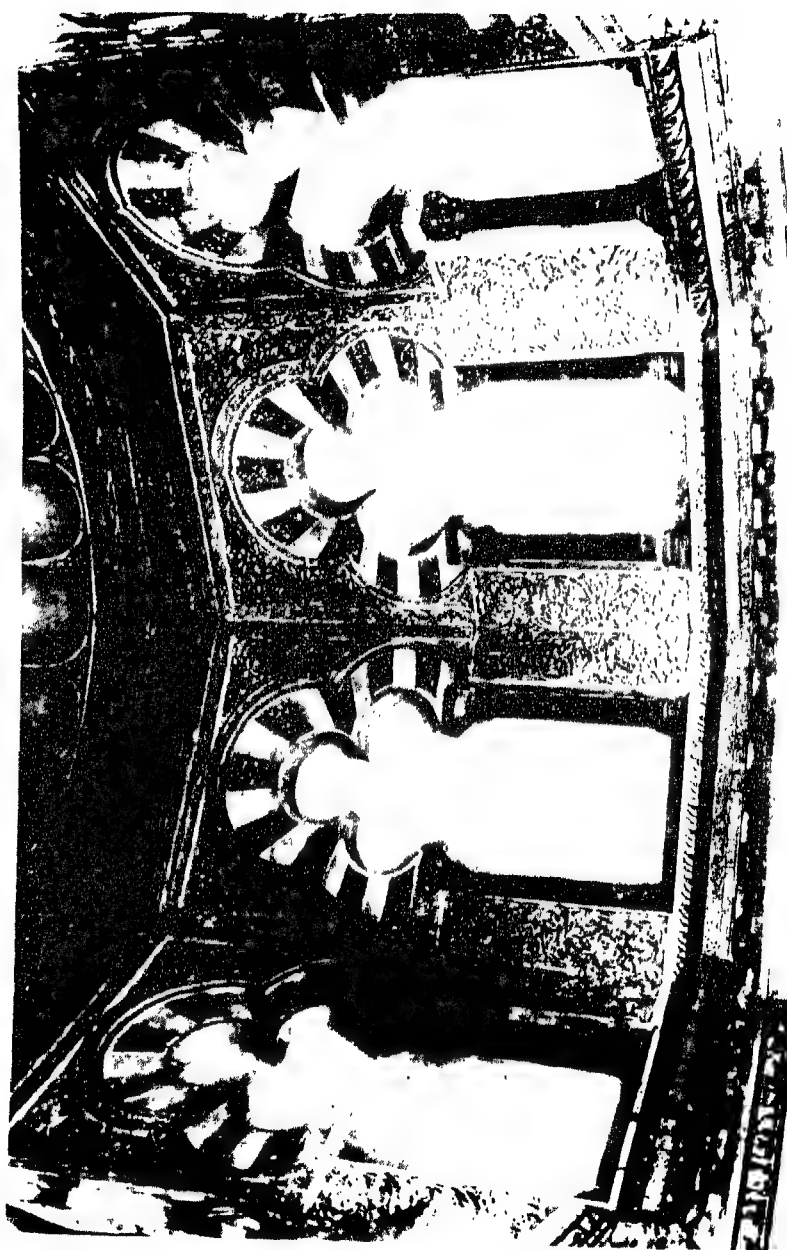


(۱) سب سے زیادہ فائدہ دینے والی چیزیں۔



اشکلی ۵ - - برج کنسید سان جوان بفرطه

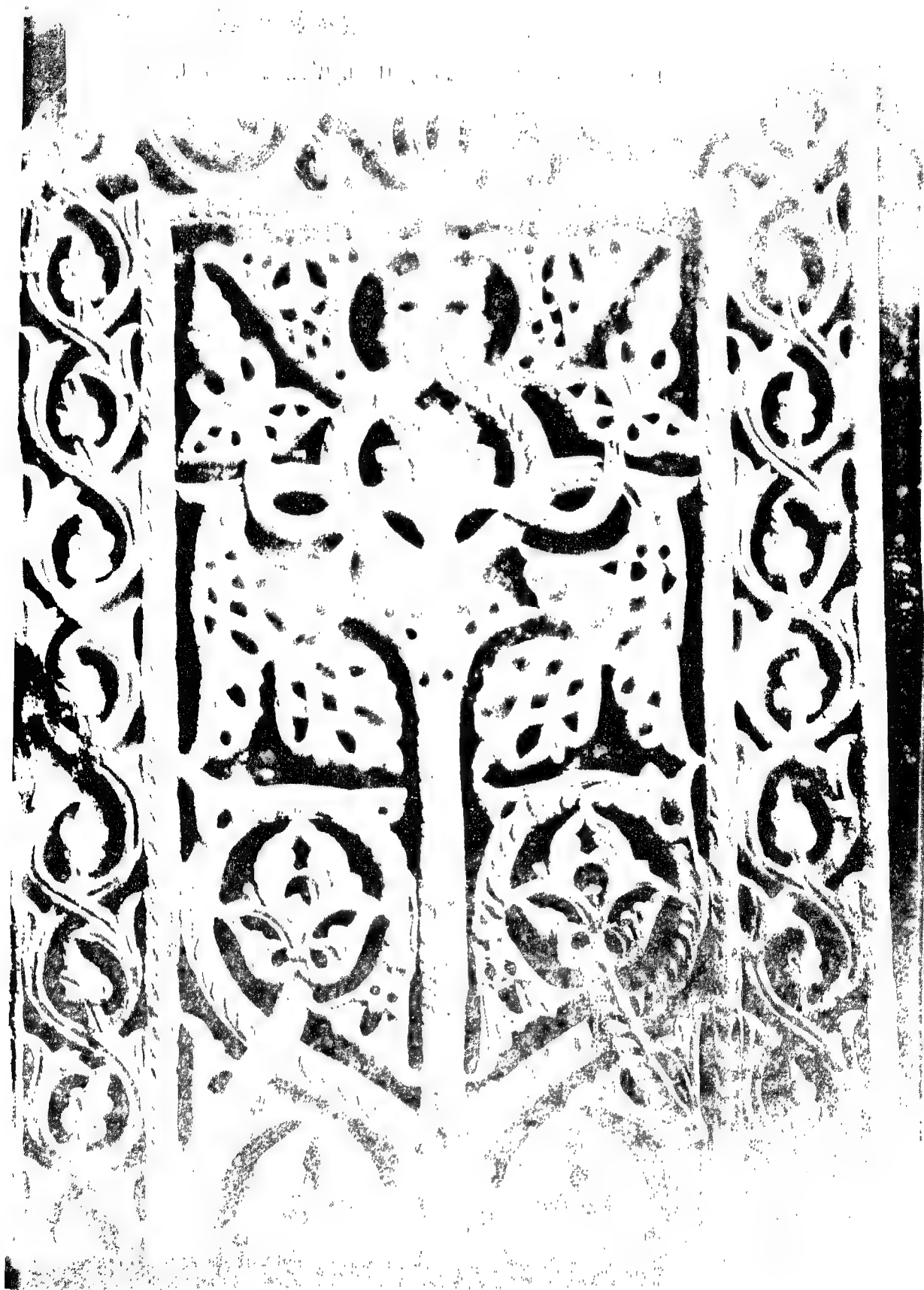
(كل ٦-٨) فصلات - زهد بين الصلوع البارز المصاب بعد عدد ١٠ - مع دواء





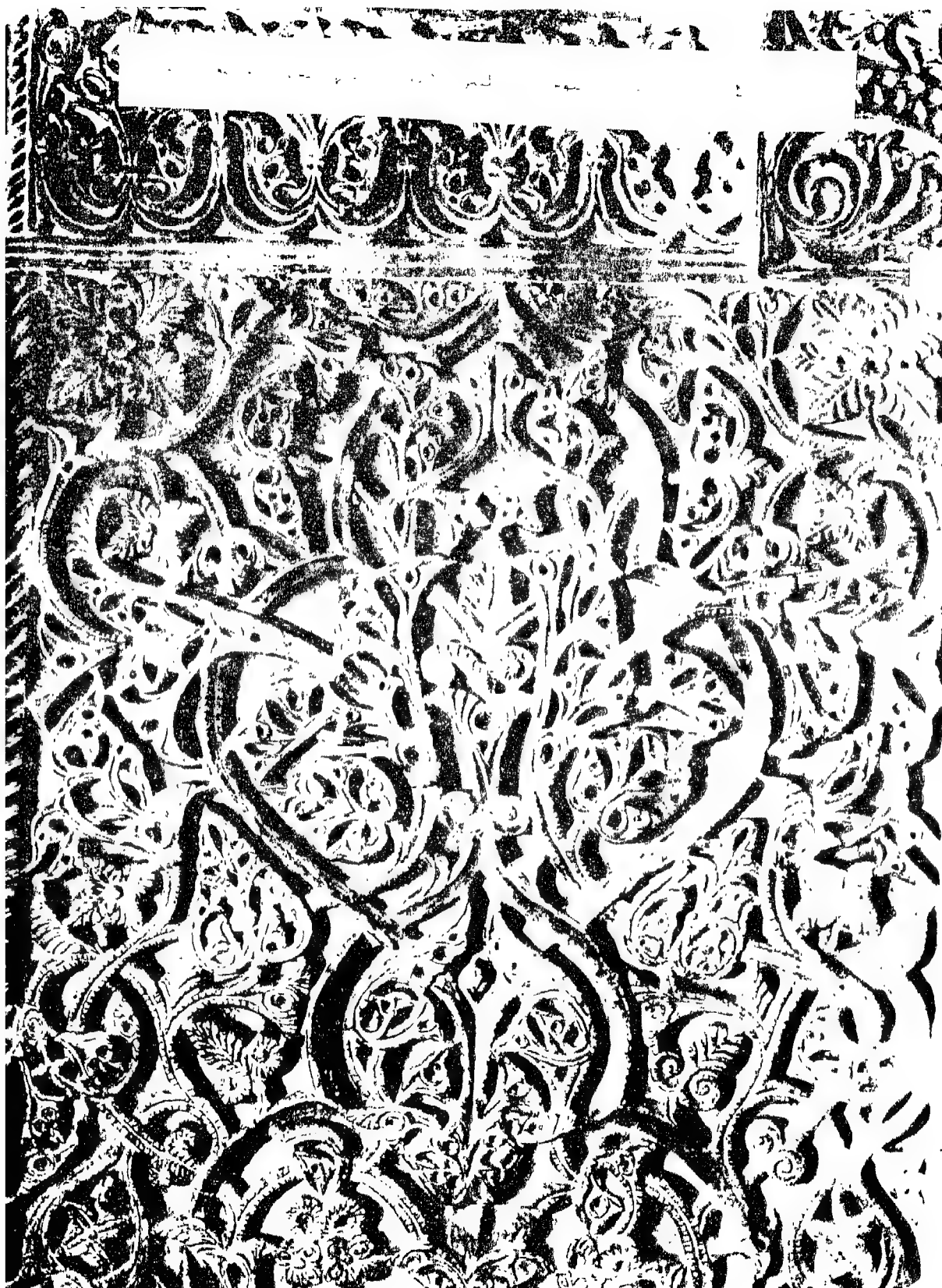
سجل - عامه بر البر - ام الامير - بر البر

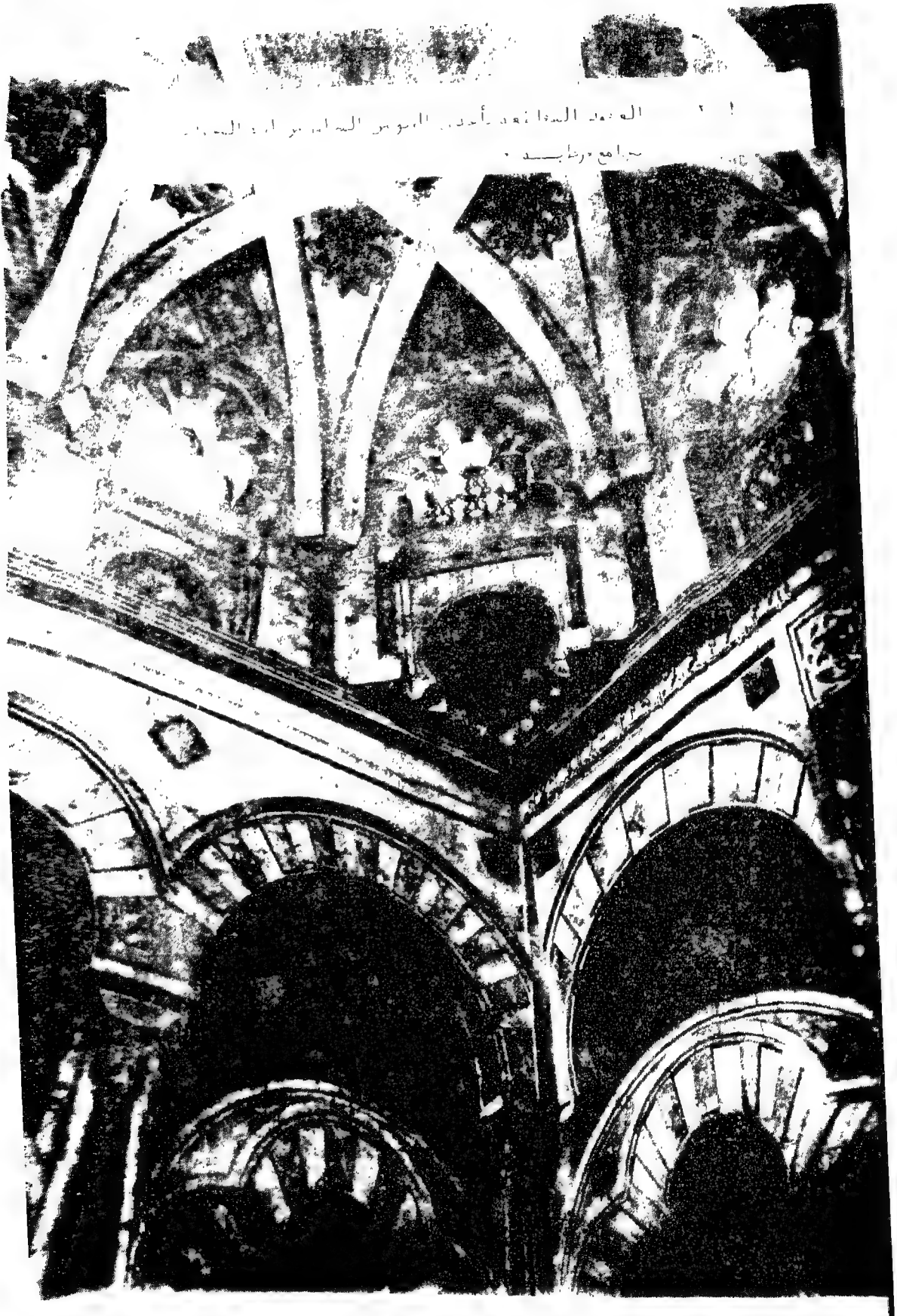






على

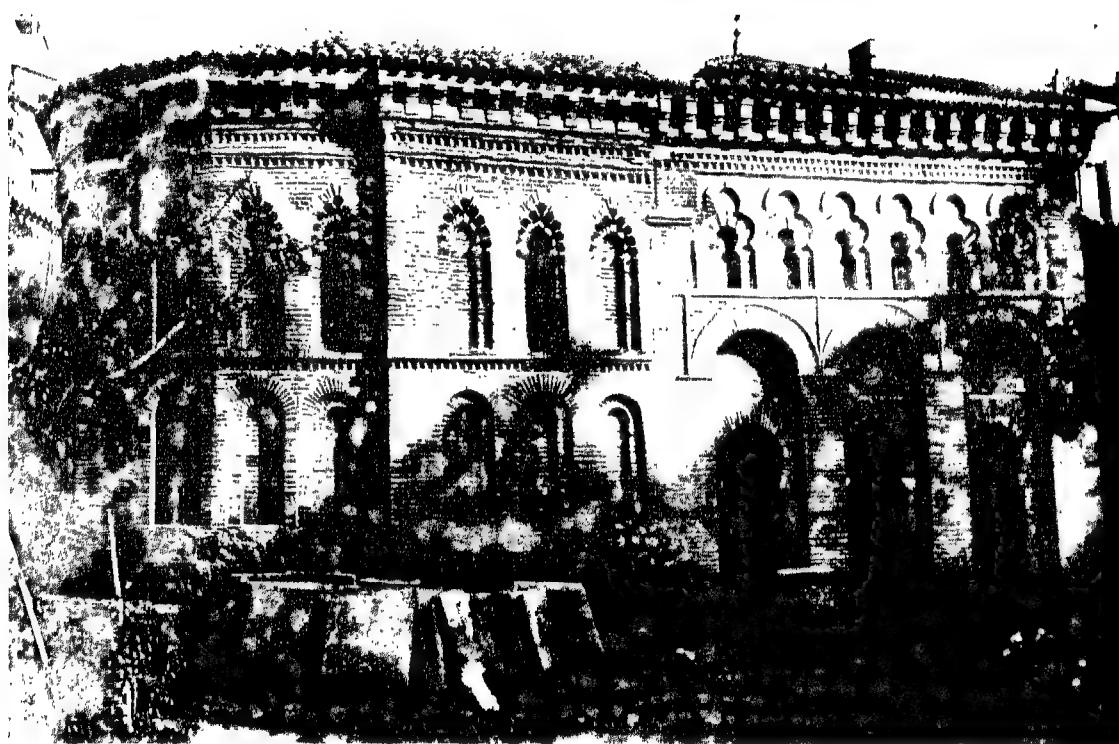






(شكل ١٤ - ب) زخارف بنائيد محفورة فى الحجر سد بند الزدرا .





(١٥) مسجد الباء المبرورة في القاهرة

• A' d' r' e' s' s' e' : []

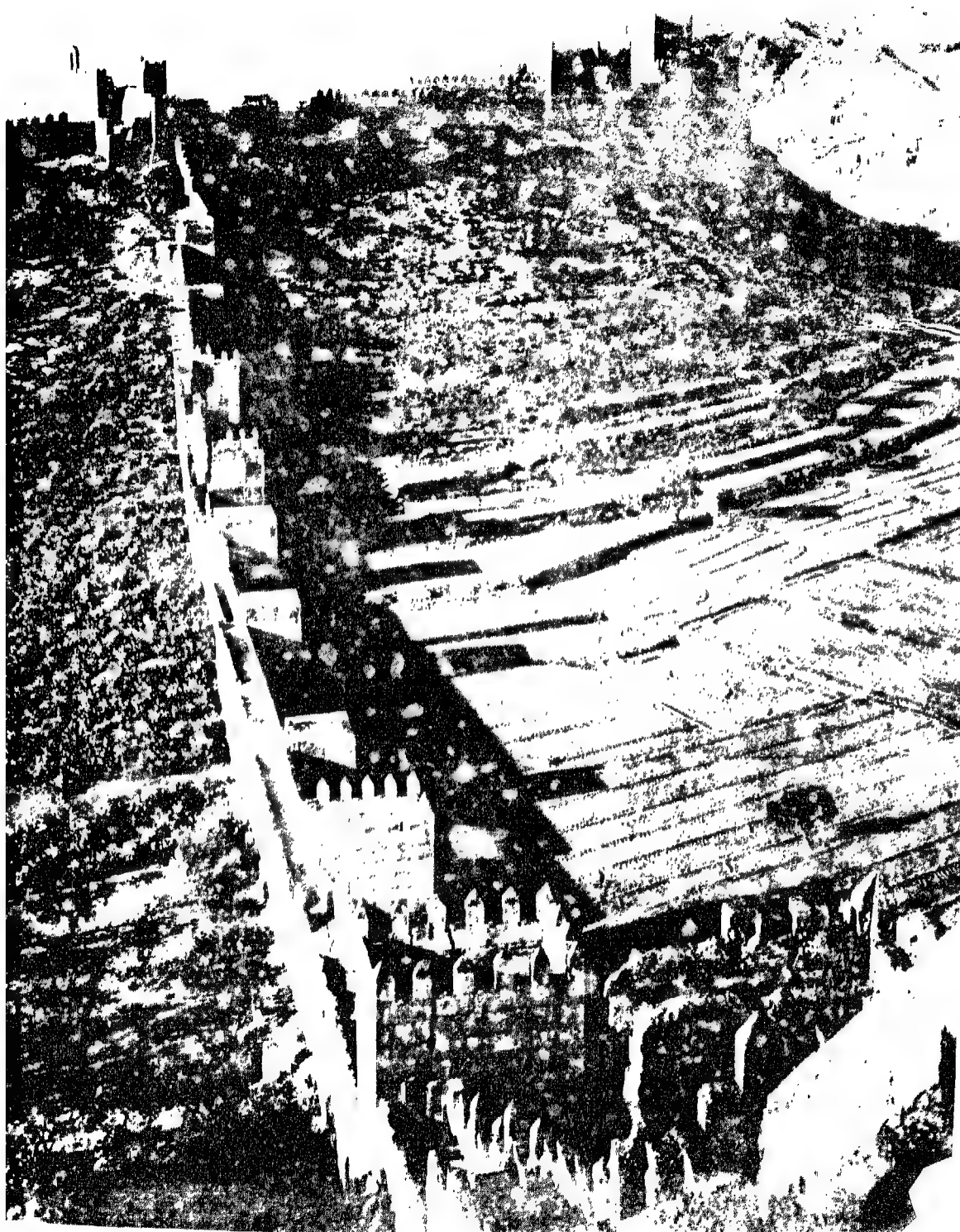
الكل ١٠ - كرسى مارى مريم - لسانك ونا
سراف وناون من الدار الطاهر

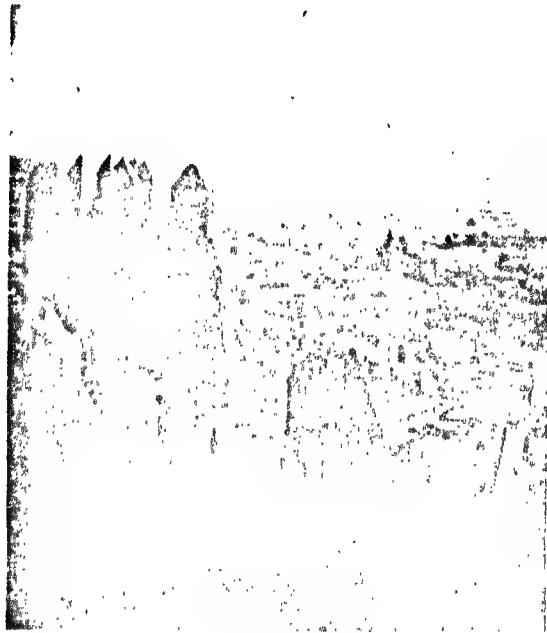


شكل ١٨ - برج مدجن ساجدي كنائس طليطلة من القرن الثامن الهجرى .

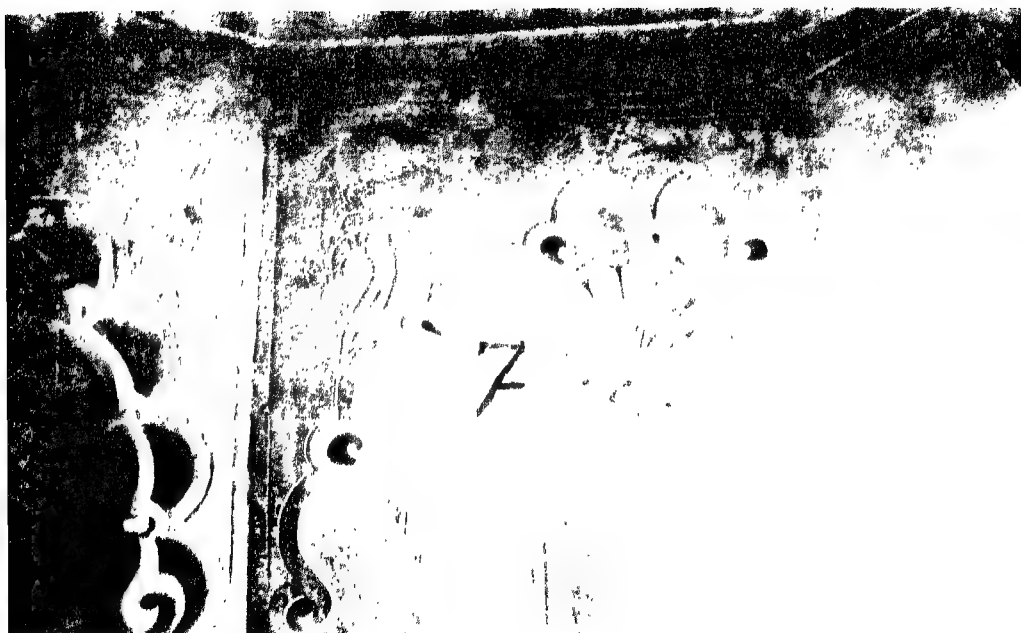




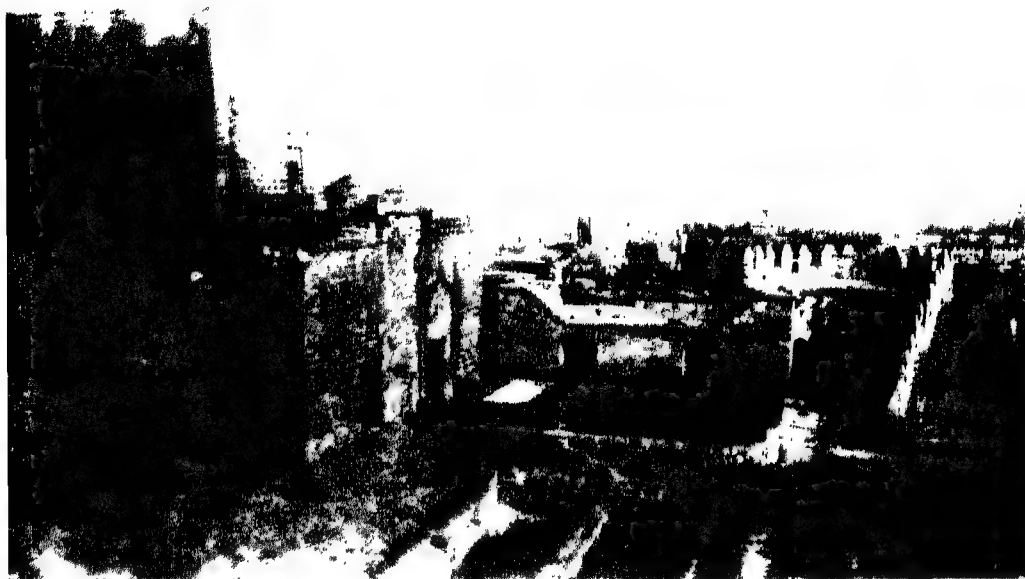




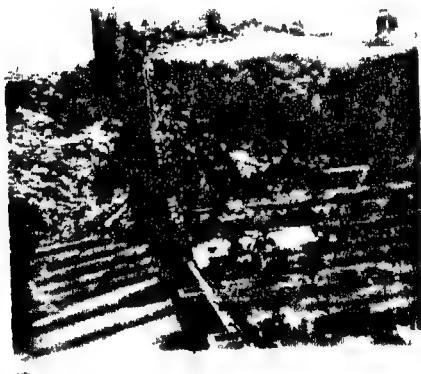
(شكل ٢١) بعض أسوار قصبة المرية •



٢٢ - جدار القبة في المسجد الأموي - دمشق



٢٣ - جدار القبة في المسجد الأموي - دمشق



(شكل ٢٢ - ج ١) منظر عام لأسوار قصبة المريّة .



31 - Almería

Murallas de la Alcazaba y vista parcial

Edic. Arri

(شكل ٢٣ - ج ١) منظر عام لأسوار قصبة المريّة .



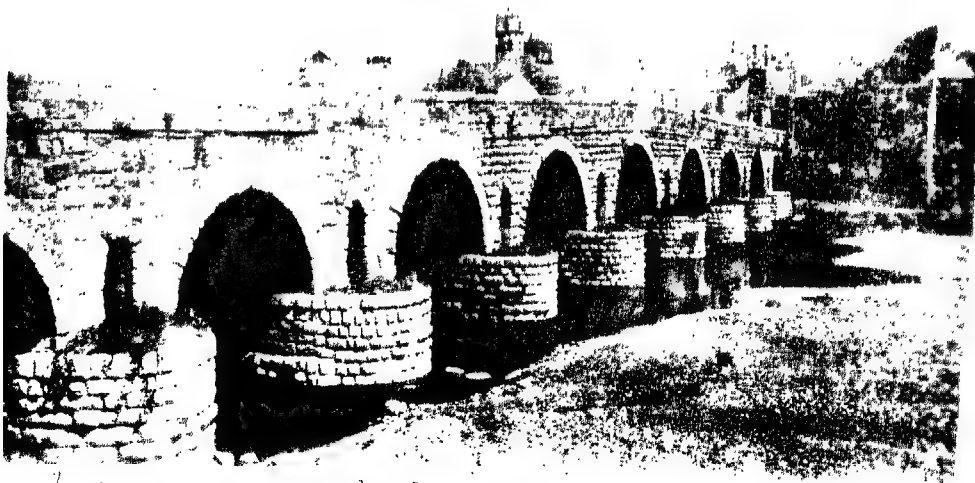
(٢٤) - جبل القديس



(٢٥) - جبل القديس



٢٠١ - مقبرة الملك



(٢٠٢ - الفاندر الرومانيه بطريقه)



Merida ۸۱

Academy of Music

Edo de Arriba

... ..



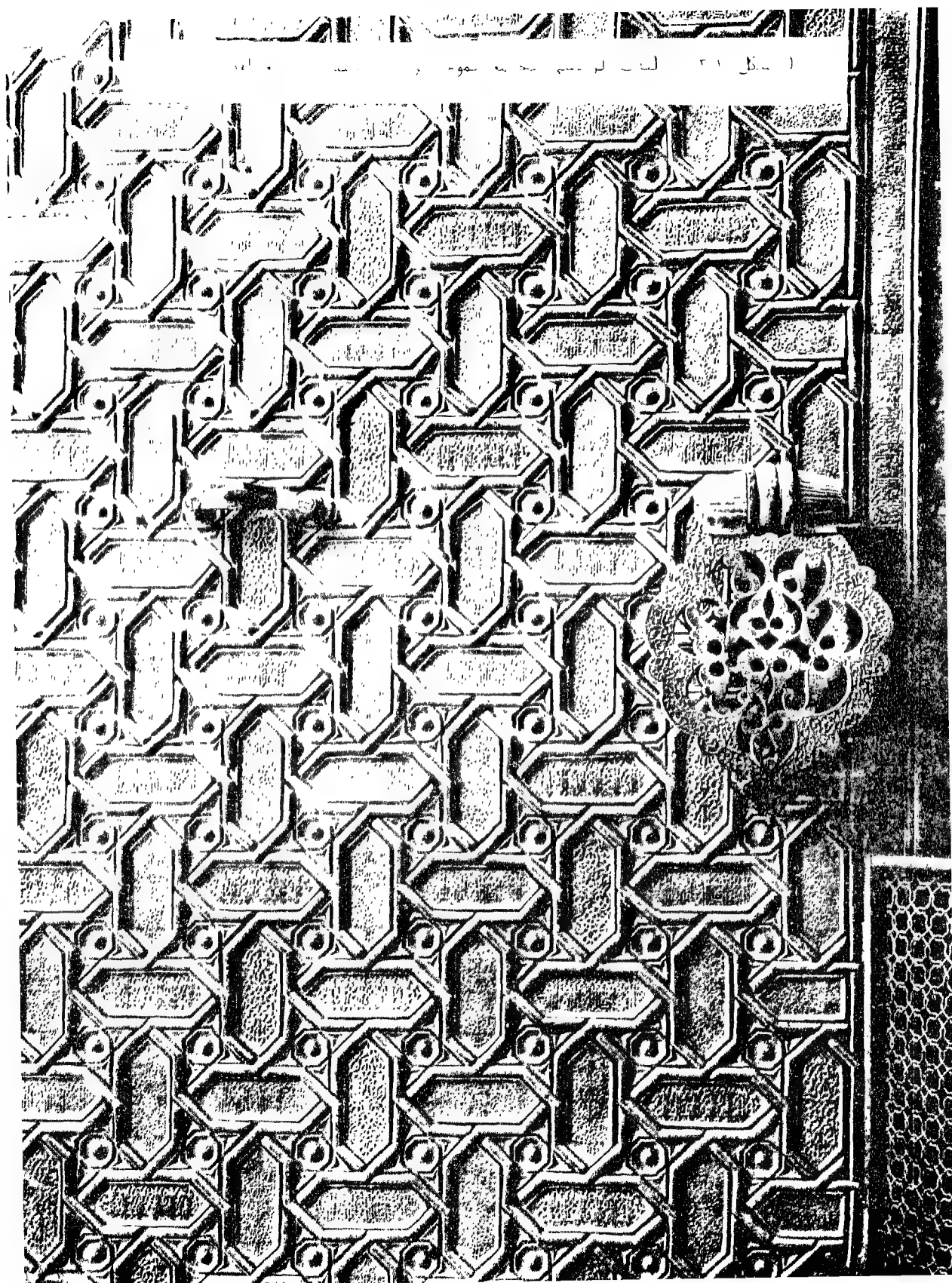
(شکل ۲۸ - حصن مایا)

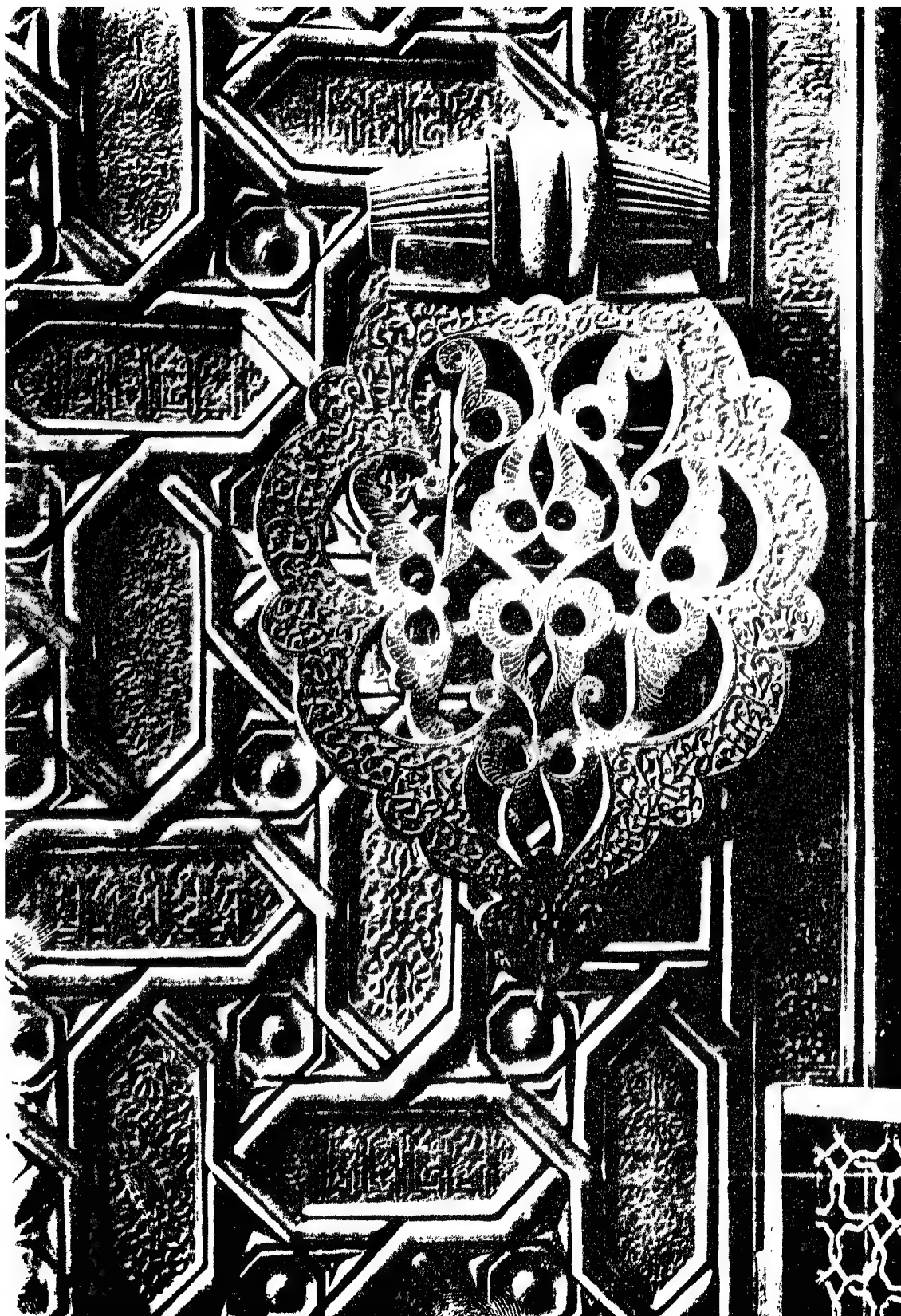


(شكل ٢٩) الاسوار الخارجية لحصن مسقط مرشد .

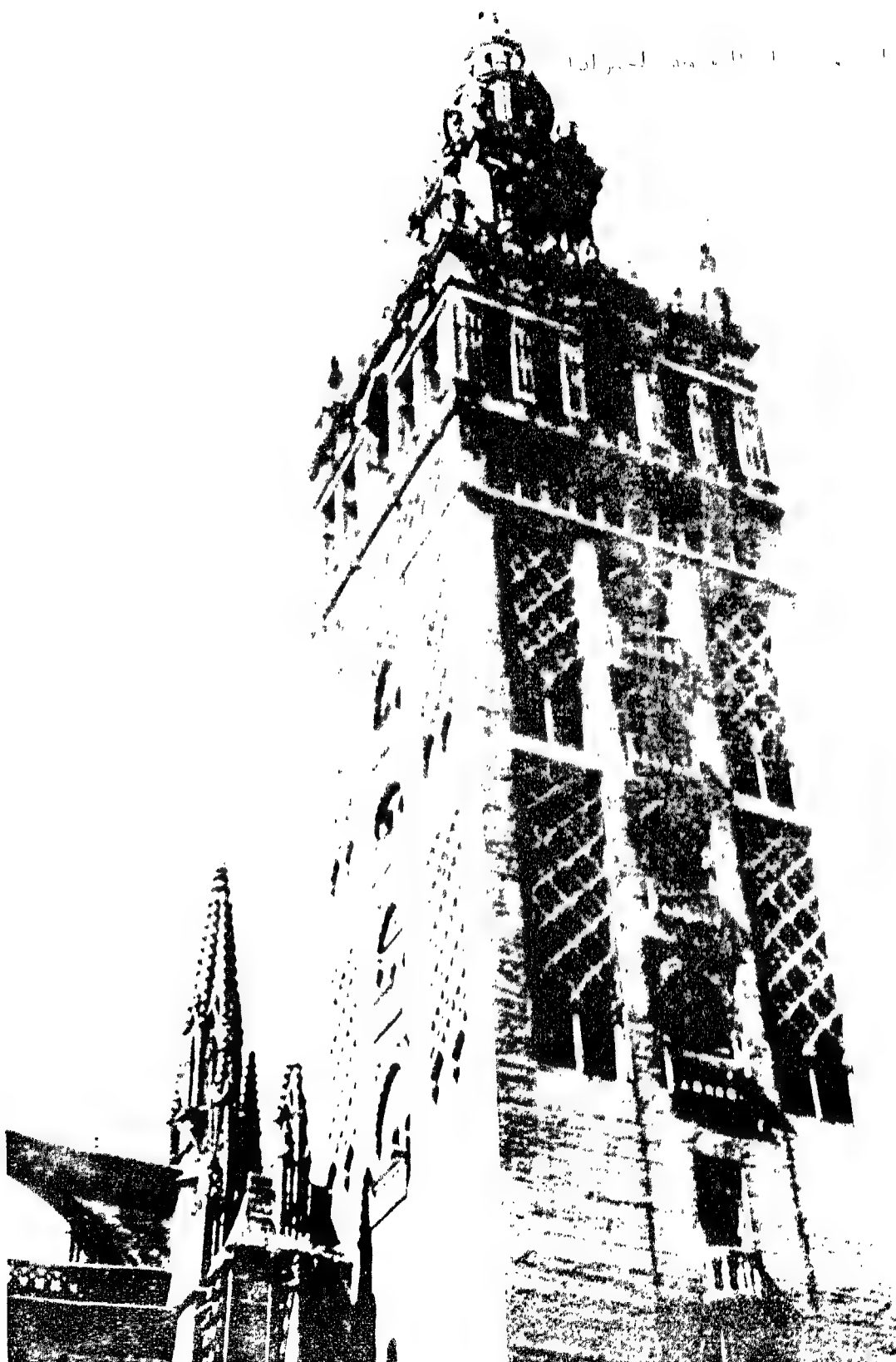


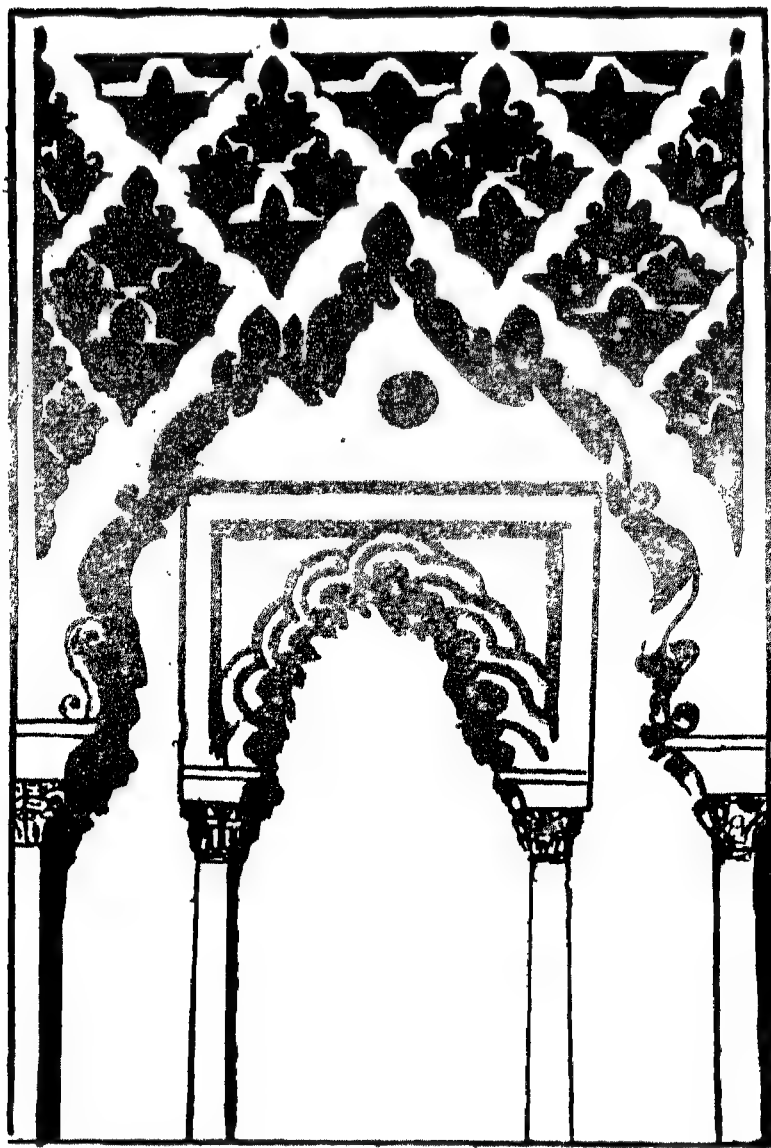
١ شكل ٣٠ الباب الرئيسي لحامع الموحدين في سبيلد ١ حامع القصد الكثر .





(۴) ۳۲ - راجع به این موضوع در کتاب "مجموعه آثار امام خمینی" جلد ۱، ص ۳۲، و جلد ۲، ص ۳۲، و جلد ۳، ص ۳۲، و جلد ۴، ص ۳۲، و جلد ۵، ص ۳۲، و جلد ۶، ص ۳۲، و جلد ۷، ص ۳۲، و جلد ۸، ص ۳۲، و جلد ۹، ص ۳۲، و جلد ۱۰، ص ۳۲، و جلد ۱۱، ص ۳۲، و جلد ۱۲، ص ۳۲، و جلد ۱۳، ص ۳۲، و جلد ۱۴، ص ۳۲، و جلد ۱۵، ص ۳۲، و جلد ۱۶، ص ۳۲، و جلد ۱۷، ص ۳۲، و جلد ۱۸، ص ۳۲، و جلد ۱۹، ص ۳۲، و جلد ۲۰، ص ۳۲، و جلد ۲۱، ص ۳۲، و جلد ۲۲، ص ۳۲، و جلد ۲۳، ص ۳۲، و جلد ۲۴، ص ۳۲، و جلد ۲۵، ص ۳۲، و جلد ۲۶، ص ۳۲، و جلد ۲۷، ص ۳۲، و جلد ۲۸، ص ۳۲، و جلد ۲۹، ص ۳۲، و جلد ۳۰، ص ۳۲، و جلد ۳۱، ص ۳۲، و جلد ۳۲، ص ۳۲، و جلد ۳۳، ص ۳۲، و جلد ۳۴، ص ۳۲، و جلد ۳۵، ص ۳۲، و جلد ۳۶، ص ۳۲، و جلد ۳۷، ص ۳۲، و جلد ۳۸، ص ۳۲، و جلد ۳۹، ص ۳۲، و جلد ۴۰، ص ۳۲، و جلد ۴۱، ص ۳۲، و جلد ۴۲، ص ۳۲، و جلد ۴۳، ص ۳۲، و جلد ۴۴، ص ۳۲، و جلد ۴۵، ص ۳۲، و جلد ۴۶، ص ۳۲، و جلد ۴۷، ص ۳۲، و جلد ۴۸، ص ۳۲، و جلد ۴۹، ص ۳۲، و جلد ۵۰، ص ۳۲، و جلد ۵۱، ص ۳۲، و جلد ۵۲، ص ۳۲، و جلد ۵۳، ص ۳۲، و جلد ۵۴، ص ۳۲، و جلد ۵۵، ص ۳۲، و جلد ۵۶، ص ۳۲، و جلد ۵۷، ص ۳۲، و جلد ۵۸، ص ۳۲، و جلد ۵۹، ص ۳۲، و جلد ۶۰، ص ۳۲، و جلد ۶۱، ص ۳۲، و جلد ۶۲، ص ۳۲، و جلد ۶۳، ص ۳۲، و جلد ۶۴، ص ۳۲، و جلد ۶۵، ص ۳۲، و جلد ۶۶، ص ۳۲، و جلد ۶۷، ص ۳۲، و جلد ۶۸، ص ۳۲، و جلد ۶۹، ص ۳۲، و جلد ۷۰، ص ۳۲، و جلد ۷۱، ص ۳۲، و جلد ۷۲، ص ۳۲، و جلد ۷۳، ص ۳۲، و جلد ۷۴، ص ۳۲، و جلد ۷۵، ص ۳۲، و جلد ۷۶، ص ۳۲، و جلد ۷۷، ص ۳۲، و جلد ۷۸، ص ۳۲، و جلد ۷۹، ص ۳۲، و جلد ۸۰، ص ۳۲، و جلد ۸۱، ص ۳۲، و جلد ۸۲، ص ۳۲، و جلد ۸۳، ص ۳۲، و جلد ۸۴، ص ۳۲، و جلد ۸۵، ص ۳۲، و جلد ۸۶، ص ۳۲، و جلد ۸۷، ص ۳۲، و جلد ۸۸، ص ۳۲، و جلد ۸۹، ص ۳۲، و جلد ۹۰، ص ۳۲، و جلد ۹۱، ص ۳۲، و جلد ۹۲، ص ۳۲، و جلد ۹۳، ص ۳۲، و جلد ۹۴، ص ۳۲، و جلد ۹۵، ص ۳۲، و جلد ۹۶، ص ۳۲، و جلد ۹۷، ص ۳۲، و جلد ۹۸، ص ۳۲، و جلد ۹۹، ص ۳۲، و جلد ۱۰۰، ص ۳۲.



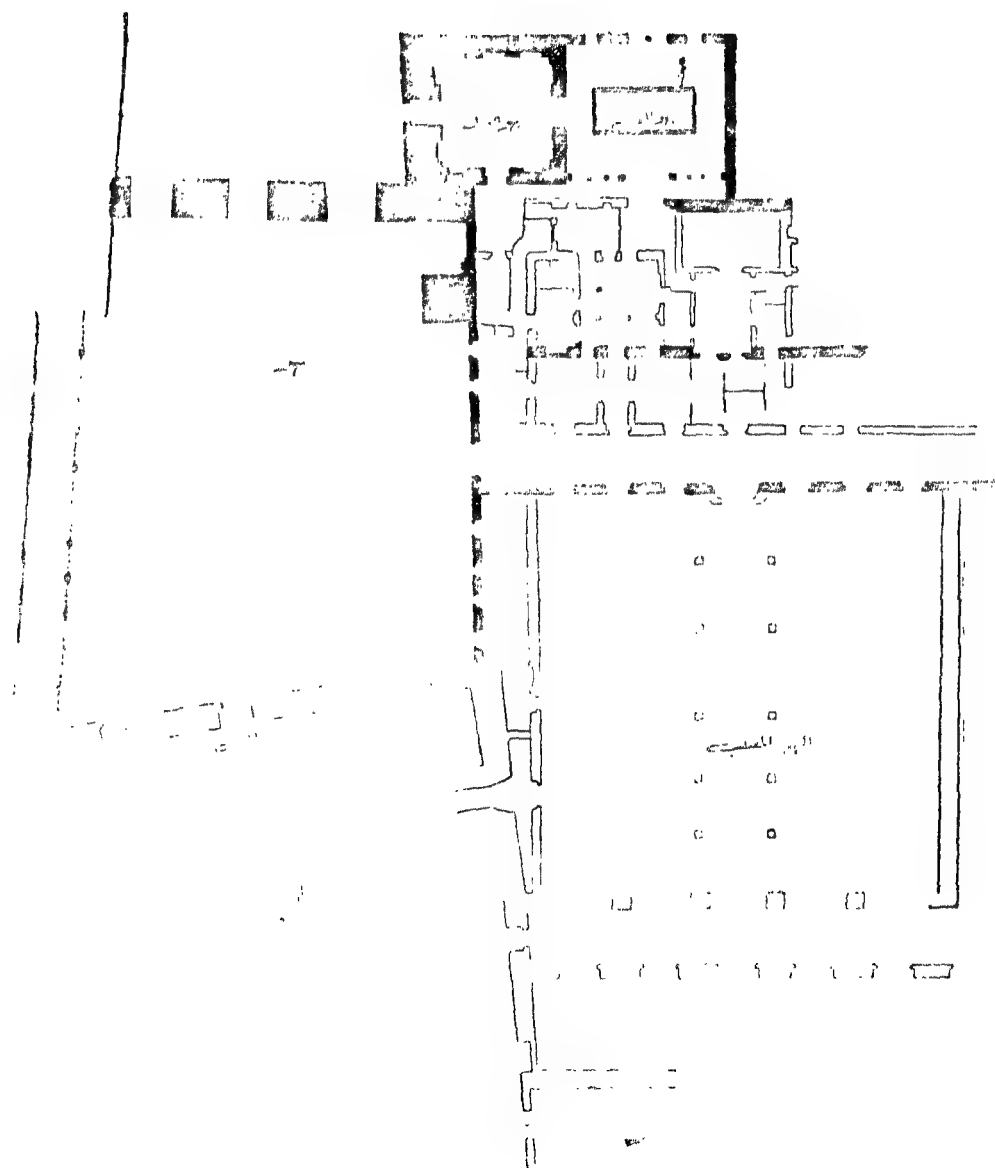


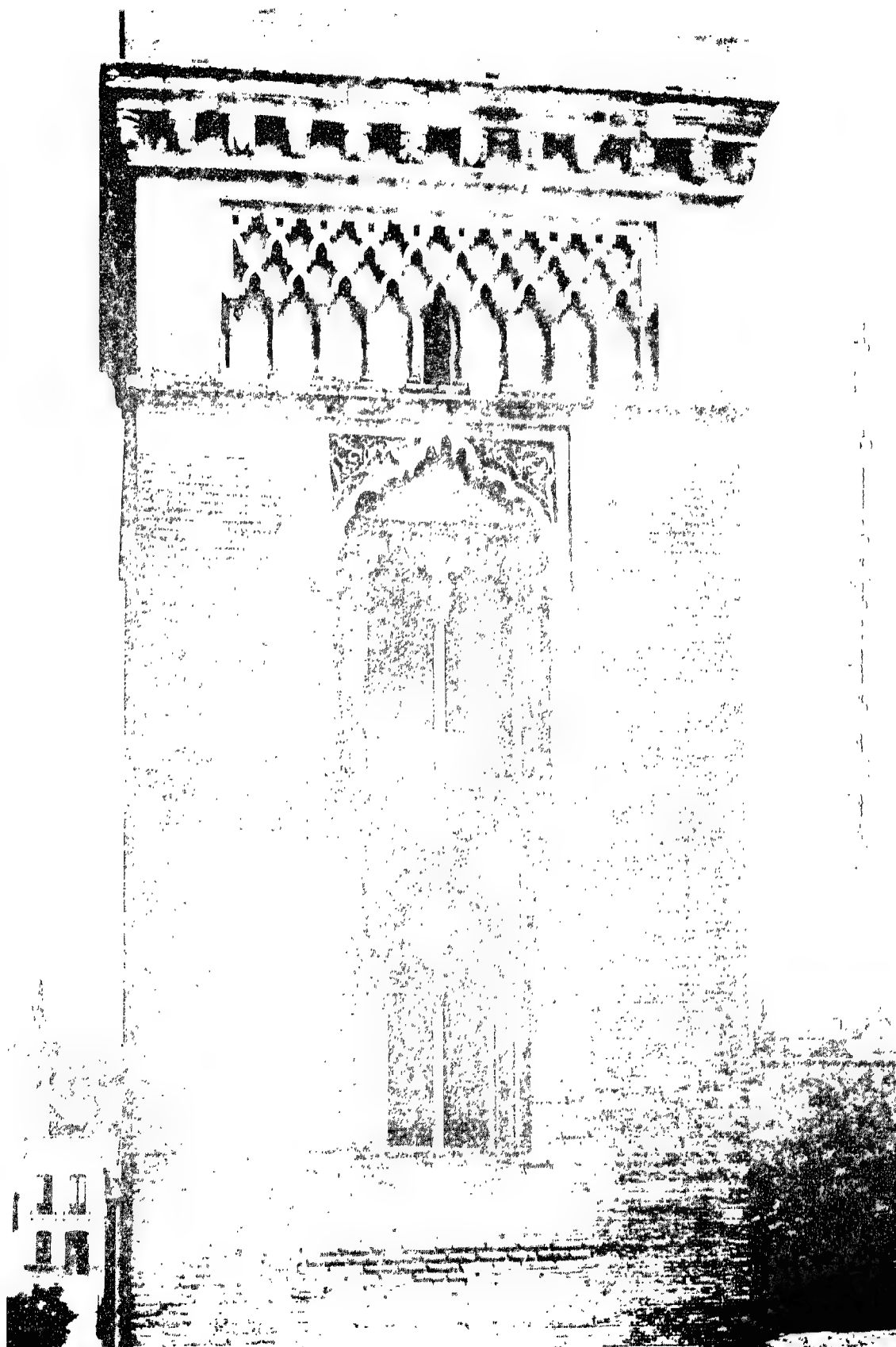
ع. سالك

(شكل ٦٤ فصلا رصيف مسجد امام ا. ل. ر.)

مخطط الموقع

1 2 3 4 5 6 7 8 9 10 11 12 13 14 15 16 17 18 19 20 21 22 23 24 25 26 27 28 29 30 31 32 33 34 35 36 37 38 39 40 41 42 43 44 45 46 47 48 49 50 51 52 53 54 55 56 57 58 59 60 61 62 63 64 65 66 67 68 69 70 71 72 73 74 75 76 77 78 79 80 81 82 83 84 85 86 87 88 89 90 91 92 93 94 95 96 97 98 99 100





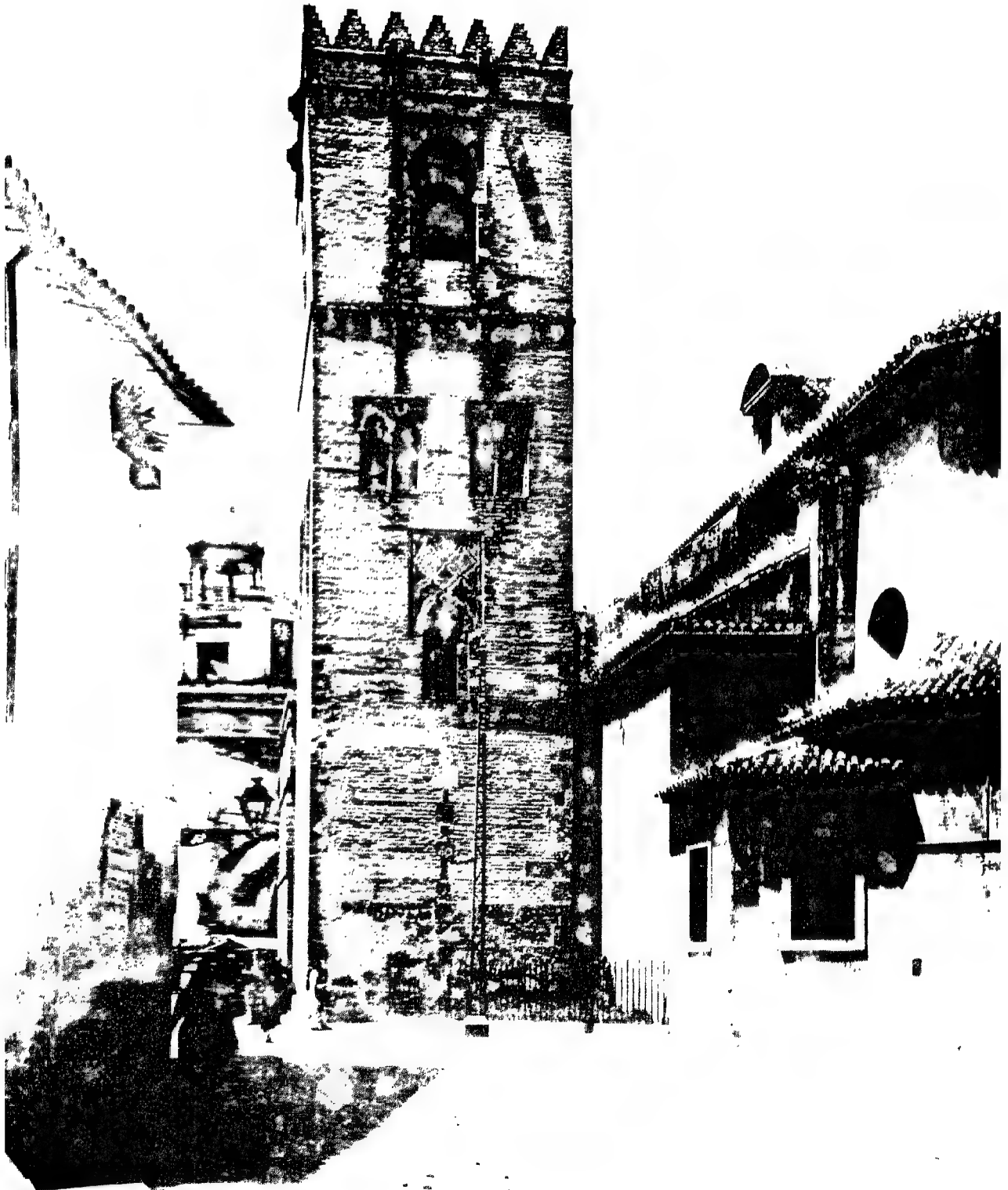


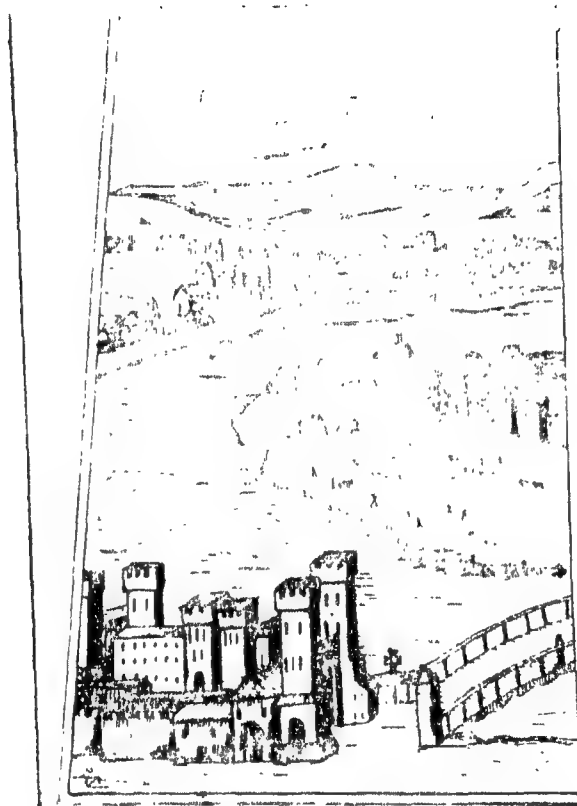
(شکل)

(شکل ۲۰)
امپوم ساکورم من الدار لمد - سا رلد .

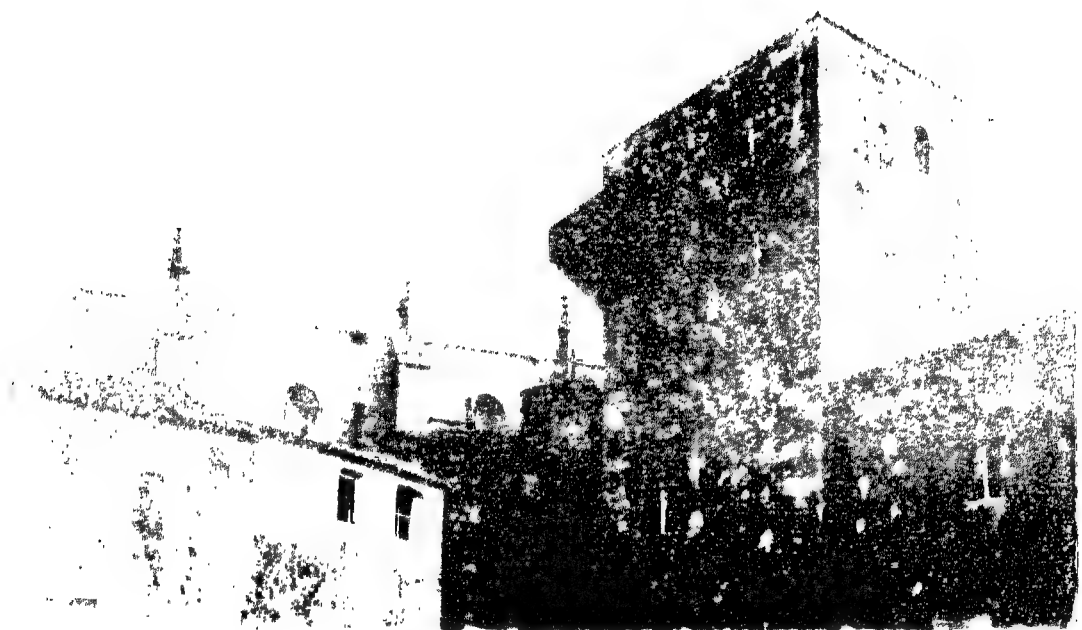


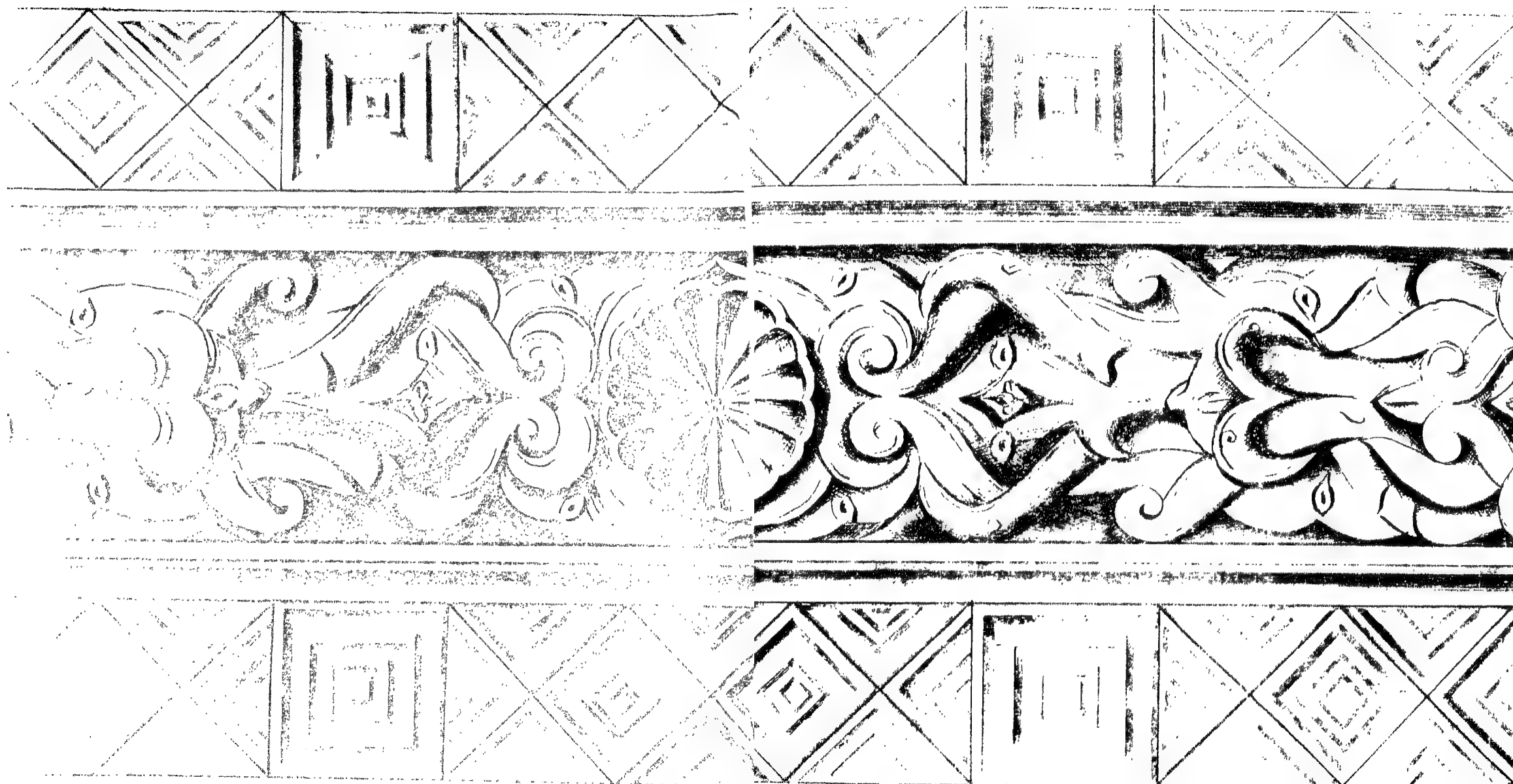
(٢٠٠٩ - ٢٠١٠) سحر كنيست ساميا كاردالينا ماشيبلند
من المجمع اسبانيا فلانديس من عصر المودرن





(شكل ٤٠) لوحة نعل حصن المارانة من اشدليد قبل سقوطه
عن كتاب وضع في الارز الخامس عشر

[illegible]

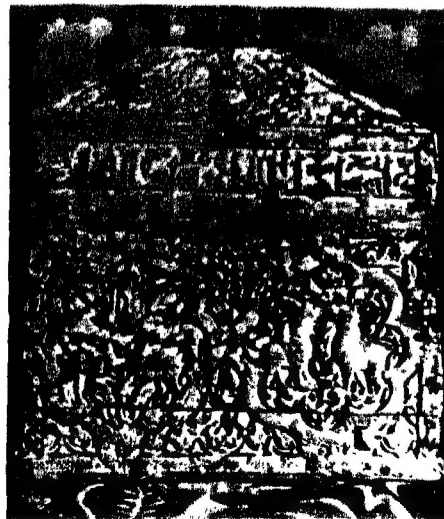


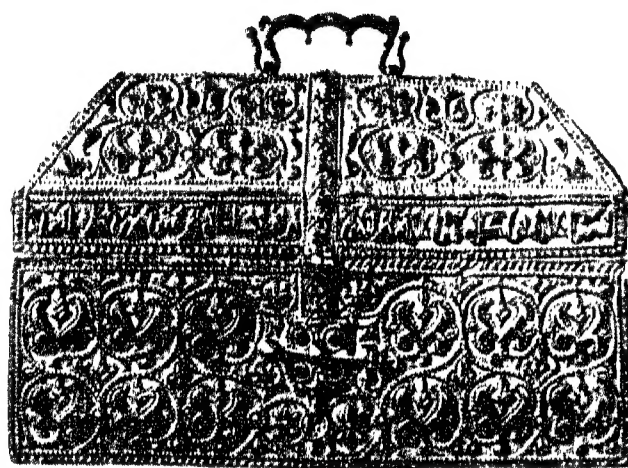


1. 2. 3. 4. 5. 6. 7. 8. 9. 10. 11. 12. 13. 14. 15. 16. 17. 18. 19. 20. 21. 22. 23. 24. 25. 26. 27. 28. 29. 30. 31. 32. 33. 34. 35. 36. 37. 38. 39. 40. 41. 42. 43. 44. 45. 46. 47. 48. 49. 50. 51. 52. 53. 54. 55. 56. 57. 58. 59. 60. 61. 62. 63. 64. 65. 66. 67. 68. 69. 70. 71. 72. 73. 74. 75. 76. 77. 78. 79. 80. 81. 82. 83. 84. 85. 86. 87. 88. 89. 90. 91. 92. 93. 94. 95. 96. 97. 98. 99. 100.



(٤٤) من الله





١ - شكل ٢٥ - صندوق مكنس و مكنس من الذهب، سردار سر - ارف سائيد، افسان

